

المجلد
٨

إِثْرَاءُ
المَشْرُوعِ الحَضَارِيِّ



مَوْسُوعَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ
قَادَةُ الْحَضَارَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ

أَنْبِيَاءُ اللَّهِ

إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
عليهما السلام

تَأَلِيفُ

د. عَلِيِّ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدٍ الصَّلَاحِيِّ

الْأَمِينُ الْعَامُّ لِلاتِّحَادِ الْعَالَمِيِّ لِعُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ

تَقْدِيمُ

أ.د. عَلِيِّ مُحَمَّدٍ الدِّينِ الْقُرَّةِ دَاغِي

رَئِيسُ الْإِتِّحَادِ الْعَالَمِيِّ لِعُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ



رقم الإصدار	315
الترقيم الدولي للسلسلة	(Tk) 978-625-5637-70-3
الترقيم الدولي للمجلد	(8.c) 978-625-5637-78-9
اسم الموسوعة	موسوعة الأنبياء والمرسلين: قادة الحضارة الإنسانية الربانية
اسم الكتاب	أنبياء الله إسحاق ويعقوب عليهما السلام
اسم المؤلف	د. علي محمّد محمّد الصّلابي
المدير العام للدار	رجب صونگول
الاخراج الفني	AsaletAjans
	ajans@asaletyayinlari.com.tr
الطبعة	الأولى - يوليو 2026 م / محرم 1448 هـ
	İmak Ofset Basım Yay. A.Ş.
	Sertifika No: 71320
	Akçaburgaz Mah. 137. Sk.
	No: 12 Esenyurt/İSTANBUL
دار النشر	دار الأصاله للنشر والتوزيع وخدمات الترجمة والطباعة
	Asalet Eğitim Danışmanlık
	Yayın Hizmetleri İç ve Dış Ticaret
	Sertifika No: 40687
	Balabanağa Mh. Büyük Reşit Paşa Cd.
	Yümni İş Merkezi No: 16B/16 Vezneciler
	Fatih/ İSTANBUL-TÜRKİYE
	Tel: +90 212 511 85 47
	www.asaletyayinlari.com.tr
	asalet@asaletyayinlari.com.tr



كما أن إصداراتنا متاحة على منصتي



Google Play
Books

Copyright © 2026

دار الأصاله للنشر والتوزيع وخدمات الترجمة والطباعة – إسطنبول – © تركيا 2026
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف.

مَوْسُوعَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ
قَادَةُ الْحَضَارَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ

أَنْبِيَاءُ اللَّهِ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ

تأليف

د. علي محمد محمد الصلابي
الرئيس العام للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

تقديم

أ.د. فضل بن عبد الله مراد
أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

أ.د. علي محيي الدين القره داغي
رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

الإهداء

إلى حملة رسالة الحق والدعوة..

إلى توحيد الله وإفرادهِ سبحانه بالعبادة..

إلى أصحاب العقول النيرة من أبناء الإنسانية الباحثين عن النور في دروب الحياة
المظلمة..

إلى أصحاب الفطر السليمة، والقلوب النقية، التي لم تُدنّسها أهواء البشر ولا
تحريفات الموروث..

إلى الساعين على صراط الله المستقيم، السائرين في أثر الأنبياء والمرسلين
عليهم السَّلَامُ،

أهدي هذا الكتاب،

راجياً أن يكون لبنة في بناء الوعي الرسالي، ومفتاحاً لفهم هدى النبوة في زمن
التيه.

والله المستعان، وعليه التكلان.

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الكاتب

إِنَّ الحمد لله، ونحمده، ونستعين به ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهُمَّ لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك، ولك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا.

أما بعد؛

إِنَّ هذا الكتاب (أنبياء الله إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَام) جزء من كتاب (إبراهيم خليل الله داعية التوحيد ودين الإسلام والأسوة الحسنة)، ومن كتاب (النبي الوزير يوسف الصديق من الابتلاء إلى التمكين).

وقد نصحني بعض العلماء الأفاضل على أفراد كل نبي ورسول (عليهم الصلاة والسلام)، فلما أخبرتهم بأنني فصلت سيرة إسماعيل وإسحاق مع أبيهم إبراهيم

(صلوات الله وسلامه عليهم) قالوا لا يمنع، أن يفردوا بها بمؤلف خاص، وإضافة ما يمكن إضافته مع التوسع في البحث والتركيز على كل شخصية في مصنف خاص بها، ولعلاقة إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ رأيتُ أن يكونا في كتاب مستقل، وكذلك إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وزكريا ويحيى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

وهذا الكتاب هو ضمن مشروع سلسلة الأنبياء المرسلين، والتي صدر منها:

- موسوعة (نشأة الحضارة الإنسانية الأولى وقادتها العظام، آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم أفضل الصلاة والسلام).

- النبي الوزير يوسف الصديق من الابتلاء إلى التمكين.

- الأنبياء الملوك داود وسليمان عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وهيكل سليمان المزعوم.

- وهود عَلَيْهِ السَّلَامُ.

- وصالح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

- ولوط عَلَيْهِ السَّلَامُ.

- وأيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ.

- ويونس عَلَيْهِ السَّلَامُ.

- وتحت الطبع (إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ).

- وتحت الطبع (زكريا ويحيى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ).

- وهذا الكتاب (أنبياء الله إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ).

إنَّ قصّة إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ جاء ذكرها في القرآن الكريم في محطات مهمة تنفع الإنسان الذي يبحث عن العبرة والفائدة والدروس والسنن، وقد حرصت على ترتيب هذا الكتاب وتبويبه في مباحث:

المبحث الأول: نسب وحديث كتب المراجع والمصادر التاريخية عن إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

في المبحث الثاني: ذكر إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في سورة البقرة وآل عمران والنساء والأنعام.

والمبحث الثالث: ذكر إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في سورة هود وإبراهيم والحجر والذاريات.

والمبحث الرابع: ذكر إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في سورة مريم.

والمبحث الخامس: ذكر إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في سورة الأنبياء.

والمبحث السادس: ذكر إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في سورة العنكبوت.

وفي المبحث السابع: ذكر إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في سورة الصافات،

وفي المبحث الثامن: يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ مع بنيه في سورة يوسف.

وفي المبحث التاسع: يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ على ملة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب عَلَيْهِم السَّلَامُ.

وفي المبحث العاشر: مجيء إخوة يوسف إلى مصر، وإكرامهم، وطلبه حضور أخيه من أبيهم وشفقة يعقوب على أولاده.

وفي المبحث الحادي عشر: أخذ يعقوب الميثاق على أبناءه وتوجيههم للتعامل مع الأخذ بالأسباب، وحيلة يوسف في بقاء أخيه معه، وفقد يعقوب أبناءه الثلاثة.

وفي المبحث الثاني عشر: اشتداد البلاء على يعقوب وصبره العظيم وثقته المطلقة بالله تعالى، وعفو يوسف على إخوته.

وفي المبحث الثالث عشر: أثر البشارة على يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وطلب أبنائه منه المغفرة واجتماع شملهم عند يوسف في مصر.

وقد انتهيت من هذا الكتاب يوم الجمعة بعد صلاة العشاء في تمام الساعة الثامنة والعشرين دقيقة بمدينة الدوحة (حفظها الله وسائر بلاد المسلمين)، وذلك بتاريخ ١٥ شعبان ١٤٤٦هـ / ١٤ شباط / فبراير ٢٠٢٥م.

والحمد لله على فضله ومنه، وتوفيقه وتسديده وعونه ورحمته، ونسأله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يتقبل هذا العمل بقبول حسن، وأن يُبارك فيه وينفع به بني الإنسان، وأن يُكرمنا برفقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين مع إخواني الذين ساعدوني في إتمام هذا الكتاب.

ولا يسعني إلا أن أقف بقلب خاشع منيب أمام خالقي العظيم وإلهي الكريم، معترفاً بفضله وكرمه، وجوده، متبرئاً من حولي وقوتي، ملتجئاً إليه في كل حركاتي وسكناتي وحياتي ومماتي.

فالله العزيز الحكيم، الخلاق العليم، الرؤوف الرحيم هو المتفضل، وربّ الكريم وإلهي العظيم هو الموفق، فلو تخلّى عني ووكلني إلى عقلي ونفسي، لتبلّد منّي العقل، وغابت الذاكرة، ويبست الأصابع، وجفت العواطف، وتحجّرت المشاعر، وعجز القلم عن البيان.

اللّهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك وعلى طاعتك.

اللّهم إنّي أعوذ بك من سوء الأخلاق والأعمال والأهواء وطريق الغواية.

اللّهم بصّرني بما يُرضيك، واشرح صدري، وجنّبي اللّهم ما لا يُرضيك، واصرفه عن قلبي وفكري.

وَأَسْأَلُكَ يَا اللَّهُ بِأَسْمَائِكَ الْحُسْنَى وَصِفَاتِكَ الْعُلَا، أَنْ تُثَبِّتَنِي وَإِخْوَانِي الَّذِينَ
أَعَانُونِي عَلَى إِتِمَامِ هَذَا الْجَهْدِ.

اللَّهُمَّ اجْعَلْ هَذَا الْعَمَلَ لَوَجْهِكَ خَالِصًا، وَلِعِبَادِكَ نَافِعًا، وَاطْرَحْ فِيهِ الْبَرَكَةَ
وَالْقَبُولَ وَالنَّفْعَ الْعَمِيمَ.

رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ.

وَلِي رَجَاءٌ مِنْ كُلِّ مَنْ يَطَّلِعُ عَلَى هَذَا الْكِتَابِ، أَلَّا يَنْسِيَ الْعَبْدَ الْفَقِيرَ إِلَى عَفْوِ رَبِّهِ
وَمَغْفِرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَرِضَاهُ مِنْ دَعَائِهِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَلَدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ
صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

الْفَقِيرُ إِلَى عَفْوِ رَبِّهِ وَمَغْفِرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَرِضَاهُ

عَلِي مُحَمَّدٌ مُحَمَّدٌ الصَّلَاحِيُّ

المبحث الأول:

نسب وحديث المراجع والمصادر التاريخية عن إسحاق ويعقوب

عَلَيْهِمَا السَّلَامُ

النبّان الجليلان إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لهما مكانة رفيعة في القرآن الكريم والمصادر الإسلامية، حيث تتقاطع سيرتهما في مواضع متعددة من الكتب السماوية والمصادر الإسلامية واليهودية والمسيحية على حدّ سواء. وتعدّ دراسة نسبهما وسيرتهما من الأبواب المهمة لفهم سلسلة النبوة، وسياق تطور الرسائل السماوية، والبنية القبلية والاجتماعية التي نشأ فيها أنبياء بني إسرائيل.

لقد تطرّقت كتب التفسير والحديث، كما أفاضت المصادر التاريخية الإسلامية، في تناول أنساب إسحاق ويعقوب، وأحوالهما، وتنقلاتهما، ومواقفهما، وتوارث النبوة في ذريتهما، مما يعكس عمق الحضور الذي حظيا به في الوعي الديني والروائي الإسلامي. كما اعتنت المصادر اليهودية والمسيحية برسم ملامح سيرتهما ضمن روايات العهد القديم، بما فيها من توافق واختلاف مع ما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية.

وفي هذا الفصل، نسلط الضوء على ما جاء في المراجع التاريخية، والمصادر الدينية الإسلامية بشأن نسب النبيين إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، مع مقارنة مختصرة بالروايات الواردة في التوراة والتلمود، بهدف تبيان أوجه الاتفاق والافتراق، واستجلاء الحقائق الثابتة من الروايات الضعيفة أو المتأثرة بالموروث غير الإسلامي.

✦ أولًا: إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ اسمه ونسبه وحديث المصادر والمراجع التاريخية عنه

تناولت كتب التاريخ والتفسير الإسلامية سيرة النبي إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ باهتمام واضح، ومن أبرز من كتبوا عنه المؤرخون الكبار كالإمام الطبري، وابن الأثير، والحافظ ابن كثير، الذين قدّموا روايات تفصيلية تتعلّق بمولده ونسبه وأثره في مسار النبوة. ويلاحظ في هذه الروايات حضورًا لافتًا للإسرائيليات، التي أثّرت في كثير من الأخبار المنقولة عن إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وهو ما يفرض على الباحث ضرورة التمحيص النقدي والتفريق بين ما يوافق النصوص القطعية، وما هو من قبيل المرويات ذات الطابع القصصي أو المأخوذ عن أهل الكتاب.

وقد اعتمد كثير من المتأخرين في تناولهم لسيرة إسحاق ويعقوب على ما نقله الإمام ابن كثير في كتابه "البداية والنهاية"، والذي بدوره استند في بعض المواضع إلى روايات منقولة عن أهل الكتاب، مع التنبيه عليها غالبًا. يقول ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في وصف مولد إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ: "وُلِدَ إِسْحَاقُ لِأَبِيهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وهو ابن مائة سنة، وكان ذلك بعد مولد إسماعيل بأربع عشرة سنة، وكانت سارة حين بُشِّرَتْ به قد بلغت التسعين من عمرها". كما أشار إلى أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَثْنَى عَلَى إِسْحَاقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في عدة مواضع من كتابه، وأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكره ضمن سلسلة النسب النبوي الشريف في حديثه عن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: "إِنَّ الْكَرِيمَ ابْنَ الْكَرِيمِ ابْنَ الْكَرِيمِ ابْنَ الْكَرِيمِ: يَوْسُفَ بْنَ يَعْقُوبَ بْنَ إِسْحَاقَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ".

وتُظهر هذه الروايات مكانة إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ في سلسلة النبوة، كما تُبرز أهمية المراجعة العلمية للروايات المتداولة حوله، خاصة في ضوء التداخل مع المرويات الإسرائيلية^(١).

(١) البداية والنهاية، ابن كثير، مكتبة المعرفة، بيروت، لبنان، ط ٢، ١٩٧٤م، (١/ ٢٨١).

ومعنى (إسحاق) بالعبري: (يضحك)، وفي الروايات أن إسحاق كان جميلاً وضيئاً، ورث جماله عن أمه سارة، وكانت من أسرة تأصل فيها الحسن، وقال بعض المؤرخين أن سارة زوجت إسحاق بنت خاله راحيل فتكامل هذا الحسن الموروث في يوسف عَلَيْهِ السَّلَام^(١).

وذكرت الروايات التاريخية أن إسحاق قد شبَّ ورأى إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام أن يتزوج من أهله، فأرسله إلى العراق في موكب خاطباً، وتصور الشاب الوضيء يلتقي رفقة على ماء فيعجب بها، ثم يكشف أنها بنت عمه ويتصل ما كان قد انقطع بين إسحاق وأهله، منذ أن خرج إبراهيم من العراق مهاجراً بدينه، ثم يتزوج إسحاق برفقة ويلبث في العراق حيناً، ثم يعود بأسرته إلى الشام، وكان فيها مجاعة أو وباء، فيغادرها إلى ساحل البحر الأبيض قرب غزة.

وفي الروايات أن سيدنا إسحاق لم يجد له مستقراً في الشام إلا بعد حين، ذلك أنه أوتي فراسة في تتبع المياه الباطنية، فكان كلما أقام حيث احتفر بئراً، نازعه أهل المنطقة إياه، وبقي على تلك الحال، إلى أن قيض الله له قوماً ذوي شوكة، انتهى الأمر بينه وبينهم إلى مصالحة حول بئر له، فاستقر بأهله وماله.

وقد رزق إسحاق عَلَيْهِ السَّلَام بتوأمين هما عيسو ويعقوب، أمّا عيسو فكان مغامراً عنيفاً، وصياداً بارعاً، وكان حبّ أبيه لفتوته، وفي الروايات أنه أرسله إلى مكة خاطباً نسيمه بنت عمه إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَام، وأنه تزوجها، وكان من نسلها الروم، وفي الروايات أنها سعت لينال هو، دون أخيه عيسو دعوة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام، وكانت: اللهم اجعل الأنبياء والملوك من ذريته^(٢).

(١) من أنباء القرى، أحمد عبيد الكبيسي، تحقيق: فاطمة محمد شنون، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط ١، ٢٠٠٧م، ص ٢٩١.

(٢) من أنباء القرى، ص ٢٩٢.

وقد ذكرت قصص كثير في كتب بني إسرائيل، بُنيت على الأوهام والخزعات، والأساطير والأكاذيب، ومن هذه القصص ذكروا أن إسحاق كان قد عمي، وكان يحبّ ولده العيص أكثر من يعقوب، وكانت الأمّ على العكس تحبّ يعقوب أكثر فطلب إسحاق من العيص أن يأتيه بجدي مشوي ليأكل منه، فخرج العيص يصطاد الجدي لأبيه، وهنا استغلّت الأمّ الفرصة، فقالت لولدها يعقوب: خذ جدياً من الحظيرة واذبحه لأبيك واشوّه حتّى يُباركك بدل العيص، فقام يعقوب وأخذ الجدي وذبحه وشواه وقدمه لأبيه، وكان العيص مُشعراً^(١)، ولم يكن يعقوب كذلك، فلبس ثوباً من شعر حتّى لا يشعر به أبوه، فقدّم الجدي لأبيه، فقال له أبوه من أنت؟

قال: ولدك العيص، فلمسه ثمّ قال له: الصوت صوت يعقوب، واللمس لـمس العيص، ثمّ دعا له وباركه، وبعدها جاء العيص بالجدي، فشواه وقدمه لأبيه، فقال له: ما هذا؟ قال: يا أبتِ هذا الجدي الذي طلبت، قال: أأنت جئت به؟ قال: أبداً ما جئت به إلّا الآن.

قال: بلى جئت به وأكلته، قال: ما جئت به إلّا الآن، فعرف العيص أن أخاه يعقوب قد خانه في هذه.

ولا شك أن هذه القصة مكذوبة باطلة، لأنّ فيها اتّهاماً ليعقوب بالكذب والخديعة، ولأنّ فيها اتّهاماً لإسحاق بالغفلة، وكذلك فيها اتّهام للأمّ بالخيانة والغدر، وليس أمرهم كذلك (صلوات الله عليهم وسلامه)^(٢).

وقد ذكرت الدكتورّة حنان قرقوتي لطيفة جميلة عن معنى (إسحاق) بالعبريّة: (يصحق) ومعناها: يضحك، والمغزى من اسمه أن كلّ من يعلم بمولده من أبوين

(١) ذو شعر كثير.

(٢) فبهذا هم اقتدوه "قراءة تأصيلية في سير وقصص الأنبياء"، عثمان محمد الخميس، دار إيلاف الدولية، الكويت، ط ١، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م، ص ١٧٨.

شيخين وأمّ عقيم يضحك، لأنّ هذا أمر مُستغرب وغير مألوف، ومولده معجزة في حدّ ذاته^(١).

وفي سفر التكوين كلام لا يمكن قبوله في حقّ إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ لتناقضه مع طهارة نسب الأنبياء^(٢).

وقيل أنّ إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ عاش مائة وثمانين سنة، ودُفن في حبرون (وهي مدينة الخليل اليوم) بمغارة المكفيلة^(٣).

وذكر ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ أنّ إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ مرض ومات عن مائة وثمانين سنة، ودفنه أنباء العيص ويعقوب مع أبيه إبراهيم الخليل في المغارة التي اشتراها^(٤).

وقد تحدّث الكتب المعاصرة عن قصّة إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ، اعتمدت على كتب التاريخ السابقة^(٥).

❖ ثانياً: يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ:

هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولد في أرض الكنعانيين (فلسطين)، وترعرع في كنف أبيه إسحاق، وتذكّر كتب التاريخ أنّ يعقوب بعدما كبر وأصبح شابّاً ذهب إلى خاله لآبات في حرّان، واستقرّ عنده مدّة طويلة، ثمّ طلب من خاله أن يتزوّج ابنته، واسمها: راحيل كما تقول كتب التاريخ، فوافق الخال،

(١) أنبياء الله الكرام، د. حنان قرقوتي، دار المعرفة للطباعة والنشر، ٢٠٠٥م، ص ١٤١.

(٢) قوانين النبوة، موفق الجوجو، دار المكتبي للطباعة والنشر، ٢٠٠٢م، ص ٤٥.

(٣) قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، ص ١٦٠.

(٤) البداية والنهاية، (١/ ٢٨٥).

(٥) منها: مع الأنبياء عفيف عبد الفتاح صبارة، ص ٥٥، أحسن القصص، نائلة صبري، ص ٢١٧، أنبياء القرآن، عبد المجيد همو، ص ٩٨، تاريخ أرض القرآن، الندوي، ص ٢٤٥، قصص الأنبياء، عاطف الزين، ص ٣٢٥، الثمين من قصص الأنبياء، زهير علي، ص ٤٤.

وقال: لا مانع على أن تأجرني سبع سنين وأزوّجك راحيل، قال لا مانع، فعمل عنده سبع سنين، فقال زوّجني الآن، فقال: أفعّل: فزوّجه، واستطرت القصّة في تفاصيل ومنامات الله أعلم بصحّتها، واستقرّت الرواية على أن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ذهب إلى خاله وطلب منه أن يتزوّج ابنته، واسمها راحيل فوافق الخال وقال لا مانع على أن تأجرني سبع سنين، وأزوّجك راحيل، قال: لا مانع، فعمل عنده سبع سنين، فقال: زوّجني الآن، قال: أفعّل، فزوّجه، فلمّا دخل عليها يعقوب، فإذا هي ليست راحيل، زوّجه أختها، واسمها: ليا، فقال: يا خال أنا طلبت راحيل ولم أطلب ليا، قال: ليس من سنّتنا يا بُني أن تُزوّج الصغرى قبل الكبرى، وليا هي الكبرى، فأنا وافقت، ولكن غيّرت رأيي لا بد أن تتزوّج الكبرى قبل الصغرى، قال: ولكنّي أريد راحيل، قال: لا مانع تجلس عندنا سبع سنين أخرى وأزوّجك راحيل، قال: نعم أفعّل، فجلس عند خاله سبع سنين أخرى، فزوّجه خاله راحيل^(١).

ومكثت بعد هذه السنوات ستّ سنين حتّى أتمّ عشرين سنة عند خاله في حرّان، وكان يرعى له الغنم ورزقه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى خيراً كثيراً، حتّى كثر ماله جداً، ورزق بأولاد كُثُر (صلوات الله وسلامه عليه)، رزق من ليا: روبيل وشمعون، ولاوى، ويهوذا، وإيصخر، وزيلوم، ستّة أولاد ولدتهم ليا ليعقوب عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وراحيل لم تُنجب ليعقوب شيئاً^(٢).

وتقول بعض الروايات: ولما يئست راحيل من الولادة أهدت لزوجها يعقوب جارية عندها، فدخل على الجارية وولدت له ولدين، وقيل: إنّه سمّاها:

(١) وكان جمع الأخنتين جائزاً في الشرائع السابقة ثم حرمه الله تعالى، فقال في سياق ذكر المحرمات من النساء ﴿وَأَبْ تَجْمَعُونَ بَيْتَ الْأَخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٣].

(٢) فبهذا هم اقتداه، عثمان الخميس، ص ١٨٠.

دان ونيفتالي، ثم أهدت ليا ليعقوب جاريتها أيضاً، فولدت له كذلك ولدين سمّاها: حاد أو جاد وآشير ولم تلد راحيل شيئاً أبداً، فيذكر أنه دعا الله تبارك وتعالى أن يرزق بولد من راحيل، وكانت راحيل كذلك، ثم حملت راحيل وولدت له يوسف وبنيامين^(١).

١- يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ يبني بيت المقدس:

وكانت ليعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أموال كثيرة فقدّمها بين يديه بشارة لأبيه وأخيه العيص، ثم مرّ على المكان الذي غادره قبل عشرين سنة ووضع عنده العلامة، وهي الصخرة التي نام عليه (صلوات الله وسلامه عليه)، وبني هناك بيت المقدس، ولذلك ثبت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: بين بناء البيت الحرام وبناء بيت المقدس أربعون سنة^(٢).

إبراهيم وإسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بنيا الكعبة، ويعقوب حفيد إبراهيم بنى بيت المقدس، فهو ثاني مسجد وضع في هذه الأرض، ثم رجع إلى أبيه، وتوفى إسحاق بعد مدة، وقيل: إنّه بلغ من العمر ثمانين ومائة سنة، والعلم عند الله^(٣).

٢- من هم الأسباط؟

ليعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أولاد كثير - كما ذكرنا - اثنا عشر ولداً، واختلف أهل العلم في أولاد يعقوب هل هم الأسباط أو لا؟

(١) فبهذا هم اقتده، المصدر السابق، ص ١٨٠.

(٢) صحيح البخاري، البخاري، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط ٤، ٢٠٠٢م، رقم ٣٣٦٦، صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط ٢، ١٩٧٢م، رقم ٥٢٠.

(٣) فبهذا هم اقتده، ص ١٨٠.

والصحيح أنهم ليسوا الأسباط؛ لأنَّ الأسباط أنبياء، والصحيح أنَّ أولاد يعقوب لم يكونوا أنبياء بدليل فعلهم الشنيع بيوسف عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حيث فكَّروا في قتله، ثمَّ ألقوه في الجبِّ، ثمَّ كذبوا على أبيهم، وكذبوا على يوسف، فمثل هؤلاء لا يمكن أن يكونوا من الأنبياء، فالصحيح أنَّهم ليسوا الأسباط، ولكنَّ الأسباط من ذرية يعقوب عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ^(١).

وقد ناقش الدكتور سعيد بدهان هذه المسألة في كتابه النبوات في تفسير القرطبي، وجاء بكلِّ الأقوال ثمَّ قال: الذي عليه جمهور العلماء من السلف والخلف أنَّ إخوة يوسف لم يكونوا أنبياء^(٢).

وقال الألوسي رَحِمَهُ اللهُ: الأكثرون سلفاً وخلفاً أنَّهم لم يكونوا أنبياء أصلاً، أمَّا السلف فلم ينقل عن الصحابة منهم من قال بنبوَّتهم ولا يحفظ عن أحد من التابعين أيضاً، وأمَّا أتباع التابعين، فنقل عن ابن يزيد أنَّه قال بنبوَّتهم، وتابعه شاذمة قليلة. وأمَّا الخلف فالمفسِّرون فرق: فمنهم من قال يقول ابن زيد، كالبغوي، ومنهم من بالغ في ردِّه كالقرطبي وابن كثير، ومنهم من حكى القولين بلا ترجيح كابن الجوزي^(٣).

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: ومن فعلهم بيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يدلُّ على أنَّهم كانوا غير أنبياء في ذلك الوقت ووقع في كتاب الطبري لابن زيد أنَّهم كانوا أنبياء، وهذا يردُّه القطع بعصمة الأنبياء عن الحسد الدنيوي وعن عقوق الآباء وتعريض مؤمن للهلاك،

(١) فبهذا هم اقتداه، ص ١٨١.

(٢) كتاب النبوات، ابن تيمية، تحقيق: عبد العزيز بن صالح الطويان، أضواء السلف، الرياض، السعودية، ط ١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، ص ١٥١.

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٥هـ، (٦/ ٣٧٥).

والتأمر على قتله ولا التفات لقول من قال إنهم كانوا أنبياء ولا استحيل في العقل زلة نبيّ إلا أنّ هذه الزلة قد جمعت أنواعاً من الكبائر، وقد أجمع المسلمون على عصمتهم منها، وإنما اختلفوا في الصغائر على ما تقدّم ويأتي^(١).

إنّ كلمة (أسباط) لا تُطلق على الولد، بل على ولد الولد فما دون، قال صاحب كتاب (الدرّ المصون): (الأسباط) جمع سبط، وهم ولد يعقوب، كالقبائل في ولد إسماعيل واشتقاقهم من السبط، وهو التابع، سُمّوا بذلك لأنّهم أمّة متابعون، وقبل للحسين: سبطا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لانتشار ذريّتهم، وقال تعالى عن ذرية إسرائيل - يعقوب -: ﴿وَقَطَّعَهُمْ أَثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٠].

- لم يرد في القرآن الكريم ولا السنّة الصحيحة أنّ إخوة يوسف قد نُبّؤا، ولو ورد ذلك لما وسعنا إلّا التسليم بنبوّتهم.

لم يذكر مؤمن آل فرعون من الأنبياء الذين دعوا المصريين إلى التوحيد غير يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقد قال للمصريين: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [غافر: ٣٤]، ولم يقل: ولقد جاءكم يوسف وإخوته.

- إنّ إخوة يوسف قد همّوا بقتله، وطرحوه في غيابة الجبّ، وهذا عمل لا يفعله من يُعَدّ لمرتبة النبوة (كما بيّنّا).

- إنّ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لهم، وبعد سنين طويلة من فعلتهم ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا﴾ [يوسف: ٧٧].

(١) تفسير القرطبي "الجامع لأحكام القرآن"، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، مؤسسة الرسالة، بيروت. لبنان، ط ١، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، (٥/ ٤٣٨).

- إن كلمة (أسباط) لم تُطلق على ذرية (يعقوب/ إسرائيل) إلا في سيناء بعد الخروج، ولم تُطلق عليهم أبداً في مصر طيلة ما يزيد على مائتي سنة، وهذا يفيد أن معنى كلمة (الأسباط) هو (القبائل) التي تكوّنت من أبناء وذرية كل ولد من أولاد يعقوب، لا أسماء آبائهم^(١).

إن الذي أراه - وهو ما صحّ عندي - أن كلمة (الأسباط) التي وردت في القرآن الكريم في سياق تعداد بعض الأنبياء الكرام، إنما يعني الأنبياء الذين بُعثوا من ذرية يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام طيلة تاريخ بني إسرائيل في فلسطين، وليس المراد بهذا اللفظ أولاد يعقوب الأحد عشر، كما يرى بعض المفسرين^(٢).

وكل ما نقوله عن إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، كانوا في أفعالهم الخاطئة التي سجّلتها لهم آيات سورة يوسف عُصاة مخطئين، ارتكبوا تلك الذنوب والآثام، وبعد ذلك شعروا بتأنيب الضمير، فتابوا إلى الله وأنابوا له، واستغفروا من ذنوبهم، بل طلبوا من أخيه يوسف أن يستغفر الله لهم، كما طلبوا هذا من أبيهم، وبعد ذلك تابوا وأنابوا واستقاموا وأصلحوا، فأقصى ما وصلوا إليه أن يكونوا مؤمنين صالحين وعابدين محسنين، وبهذا ختموا حياتهم^(٣).

٣- يعقوب وإسرائيل:

يعقوب هو إسرائيل يقال له: يعقوب، ويُقال له: إسرائيل، و(إسرا) بمعنى (عبد) فإسرائيل بمعنى: عبد الله، ومثله جبرائيل، وميكائيل، وعزرائيل، وهكذا: خادم الله،

(١) كلام في اليهود، د. محمد علي دولة، ص ٢٤٥.

(٢) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، دار القلم، دمشق - الدار الشامية، بيروت، ط ١، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م، (٢/ ٢٥٤).

(٣) القصص القرآني، الخالدي، (٢/ ٢٥٤)، موسى عَلَيْهِ السَّلَام، ص ٤٣.

حبيب الله، المقرَّب لله، وما شابه ذلك في هذه المعاني، وكما ذكرنا وُلد ليعقوب هؤلاء الأولاد، ورجع إلى أبيه في المقدس وهناك تأتينا قصّة جديدة، وهي قصّة نبيّ الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، وهي مزيج من قصّة يوسف وقصّة يعقوب (صلوات الله وسلامه عليهما)^(١). وقد كتبتُ في ذلك كتابًا سمّيته (النبيّ الوزير يوسف الصديق من الابتلاء إلى التمكين).

ومن الكتب التي كتبت عن القصص القرآني، وتحدّثت عن الروايات التاريخية المتعلقة بإسحاق ويعقوب:

- الأنبياء والرسل في القرآن الكريم، د. علي العريبي.
- في صحبة الرسل الكرام، السيّد عبد المقصود عسكر.
- أنبياء القرآن، عبد المجيد هموا.
- الوجود التاريخي للأنبياء، د. سامي العامري.
- قصص القرآن قراءة قرآنيّة، عمرو الشاعر.
- رسالة الأنبياء، د. عمر أحمد عمر.
- نظرات في أحسن القصص، د. محمد السيّد وكيل.
- قصص القرآن، محمد بكر إسماعيل.
- صفات الأنبياء من قصص القرآن يعقوب، د. عقيل حسين عقيل.
- قصص الأنبياء، د. توفيق الواعي.
- قوانين النبوة، موفق الجوجو.

(١) فبهذا هم اقتده، ص ١٨١.

- الأنبياء الملوك داود وسليمان وهيكمل سليمان المزعوم، د. علي محمد محمد الصلابي.

- نساء الأنبياء، أحمد خليل جمعة.

❖ ثالثاً: مواضع ذكر إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في القرآن الكريم:

● ١- ذكر إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ:

ذكر إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ القرآن سبع عشرة مرّة، في سور: البقرة، وآل عمران والنساء والأنعام وهود ويوسف وإبراهيم ومريم والأنبياء والعنكبوت والصفافات وص.

ففي سورة البقرة ذكر اسمه ثلاث مرّات ضمن ذكر مجموعة من الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) والآيات التي ذكر فيها هي (١٣٣) و(١٣٦) و(١٤٠).

وفي سورة آل عمران ذكر اسمه مرّة واحدة، في سياق ذكر مجموعة من الأنبياء أيضاً، جاء هذا في آية (٨٤).

وفي سورة النساء أيضاً ذكر ضمن أسماء الأنبياء في آية (١٦٣).

وفي سورة الأنعام مرّة واحدة في قوله ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ [الأنعام: ٨٤]؛ أي: وهب الله لإبراهيم ابنه إسحاق، وحفيده يعقوب، وهما وجعلهما نبين.

وفي سورة هود ذكر مرتين في سياق بشارة سارة بإسحاق ثم يعقوب ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١].

وفي سورة يوسف ذكر مرتين، في المرّة الأولى: عند حديث يعقوب لابنه يوسف الصغير عندما رأى الرؤيا ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ

وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ
إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ [يوسف: ٦].

وفي المَرَّة الثانية: أثناء بيان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ دعوته وعقيدته للسجينين اللذين كانا معه في السجن، حيث قال لهما: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٨].

وفي سورة إبراهيم ورد اسمه في دعاء إبراهيم لربه شاكرًا له، لأنه وهب له ولديه أثناء كبره وشيخوخته ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

وفي سورة مريم: ذكر أثناء الحديث عن اعتزال إبراهيم لقومه الكافرين، فكافأه الله على ذلك الولاء والبراء، بأن وهب له إسحاق ويعقوب: ﴿فَلَمَّا أَغْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩].

وفي سورة الأنبياء، أخبرنا الله أنه وهب لإبراهيم إسحاق، ووهب له بعده يعقوب، قال تعالى: ﴿وَنَجِّنُهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١، ٧٣].

وتشير هذه الآيات إلى أن الله وهب لإبراهيم ابنه إسحاق بعد هجرته إلى الأرض المقدسة، وقوله: ﴿وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾: بشرناه بيعقوب زيادة على تبشيريه بإسحاق.

وقلنا له: سيولد لك إسحاقًا، وستبقى حيًّا حتى يكبر ويتزوج، ثم ينجب ابنه يعقوب، وترى أنت حفيدك يعقوب.

وفي سورة العنكبوت: أخبر الله أنه وهب لإبراهيم إسحاق ويعقوب، وجعل النبوة في ذريته: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لِمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

وفي سورة الصافات: أخبرنا الله أنه بشر إبراهيم بإسحاق، بعد قصته مع إسماعيل في الذبح والفداء: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٢، ١١٣].

وفي سورة ص ذكر في آية (٤٥) ضمن مجموعة من الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ^(١).

وكان حديث القرآن الكريم عن إسحاق في الأغلب الأعم مرتبطاً بالحديث عن أبيه إبراهيم^(٢)، وابنه يعقوب عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

٢- ورود اسم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ في القرآن الكريم:

ورد ذكر (يعقوب) خمس عشرة مرة في القرآن الكريم، فقد ورد في السور المكية الآتية:

- في سورة يوسف: ورد ثلاث مرّات في أثناء عرض قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ.
- وفي سورة مريم: ذكر مرتين؛ مرة في الأخبار عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومرة في دعاء زكريّا عَلَيْهِ السَّلَامُ طالباً من ربه الولد.
- وفي سورة هود: ورد مرة في الأخبار عن بشارة سارة بإسحاق ثم يعقوب.
- وفي سورة الأنبياء: حيث ذكر مرة في الأخبار عن بشارة إبراهيم بإسحاق ثم يعقوب.

(١) القصص القرآني، الخالدي، (١/ ٤٢٩).

(٢) القصة في القرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، ص ٢٢٤.

- وفي سورة العنكبوت، ورد مرة في الإخبار عن جعل الله النبوة في ذريته.
- وفي سورة ص: ذكر مرة في جمع الكرام الثلاثة: إبراهيم وإسحاق ويعقوب عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.
- وأما في السور المدنية:

- سورة البقرة: وذكر فيها أربع مرّات، وذلك في معرض الحديث عن إسلامه ووصيته لأولاده وهو على فراش الموت بالإسلام، ودعوة ذريته إلى الدخول في الإسلام، والإيمان بجميع الكتب المنزلة، وبجميع الرسل المبعوثين، ويلزم من هذا اتباع اليهود لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودخولهم في دينه.
- وسورة آل عمران: حيث ذكر فيها مرة واحدة، في معرض دعوة أهل الكتاب إلى الإيمان بكل الأنبياء، وما أنزل عليهم.
- وسورة النساء: إذ ذكر فيها مرة واحدة، أثناء ذكر أسماء مجموعة مباركة من الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام).

٣- مواضع ذكر اسمه الثاني (إسرائيل) في القرآن الكريم:

- إنّ الاسم الآخر ليعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ هو (إسرائيل)، وقد ذكر في القرآن مرتين:
- الأولى: في سورة آل عمران، عند الحديث عمّا حرّمه يعقوب على نفسه ما حرّمه الله على بني إسرائيل.

الثانية: في سورة مريم، عند الحديث عن شجرة النبوة المتفرعة عن إبراهيم ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ^(١). وجاء في قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي

(١) القصص القرآني، (٢/ ٥١).

إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَآتُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ [آل عمران: ٩٣].

وقد أنزل الله هذه الآية في مجادلة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأهل الكتاب، وبالذات اليهود بشأن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وما حرّمه على نفسه تقرباً إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

وتكذب هذه الآية وما بعدها اليهود في مزاعمهم وأكاذيبهم حول يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقد دوّن أخبار اليهود في سفر التكوين في العهد القديم الأخبار؛ ونسجوا الأكاذيب حول يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ زعموا فيها أن يعقوب قد صار الربّ ليلاً، وأنه قد صرعه عدداً من المرات، وأن الربّ المصروع المغلوب باركه، وبارك بنيه، وجعل الأرض المقدّسة لهم إلى قيام الساعة، ومنذ تلك الليلة غيّر الله اسمه من يعقوب إلى إسرائيل، ومعناه عندهم: الذي جاهد الرب وصارعه^(١).

وهذه من الأكاذيب والافتراءات في حقّ الله عَزَّوَجَلَّ، وفي حقّ نبيّ الله يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ.

إنّ الآية الكريمة: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾ تنصّ على الاسم الثاني ليعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيعقوب هو إسرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأولاده وذريّته هم (بنو إسرائيل).

وكان إسرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ موجوداً قبل إنزال التوراة؛ لأنّ الله أنزل التوراة على نبيّه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإسرائيل وُجد قبل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بعشرات السنين، وبما أنّ إسرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ نبيّ، فإنّ ما التزم به قد أصبح شرعاً ملزماً له، وقد ألزم الله به ذريّته وأبنائه وجعله تشريعاً لهم.

(١) القصص القرآني، المصدر السابق، (٥١/٢).

ويُخبرنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الصحيح أَنَّ أَحَبَّ الطَّعَامِ لِإِسْرَائِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ لَحُومَ الْإِبِلِ، فَلَمَّا مَرَضَ يَوْمًا مَرَضًا شَدِيدًا بَعَرَكَ النِّسَاءَ. وَاشْتَدَّ بِهِ سَقَمُهُ وَطَالَ مَرَضُهُ، نَذَرَ نَذْرًا لِلَّهِ، لئن شفاه الله وعافاه، ليتقربنَّ إلى الله بترك أحب الطعام إليه، والامتناع عن أكله^(١).

وبما أَنَّ أَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ هُوَ لَحُومُ الْإِبِلِ، فَقَدْ وَفَّى بِنَذْرِهِ بَعْدَمَا شفاه الله، وامتنع عن تناول لحوم الإبل، شكرًا لله الذي عافاه من مرضه. وهذا تناسق لطيف مع الآية السابقة في سورة آل عمران التي تدعونا إلى إنفاق أحب شيء إلينا، لننال البر والأجر عند الله^(٢).

قال تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ ﴿٩٢﴾ * كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ [آل عمران: ٩٢، ٩٣].

فإذا كان المسلم الصالح لا ينال البرَّ حتى يُنفق في سبيل الله أحب شيء إليه، تقربًا إلى الله، وبما أَنَّ أَحَبَّ شيء إلى نبيِّ الله إِسْرَائِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ لَحُومُ الْإِبِلِ، فقد امتنع عنها، وتقرَّبَ بذلك الامتناع إلى الله، وجعله في سبيل الله لينال البرَّ عند الله، ويحظى بالدرجة الرفيعة^(٣).

وقد ألزم الله تعالى بعد ذلك أبناء إسرائيل بما امتنع عنه أبوهم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وصار هذا تشريعًا من تشريعاتهم، وحرَّم عليهم بذلك لحوم الإبل^(٤).

(١) القصص القرآني، المصدر السابق، (٢/ ٥٨).

(٢) القصص القرآني، المصدر السابق، (٢/ ٥٩).

(٣) موسى كليم الله عدو المستكبرين وقائد المستضعفين، ص ٣٦.

(٤) القصص القرآني، (٢/ ٥٩).

٤- الحكمة من تسميته يعقوب وإسرائيل:

يقول الدكتور فضل حسن عباس رَحِمَهُ اللهُ: فيعقوب هو ابن إسحاق، والقرآن الكريم عرفنا اسمه هذا، ولكن القرآن الكريم عَلَّمَنَا أَنَّ لَهُ اسماً آخر (إسرائيل)، وقالوا معناه عبد الله وصفوة الله، ولقد وقفت عند هذه الآيات الكريمة التي تسميه تارة يعقوب وتارة إسرائيل، والذي أكرمني الله به - وهو أعلم بما ينزل - أَنَّ القرآن حينما يذكر إبراهيم وذريته عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فَإِنَّهُ يسميه يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، والذي يتدبر الآيات الكريمة يجد مصداق ما أقول.

ولكن عندما يكون الحديث يخصّ ذريته، يسميه إسرائيل، أي: إذا كان الحديث عمّن ولدوه يسمّى يعقوب، وعندما يكون الحديث عمّن ولداهم يسمّى إسرائيل، ولا أرى ذلك والله أعلم إلا لتذكير بني إسرائيل القاسية قلوبهم بهذا العنوان الطيب (إسرائيل)، وذلك ليلهب مشاعرهم وعواطفهم، ويصلهم بماضيهم، وهو يحدثهم عن أبيهم إسرائيل عبد الله وصفوته، فكان في هذا الاسم ما يحفزهم إلى أن يرتفعوا من وحدتهم، فيخلصوا في عبادتهم ويتحلّوا بأخلاق الآباء الطيبة، ذالك ما يبدو لي في هذين الاسمين الجليلين، فإن كان ذلك حقاً فإن المنة والحمد والفضل لله وحده^(١).

٥- شجرة النبوة الإبراهيمية:

تبيّن آيات القرآن الكريم: أَنَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ هو أبو الأنبياء، وأبو هذه الأمة، وأن شجرة النبوة منه، وأن الأنبياء المذكورين بعده في القرآن، والمبعوثين بعد زمانه، هم من نسله وذريته، وبهذا السياق ورد اسم إسرائيل - يعقوب - للمرة الثانية في القرآن، وذلك في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ

(١) قصص القرآن الكريم، ص ٣٤٩.

وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَكِيًّا ﴿٥٨﴾ [مريم: ٥٨].

ذكرت الآية أربعة أنبياء، آدم ونوحاً وإبراهيم وإسرائيل، ذكر آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ باعتباره أبا البشر. وذكر نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أبا البشر الثاني بعد الطوفان. وذكر إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لأن النبوة انتهت إليه، وشجرة النبوة استقرت عنده.

أ- الفرع الإسماعيلي:

المتمثل في إسماعيل بن إبراهيم (عليهما الصلاة والسلام)، وهذا الفرع ختم بخاتم الأنبياء والمرسلين رسول الله مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سيد ولد إسماعيل، بل سيد ولد آدم، بل أفضل المخلوقين جميعاً، وأحبهم إلى الله.

ب- الفرع الإسرائيلي:

هو المتمثل بإسرائيل - يعقوب - حفيد إبراهيم (عليهما الصلاة والسلام)، وهو أبويني إسرائيل وأصل أسباطهم، وكل أنبيائهم من ابنه يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، حتى عيسى ابن مريم من ذرية يعقوب من جهة الأم، لأنه لا أب له عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولهذا الاعتبار ورد ذكر إسرائيل معطوفاً على إبراهيم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في الآية: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ﴾، وقد صرح القرآن بأن الله جعل النبوة في ذرية كل من إبراهيم ويعقوب (عليهما الصلاة والسلام)، قال تعالى: ﴿فَقَامَتَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٦، ٢٧]. فالله وهب لإبراهيم كلاً من إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وكان ذلك بعد أن هاجر إلى الله، وغادر العراق إلى الأرض المقدسة^(١).

(١) القصص القرآني، (٢/ ٦٠).

ج- أنبياء الفرع الإسرائيلي:

جعل الله النبوة والكتاب في ذرية إبراهيم وحفيده يعقوب عليهما الصلاة والسلام، والراجح أن ضمير التثنية في قوله ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ [الصفات: ١١٣] يعود على إبراهيم ويعقوب، ووجه الترجيح في ذلك ما سبق أن قرّناه من تفرّع فرعي النبوة من الشجرة الإبراهيمية:

- الفرع الإسماعيلي.

- الفرع الإسرائيلي.

لقد استمرت النبوة في الفرع الإسرائيلي عدداً من القرون، حيث بعث الله أنبياء كثر إلى بني إسرائيل؛ أولهم نبي الله إسرائيل نفسه عَلَيْهِ السَّلَام، الذي كان نبياً لأبنائه، ثم ابنه يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، ثم الأنبياء الآخرون من بني إسرائيل، مثل موسى وهارون وداود وسليمان وزكريّا ويحيى، وآخرهم هو عيسى ابن مريم (عليهم الصلاة والسلام).

د- ختم النبوة بالفرع الإسماعيلي:

ختم الله النبوة في الفرع الإسرائيلي بعيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَام، وهو آخر أنبياء بني إسرائيل، الذي خلقه الله خلقاً مُعْجَزاً، دون أب، وأظهر الله على يديه كثيراً من المعجزات. وشاء الله أن يختم النبوة كلّها بنبي من الفرع الإسماعيلي، وهو أفضل الخلق جميعاً، محمّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١).

هـ- بداية تاريخ بني إسرائيل من يعقوب:

يبدأ تاريخ بني إسرائيل من يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام، وصلّتهم بإبراهيم كصلّتهم بإسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلَام، أليس إسماعيل عمّاً ليعقوب؟

(١) القصص القرآني، المصدر السابق، (٦١/٢).

أليس هو شقيق أبيه إسحاق؟

فلماذا لا يجعلون تاريخاً لهم مع أنه عمّ لأبيهم؟

لو كانوا (بني إبراهيم) لبدأ تاريخهم من تاريخ إبراهيم، ولو كانوا (بني إسحاق) لبدأ تاريخهم من تاريخ إسحاق، ولأنهم (بنو إسرائيل) أي: بنو يعقوب، فإنّ تاريخهم يبدأ من تاريخ يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولهم أن يتوقفوا عند حياته وحياة أبنائه الاثني عشر، وأن يعتبروا ذلك بداية لوجودهم وحياتهم وتاريخهم، وهذا لمن ثبت أصله ونسبه ليعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ^(١).

وإسرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ نبي كريم، ومؤمن عظيم، ولاؤه وبراه لله، فهو يُوالي كلّ مؤمن، مهما ابتعد عنه في النسب أو الزمان، ويتبرأ من كلّ كافر ولو كان في صلبه ونسله وذريته^(٢).



(١) القصص القرآني، (٦٢/٢).

(٢) القصص القرآني، المصدر السابق، (٦٣/٢).

المبحث الثاني:

ذكر النبيين إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في سور البقرة وآل عمران والنساء والأنعام: عرض تحليلي

❖ أولاً: ذكر إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في سورة البقرة:

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنَئِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَالِلَّهِ عِبَادَتُكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أُمَمٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤) وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عِيدُونَ (١٣٨) قُلِ الْمُحَاجُّونَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَمٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا

يَعْمَلُونَ ﴿[البقرة: ١٣٠-١٤١].

تفسير الآيات الكريمة:

1- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠]:

ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ هي ملة التوحيد والإسلام وإفراد العبودية لله، وهكذا ارتفع البيت وجعلت في الأرض دعوة التوحيد وملته وهي ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي جعله سبحانه إمام الموحدين، فما بعث نبي بعده إِلَّا من ذريته داعياً إلى ملته - كما مر معنا - فلا ينبغي لأحد أن يرغب عن هذه الملة^(١).

أ- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾:

دعا الله تعالى إلى ملة إبراهيم الناس جميعاً من بعده؛ لأنها إجابة للفطرة وتنبعث من النفس المستقيمة واتجاه العقل الحكيم^(٢).

والاستفهام للاستبعاد، والإنكار، وفيه توبيخ وتقريع للذين انحرفوا عن ملة التوحيد، كاليهود والنصارى، والمشركين^(٣).

وإن المعنى لا يرغب عن ملة إبراهيم ويتركها متجاوزاً لها إلى غيرها من الأوهام الباطلة إِلَّا من سفه نفسه وقول ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ﴾ فيها التجاوز والترك إلى أوهام، ونقيض يرغب عنها: يرغب فيها، فالرغبة فيها إقبال عليها والرغبة عنها تجاوز عنها وترك لها،

(١) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، نخبة من كبار علماء القرآن وتفسيره بإشراف الأستاذ الدكتور مصطفى مسلم، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي، جامعة الشارقة، الإمارات العربية، ٢٠١٠م، (١/١٩٨).

(٢) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ٢٠٠٨م، (١/٤١١).

(٣) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (١/١٩٨).

وهذا يتضمن أمرين؛ أولهما: أنه علمها وكان ينبغي أن يرغب فيها ولكنها تجاوزها وتركها لا عن انصراف مجرد، بل عن قصد وإعراض، وثانيهما: أنه اتجه ورغب في غيرها ونفى الله تعالى الرغبة عنها إلا ممن سفه نفسه^(١).

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ جعلها في حمق ورعونة؛ لأن النفس الإنسانية المستقيمة تتجه إلى الله لما في داخلها من ينبوع الخير الداعي إلى إدراك الحق المستقيم، فالنفس الإنسانية لو تأملنا في خلقها وتكوينها تهدي وترشد إلى الحق ولقد قال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (١١) ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢١، ٢٢]^(٢).

قال الشنقيطي رحمه الله: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ الآية لم تبين هنا ما ملة إبراهيم، وبينها بقوله: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَتْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]، فصرح في هذه الآية بأنها دين الإسلام بعث الله به نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم، وكذا في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [النحل: ١٢٣]، وقال في سورة الحج: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨]^(٣).

وإن ملة إبراهيم كانت ملة النبيين؛ لأن الله تعالى اختاره للإمامة وابتلاه بالكلمات، ولأنه كان يشكر نعم ربه ولأنه اختاره لبناء البيت، ولأنه اختاره لتعليم مناسك الحج، ولأنه اختاره ليكون أباً الأنبياء ولذلك كله^(٤) قال تعالى:

(١) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (١/٤١٢).

(٢) زهرة التفاسير، المصدر السابق، (١/٤١٢).

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م، (١/٨٦).

(٤) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (١/٤١٢).

ب- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾:

ومعنى اصطفاه الله تعالى، أي اختاره بعد أن ابتلاه بما صفى نفسه وخلصها لله تعالى، وصار ليس في قلبه موضع لغيره فاختره من بين خلقه خليلاً له، وكان أمة وإماماً، وكان أواهاً حليماً رجاً إلى الله تعالى دائماً، وأكد سبحانه وتعالى أنه في الآخرة لمن الصالحين، ففي الدنيا اصطفاه، فكان معه فيها على الخير المطلق، وقد ابتلي فأحسن البلاء، وكان صفيّاً وكان وليّاً، واختصَّ بأن يكون خليلاً^(١).

وقد أكد الله سبحانه وتعالى أنه في زمرة الصالحين الذين نالوا رضوان الله بقوله: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾، فأكد بـ"إن" الدالة على تأكيد الخبر وأكد بـ"اللام" في قوله لمن الصالحين، وأكد بتقديم في الآخرة، وذلك التأكيد؛ لأنه من الذين وصلوا إلى أعلى درجات الصلاح، وإن عدّه من الصالحين يوم القيامة إنما كان لأنه أخلص وأسلم وجهه لله رب العالمين مستجيباً طلب الله تعالى منه، إذ طلب ربه منه أن يكون كله له وحده ولذا قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمُ قَالَ أَتَسْلِمُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢).

2- قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمُ قَالَ أَتَسْلِمُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]:

أ- قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمُ﴾:

واذكر يا محمد صلى الله عليه وسلم لأمتك، إذ قال الله لإبراهيم ﴿أَسْلِمُ﴾ أي: أخلص دينك وعملك لله، فاستجاب، وأجاب على الفور قائلاً: أَتَسْلِمُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ^(٣).

(١) زهرة التفاسير، المصدر السابق، (١/٤١٣).

(٢) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (١/٤١٤).

(٣) تفسير الزهراوي في البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، دار العبيكان، الرياض، ط ١، ٢٠١٦م، ص ٢٢٤.

ب- قوله تعالى: ﴿أَسَلَّمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾:

أخلصْتُ ديني له، وفوّضْتُ أمري إليه، وهذا يشمل إسلام الباطن والظاهر^(١). و﴿أَسَلَّمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: أسلمتُ نفسي وقلبي وجوارحي كلها؛ لربِّ العالمين؛ الذي لا ربَّ سواه جَلَّ وَعَلَا^(٢)، و﴿أَسَلَّمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: إخلاصاً وتوحيداً ومحبة وإِنابة، فكان التوحيد لله نعته^(٣).

و ﴿أَسَلَّمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ومعنى ذلك لن يكون وحده في الكون؛ لأنّه إذا أسلم الله الذي سخر له ما في السماوات والأرض، يكون قد انسجم مع الكون المخلوق من الله للإنسان، ومن أكثر نضجاً في العقل ممن يُسلم وجهه لله سبحانه؛ لأنّ يكون بذلك قد أسلمه إلى عزيز حكيم قوي لا يُقهر، قادر لا تنتهي قدرته، غالب لا يغلب، رزاق لا يأتي الرزق إلا منه، فكأنه أسلم وجهه للخير كلّهُ^(٤).

وإن الدين عند الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى منذ عهد آدم إلى يوم القيامة هو الإسلام، وإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام يعلمنا كيف يكون الاستسلام والخضوع لله تعالى ولدينه وشرعه، فأين هذا من جحود الجاحدين وعناد المعاندين، الذين سبق الحديث عن مواقف عنادهم وجحودهم^(٥).

تبين الآية الكريمة مقام إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام في الاستجابة لأمر ربه، وخلوص نفسه إذ أمره بذلك فاستجاب فوراً قائلاً: ﴿أَسَلَّمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أسلمت أي خلصت نفسي

(١) تفسير الزهراوي، المصدر السابق، ص ٢٢٥.

(٢) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (١/١٩٩).

(٣) تفسير السعدي "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، دار ابن الجوزي، الدمام، المملكة العربية السعودية، ط ٤، ١٤٣٥ هـ، ص ٩٤.

(٤) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم، القاهرة، ٢٠١٣ م، (١/٥٠٣).

(٥) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (١/١٩٩).

وجعلتها لرب العالمين، أي لخالق العالمين والقائم عليهم وربهم وكالئهم وإن ذلك شكر له، فهو في ذلك شاكر لأنعم الله تعالى كحاله دائماً، فهذا النص لبيان مدى استجابة خليل الله تعالى لربه غير متردد ولا متلكئ^(١).

وإنما كان مسارعاً ومنافعاً لرضا رب العالمين والاستجابة لدينه وشريعته وتوحيده وإفراد العبادة له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى^(٢).

هذه هي ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، الإسلام الخالص الصريح ولم يكتف إبراهيم نفسه، بل وصى بهذه الملة بنيه من بعده جيلاً بعد جيل، ووصى أحفاده وأبناءهم، فمن كفر بها فقد كفر بالله وبوصية إبراهيم وما كان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ليرضى عنهم، إذ كفروا بربهم كالمشركين إذ غيروا وبدّلوا في دين إبراهيم، وكاليهود الذين ادّعوا أن إبراهيم كان يهودياً ولقد ردّ الله تعالى على قولهم بقوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]^(٣).

3- قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]:

أ- قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾:

"التوصية" هي العهد المؤكد في الأمر الهام، ﴿بِهَا﴾: أي بهذه الكلمة العظيمة وهي ﴿أَسَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وهذه الملة هي ملة التوحيد والإسلام، ﴿إِبْرَاهِيمُ﴾

(١) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (١/ ٤١٤).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق للطباعة، القاهرة، ط ٣٢، ٢٠٠٣ م، (١/ ١١٦).

(٣) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (١/ ٤١٥).

بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴿١﴾: أي وصّى بهذه الكلمة يعقوب بنيه كما وصّى بها جدّه إبراهيم - من قبل - بنيه، ويعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وُلد في حياة جدّه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وجدته سارة^(١).

وذكر الله وصية إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبنائه في سياق الآيات التي تتحدث عن وجوب التمسك بملته، والتي تبين أن من ترك ملته رغبة عنها إلى غيرها فإنما هو جاهل بموضع حظ نفسه فيما ينفعها ويضرها في معادها، كاليهود والنصارى الذي انحرفوا عن الطريق الصحيح، فموضوع الوصية في الآية: الحثُّ على التمسك بالإسلام، وعدم تركه أبداً.

ب- قوله تعالى: ﴿يَبْنِيَنَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾:

بدأ وصيته لهم بتذكيرهم بنعمة الله وفضله عليهم بأن اختار لهم هذا الدين الكامل من بين الأديان وفضلهم به، وبعد أن هياّ قلوبهم وأنعامهم، باستشعارهم النعمة - التي فضلهم الله بها واختارها لهم - ولا يموتوا إلا وهم عليهم، بمعنى أن لا يفارقوا هذا الدين أيام حياتهم كلها، وذلك لأنه لا يدري أحد متى تأتية منيته، وكأنه يقول لهم: اثبتوا على دين الإسلام حتى لا تأتیکم المنية، وأنتم على غيره، فتموتوا وربكم ساخط عليكم فتهلكوا^(٢).

ويقول ابن كثير في تفسيره موضعاً هذه الوصية: أي أحسنوا في حال الحياة والزموا هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه، فإن المرء يموت غالباً على ما كان عليه ويُبعث على ما كان عليه وقد أجرى الله الكريم عادته بأنه من قصد الخير ووفق له وبُسر له ومن نوى صالحاً ثبت عليه^(٣).

(١) تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص ٢٢٥.

(٢) تفسير الطبري "جامع البيان في تأويل القرآن"، الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٢م، (٤٣٨/١).

(٣) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، ابن كثير، تحقيق: يوسف علي بدوي، حسن سويدان، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط ١، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م، (٢٨٠/١).

ونستنبط من وصية إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: أن الوصية بعقيدة التوحيد وما تشتمل عليه من سلوك ومكارم أخلاق من أهم ما يوصي به الأب أبناءه في كل أطوار حياتهم حتى يلقوا ربهم وهم عليه وإن الدين المعني به هنا هو الدين الإسلامي الحنيف على حدّ قوله تعالى: ﴿مَلَأَ آيَاتِكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۖ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨]، و"ال" في الدين للتعريف على قوله تعالى - هناك - ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ومن هنا يعلم أن الدين الإسلامي هو الدين ولا دين غيره منذ أن بعث الله الرسل، ومن هذه الأخيرة أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ - نفسه - كان قد وُصي من الله عَزَّجَلَّ بهذا الدين وهو من بعد أوصى بها أبناءه، فينبغي على الآباء على أن يكونوا في غاية الحرص على أبنائهم بتوجيههم وإرشادهم على اتباع دين الله والتمسك به، فإن هذا خير ما يقدمه الوالد لوالده، إذ به ينقذه من سخط الله وعذابه، ويضعه في محل رضوانه ومحبته عَزَّجَلَّ^(١).

ومما يذكره الفخر الرازي حول ما يستفاد من هذه الوصية قوله: اعلم أن هذه الحكاية اشتملت على دقائق مرغبة في قبول الدين:

- أحدها: إنه تعالى لم يقل: وأمر إبراهيم، بل قال: ووصي، ولفظ الوصية أوكد في الأمر؛ لأنّ الوصية عند الخوف من الموت وفي ذلك الوقت يكون احتياط الإنسان لدينه أشد وأتمّ، فإذا عرف أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ في ذلك الوقت كان مهتماً بهذا الأمر متشدداً فيه كان القول إلى قبوله أقرب.

(١) القصص القرآني بين الآباء والأبناء، عماد زهير حافظ، دار القلم، دمشق، ط ١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، ص ١٤١.

- وثانيها: إنه عَلَيْهِ السَّلَامُ خصص بنيه بذلك، وذلك لأن شفقة الرجل على أبنائه أكثر من شفقة على غيرهم، فلما خصصهم بذلك في آخر عمره علمنا أن اهتمامه بذلك كان أشد من اهتمامه بغيره.

- وثالثها: إنه عمم بهذه الوصية جميع بنيه ولم يخص أحداً منهم، وذلك يدل على شدة الاهتمام.

- ورابعها: إنه عَلَيْهِ السَّلَامُ أطلق هذه الوصية غير مقيدة بزمان معين ومكان معين، ثم زجرهم بأبلغ الزجر عن أن يموتوا غير مسلمين، وذلك يدل - أيضاً - على شدة الاهتمام بهذا الأمر.

- وخامسها: إنه عَلَيْهِ السَّلَامُ ما مزج بهذه الوصية وصية غيرها، وهذا يدل على شدة الاهتمام بالأمر، ولما كان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الرجل المشهود له بالفضل وحسن الطريقة وكمال السيرة، ثم عرف أنه كان في نهاية الاهتمام بهذا الأمر، عرف حينئذ أن هذا الأمر أولى الأمور بالاهتمام وأحراها بالرعاية والقبول^(١).

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَصَّى بنيه ويعقوب، وكانت الوصية ﴿يَبْتِئِ إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَى لَكُمْ آلَ دِينَ﴾، إذن فالوصية لم تكن أمراً من عند إبراهيم ولا أمراً من عند يعقوب، ولكن كانت أمراً اختاره الله للناس، فلم يجد إبراهيم ولا يعقوب أن يوصيا أولادهما إلا بما اختاره الله، فكأن إبراهيم اتّمن على نفسه فنفذ التكاليف واثّمنه على أولاده فأراد منهم أن يتمسكوا بما اختاره لهم.

ج- قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾:

فالمعنى لا تفارقوا الإسلام لحظة حتى لا يفاجئكم الموت إلا وأنتم مسلمون.

(١) التفسير الكبير مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط ٢، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، (٤/ ٧٢-٧٣).

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَخْفَى موعد الموت ومكانه وسببه، ليكون في هذا إعلاماً به ويتوقعه الناس في أي وقت وفي أي مكان وفي أي زمان ولذلك قد نلتبس العافية في أشياء يكون الموت فيها والشاعر يقول:

إِنْ نَامَ عَنْكَ فَكُلُّ طِبِّ نَافِعٍ أَوْ لَمْ يَنْمَ فَالطِّبُّ مِنْ أَذْنَابِهِ

أي إن لم يكن قد جاء الأجل، فالطب ينفعك ويكون من أسباب الشفاء، وأما إذا جاء الأجل فيكون الطب سبباً في الموت، كأن تذهب لإجراء عملية جراحية فتكون سبب موتك، فالإنسان لا بُدَّ أن يتمسك بالإسلام وبالمنهج، ولا يغفل عنه أبداً، حتى لا يأتيه الموت في غفلته، فيموت غير مسلم والعياذ بالله^(١).

ولقد استجاب أبناء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لوصيته وهذا يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ يكررها في آخر لحظة من لحظات حياته والتي كانت شغله الشاغل الذي لم يصرفه عنه الموت وسكراته فليسمعها طلاب الحقيقة^(٢).

4- قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣]:

أ- قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾:

إنَّ هذا المشهد بين يعقوب وبنيه في لحظة الموت والاحتضار لمشهد عظيم الدلالة، وقوي الإيحاء، وعميق التأثير، وميت يحتضر فما هي القضية التي تشغل باله في ساعة الاحتضار؟ وما هو الشاغل الذي يعني خاطره وهو في سكرات الموت؟

(١) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١/٥٩٦).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، (١/١١٦).

وما هو الأمر الجلل الذي يريد أن يطمئن عليه ويستوثق منه؟ وما هي البركة التي يريد أن يخلفها لأبنائه ويحرص على سلامة وصولها إليهم فيسلمها لهم في محضر يسجل فيه كل المستحيلات؟ إنها العقيدة هي التركة وهي الذخر وهي القضية الكبرى، وهي الشغل الشاغل، وهي الأمر الجلل، الذي لا تشغل عنه سكرات الموت وصرعاته.

ب- قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾:

هذا هو الأمر الذي جمعناكم من أجله، وهذه هي القضية التي أردت الاطمئنان عليها، وهذه هي الأمانة والذخر والتراث.

ج- قوله تعالى: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾:

إنهم يعرفون دينهم ويذكرونه، وإنهم يتسلمون التراث ويصونونه، وإنهم يطمئنون الوالد المحضر ويريحونه، وكذلك ظلت وصية إبراهيم لبنيه مرعية في أبناء يعقوب وكذلك ينصون نصاً صريحاً على أنهم ﴿مُسْلِمُونَ﴾ والقرآن يسأل بني إسرائيل: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾؟

فهذا هو الذي كان، يشهد به الله، ويقرره، ويقطع به كل حجة لهم في التمويه والتضليل ويقطع به كل صلة حقيقية بينهم وبين أبيهم إسرائيل، وفي ضوء هذا التقرير يظهر الفارق الحاسم بين تلك الأمة التي خلت، والجيل الذي كانت تواجهه الدعوة، حيث لا مجال لصلة، ولا مجال لورثة، ولا مجال لنسب بين السابقين واللاحقين^(١).

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (١/١١٧).

إِنَّ الْوَصِيَّةَ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ كَانَتْ مِنْهَجًا وَسَلُوكًا فِي ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ،
فَكَمَا وَصَّى إِبْرَاهِيمَ أَبْنَاءَهُ إِسْحَاقَ وَإِسْمَاعِيلَ، وَصَّى إِسْحَاقَ ابْنَهُ يَعْقُوبَ الَّذِي
وَصَّى بِدَوْرِهِ أَبْنَاءَهُ مُصَدِّقًا لِلآيَةِ الْكَرِيمَةِ^(١).

هـ- قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ
عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤]:

إِنَّ الْيَهُودَ كَانُوا كُلَّمَا ذَكَرَتْ مُحَمَّدٌ لِبِرَاهِيمَ وَبَنِيهِ اتَّحَلَوْهَا لِأَنْفُسِهِمْ، وَتَفَاخَرُوا
بِهَا عَلَى غَيْرِهِمْ، حَتَّى ظَنَّهُمُ النَّاسُ أَنَّهُمْ هَدَاةُ آبَائِهِمْ وَإِنْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِدْيِهِمْ،
فَرَدَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَوْلُهُمْ وَقَوْلَ غَيْرِهِمْ، مِمَّنْ كَانُوا يَتَفَاخَرُونَ بِأَنْفُسِهِمْ سَلَالَةَ إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ، وَلَا يَعْمَلُونَ عَمَلَهُمْ، وَلَا يَسْلُكُونَ مَسْلَكَهُمْ، وَكَانُوا يَحْسِبُونَ مَجْرَدَ
النَّسَبِ يَكْسِبُهُمْ شَرَفًا وَذِكْرًا عِنْدَ اللَّهِ فَقَالَ: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ
مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢).

الإشارة هنا إلى هذه النسل النبوي من خليل الله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق
ويعقوب عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَذُرِّيَّتِهِمُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا بِهِدْيِهِمْ، وَقَبَسُوا مِنْ نُورِ اللَّهِ بِوَصِيَّتِهِمْ
وَهِيَ ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ أَي: مَضَتْ، وَصَارَتْ فِي عِبَرِ التَّارِيخِ لَهُمْ مَا كَسَبُوهُ مِنْ خَيْرٍ فَيَكُونُ
عِنْدَ اللَّهِ جَزَاؤُهُ، وَعَلَيْكُمْ مَعِشَرُ الْعَرَبِ أَنْ تَقْتَدُوا بِإِبْرَاهِيمَ، وَتَأْخُذُوا بِوَصِيَّتِهِ، وَأَنْ
تَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا هُوَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ إِنْ كُنْتُمْ تَنْتَمُونَ إِلَيْهِ، فَتَجْمَعُونَ بَيْنَ شَرَفِ النَّسَبِ،
وَشَرَفِ الْإِتْبَاعِ، وَالنَّسَبِ وَحْدَهُ لَا يَغْنِي فِتْيَالًا مِنْ غَيْرِ اتِّبَاعٍ.

(١) صفات الأنبياء من قصص القرآن "إدريس ويعقوب ويوسف"، عقيل حسين عقيل، سما للنشر
والتوزيع، القاهرة، مصر، ٢٠١١م، ص ١٢٨.

(٢) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (١/ ٤٢٠).

وكذلك أنتم معشر اليهود ليس لكم أن تفخروا بأن هؤلاء آبائكم وتلحقوا تاريخهم بتاريخكم، إلا أن تتبعوهم في الإخلاص لله رب العالمين والإسلام له، وإلا كنتم الخارجين عليهم المحاربين لمآثرهم وإن لم تجدوا في اتباعهم فلكم جزاء فعلكم^(١).

ولذا قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أي لها ما كسبته مكسوباً إليها بقدره محسوباً لها في اليوم الآخر بجزائه، ويتضمن قوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ الجزء لهذا الكسب وهو خير ﴿وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ إن عملتم مثل عملهم واتبعتم هديهم وأخذتم بوصيتهم، وكانت لكم شعاراً ودثاراً تتحلون به، وهذا حث على الاقتداء ودعوة إليه، فإن تجانفوا الإثم وتخالفوا الوصية فعليكم إثم ما تفعلون.

وإنكم لستم مسؤولون عن أفعالهم إن خيراً أو شراً، فكذلك ليس لكم أن تدعوا أن عملهم عملكم ونسبهم نسبكم؛ لأنكم انفصلتم بعملكم عنهم، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وكذلك لا يكفيكم عملهم، إن خيراً فخير لهم إلا تكونوا قد عملتهم مثل عملهم ولا تزر وازرة وزر أخرى.

إن ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ هي التوحيد، والطهارة من الوثنية هي لب الدين اصطفاه الله لنا، وهي الحق الذي لا ريب فيه، وهي مقياس الحق الذي يتميز به من الباطل، فمن آمن بها فقد اهتدى، ومن خالفها فقد ضل وغوى، وأهل الكتاب الذين حرفوا القول عن مواضعه، وغيروا وبدلوا، وخرجوا عن المنهاج، وتركوا ملة إبراهيم يزعمون أن ما عندهم حق وهداية، فضلت أفهامهم، وزعم اليهود أن في يهوديتهم السلامة وزعم النصارى بنصرانيتهم الوثنية أنها الهداية وكل في غيهم يعمهون^(٢).

(١) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (١/ ٤٢٠).

(٢) زهرة التفاسير، المصدر السابق، (١/ ٤٢١).

6- قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥]:

أ- قول الطبري:

احتج الله لنبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأبلغ حجة، وأوجزها، وأكملها، وعلمها محمداً نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا محمد، قل للقائلين لك من اليهود والنصارى ولأصحابك ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾: بل تعالوا نتبع ملة إبراهيم التي يجمع جميعنا على الشهادة لها بأنها دين الله الذي ارتضاه واجتبه وأمر به، فإن دينه كان الحنفية المسلمة، ويدع سائر الملل التي تختلف فيها فينكرها بعضنا، ويقرُّ بها بعضنا، فإن ذلك على اختلافه لا سبيل لنا على الاجتماع عليه، كما لنا السبيل إلى الاجتماع على ملة إبراهيم^(١).

ب- قول القاسمي:

لما أثبت إسلامه بالحنفية نفى عن غيره بقوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وفيه تعريضٌ بأهل الكتاب وإيدانٌ ببطلان دعواهم اتباعه عَلَيْهِ السَّلَامُ، مع إشراكهم بقولهم عزيز ابن الله، والمسيح ابن الله، وقد أفادت هذه الآية الكريمة أن ما عليه الفريقان محض ضلال وارتكاب بطلان، وأن الدين المرضي عند الله الإسلام، وهو دعوة الخلق إلى توحيده تعالى وعبادته وحده لا شريك له، ولما خالف المشركون هذا الأصل العظيم، بعث الله نبيه محمداً خاتم النبيين لدعوة الناس جميعاً إلى هذا الأصل^(٢).

(١) تفسير الطبري "جامع البيان في تأويل القرآن"، (٣/١٠٢).

(٢) محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط ٢، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م، (١/٤٠٧).

وقد بينت الآية الكريمة تبرئة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام من الشرك الأكبر والأصغر، وفيها تعريض بأهل الكتاب للإشارة لما هم عليه من الشرك بعد التحريف والتبديل، وفي الآية أن أصحاب الأديان الباطلة، وكذا أصحاب البدع يدعون دائماً أنهم على حق وأن اتباعهم يؤدي إلى الهداية^(١).

ولقد بين الله سُبحَانَهُ وتَعَالَى ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: هي ديانة الحق والإقبال على الله، والإعراض عما سواه وهي قائمة على التوحيد تاركةً الشرك والتنديد، فهذا الذي في اتباعه الهداية وفي الإعراض عن ملته الكفر والغواية^(٢).

فعلينا أن نرجع إليها جميعاً، نحن وأنتم إلى ملة إبراهيم، أئبنا وأبيكم وأصله ملة الإسلام وصاحب العهد مع ربه عليه ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بينما أنتم تشركون، ثم يدعو المسلمين لإعلان الوحدة الكبرى للدين من لدن إبراهيم أبي الأنبياء إلى عيسى بن مريم إلى الإسلام الأخير ودعوة أهل الكتاب إلى الإيمان بهذا الدين الواحد^(٣).

7- قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

تفسر هذه الآية الكريمة ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾، حيث اشتملت على جميع ما يجب الإيمان به، واعلم أن الإيمان الذي هو تصديق القلب التام بهذه الأصول وإقراره

(١) تفسير الزهراوي في البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص ٢٢٩.

(٢) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١/٦٠٨).

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، (١/١١٨).

المتضمن لأعمال القلوب والجوارح - وهو بهذا الاعتبار - يدخل فيه الإسلام وتدخل فيه الأعمال الصالحة كلها، فهي من الإيمان وأثر من آثاره، فحيث أطلق الإيمان دخل فيها ما ذكر، وكذلك الإسلام إذا أطلق دخل فيه الإيمان، فإذا قرن بينهما كان الإيمان اسماً لما في القلب من الإقرار والتصديق، والإسلام اسماً للأعمال الظاهرة، وكذلك إذا جمع بين الإيمان والأعمال الصالحة^(١).

• فقوله تعالى ﴿قُولُوا﴾: أي بألسنتكم متواطئة عليها قلوبكم، وهذا القول التام المترتب عليه الثواب والجزاء، فكما أن النطق باللسان من دون اعتقاد القلب نفاق وكفر، فالقول الخالي من العمل عمل القلب عديم التأثير قليل الفائدة وإن كان العبد يؤجر عليه إذا كان خيراً ومعه أصل الإيمان لكن فرق بين القول المجرد والمقترن به عمل القلب. وفي قوله ﴿قُولُوا﴾: إشارة إلى الإعلان بالعقيدة والصدع بها والدعوة لها، إذ هي أصل الدين وأساسه.

• وفي قوله ﴿ءَامَنَّا﴾: ونحوه مما في صدور الفعل منسوباً إلى جميع الأمة، إشارة إلى أنه يجب على الأمة الاعتصام بحبل الله جميعاً، والحث على الائتلاف حين يكون داعمهم واحداً وعملهم متحداً، وفي ضمنه النهي عن الافتراق وفيه أن المؤمنين كالجسد الواحد.

• وفي قوله ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ أي: بأنه واجب الوجود واحد أحد، متصف بكل صفة كمال، منزّه عن كل نقص وعيب، مستحق لإفراده بالعبادة كلها وعدم الإشراك به في شيء بوجه من الوجوه^(٢).

(١) تفسير السعدي "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، (١/٩٦).

(٢) تفسير السعدي "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، (١/٩٦).

• وفي قوله ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾: يشمل القرآن والسنة لقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣] فيدخل فيه الإيمان بما تضمنه كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من صفات الباري وصفات رسله واليوم الآخر والغيوب الماضية والمستقبلية، والإيمان بما تضمنه ذلك من الأحكام الشرعية الأمرية وأحكام الجزاء وغير ذلك.

وفي قوله ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾، فيه الإيمان بجميع الكتب على جميع الأنبياء والإيمان بالأنبياء عموماً وخصوصاً ما نصّ عليه في الآية لشرفهم ولإتيانهم بالشرائع الكبار، فالواجب في الإيمان بالكتب أن يؤمن بهم على وجه العموم والشمول ثم ما عرف منهم بالتفصيل وحب الإيمان به مفصلاً^(١).

• وفي قوله ﴿لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ أي: بل تؤمن بهم كلهم، هذه خاصية المسلمين التي انفردوا بها عن كل من يدعي أنه على دين، فاليهود والنصارى والصابئون وغيرهم وإن زعموا أنهم يؤمنون بما يؤمنون به من الرسل، والكتب، فإنهم يكفرون بغيره فيفرون بين الرسل، والكتب، بعضها يؤمنون به وبعضها يكفرون به، وينقض تكذيبهم تصديقهم، فإن الرسول الذي زعموا أنهم قد آمنوا به قد صدق سائر الرسل وخصوصاً محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا كذبوا محمداً فقد كذبوا رسولهم فيما أخبرهم به فيكون كفراً برسولهم^(٢).

• وفي قوله: ﴿وَمَا أُوتِيَ التَّيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾: دلالة على أن عطية الدين هي العطية الحقيقية المتصلة بالسعادة الدنيوية والأخروية، لم يأمرنا أن نؤمن بما أوتي الأنبياء

(١) تفسير السعدي، المصدر السابق، (١/٩٦).

(٢) تفسير السعدي، المصدر السابق، (١/٩٧).

من الملك والمال وغيره، بل أمرنا أن نؤمن بما أعطوا من الكتب والشرائع وفيه أن الأنبياء مبلغون عن الله ووسائط بينه وبين خلقه في تبليغ دينه، ليس لهم من الأمر شيء.

• وفي قولهم ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾: إشارة إلى أنه من كمال ربوبيته لعباده أن ينزل عليهم الكتب ويرسل إليهم الرسل، فلا تقتضي ربوبيته تركهم سدى ولا هملاً وإذا كان ما أوتي النبيون إنما هو من ربهم ففيه الفرق بين الأنبياء وبين من يدعي النبوة، وأنه يحصل الفرق بينهم بمجرد معرفة ما يدعون إليه، فالرسل لا يدعون إلا لخير ولا ينهون إلا من كل شر وكل واحد منهم يصدق الآخر ويشهد له بالحق من غير تخالف ولا تناقض لكونه من عند ربهم ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] وهذا بخلاف من ادعى النبوة، فلا بُدَّ أن يتناقضوا في أخبارهم وأوامرهم ونواهيهم كما يعلم ذلك من سير أحوال الجميع وعرف ما يدعون إليه^(١).

فلما بين تعالى جميع ما يؤمن به عموماً وخصوصاً، وكان القول لا يغني عن العمل، قال: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أي: خاضعون لعظمته منقادون لعبادته بباطننا وظاهرنا مخلصون له العبادة بدليل تقديم المعمول وهو ﴿لَهُ﴾ على العامل وهو ﴿مُسْلِمُونَ﴾^(٢). فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على إيجازها واختصارها على أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

واشتملت على الإيمان بجميع الرسل، وجميع الكتب، وعلى التخصيص الدال على الفضل بعد التعميم وعلى التصديق بالقلب واللسان والجوارح والإخلاص لله

(١) تفسير السعدي "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، (١/ ٩٧).

(٢) تفسير السعدي "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، (١/ ٩٧).

في ذلك، وعلى الفرق بين الرسل الصادقين ومن ادعى النبوة من الكاذبين، وعلى تعليم الباري عباده كيف يقولون، ورحمته وإحسانه عليهم بالنعم الدينية المتصلة بسعادة الدنيا والآخرة، فسبحان من جعل كتابه تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون^(١).

أ- ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ عَلَيْهِ السَّلَام:

هي ملة دين الإسلام الذي دعا إليه الأنبياء والمرسلين منذ آدم عَلَيْهِ السَّلَام إلى خاتمهم نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأصل الدين واحد، بعث الله به جميع الأنبياء والمرسلين واتفقت دعوتهم إليه، وتوحدت سبيلهم عليه، وجعلهم الله وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم بذلك ودلالتهم عليه؛ لمعرفة ما ينفعهم وما يضرهم، وتكميل ما يصلحهم في معاشهم، ومعادهم، بعثوا جميعاً بالدين الجامع الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له؛ بالدعوة إلى توحيد الله والاستمساك بحبله المتين، وبعثوا بالتعريف في الطريق الموصل إليه، وبعثوا بيان حالهم بعد الوصول إليه، فاتّحدت دعوتهم إلى هذه الأصول الثلاثة:

■ الدعوة إلى الله تعالى في إثبات التوحيد وتقريره وعبادة إله واحد لا شريك له، وترك عبادة ما سواه، فالتوحيد هو دين العالم بأسره من آدم إلى آخر نفسٍ منفوسةٍ من هذه الأمة.

■ والتعريف بالطريق الموصل إليه سبحانه في إثبات النبوات وما يتفرّع عنها من الشرائع، من صلاة وزكاة وجهاد وغيرها أمراً ونهيّاً في دائرة التكليف الخمسة: الأمر وجوباً أو استحباباً، والنهي تحريماً أو كراهة، والإباحة، وإقامة العدل والفضائل، والترغيب والترهيب.

(١) تفسير السعدي، المصدر السابق، (١/٩٧).

▪ والتعريف بحال الخليقة بعد الوصول إلى الله: في إثبات المعاد والإيمان باليوم الآخر والموت وما بعده من القبر ونعيمه وعذابه، والبعث بعد الموت والجنة والنار، والثواب والعقاب^(١).

وعلى هذه الأصول الثلاثة مدار الخلق، والأمر، وإن السعادة والفلاح لموقفه عليها لا غير، وهذا مما اتفقت عليه جميع الكتب المنزلة وبُعث به جميع الأنبياء والرسل وتلك هي الوحدة الكبرى بين الرسل والأمم، وهذا هو المقصود من قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ أَخَوَةٌ لِعَلَّاتِ أَمْهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ». وهو المقصود في مثل قول الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

وهذه الأصول الكلية هي ما تضمنته عامة السور المكية في القرآن الكريم، وعندما نتأمل في القصص القرآني ندرك الحكَمَ ممَّا قصَّه الله تعالى علينا في القرآن العظيم من قصص الأنبياء وأخبارهم مع أممهم، لأخذ العبرة والتفكر وتثبيت أفئدة الأنبياء وإثبات النبوة والرسالة وجعلها موعظة وذكرى للمؤمنين وأخبار الأمم المكذبة لرسولهم وما صارت إليه عاقبتهم وأنها سننه سبحانه فيمن أعرض سبيله، والدين بهذا الاعتبار: هو "دين الإسلام" بمعناه العام، وهو: إسلام الوجه لله، وطاعته، وعبادته وحده، والبراءة من الشرك والإيمان بالنبوات، والمبدأ والمعاد^(٢).

(١) الإيمان بالرسول والرسالات، د. علي محمد محمد الصلابي، دار المعرفة للطباعة، بيروت، ط ١،

٢٠١١م، ص ٢٠.

(٢) العقيدة الصافية للفرقة الناجية، سيّد سعيد السيّد عبد الغني، دار طيبة الخضراء، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، ط ١، ٢٠٠٦م، ص ١٢٠.

ولوحدة الدين بهذا الاعتبار في دعوة جميع الأنبياء والمرسلين، وَحَدَّ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿الصِّرَاطُ﴾ [الفاتحة: ٦] و﴿السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨] في جميع آيات القرآن الكريم، وهذا الدين "دين الإسلام" بهذا أي باعتبار: وَحْدَتِهِ الْعَامَّةِ، وَتَوْحُّدِ صِرَاطِهِ، وَسَبِيلِهِ، وَهُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ فِي آيَاتٍ مِنْ كِتَابِهِ عَنْ أَنْبِيَائِهِ: نُوحٍ، وَإِبْرَاهِيمَ، وَبْنِيهِ، وَيُوسُفَ الصَّدِيقِ، وَمُوسَى، وَدَعْوَةَ نَبِيِّ اللهِ سَلِيمَانَ، وَجَوَابِ بَلْقِيسَ مَلِكَةَ سَبَأَ، وَعَنْ الْحَوَارِيِّينَ، وَعَنْ سِحْرَةِ فِرْعَوْنَ، وَعَنْ فِرْعَوْنَ حِينَ أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ.

ودين الإسلام بهذا الاعتبار: هو دين جميع الأنبياء والمرسلين وملتهم، بل إن إسلام كل نبي ورسول يكون سابقاً لأمته، وهو محل بعثته إلى أمته، وما يتبع ذلك من شريعة، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال - سبحانه -: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]^(١).

وإنما خصَّ الله سبحانه نبيه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بأن "دين الإسلام" بهذا الاعتبار العام هو ملته في مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [آل عمران: ٩٥] لوجوه:

- أولها: أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ واجه في تحقيق التوحيد، وتحطيم الشرك، ونصر الله له بذلك ما قصَّ الله خيره أمراً عظيماً.

- ثانيهما: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعل في ذريته النبوة والكتاب، ولذا قيل "أبو الأنبياء"؛ ولذا قال الله تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨]، وهو عَلَيْهِ السَّلَامُ تمام ثمانية عشر نبياً سماهم الله في كتابه من ذريته وهم: ابنه إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ،

(١) الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان، بكر بن عبد الله أبو زيد، دار العاصمة للطباعة، الرياض، السعودية، ط ١، ١٤١٧هـ، ص ٥٢.

ومن ذريته: محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وابنه إسحاق، ومن ذريته: يعقوب بن إسحاق ويوسف وأيوب وذو الكفل وموسى، وهارون وإلياس، واليسع، ويونس وداود وسليمان وزكريا، ويحيى وعيسى عليهم الصّلاة والسلام جميعاً.

ثالثها: لإبطال مزاعم اليهود والنصارى في دعواهم أنهم على ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام فقد كذبهم الله تعالى في قوله: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٠] ^(١).

وردّ الله عليهم محاجّتهم في ذلك بقوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ^(٦٥) هَآنُكُمْ هَؤُلَاءِ حَبَجَّكُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ^(٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٥-٦٧].

ثم بيّن سبحانه أن أولى الناس بإبراهيم هم الذين على ملته وسنته فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لََّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]، وبيّن سبحانه مدى الضلال البعيد في جنوح أهل الكتاب إلى هذه الدعوى، وما هم فيه من الغلو والضلال، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَصْلُوا كَيْدًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]، وبيّن سبحانه أن هذه المحاولة الكاذبة البائسة من أهل الكتاب جارية في محاولتهم مع المسلمين لإضلالهم عن دينهم ولبس الحق بالباطل ^(٢).

(١) الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان، بكر بن عبد الله أبو زيد، ص ٥٤.

(٢) الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان، المصدر السابق، ص ٥٤.

ويجد المتأمل في كتاب الله تعالى التنبيه في كثير من الآيات إلى أن هذا القرآن ما أنزل إلا ليجدد دين إبراهيم عليه السلام حتى دعاهم بالتسمية التي يكرهها اليهود والنصارى "ملة إبراهيم"^(١).

والخلاصة: أن لفظ "الإسلام" له معنيان؛ معنى عام: يتناول إسلام كل أمة متبعة لنبي من أنبياء الله الذي بعث فيهم فيكونون مسلمين حنفاء على ملة إبراهيم فهم على "دين الإسلام" ثم لما بعث الله نبيه عيسى عليه السلام، فإن من آمن من أهل التوراة بعيسى واتبعه فيما جاء به، فهو مسلم حنيف على ملة إبراهيم، ومن كذب منهم بعيسى عليه السلام فهو كافر لا يوصف بالإسلام، ثم لما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم وهو خاتمهم وشريعته خاتمة الشرائع ورسالته خاتمة الرسالات، وهي عامة لأهل الأرض، وجب على أهل الكتابين وغيرهم اتباع شريعته وما بعثه الله به لا غيره، فمن لم يتبعه فهو كافر لا يوصف بالإسلام ولا أنه حنيف، ولأنه على ملة إبراهيم ولا ينفعه ما يتمسك به يهودية أو نصرانية، ولا يقبله الله منه، فبقي اسم "الإسلام" عند الإطلاق منذ بعثة محمد صلى الله عليه وسلم حتى يرث الله الأرض ومن عليها مختصاً بمن تبعه لا غير^(٢).

وهذا هو معناه الخاص الذي لا يجوز إطلاقه على دين سواه، فكيف وما سواه دائر بين التبديل والنسخ، فإذا قال أهل الكتاب للمسلمين ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾، فقد أمر الله المسلمين أن يقولوا لهم: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ ولا يوصف أحد اليوم بأنه مسلم، ولا أنه على ملة إبراهيم، ولا أنه من عباد الله الحنفاء إلا إذا كان متبعاً لما بعث الله به خاتم أنبيائه ورسله محمداً صلى الله عليه وسلم^(٣).

(١) الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان، بكر بن عبد الله أبو زيد، ص ٥٥.

(٢) الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان، المصدر السابق، ص ٥٥.

(٣) الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان، بكر بن عبد الله أبو زيد، ص ٥٦.

ب- الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان:

كتب الدكتور بكر عبد الله أبو زيد رَحِمَهُ اللهُ كتابه القيم في هذا المجال، وانتصر فيه لملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام، وسمّى كتابه (الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان)، وخرج بمجموعة من النتائج:

- يجب على المسلمين الكفر بهذه النظرية: "وحدة كل دين محرّف منسوخ مع دين الإسلام الحق المحكم المحفوظ من التحريف والتبديل الناسخ لما قبله" وهذا من بديهيات الاعتقاد والمسلّمات في الإسلام.

- ويجب على أهل الأرض اعتقاد توحد الملة والدين في دعوة جميع الأنبياء والمرسلين في التوحيد والنبوات والمعاد، كما مضى التقرير مفصلاً، وأن الأصل العقدي لم يسلم إلا لأهل الإسلام، وأن اليهود والنصارى ناقضون له متناقضون فيه لا سيّما في الإيمان بالله وكتبه ورسله.

- ويجب على أهل الأرض اعتقاد تعدد الشرائع وتنوعها وأن شريعة الإسلام هي خاتمة الشرائع، ناسخة لكل شريعة قبلها، فلا يجوز لبشر من أفراد الخلائق أن يتعبد الله بشريعة غير شريعة الإسلام^(١).

- وإن هذا الأصل لم يسلم لأحد إلا لأهل الإسلام؛ فأمة اليهود كفرون بهذا الأصل لعدم إيمانهم بشريعة عيسى عَلَيْهِ السَّلَام، ولعدم إيمانهم بشريعة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأمة النصارى كفرون بهذا الأصل لعدم إيمانهم بمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبشريعته وبعموم رسالته، والأمتان كافرتان بذلك، وبعدم إيمانهم بمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومتابعته في شريعته وترك ما سواه وبعدم إيمانهم بنسخ شريعة الإسلام

(١) الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان، المصدر السابق، ص ٩١.

لما قبلها من الشرائع وبعدم إيمانهم بما جاء به من القرآن العظيم وأنه ناسخ لما قبله من الكتب والصحف، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وفي صحيح مسلم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار»^(١).

- أن الإسلام الذي جاءت به رسل الله والذي هو ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام والذي هو دين الإسلام الحق يبطل نظرية الخلط بينه وبين غيره من الشرائع الدائرة بين التحريف والنسخ، وأنه لم يبق إلا الإسلام وحده والقرآن وحده، وأن محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا نبي بعده، وأن شريعته ناسخة لما قبله، ولا يجوز اتباع أحد سواه^(٢).

- أنه لا يجوز لمسلم طباعة التوراة والإنجيل وتوزيعهما ونشرهما وأن نظرية طبعهما مع القرآن الكريم في غلاف واحد من الضلال البعيد والكفر العظيم؛ لما فيها من الجمع بين الحق: "القرآن الكريم" والباطل: لما في التوراة والإنجيل من التحريف والتبديل وأن ما فيهما من حق فهو منسوخ.

- أنه لا تجوز الاستجابة لدعوتهم ببناء "مسجد وكنيسة ومعبد" في مجمع واحد لما فيه من الدينونة، والاعتراف بدين يُعبد الله به سوى الإسلام، وإخفاء ظهوره على الدين كله ودعوة مادية إلى أن الأديان على أهل الأرض التدين بأي منها، وأنها على قدم المساوي، وأن الإسلام غير ناسخ لما قبله وهذه المردودات السالبة فيها من الكفر والضلال ما لا يخفى، فعلى المسلمين بعامة ومن بسط الله يده عليهم بخاصة

(١) الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان، بكر بن عبد الله أبو زيد، ص ٩٢.

(٢) الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان، المصدر السابق، ص ٩٤.

الحذر الشديد من مقاصد الكفرة من اليهود والنصارى في إضلال المسلمين والكيد لهم فإن بيوت الله في أرض الله هي "المساجد" وحدها ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩] ^(١).

- المساجد من شعائر الإسلام فواجب تعظيمها ورعاية حرمتها، وعمارتها ومن تعظيمها ورعاية حرمتها وعمارتها عدم الرضا بحلول كنائس الكافرين بالرسول محمد ﷺ ورسالته والقرآن الذي أنزل عليه، وشريعته الناسخة لمن سبقته من الديانات الكبرى والتي أخبرت عن طريق رسولها وكتبها بوجوب متابعة النبي ﷺ والإيمان قبل أن تنالها التحريف والتبديل.

- ليعلم كل مسلم أنه لا لقاء ولا وفاق بين أهل الإسلام والكتابيين وغيرهم من أمم الكفر إلا وفق الأصول التي نصت عليه الآية الكريمة ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وهي توحيد الله تعالى ونبذ الإشراك به وطاعته، في الحكم والتشريع واتباع خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ الذي بشرت به التوراة والإنجيل فيجب أن تكون هذه الآية هي شعار كل مجادلة بين أهل الإسلام وبين أهل الكتاب وغيرهم، وكل جهد يبذل لتحقيق غير هذه الأصول فهو باطل.. باطل.. باطل ^(٢).

(١) الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان، بكر بن عبد الله أبو زيد، ص ١٠٠.

(٢) الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان، بكر بن عبد الله أبو زيد، ص ١٠١.

8- قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]:

أ- قول الطبري:

يعني الله تعالى بقوله: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ﴾: فإن صدق اليهود والنصارى بالله، وما أنزل إليكم، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم وأقروا بذلك، مثل ما صدقتم أنتم به أيها المؤمنون وأقررتهم، فقد وفقوا ورشدوا ولزموا طريق الحق، واهتدوا، وهم حينئذ منكم وأنتم منهم بدخولهم في ملتكم بإقرارهم بذلك، فقد دلَّ الله تعالى بهذه الآية على أنه لم يقبل من أحد عملاً إلا الإيمان بهذه المعاني التي عدها قبلها^(١).

وهذه الكلمة من الله، وهذه الشهادة منه سبحانه، تسكب في قلب المؤمن الاعتزاز بما هو عليه، فهو وحده المهتدي ومن لا يؤمن بما يؤمن به فهو المشاق للحق والمعادي للهدى ولا على المؤمن من شقاق من لا يهتدي ولا يؤمن ولا عليه من كيده ومكره ولا عليه من جداله ومعارضته فالله سيتولاهم عنه، وهو كافيه وحسبه^(٢).

وفي قوله ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾: وإن تولى هؤلاء الذين قالوا لمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ فأعرضوا، فلم يؤمنوا بمثل إيمانكم أيها المؤمنون بالله، وبما جاءت به الأنبياء وابتعثت به الرسل، وفرقوا بين رسل الله وبين الله ورسله فصدقوا ببعض وكفروا ببعض، فاعلموا أيها المؤمنون، أنهم إنما هم في عصيان وفراق وحرب لله ولرسوله ولكم^(٣).

(١) تفسير الطبري "جامع البيان في تأويل القرآن"، (١١٣/٣).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، (١١٨/١).

(٣) تفسير الطبري "جامع البيان في تأويل القرآن"، (١١٣/٣).

وقوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾: فسيفيك الله يا محمد هؤلاء الذين قالوا لك ولأصحابك: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ من اليهود والنصارى، إن هم تولوا عن أن يؤمنوا بمثل إيمان أصحابك بالله، وبما أنزل إليك، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وسائر الأنبياء غيرهم، وفرقوا بين الله ورسله إما بقتل السيف وإما بجلاء عن جوارك وغير ذلك من العقوبات.

فإن الله هو ﴿الَسَّمِيعُ﴾ لما يقولون لك بألستهم ويبدون لك بأفواههم من الجهل والدعاء إلى الكفر والملل الضالة، و﴿الْعَلِيمُ﴾ بما يبطنون لك ولأصحابك والمؤمنين في أنفسهم من الحسد والبغضاء، ففعل الله بهم ذلك عاجلاً وأنجز وعده، فكفى نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتسليطه إياه عليهم، حتى قتل بعضهم وأجلى بعضاً، وأذل بعضاً وأخزاه بالجزية والصغار^(١).

● ب- قول السعدي:

أي؛ فإن آمن أهل الكتاب بمثل ما آمنت به يا معشر المؤمنين من جميع الرسل وجميع الكتب الذين أول من دخل فيهم وأولى خاتمهم، وأفضلهم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والقرآن، وأسلموا لله وحده، ولم يفرقوا بين أحد من الرسل ﴿فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ للصراط المستقيم الموصل لجنت النعيم، أي: فلا سبيل لهم إلى الهداية إلا بهذا الإيمان، لا كما زعموا بقولهم: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾، فزعموا أن الهداية خاصة بما كانوا عليه^(٢).

و"الهدى": هو العلم بالحق والعمل به، وضده الضلال عن العلم، والضلال عن العمل بعد العلم، وهو الشقاق الذي كانوا عليه لما تولوا وأعرضوا،

(١) تفسير الطبري، "جامع البيان في تأويل القرآن"، (٣/١١٦).

(٢) تفسير السعدي، "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، ص ٩٨.

فالمُشاق هو الذي يكون في شقِّ الله ورسوله في شق، ويلزم من المشاققة المحادة والعداوة البليغة التي من لوازمها بذل ما يقدرون عليه من أذية الرسول، فلهذا وعد الله رسوله أن يكفيه إياهم؛ لأنه السميع لجميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، العليم بما بين أيديهم وما خلفهم بالغيب والشهادة، بالظواهر والبواطن، فإذا كان كذلك، كفاك الله شرهم وقد أنجز الله لرسوله وعده وسلطه عليهم، حتى قتل بعضهم، وسبى بعضهم، وأجلى بعضهم، وشردهم كل مشرد، ففيه معجزة من معجزات القرآن، وهو الإخبار بالشيء قبل وقوعه، فوقع طبق ما أخبر^(١).

هذا هو منهاج القرآن وكلام رب العالمين الواضح في الفصل بين الحق والباطل، فلا تشطير ولا ترقيع، فالحق حق والباطل باطل، فالحق ينبغي أن يؤخذ كله ولا يتنازل فيه عن شيء فبقدر ما يقع من التنازل بقدر ما ينطفئ نور الحق في نفس الفاعل، فلهذا أمر الله نبيه محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن لا يلتفت إلى اقتراحات اليهود والنصارى الباطلة وأن يلتزم بشرعه وما ألزمه الله به، وهكذا يبقى هذا المنهاج خالداً ما دامت السماوات والأرض^(٢).

إنه ليس على المؤمن إلا أن يستقيم على طريقته، وأن يعتز بالحق المستمد مباشرة من ربه، وبالعلامة التي يضعها الله على أوليائه، فيعرفون بها في الأرض^(٣).

(١) تفسير السعدي "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، ص ٩٨.

(٢) التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، مكتبة مشكاة الإسلامية، لبنان، ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م، (٢/٣١٩).

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، (١/١١٨).

9- قوله تعالى: ﴿صَبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صَبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨]:

أ- قوله تعالى: ﴿صَبْغَةَ اللَّهِ﴾:

فسرها ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغيره على أنها "دين الله"، وسمي الدين صبغة لظهور أثره على صاحبه، مثلما يظهر أثر الصبغ في الألوان في الأشياء المصبوغة، وكذلك المتدين بدين الله يظهر أثر الدين عليه في صفحة وجهه ومسلكه وسمته وهيئته، وبما أن الصبغة تلزم الشيء المصبوغ وتبقى عليه، فكذلك المتدين يثبت على هذا الدين ويستمر عليه ويلزمه كلزوم اللون للشيء المصبوغ، ومن جهة أخرى، فإن الله عَزَّجَلَّ صبغ الأشياء في الطبيعة بالألوان المختلفة وشتان بين اللون الطبيعي الذي خلق الله الأشياء عليه وبين ألوان البشر الصناعية^(١).

وقوله ﴿صَبْغَةَ اللَّهِ﴾؛ فكان الإيمان بالله، وملة إبراهيم، وما أنزل الله على رسله هي الصبغة الإلهية التي تتغلغل في الجسد البشري، وجاء التعبير بكلمة صبغة حتى تعرف أن الإيمان يتخلل جسدك كله، إنه ليس صبغة من خارج جسمك ولكنها صبغة جعلها الله في خلایا القلب موجودة فيه ساعة الخلق، ولذلك فإن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «كُلُّ مولودٍ يولدُ على الفطرة، حتى يُعربَ عنه لسانه، فأبواه يهودانه، أو يُنصرانه، أو يُمجسانه»^(٢).

فكان الإيمان صبغة موجودة بالفطرة، إنها صبغة الله فإن كان أبواه مسلمين ظل على الفطرة وإن كان أبواه من اليهود أو النصارى يهودانه أو ينصرانه أي يأخذانه ويضعانه في ماء ويقولون صبغناه بماء المعمودية، هذا هو معنى صبغة الله^(٣).

(١) تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص ٢٣٣.

(٢) صحيح البخاري، رقم (١٣٥٨).

(٣) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١/٦١٣).

ويريد الحق سُبحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَبَيِّنَ لَنَا ذَلِكَ بَأَن يَجْعَلَ مِنْ آيَاتِ قُدْرَتِهِ اخْتِلَافَ ألواننا، وهذا الاختلاف في اللون من صبغة الله، واختلاف ألوان البشر ليس طلاء، وإنما في ذات التكوين، فيكون هذا أبيض، وهذا أسمر، وهذا أصفر، وهذا أحمر، وغيره.

هذه هي صبغة الله وما يفعلونه من تعميد للطفل لا يعطي صبغة؛ لأن الإيمان والدين لا يأتي من خارج الإنسان، وإنما يأتي من داخله، ولذلك فإن الإيمان يهز كل أعضاء الجسد البشري.

واقراً قول الحق سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَدِّدًا مَثَانٍ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣]، هذا هو التأثير الذي يضعه الله في القلوب، أمر داخلي وليس خارجياً، وأما إيمان غير المسلمين فهو طلاء خارجي وليس صبغةً لأنهم تركوا صبغة الله ونقول لهم: لا، هذا الطلاء من عندكم أنتم، أما دينياً فهو صبغة الله^(١).

إنَّ في الآية إرشاد، بمعنى أي الزموا صبغة الله وهو دينه، وقوموا به قياماً تاماً بجميع أعماله الظاهرة والباطنة وجميع عقائده في جميع الأوقات، حتى يكون لكم صبغة وصفة من صفاتكم، فإذا كان صفة من صفاتكم، أوجب ذلك لكم الانقياد لأوامره طوعاً واختياراً ومحبة، وصار الدين طبيعة لكم بمنزلة الصبغ التام للشوب الذي صار له صفة، فحصلت لكم السعادة الدنيوية والأخروية لحث الدين على مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ومعالي الأمور^(٢).

(١) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١/٦١٣).

(٢) تفسير السعدي "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، ص ٩٨.

ب- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً﴾:

إنَّها صبغة الله التي شاء لها أن تكون آخر رسالاته إلى البشر؛ لتقوم عليها وحدة إنسانية واسعة الآفاق لا تعصّب فيها ولا حقد، ولا أجناس فيها، ولا ألوان، ونقف هنا عند سمة من سمات التعبير القرآني ذات الدلالة العميقة^(١).

فقد جاء السياق على سبيل التعجب المتقرر للعقول الزكية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ أي: لا أحسن صبغة من صبغته وهذا استفهام بمعنى النفي، أي: لا أحد أحسن من الله صبغة ولا أحد أحسن منه ديناً وشرعة ومنهاجاً، لأن دين الله يشتمل على تحقيق المصالح، ودرء المفاسد بما لا يوجد مثله في أي دين وملة أخرى من أهواء البشر، والنفي بطريقة الاستفهام أبلغ من النفي المجرد، لأنه يحمل معنى التحدي، فكأنه يقول: هاتوا أحسن من الله صبغة، ولا شك أن هذا أبلغ في الإقناع^(٢).

وإذا أردت أن تعرف نموذجاً يبيّن لك الفرق بين صبغة الله، وبين غيرها من الصبغ، فقسّ الشكّ بضده، فكيف ترى في عبد آمن بربه إيماناً صحيحاً أثر معه خضوع القلب، وانقياد الجوارح، فلم يزل يتحلّى بكل وصف حسن وفعل جميل وخلق كامل ونعت جليل، ويتخلّى من كل وصف قبيح ورذيلة وعيب، فوصفه الصدق في قوله وفعله، والصبر والحلم والعفة والشجاعة، والإحسان القولي والفعلي، ومحبة الله وخشيته، وخوفه ورجاؤه، فحاله الإخلاص للمعبود والإحسان لعبيده، ففسه بعبدٍ كفر بربه وشرده عنه، وأقبل على غيره من المخلوقين، فاتصف بالصفات القبيحة من الكفر والشرك والكذب والخيانة والمكر والخداع

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (١/١١٨).

(٢) تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص ٢٣٣.

وعدم العفة والإساءة إلى الخلق في أقواله وأفعاله، فلا إخلاص للمعبود ولا إحسان إلى عبده، فإنه يظهر لك الفرق العظيم بينهما، ويتبين لك أنه لا أحسن ﴿صِبْغَةً﴾ من صبغة الله، وفي ضمنه أنه لا أقبح صبغة ممن انصبغ بغير دينه^(١).

ج- قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ﴾:

أي: خاضعون ومطيعون، و"العبادة" التذلل إلى الله بفعل أو امره واجتناب نواهيه، فمن كان على صبغة الله ودينه لزم العبادة وزين نفسه بطاعة الله تعالى^(٢).

وبيان لهذه الصبغة، وهي القيام بهذين الأصلين الإخلاص والمتابعة؛ لأن العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، ولا تكون كذلك حتى يشرعها الله على لسان رسوله، والإخلاص أن يقصد العبد وجه الله وحده في تلك الأعمال، فتقديم المعمول يؤذن بالحصص وقال: ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ﴾ فوصفهم باسم الفاعل الدال على الثبوت والاستقرار؛ ليدل على اتصافهم بذلك "وكونه صار صبغة لهم ملازمًا"^(٣). وقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ﴾ يدل على حصر العبادة واختصاصها بالله عز وجل^(٤).

10- قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ [البقرة: ١٣٩]:

لقد أمر الله تعالى نبيه المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقول لليهود والنصارى الذين زعموا أن لهم مكانة خاصة عند الله تعالى، كما حكاها عنهم سبحانه في قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ﴾ [المائدة: ١٨].

(١) تفسير السعدي، "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، ص ٩٩.

(٢) تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص ٢٣٣.

(٣) تفسير السعدي، "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، ص ٩٩.

(٤) تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص ٢٣٣.

أ- قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ﴾

أي: أتجادلوننا في الله تعالى، وتدعون أن لكم مكانة خاصة عنده وتزعمون أنكم أولى بالله منا من أجل أن نبيكم قبل نبينا وكتابكم قبل كتابنا^(١).

ب- قوله تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾:

وقد أمر الله تعالى نبيه بأن يبين لهم أنه لا حاجة إلى المحاجة، ولذا أمره أن يقول: ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾، فصلتُنا بالله واحدة وهو أنه ربنا جميعاً، وقد بين المماثلة في الصلة بالله تعالى لصلة الربوبية، وهي متحدة بمعنى الربوبية ولا تفاوت بيننا في هذا، فلستم أقرب إليه، ولا نحن أقرب من هذه الناحية^(٢).

وهو خالقنا وخالقكم والمتصرف فينا وفيكم وهو أعلم في تدبير خلقه وبمن يصلح للرسالة وبما ينسخ من الدين^(٣).

ونبههم النبي صلى الله عليه وسلم بأمر ربه بأن التفاوت إنما هو بالأعمال ولذلك أمره تعالى بأن يقول لهم: ﴿وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾.

ج- قوله تعالى: ﴿وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾:

أي أن أعمالنا بما فيها من خير ونفع تتحمل في ذاتها استحقاق جزائها، ولكم أعمالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وأن القرب إلى الله تعالى أو البعد، إنما هو بحسب الأعمال، فهي تقرب وهي تبعد، وهي التي يكون عليها الجزاء^(٤).

(١) تفسير الطبري، "جامع البيان في تأويل القرآن"، (٣/ ١٢٠-١٢١).

(٢) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (١/ ٤٢٩).

(٣) تفسير الزهراوي في البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص ٢٣٤.

(٤) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (١/ ٤٢٩).

د- قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾:

أي: في عبادته والتوجه إليه و"الإخلاص" تنقية الشيء من كل شائبة، والمعنى: أننا نخلص العبادة لله ولا نشوبها بشيء من الشرك^(١). ومن تعريفات الإخلاص تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين، فالعمل لأجل الناس شرك، وترك العمل الصالح من أجل الناس رياء والإخلاص: المعافاة منهما^(٢).

والإخلاص سرٌّ بين العبد وبين الله لا يعلمه ملك، فيكتبه ولا شيطان فيفسده، وفي الجملة الإخلاص حصن العبادة الحصين^(٣).

وقد بينت الآية الكريمة أنه لا مجال للجدل في وحدانية الله وربوبيته ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ ونحن محاسبون بأعمالنا وعليكم وزر أعمالكم ونحن متجردون له مخلصون لا نشرك به شيئاً ولا نرجو معه أحداً، وهذا الكلام تقرير لموقف المسلمين واعتقادهم وهو غير قابل للجدال والمحااجة واللجاج^(٤).

ومن ثم يضرب السياق عنه، ويتنقل إلى مجال آخر من مجالات الجدل، وذكر زعم اليهود والنصارى بأن إبراهيم كان يهودياً أو كان نصرانياً، ولقد قال الله في ذلك:

11- قوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا يَهُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٠]:

(١) تفسير الزهراوي البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص ٢٣٤.

(٢) تفسير الزهراوي البقرة وآل عمران، المصدر السابق، ص ٢٣٤.

(٣) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (١/ ٤٣٠).

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب، (١/ ١١٩).

انتقل السياق القرآني من توبيخ هؤلاء الذين يحاجون في الله ويجادلون في توحيده، إلى توبيخ آخر وهو دعواهم أن رسل الله هؤلاء كانوا هوداً أو نصارى، فزعمت اليهود أن إبراهيم عليه السلام كان يهودياً وزعمت النصارى أنه كان نصرانياً^(١).
أ- قوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾:

جاءت ﴿أَمْ﴾ هنا للانتقال من موضوع إلى موضوع، وقد نفى الله هذه المزاعم في سورة آل عمران بقوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]، فموسى والتوراة كانا بعد إبراهيم بزمان، وعيسى والإنجيل كانا بعد إبراهيم بزمان، فكيف يكون إبراهيم يهودياً أو نصرانياً؟ وقوله: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ﴾ وهو أكبر أولاد إبراهيم، ﴿وَإِسْحَاقَ﴾ أخ إسماعيل -الولد الثاني لإبراهيم-، ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ وهو ابن إسحاق ويسمى إسرائيل، ﴿وَالْأَسْبَاطَ﴾ وهم أبناء يعقوب الاثنا عشر^(٢). وهناك من قال: والأسباط: جمع سبط، والسبط في بني إسرائيل، كالقبيلة في العرب، والمراد عامة أنبياء بني إسرائيل، الذين اختارهم الله من أسباطهم^(٣).

وقوله: ﴿كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ أي: تزعمون أن كل هؤلاء كانوا على الديانة اليهودية أو النصرانية؟ وبالإضافة إلى استعمال حجة التاريخ في الرد على مزاعمهم، فقد أبطل الله دعوى اليهود والنصارى هذه بطريقة أخرى^(٤).

(١) تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ٢٣٤.

(٢) تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص ٢٣٥.

(٣) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (١/٢٠٢).

(٤) تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص ٢٣٥.

ب- قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾:

هم لا يستطيعون أن يقولوا: إنهم أعلم من الله، فمن المعلوم أنه أعلم، وهذا الاستفهام من أجل إفحام الخصم وإلزامه، فإذا قال الله شيئاً، وقال هؤلاء شيئاً يعارضه، فكلام من المعتبر والمصدق؟ لا شك أنه كلام الله تعالى، فكأنه يقول للمجادلين: أنتم أعلم بدين هؤلاء الرسل أم الله أعلم بدينهم؟^(١)

والإجابة معروفة: فهؤلاء الأنبياء ما كانوا هوداً ولا نصارى، بل كانوا مسلمين موحدين، كما مر معنا، ورسالة الإسلام هي دعوتهم ووصيتهم التي أوصوا بها أبناءهم، والتي ذكرها في الكتب المنزلة عليكم فأخفيتموها، وكتمت الشهادة التي أئتمنكم الله عليها^(٢).

ج- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾:

لا أحد أشدّ ظلماً في باب كتمان الشهادة، ممن أخفى وستر على الناس شهادة ثابتة عنده في كتاب دينه من الله، صادرة منه عزَّجَلَّ، وهم اليهود والنصارى، كتموا الإسلام وهم يعلمون أنه دين الله، واتخذوا اليهودية والنصرانية وكتموا محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم يعلمون أنه رسول الله، وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل^(٣).

فهي شهادة عندهم مودعة من الله لا من الخلق، فيقتضي الاهتمام بإقامتها فكتموها وأظهروا ضدها، جمعوا بين كتم الحق وعدم النطق به وإظهار الباطل والدعوة إليه، أليس هذا أعظم الظلم؟ بلى، والله سيعاقبهم عليه أشدّ العقوبة^(٤).

(١) تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، المصدر السابق، ص ٢٣٥.

(٢) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (١/٢٠٥).

(٣) تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، ص ٢٣٥.

(٤) تفسير السعدي، "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، ص ١٠٠.

د- قوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾:

هذا وعيد، وإخبار بأمر الله تعالى، وقد نفى الله تعالى نفيًا مؤكدًا أنه غافل عن عملهم، بل إنه سبحانه أخذهم بذنوبهم، فنفى بـ "ما" و"الباء" الدالة على استغراق النفي^(١).

وبيّنت الآية أن الله قد أحصى أعمالهم وعدّها، وادّخر لهم جزاءها، فبئس الجزاء جزاؤهم، وبئست النار مثوى الظالمين، وهذه طريقة القرآن الكريم في ذكر العلم والقدرة، عقب الآيات المتضمنة للأعمال التي يجازى عليها: الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، ويفيد أيضاً ذكر الأسماء الحسنى بعد الأحكام أن الأمر الديني والجزائي أثر من آثارها، وموجب من موجباتها، وهي مقتضية له^(٢).

قال الرازي: أما قوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: فهو الكلام الجامع لكل وعيد، ومن تصوّر أنه تعالى عالم بسرّه وإعلانه، ولا يخفى عليه خافية أنه من وراء مجازاته وإن خيراً فخير، وإن شراً فشر، لا يمضي عليه طرفة عين إلا وهو خائف، ألا ترى أن أحداً لو كان عليه رقيب من جهة سلطان يعد عليه الأنفاس لكان دائم الحذر والوجل، مع أن ذلك الرقيب لا يعرف إلا الظاهر، فكيف بالربّ الرقيب الذي يعلم السرّ وما يخفى، إذا هدد وأوعد بهذا الجنس من القول^(٣). وبمناسبة زعمهم أنهم يتمسكون بما كان عليه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، قال سبحانه مرة ثانية لهم^(٤):

(١) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (١/ ٤٣٠).

(٢) تفسير السعدي، "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، ص ١٠٠.

(٣) التفسير الكبير مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، (٤/ ١٠٠).

(٤) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (١/ ٢٠٥).

12- قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤١]:

فلا تحتجوا بهم، فكل إنسان يُسأل عن كسبه وعمله، ولا حجة لكم يوم القيامة في قولكم إنهم كانوا هوداً أو نصارى، فلن ينفعكم نسبكم إليهم، ولن يقبل الله حجتكم، ولا تقولوا إننا كنا نحسب أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق كانوا هوداً أو نصارى، أي كانوا على غير دين الإسلام؛ لأن هذه حجة غير مقبولة، وهل أنتم أعلم أم الله سبحانه الذي يشهد بأنهم كانوا مسلمين^(١). كما أن انتسابكم إليهم لن ينفعكم ما دامت عقائدكم وأعمالكم مخالفة لعقائدهم وأعمالهم.

وبهذا جردت الآيات الكريمة أهل الكتاب من جميع الحجج التي يحتجون بها، وبينت أن صلتهم بالأنبياء السابقين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مقطوعة، فلا صلة لهم بها البتة؛ لا في العقيدة، ولا في العبادة، ولا في الشريعة، ولا سبيل إلى الاتصال بهم إلا بالقرآن الكريم، والكتاب الذي لا ريب فيه، فهو رسالة النبي الخاتم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رسالة الإسلام، دعوة الأنبياء والمرسلين جميعاً (عليهم الصلاة والسلام)^(٢).

إنَّ القرآن الكريم يفصل بين الأبناء والآباء، وبين الخلف والسلف، وبين الأنبياء وذرياتهم، فالميزان في الجميع هو الاتباع لما بلغه أنبيأؤه ورسله، فلا ينفع التغني بنسب ولا نسبة إلى نبي أو صحابي أو تابعي أو عالم أو رجل صالح، فالكُلُّ له عمله ويُجزى بعمله^(٣).

(١) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١/٦٢٢).

(٢) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (١/٢٠٥).

(٣) التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، (٢/٣٣٢).

ويكرر الله سُبحَانَهُ وتَعَالَى أن كل امرئ بما كسب رهين، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى، ولهم ما كسبوا وعليكم ما اكتسبتم، وأن خير الماضين ليس خيراً لكم، وأن شرهم ليس وزره عليكم، ولقد قال تعالى في ذلك: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِّزَمْنِهِ لَاطِرٌ فِي عُنُقِهِ ۚ وَنُخْرِجُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مِنْشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ آبَنِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَفُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩]^(١).

إن الانتساب وحده لا يكفي مهما كانت صحة النسب، فمن انتسب مثلاً إلى آل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو مخالف له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما جاء به، فلا يغني عنه ذلك الانتساب شيئاً، كما صرح بذلك الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث قال: «يا فاطمة بنت محمد، سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئاً.. يا عباس.. يا صفية..»^(٢).

وما أكثر المتغنين في هذا الزمان بالأنساب والطوائف والمناطق والعصبيات، وهم مخالفون لأصولهم وأجدادهم فيما كانوا عليه من متابعة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما عاب الله على بني إسرائيل الذين زعموا الانتساب إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وهم مخالفون لهم في التوحيد والدعوة والاستقامة على شرع الله تعالى، كل ذلك لا يغني عنهم من الله شيئاً^(٣).

(١) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (١/ ٤٣٢).

(٢) التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، (٢/ ٣٣٢).

(٣) التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، المصدر السابق، (٢/ ٣٣٢).

❖ ثانياً: ذكر إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في سورة آل عمران:

١- قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٤، ٨٥].

تفسير الآيات الكريمة:

إنّ الآية الكريمة تحدّثت عن إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وكونهما من الأنبياء الكرام في موكبهم الجميل الممتد عبر الزمن وضرورة الإيمان بهم، فهذا من أركان الإيمان.

وهذه الآية الكريمة وغيرها من الآيات تبين حقيقة الأمة المسلمة، والمدركة لحقيقة العهد بين الله ورسله، وحقيقة دين الله الواحد ومنهجه، وحقيقة الموكب السنّي الكريم الذي حمل هذا المنهج وبلغه، فإنّ الله أمر نبيّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يعلم هذه الحقيقة كلّها، ويُعلن إيمان أمّته بجميع الرسالات، واحترامها لجميع الرسل، ومعرفة بطبيعة دين الله، الذي لا يقبل منه سواه.

فهذا هو الإسلام في سعته، وشموله لكلّ الرسالات قبله، وفي ولائه لكافة الرسل حملته، وفي توحيده لدين الله كلّّه، ورجعه جميع الدعوات وجميع الرسالات إلى أصلها الواحد، والإيمان بها جملة كما أرادها الله لعباده.

ومما هو ملفت في الآية القرآنيّة الأولى هنا هو ذكرها الإيمان بالله، وما أنزل على المسلمين - وهو القرآن - وما أنزل على سائر الرسل من قبل، ثمّ التعقيب على هذا الإيمان بقوله ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾، فهذا الإقرار بالإسلام به مغزاه،

بعد بيان أن الإسلام هو الاستسلام والخضوع والطاعة واتباع الأمر والنظام والمنهج والناموس، كما يتجلى في الآية فيها ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]، فظاهر أن إيلاء الكائنات الكونية هو إسلام الخضوع للأمر، واتباع النظام وطاعة الناموس، ومن ثم يتجلى عناية الله - سبحانه - ببيان معنى الإسلام وحقيقته في كل مناسبة، كي لا يتسرب إلى ذهن أحد أنه كلمة تُقال باللسان، أو تصديق يستقر في القلب، ثم لا تتبعه آثاره العملية من الاستسلام لمنهج الله، وتحقيق هذا المنهج في واقع الحياة. وهي لفئة ذات قيمة قبل التقرير الشامل الدقيق الأكيد.

- ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾:

لا مجال - في ظل هذا التابع البين للنصوص - لتأويل جوهر الإسلام على غير وجهه، ولا لتحريفها عن مواضعها لتقديم تعريف مبتور أو مغاير لما عرفه الله به. فالإسلام، في حقيقته، هو الدين الذي يخضع له الكون كله، طوعاً أو كرهاً.

وفي صورة خضوع للنظام الإلهي الذي قرره الله له، ودبره به، ولن يكون الإسلام إذن هو النطق بالشهادتين، دون أن يتبع شهادة أن لا إله إلا الله معناها، وحقيقتها، وهي توحيد الألوهية، وتوحيد القوامة، ثم توحيد العبودية، وتوحيد الاتجاه، ودون أن يتبع شهادة أن محمداً رسول الله معناها وحقيقتها وهي التقيّد بالمنهج الذي جاء به من عند ربّه للحياة، واتباع الشريعة التي أرسله بها والتحاكم إلى الكتاب الذي حمّله إلى العباد^(١).

وإن الإسلام هو دين الأنبياء والمرسلين منذ آدم عَلَيْهِ السَّلَام إلى خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولذلك جاء ذكر الله إسحاق ويعقوب من ضمن

(١) في ظلال القرآن، (١/٤٢٣).

الأنبياء الكرام عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الذين ساروا على رسالة التوحيد، وإفراد الله بالعبادة، وعلى ملة إبراهيم حنيفاً، وحاربوا الشرك والكفر بكل أشكاله وأنواعه.

٢- قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ ۚ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣]:

ويعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ سمّاه القرآن الكريم إسرائيل وقد بينّا ذلك في الصفحات السابقة. والآية الكريمة تقرّر أنّ كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة، ويبدو أنّ هذا التقرير كان ردّاً على اعتراض بني إسرائيل على إباحة القرآن لبعض المحرّمات اليهوديّة من الطعام؛ مع أنّ هذه المحرّمات إنّما حرّمت عليهم وحدهم في صورة عقوبة على بعض مخالفاتهم^(١).

❖ ثالثاً: ذكر إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في سورة النساء:

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَالْأَسْبَاطَ ۚ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٥].

إنّ الآيات الكريمة تبين لنا أنّ إسحاق ويعقوب في موكب الأنبياء والمرسلين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وأنّ رسالتهم تعلّموها من الله عَزَّجَلَّ عن طريق الوحي في جملة من يوحى إليهم من النبيين.

(١) في ظلال القرآن، (١/٤٣٢).

وهذا السياق القرآني يتحدّث عن موكب واحد، وهو يترأى عن طريق التاريخ البشري الموصول، ورسالة واحدة لهدى واحد للإنذار والتبشير، وموكب واحد يضمّ هذه الصفوة المختارة من البشر: نوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وموسى وهارون وسليمان وداود وغيرهم ممّن قصّهم الله على نبيّه المصطفى ﷺ في القرآن الكريم، ومن لم يقصّ عليه. موكب من شتى الأقسام والأجناس وشتى البقاع والأرضين، في شتى الآونة والأزمان، لا يفرّقهم نسب ولا جنس ولا أرض ولا وطن، ولا زمن ولا بيئة، كلّهم يؤدّي الإنذار والتبشير، وكلّهم يحاول أن يأخذ بزمام القافلة إلى ذلك النور، سواء منهم من بُعث لهداية قومه، ومن جاء للناس أجمعين كمحمّد رسول الله ﷺ خاتم النبيين، كلّهم تلقّوا الوحي من الله تعالى، وما جاؤوا بشيء من عندهم، أولئك الرسل منهم من قصّ الله على رسوله، ومنهم من لم يقصّ.

اقتضت عدالة الله ورحمته أن يبعثهم إلى عبادِهِ يبشّرونهم لما أعدّه الله للمؤمنين الطائعين من نعيم ورضوان وينذرونهم بما أعدّه الله للكافرين العصاة من جحيم وغضب، كلّ ذلك: ﴿يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾، والله الحجّة البالغة في الأنفس والآفاق وقد أعطى الله البشر من العقل ما يتدبّرون به دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق ولكنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رَحْمَةً بعباده، وتقديرًا لغلبة الشهوات على تلك الأدلّة العظيمة التي أعطاهَا لهم (العقل) اقتضت رحمته وحكمته أن يرسل إليهم الرسل مبشّرين ومنذرين يذكرّونهم ويبصّرونهم، ويحاولون استنقاذ فطرتهم وتحرير عقولهم من ركام الشهوات التي تحجب عنها أو تحجبها من دلائل الهدى وموجبات الإيمان في الأنفس والآفاق.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾؛ عزيزاً: أي قادراً على أخذ العباد بما كسبوا، حكيماً: يدبر الأمر كله بالحكمة ويضع كل أمر في نصابه^(١).

إنّ من نعمة الله على الإنسانية إرسال الرسل، والأنبياء إلى البشر وأنزل الكتب والتعاليم الإلهية بواسطة الوحي الربّاني.

إنّ الفطر السويّة والعقول الراشدة تهتدي بالنبوة، والرسالة إلى حقيقة توحيد الله وإفراده بالعبادة، وإلى التّصوّر الاعتقادي الصحيح والخلق القويم، ونظام الحياة الذي ارتضاه لعباده وتشريعاته الحكيمة والعدالة والمبني على المصلحة والرحمة لعباده ممّا يجعل الإنسان يعيش في هذه الدنيا بعيد عن الضنك والشقاوة، بل على السعادة والهدى. فسبحان الذي قال في كتابه ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

♦ رابعاً: ذكر إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَام في سورة الأنعام:

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنعام: ٨٤، ٨٥].

لم يستطع إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام أن يقيم بين قومه من بعد أن بلّغهم الدعوة إلى الله، وبعد أن اتّسعت الهوة بينه وبينهم عندما جعل أصنامهم جذاذاً، وألقوه في النار ونجّاه الله من النار، ولما أيقن أنّه لا مقام له بينهم هاجر واعتزلهم وأخذ يطوف في الآفاق، فذهب إلى بلاد الشام وإلى مصر، وأخذ يبثّ التوحيد في كل ركن ولا يصاحبه إلّا امرأته ومعه ابن أخيه لوط عَلَيْهِ السَّلَام الذي قام مع عمّه بالدعوة خير قيام.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٢/ ٨٠٥-٨٠٦).

ولمّا أحسّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في طاعة ربّه، وأخلص في الدعوة إلى توحيده أحسن الله تعالى إليه برفع درجاته، وجعل النبوة والكتاب في أولاده وذريته، فهو أصل شجرة النبوة، ومنه تفرعت فروعها وأغصانها، فما من نبي أكرمه الله تعالى بالنبوة والرسالة بعده إلا كان من ذريته عَلَيْهِ السَّلَامُ قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧] (١).

إنّ الله عَزَّجَلَّ جعل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ عزيزاً في الدنيا؛ بأن جعل أشرف الناس - وهم الأنبياء والرسل - من نسله ومن ذريته، وأبقى هذه الكرامة في نسله إلى يوم القيامة؛ لأنّ من أعظم أنواع السرور علم المرء بأنه سيكون من عقبه الأنبياء والملوك.

والمقصود من هذه الآيات تعديد أنواع نعم الله على إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ جزاءً على قيامه بالذّب عن دلائل التوحيد (٢).

وهذه الآيات من سورة الأنعام جمع فيها ثمانية عشر نبياً من أنبياء الله: إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونوح عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هؤلاء أربعة ثم ذكر أربعة عشر نبياً في مجموعات ثلاث كما تجد ذلك في الآيات السابقة (٣)، وإليك تفسيرها:

- قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾:

يخبر الله تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحاق عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بعد أن طعن في السن، وأيس هو وامرأته سارة من الولد، فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط

(١) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٢/ ٤٧١).

(٢) التفسير الكبير مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، (١٣/ ٦٧).

(٣) قصص القرآن الكريم، فضل حسن عباس، ص ٢٩٣.

فبشروهما بإسحاق، فتعجبت المرأة من ذلك: ﴿قَالَتْ يَوَئِلَيَّ ءَالِدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾، وبشروه مع وجود بنوته وبأن له نسلاً وعقباً، كما قال: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصفات: ١١٢]، وهذا أكمل في البشارة وأعظم في النعمة، وقال: ﴿فَبَشِّرْهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ﴾ (هود: ٧١) أي: ويولد لهذا المولود ولد في حياتكما فتقر أعينكما كما قررت بوالده، فإن الفرح بولد الولد شديد لبقاء النسل والعقب.

ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يعقب لضعفه وقعت البشارة به وبولده باسم "يعقوب" الذي فيه اشتقاق العقب والذرية، وكان هذا مجازاة لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حين اعتزل قومه وتركهم، ونزع عنهم وهاجر من بلادهم ذاهباً إلى عبادة الله في الأرض، فعوضه الله عَزَّوَجَلَّ عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه على دينه؛ لتقر بهم عينه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَتْهُمْ وَأَوْفَ بَنَاتِهِمْ هَبْ سَوَاءً أَلْقُوا لَهُمْ حُلَاهُمْ وَأَقْبَلُوا إِلَيْهِمْ فَوَلَّوهُمْ كَلًّا﴾ (سورة الحجر: ٦٦) وقال ههنا: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ (١).

ونلاحظ في الآية السابقة تعظيم هبة الله لإبراهيم بولده إسحاق وبحفيده يعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بنون الجمع والثناء عليهما بالهداية: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ والوهاب والهبة: إعطاء الشيء بلا عوض.

وقد جاءت المنة على إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بهبة إسحاق ويعقوب له بصيغة الجمع أربع مرات في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ:

(١) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، (٣/ ٢٩٠-٢٩١).

أولها: من حيث ترتيب المصحف ما ذكرناه في سورة الأنعام.

والثاني: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَعَزَّلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۖ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۖ﴾ [مريم: ٤٩، ٥٠].

والثالث: قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ۖ﴾ [الأنبياء: ٧١، ٧٢].

والرابع: قوله تعالى: ﴿فَتَأْمَنَ لَهُ لُوطٌ ۖ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۖ﴾ [الأنبياء: ٦٦] وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿ [العنكبوت: ٢٦، ٢٧].

وجميع هذه السور مكية، وهذا التقديم والاختصاص بالذكر لإسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في السور المكية فيه تسلية لنبيينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن الله سيحفظه وينصره، كما حفظ أباه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من قبل، وبأن الله سيمكّن له وينشر دينه وإن عاداه قومه، كما مكّن لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وذريته من قبل.

وفي الجمع بين إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في هذه المواضع الأربعة ما يدل على أن البشارة بها كانت في مقام واحد، كما جاء ذلك صريحاً في قوله تعالى خطاباً لسارة زوج إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَلَبَسَ ثِيَابًا يَبْسُفُ بِمَا يَصْنَعُ ۖ﴾ [هود: ٧١].

وقال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: يقول تعالى ذكره: فجزيينا إبراهيم على طاعته إيانا، وإخلاصه توحيد ربّه، ومفارقته دين قومه المشركين بالله، بأن رفعنا درجته في عليين،

وآتيانه أجره في الدنيا، ووهبنا له أولاداً خصصناهم بالنبوة، وذرية شرفناهم منا بالكرامة، وفضلناهم على العالمين منهم ابنه إسحاق وابن ابنه يعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ﴿كَلَّا هَدَيْنَا سَبِيلًا﴾، يقول: هدينا جميعهم لسبيل الرشاد، فوفقناهم للحق والصواب^(١).

أ- وقد تحدث العلماء عن الحكمة من تقديم إسحاق على إسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في سورة الأنعام:

وقد أجاب المفسر الكبير الرازي على ذلك، فقال: فإن قالوا: لم لم يذكر إسماعيل مع إسحاق عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بل ذكر آخر ذكره عنه بدرجات؟ قلنا: لأن المقصود بالذكر هنا أنبياء بني إسرائيل، وهم بأسرهم أولاد إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وأما إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ فإنه ما خرج من صلبه أحد من الأنبياء إلا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا يجوز ذكر محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا المقام؛ لأنه تعالى أمر محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يحتج على العرب في نفي الشرك بالله بأن إبراهيم لما ترك الشرك وأصر على التوحيد، رزقه الله النعم العظيمة في الدين والدنيا، ومن النعم العظيمة في الدنيا أن آتاه الله أولاداً كانوا أنبياء وملوكاً، فإذا كان المحتج بهذه الحجة هو محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ امتنع أن يذكر نفسه في هذا المعرض، فلهذا السبب لم يذكر إسماعيل مع إسحاق^(٢).

هذا وجه ظاهر قوي، ويعنى بذلك: أن إسماعيل وإسحاق عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لم يذكرهما مقترنين وإلا فإن إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ ذكر بعد ذكر إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ بآية واحدة.

وقال البقاعي في ذكر حكمة الابتداء بإسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: وابتدأ سبحانه بهما؛ لأن السياق للامتنان على الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو أشدُّ سروراً بابنه

(١) تفسير الطبري "جامع البيان في تأويل القرآن"، (٧/ ٢٦٠).

(٢) التفسير الكبير مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، (٦/ ٣٥٩).

الذي مُتّع به، ولم يؤمر بفراقه، وابن ابنه الذي أكثر الأنبياء الداعين إلى الله من نسله ومن خواصه، وهو الموجب الأعظم للبدء أن أبناءه طهروا الأرض المقدسة التي هي دار إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ومختاره للسكنى بنفسه ونسله، بل مختار الله له ولهم بعده بمدد ظهورها من الشرك وعبادة الأوثان، ودعوا إلى الله ونوروا الأرض بعبادته^(١).

ب- الحكمة من ذكر هداية الله لنوح بعد ذكر هبة إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ:

في قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾: أي: من قبله هديناه، كما هديناه، ووهبنا له ذرية صالحة، وكل منهما له خصوصية عظيمة، وأما نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمَّا أَغْرَقَ أَهْلَ الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ آمَنَ بِهِ - وهم الذين صحبوه في السفينة - جعل الله ذريته هم الباقين، فالناس كلهم من ذرية نوح، وكذلك الخليل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ولم يبعث الله عَزَّ وَجَلَّ بعده نبياً إلا من ذريته، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ الْأَبْنَاءَ وَالْكُتُبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا الْأَبْنَاءَ وَالْكُتُبَ﴾ [الحديد: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨]^(٢).

(١) حديث القرآن عن إسماعيل وإسحاق عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، د. سليمان إبراهيم الحصين، مجلة تبيان للدراسات القرآنية، الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه، ٢٠١٦م، ص ٤٧١، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، (٧/ ١٧٧٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، (٣/ ٢٩٠-٢٩٢).

المبحث الثالث:

ذكر إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في سورة هود وإبراهيم والحجر والذاريات

يتناول هذا المبحث عرضاً لما ورد من ذكر إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في عدد من سور القرآن الكريم، وتحديدًا في سور هود، وإبراهيم، والحجر، والذاريات. ويتتبع السياقات المختلفة التي ورد فيها ذكرهما، سواء في إطار البشارة أو سرد القصص القرآني المتعلق بإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ. وكما يُظهر هذا المبحث أوجه التشابه والاختلاف في التعبير القرآني، وأثر ذلك في إبراز المعاني التربوية والإيمانية. ويهدف إلى تسليط الضوء على عظمة الرسالة الإلهية المتصلة بسلسلة النبوة بين إبراهيم وذريته.

أولاً: بشرى الملائكة لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بإسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في سورة هود:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَآَ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْزَنْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَأَمْرَتُهُ قَابِئَةُ فَضَحِكِكَ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَوَيْلَئِي أَلَدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَنْعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود: ٦٩، ٧٣].

احتفى القرآن الكريم بإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في طفولته وشبابه ورجولته، كذلك يستمر الاحتفاء به في مرحلة شيخوخته في موطنه الجديد، وما أسبغ الله تعالى عليه

من المال والإنعام والمنزلة العالية عند الله تعالى، حيث تمرّ به ملائكة الربّ سبحانه مبشرة مُخبرة.

ولقد حكى القرآن الكريم تفاصيل قصّة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مع الملائكة في أربع حلقات، تختلف في سياقها ونظمها، وما تتضمنه من وقائع وأحداث وردت كلّها في سور مكية^(١). وجاءت حسب ترتيب المصحف الكريم؛ الأولى في سورة هود، والثانية في سورة الحجر، والثالثة في سورة العنكبوت، والرابعة في سورة الذاريات.

والمتمأل في هذه القصة - في جميع حلقاتها - يجد أن الحوار فيها يرسم شخصية إبراهيم - عَلَيْهِ السَّلَامُ - في هذه المرحلة المتأخرة من حياته بأسلوب حوارى ممتع، ينبض بالحياة، ويمور بالحركة، ويتسم بالواقعية، مما يدل على شفاء الجانب الحوارى في هذا النوع من القصص، كما يؤكد تنوع مصادر الحوار وموضوعاته في القرآن الكريم^(٢).

١- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَّمَ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ﴾ [هود: ٦٩]:

أ- ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾:

الواو: واو عطف قصة على قصة أو استئناف. واللام: الموطئة للقسم، وقد: للتحقيق، وخاصة إذا دخلت على الماضي، وهي كذلك هنا.

والمجيء: القدوم من قريب، والإتيان: القدوم من بعيد، والملائكة أو الرسل التي جاءت إبراهيم جاءت من بعيد، فلمَ عبر بالفعل المفيد القرب وهو جاءت؟

(١) صناعة الحوار "مقاربة تداولية جمالية لحوارات سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في القرآن الكريم"، حمد عبد الله السيف، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، لبنان، ط ١، ٢٠١٥م، ص ١٦٥.

(٢) صناعة الحوار، المصدر السابق، ص ١٦٦.

لأنَّ البعيد في مقياسنا قريب في مقياس الله تعالى، وهل كانت الرسل ملكاً واحداً أم مجموعة من الملائكة؟^(١).

وتدلنا ﴿رُسُلًا﴾ كانوا ثلاثة فأكثر^(٢)، وهناك خلاف بين العلماء في العدد والمراد بـ ﴿رُسُلًا﴾ الملائكة: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥]^(٣).

والملائكة خلق من مخلوقات الله تعالى، بل هي من المخلوقات العظيمة، ولقد كثر ذكر الملائكة في القرآن الكريم، ووجب علينا الإيمان بهم، وهذا ركن من أركان الإيمان الستة، والملائكة أجسام لطيفة، أعطيت القدرة على التشكل بأشكال مختلفة، خلقت من نور، وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، لهم وظائف متعددة أمرهم الله بالقيام بها.

وذكر القرآن الكريم صفات اتصفت بها الملائكة، فمنها الخَلْقِيَّةُ كالأجنحة العظيمة، فمنهم من يملك جناحين أو ثلاثة أو أربعة، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّى وَثُلُثَ رُبْعٍ يَرِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١].

وكذلك أنهم لا يوصفون بالذكورة ولا الأنوثة، وإنهم لا يأكلون ولا يشربون ومن الصفات الخَلْقِيَّةُ الاستحياء^(٤)، فقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

(١) تفسير سورة هود، "دراسة تحليلية موضوعية"، أحمد نوفل، جمعية المحافظة على القرآن الكريم،

عمّان، الأردن، ط ١، ١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م، ص ٢٥٧.

(٢) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٤/ ٧٥).

(٣) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٤/ ٧٥).

(٤) المسائل العقدية في حوارات إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام في القرآن الكريم، تهاني إبراهيم عبد الرحمن، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة النيلين، الخرطوم، السودان، ٢٠١٨م، ١٤٣٩هـ، ص ٦٦.

«ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة»^(١). وتمثلت صفات الملائكة التي اقترنت بقصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في ثلاث صفات، ألا وهي:

• القدرة على التشكل:

لقد خلق الله الملائكة من نور، ومنحهم قدرة على التشكل بأي هيئة، وهذا يظهر جلياً في مجيء الملائكة لإبراهيم على هيئة بشر ولم يعرفهم عَلَيْهِ السَّلَامُ في بداية الأمر، فقد أتت على صورة بشر، فنكرهم حين قدّم لهم الطعام فلم يأكلوا منه، فكشفت الملائكة عن حقيقة الأمر، كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى.

• لا يأكلون ولا يشربون:

من صفات الملائكة أنّها لا تأكل، كما أخبر الله تعالى عنهم في معرض حوار الملائكة وإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإنه قدّم لهم من الطعام العجل الحنيد، فلم تصل أيديهم إليه، واتفق العلماء على أن الملائكة لا تأكل ولا تشرب^(٢).

• وظائف الملائكة:

لا ننسى أن للملائكة وظائف عدة نطق بها القرآن الكريم والسنة وهي كثيرة، ومن الوظائف التي وردت في قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ تقديم البشارة، وإرسال العذاب ونصرتهم لعباد الله المؤمنين كما سيأتي بيانه في محله بإذن الله تعالى.

وفي قوله: ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾: هذا الرسول العظيم خليل الله، وثاني أعظم رسل الله بعد خاتم النبيين وهو أبو الأنبياء، فهو عظيم المنزلة عند الله، وعند الأمم كلها^(٣).

(١) صحيح مسلم، رقم (٢٤٠١).

(٢) المسائل العقدية في حوارات إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في القرآن الكريم، ص ٦٨.

(٣) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص ٢٥٧.

و﴿بِالْبُشْرَى﴾: الباء متعلقة بجاءت، والبشرى الخبر السار الذي يكون في المستقبل قريباً أم بعيداً، والباء: للمصاحبة؛ لأنهم جاؤوا لأجل البشرى، فهي مصاحبة لهم كمصاحبة الرسالة للمرسل بها^(١).

وقال الشنقيطي: لم يبين هنا ما المراد بهذه البشرى التي جاءت بها رسل الله إبراهيم، ولكنه أشار بعد هذا إلى البشارة بإسحاق ويعقوب، في قوله تعالى: ﴿وَأَمْرًا لَهُ قَائِمَةٌ فَضَحَكْتُ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]؛ لأن البشارة بالذرية الطيبة شاملة للأب والأب، كما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣]^(٢).

وقيل البشرى هي إخبارهم له بأنهم أرسلوا لإهلاك قوم لوط، وعليه فالآيات المبينة لها كقوله هنا في السورة: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ لُّوطٍ﴾ [هود: ٧٠]، وقوله: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ [الحجر: ٥٨، ٥٩]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٢، ٣٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّا أَهْلُهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١]، والظاهر القول الأول، وهذه الآية الأخيرة تدل عليه؛ لأن فيها التصريح بأن إخبارهم بإهلاك قوم لوط بعد مجيئهم بالبشرى؛ لأنه مرتب عليه بأداة الشرط التي هي ﴿لَمَّا﴾ [سبأ: ٣٣] كما ترى^(٣).

(١) تفسير سورة هود، المصدر السابق، ص ٢٥٧.

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، (٣/ ٢٩-٣٠).

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، (٣/ ٢٩-٣٠).

ب- ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾:

سَلَمُوا عليه، وردَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ففي هذا مشروعية السَّلام، وأنه لم يزل من ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأنَّ السَّلام قبل الكلام، وأنه ينبغي أن يكون الردَّ أبلغ من الابتداء؛ لأنَّ سلامهم بالجملة الفعلية الدالة على التجدد، وردّه بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت والاستمرار، وبينهما فرق كبير كما هو معلوم في علم اللغة^(١).

والله يقول في كتابه: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦]، وهكذا استقبل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ رسل الله (عَزَّوَجَلَّ)، والآية تدل على أن السَّلام هو تحية الإسلام، وهو تحية الملائكة أيضاً، وكذلك أخبر الله أنها تحيتهم لعباده المؤمنين في الآخرة في آيات عديدة من كتابه العزيز، كقوله في سورة الرعد: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۖ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، وكقوله في سورة الزمر أيضاً: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]^(٢).

ج- ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ﴾:

والعجل هو ولد البقر^(٣)، فلم يمكث إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ طويلاً حتى جاءهم بعجل مشوي، وقد عبّر عن العجل في سورة الذاريات بقوله تعالى: ﴿فَرَأَى إِلَى آهِلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٦] فهو سمين وهو حنيذ^(٤).

(١) تفسير السعدي "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، ص ٧٥٨.

(٢) القصص القرآني بين الآباء والأبناء، عماد زهير حافظ، ص ١٣٦.

(٣) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١١/ ٦٥٥).

(٤) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص ٢٥٨.

والحنيد المشوي على حجارة، المحممة في حفرة من الأرض، وهو من صنيع أهل البادية، يُقال: حنذ الشاة يحنذها حنذاً، شواها بهذه الطريقة، فهي حنيد^(١).

إنَّ تقديم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ عَجلاً مشوياً ناضجاً لهم فور دخولهم عليه، دليل على كرمه، ومبالغة في إكرامه لهم، فكان يكفيهِ أن يقدم لهم شيئاً من اللحم أو يقدم لهم خروفاً، أما أن يقدم لهم عَجلاً، فهذا لا يصدر إلا عن رجل كريم^(٢). وإن الضيافة من مكارم الأخلاق، ومن آداب الإسلام، ومن خُلق الرسل والنبيين والصالحين^(٣).

وقال ابن كثير: وقد تضمنت هذه الآية آداب الضيافة من وجوه كثيرة^(٤) منها:

- من الضيافة حسن استقبال الضيف.
- المبادرة إلى إعداد الطعام دون أن يسألهم عن شأنهم.
- والتعبير ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ﴾ يدلُّ على سرعة مبادرة الخليل إبراهيم - عَلَيْهِ السَّلَامُ - إلى إعداد الطعام لضيوفه الكرام.
- إعداد الطعام استغرق وقتاً قصيراً، رغم أن الطعام الذي أعدّه وقدمه هو عجل سمين لذيذ حنيد مشوي على الحجارة المحممة، وفي هذا ما يدل على إكرام إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لضبطه وحفاوته بهم، حيث قدم لهم أفضل ما عنده^(٥).

(١) تفسير سورة هود، المصدر السابق، ص ٢٥٨.

(٢) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/٤١٩).

(٣) شريعة الله للأنبياء، محمد مصطفى الزحيلي، دار ابن كثير، دمشق، ط ١، ٢٠١٨م، ص ١٧٧.

(٤) تفسير القرآن العظيم، (تفسير ابن كثير)، (٤/٢٦٤).

(٥) المرأة في القصص القرآني، أحمد الشرقاوي، دار السلام للطباعة، القاهرة، ط ١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، (١/١٦٢).

ولذلك سُمِّي إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ "أبو الضيفان"، فهو أول من أضاف الضيف؛ ولشهرته بالكرم، ومن كرمه يأتي الطعام الكثير للعدد القليل، وهذا الكرم ليس من الإسراف، فالطعام الزائد يؤكل من أهل البيت أو يوزع على الفقراء^(١). ومن أدب الضيافة تقريب الطعام إلى الضيوف، والملاطفة في الكلام كقوله في سورة الذاريات: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٧]^(٢).

٢- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ لُّوطٍ﴾ [هود: ٧٠]:

إنَّ الارتباط ظاهر ووثق بين الآية السابقة التي فيها أحضر إبراهيم الطعام لضيوفه وبين هذه التي فيها لم يمدَّ الضيوف أيديهم إلى الطعام، فتوجس منهم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

أ- ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾:

فلما: "فاء" التعقيب متصلة بـ "لما" المقيدة أول حدث الشيء تفيدان المسارعة في حدوث أمر ما، وهنا لما رأى أيدي الضيوف، وهو لا يعلم أنهم ملائكة رآها لا تمتد إلى الطعام، وعبر بـ ﴿لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ عوضاً عن لا تمتد، فهي لن تصل إذا لم تمتد، ولعلي ألمح أن تعبير لا تصل، يفيد تقريب الطعام الدال على الإكرام بحيث لا يحتاج الضيف إلى مدّ يده، وإنما هي من المفروض أنّها واصله إلى الطعام؛ لقربه أو شدة قربه أعني قرب القرى، ومعنى ﴿نَكِرَهُمْ﴾ إما استنكر فعلهم، أو شعر بوحشة من فعلهم أو شعر بغرابة سلوكهم، فالضيف الذي لا يتناول طعام المضيف أمره غير مريح بل مخيف^(٣).

(١) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص ٢٥٨.

(٢) الأحاديث الصحيحة من أخبار وقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، إبراهيم محمد العلي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط ١، ١٩٩٥ م، ص ٦٤.

(٣) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص ٢٦٠.

ولأنَّ من تقاليد أهل البدو وأهل الريف يتخرجون من خيانة من أكل معه طعاماً، فإذا امتنعوا عن طعام أحد، فمعنى هذا أنهم ينوون به شراً، أو أنهم لا يثقون في نيته لهم^(١)، ولذا قال بعده:

ب- ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾:

أي: شعر منهم، أو نحوهم بشيء من الخوف والتحسب والظن والتوجس والخيانة والخوف^(٢).

ج- ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾:

لاحظ الضيوف تخوَّف إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ منهم، فأرادوا طمأنينته وأخبروه عن طبيعتهم ليطمئن، إنَّهم لم يأكلوا عنده؛ لأنَّهم ملائكة، والملائكة لا يأكلون الطعام، فلا يخف^(٣).

د- ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾:

﴿إِنَّا﴾: تأكيد من شأنه أن يذهب الروح عن إبراهيم ويزيل التوجس والخوف من توقع نية السوء من قبل هؤلاء نحوه.

﴿أَرْسَلْنَا﴾: أصل الإرسال الإطلاق، وهو دون البعث في القوة فيما أرى، وغايتنا أعني قوم لوط^(٤).

﴿إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾: "إلى" للغاية؛ أي: وجهتنا وغايتنا، قوم لوط الشاذين الكافرين لإهلاكهم ودمارهم^(٥).

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٤/ ١٩١٢).

(٢) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص ٢٦٠.

(٣) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٤٢٠).

(٤) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص ٢٦٠.

(٥) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٤٢٠).

• الدروس والفوائد في الآية الكريمة:

- دقة التعبير في قوله تعالى لا تصل بدل لا تمتد.
- كل كلمة لها معنى وإيحاء وظلال وإيماءات، هذا هو القرآن الكريم.
- الرسل بشر يعترهم ما يعترى البشر من خوف وحزن وألم.
- حسب تقاليد البدو، فإن الذي لا يأكل الطعام عند مضيفه أمره مريب أو أنه يريد شراً أو أنه لا يثق بنية مضيفه^(١).

هذه القصة وقعت بعد هجرة إبراهيم عليه السلام من أرض الكلدانيين مسقط رأسه في العراق، وإقامته في أرض كنعان في الأرض التي بارك الله فيها للعالمين.

٣- قوله تعالى: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَلَبَسَ نَهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]:

ما زلنا في مشهد ضيوف إبراهيم من الملائكة، وفي هذه الآية يتحدث عن امرأة النبي الكريم، وهي قائمة لخدمة الضيوف مع زوجها الرسول عليه السلام، فالصلة عروة وثقى^(٢).

أ- ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾:

الواو عاطفة أو استثنائية والجملة مبتدأ وخبره.

و﴿وَأَمْرَأَتُهُ﴾: أي: امرأة النبي الكريم إبراهيم عليه السلام، وعبر بالمرأة دون لفظ الزوج لأن المقام لا يقتضي إلا بيان موقف معين، خدمة الضيوف، وهذا أنسب

(١) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص ٢٥٩.

(٢) تفسير سورة هود، المصدر السابق، ص ٢٦٢.

له التعبير الذي ذكره النص الكريم^(١). و﴿قَائِمَةٌ﴾: واقفة على خدمة زوجها وضيوفه^(٢)، قال ابن الجوزي: واختلفوا أين كانت قائمة على ثلاثة أقوال:

- أحدها: وراء الستر تسمع كلامهم، قاله وهب.

- والثاني: كانت قائمة تخدمهم، قاله مجاهد والسدي.

- والثالث: كانت قائمة تصلي، قاله محمد بن إسحاق^(٣).

﴿فَضَحِكَتْ﴾: الفاء تفرعية، وضحكت بمعنى تبسمت تبسم الضحك، وإنما ضحكت للخير العظيم الذي يفرح قلب كل مؤمن بهلاك الظالمين والمجرمين^(٤).

وذكر أبو جعفر الطبري سبب ضحك سارة زوج إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ولخص أقوال العلماء، ثم رجع بعد ذلك فقال: ضحكت تعجباً من أنها وزوجها يخدمان ضيفانهم بأنفسهما؛ تكرمة لهم وهم عن طعامهم ممسكون لا يأكلون.

وقال آخرون: بل ضحكت تعجباً من قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ من الغفلة ومما أتاهم من العذاب.

وقال آخرون: بل ضحكت لما رأت ما بزوجها إبراهيم من الروع، وقال آخرون: بل ضحكت حين بُشرت بإسحاق تعجباً من أن يكون لها ولد على كبر سنّها وسن زوجها. وقال آخرون: بل ضحكت سروراً بالأمن منهم لما قالوا لإبراهيم: ﴿لَا تَخَفْ﴾، وذلك أنه قد كان خافهم وخافتهم أيضاً كما خافهم إبراهيم، فلما أمنت ضحكت، فأتبعوها بالبشارة بإسحاق.

(١) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص ٢٦٢.

(٢) تفسير سورة هود، المصدر السابق، ص ٢٦٢.

(٣) التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، (١٥/٢٦٩).

(٤) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص ٢٦٢.

ويقول الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال ضحكت: فعجبت من غفلة قوم لوط عما أحاط بهم من عذاب الله وغفلتهم عنه، ثم يقول الطبري: إنَّ ما قلت هذا القول أولى بالصواب؛ لأنَّه ذكر عقب قولهم لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ﴾ فإذا كان ذلك وكان لا وجه للضحك والتعجب من قولهم لإبراهيم: ﴿لَا تَخَفْ﴾ كان الضحك والتعجب إنما هو من أمر قوم لوط^(١).

وقال ابن عاشور: ضحكت سارة من تبشير الملائكة لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وكان ضحكها ضحك تعجب واستبعاد^(٢). وقال الخالدي: كانت امرأة إبراهيم سارة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا واقفة قائمة على خدمة ضيوف زوجها والترحيب بهم، واطمأنت لما علمت أنهم ملائكة، ولما سمعت بمهمتهم في إهلاك قوم لوط ضحكت وسُرَّت بذلك.

إنَّها تعلم من هم قوم لوط، وتسمع عن كفرهم وضلالهم، وتسمع عن انحرافهم وشذوذهم، وتسمع عن إتيانهم الرجال وارتكابهم اللواط، وكم ساءها ذلك منهم، وكم تمت تدميرهم وتعذيبهم وهلاكهم، والآن حلَّ بهم أمر الله تعالى، وها هي الملائكة في طريقها إليهم لإهلاكهم، وبعد قليل سيدمرون، لذلك ضحكت سارة العجوز العقيم المؤمنة، وفرحت وسُرَّت بذلك، فضحكها ضحك حقيقي، يقوم على الفرح والسرور.

ولا نورد هنا الأقوال السخيفة التي تحمل الضحك على الحيض، ولا نناقش القول المتهافت الذي يقول: إنَّ ضحك سارة هو حيضها، وهي واقفة، ومجيء العادة الشهرية لها بعدما بلغت سن اليأس، فهذا لا يستحق مناقشته وإظهار بطلانه^(٣).

(١) تفسير الطبري "جامع البيان في تأويل القرآن"، (١٥/ ٣٩٠-٣٩٤).

(٢) تفسير التحرير والتنوير "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد"، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م، (١٢/ ١١٩).

(٣) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (١/ ٤٢١).

ب- ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ﴾:

﴿فَبَشَّرْنَاهَا﴾: هي ضحكت لبشرى، فأردفتها الملائكة ببشرى أخرى وهي الولد، وسمّاه السياق الكريم وليس فقط بشر به: ﴿بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ﴾، فالملائكة إذن بشرت امرأة إبراهيم بولد، وذكرت اسمه أنه مسمى بهذا الاسم من عند الله: إسحاق^(١)، ومعنى إسحاق "الضحك" بالعبرية، أو الذي يضحك^(٢).

وبُشرتها الثالثة ضمن البشرى الثانية، وهي أن هذا المبشر به سيولد له مبشر به أيضاً وهو يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، ووراء بمعنى عقب، وهو يعقوب الذي جاء عقب إسحاق، والذي سيُعقب الأسيباط الذين سيكونون شعب بني إسرائيل، فهو يعقوب بمعنى الكلمة^(٣).

قال ابن كثير في الآية: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ﴾ أي: بولد لها يكون له ولد وعقب ونسل، فإن يعقوب ولد لإسحاق، كما قال في آية البقرة: ﴿أَمَرَكُنَّ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهُا وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣]، ومن هنا نستدل بهذه الآية على أن الذبيح إنما هو إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأنه يمتنع أن يكون إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنه وقعت البشارة به، وأنه سيولد له يعقوب الموعود بوجوده، ووعد الله حق لا خُلف فيه، فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه، فتعين أن يكون هو إسماعيل، وهذا من أحسن الاستدلال وأصحّه وأبينه، والله الحمد^(٤).

(١) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص ٢٦٣.

(٢) موسوعة نساء الأنبياء (أمهات وزوجات وبنات الأنبياء من آدم إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، إسماعيل حامد، مكتبة النافذة، الجيزة، مصر، ط ١، ٢٠١١م، ص ٦٩.

(٣) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص ٢٦٣.

(٤) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، (٤/ ٢٦٥-٢٦٦).

وقد بيّنت الآية أن الملائكة لم تبشر سارة عَلَيْهَا السَّلَامُ بالولد فحسب، بل بشرتها بولد الولد، أي بالأحفاد، وهذا عزّ الكرم وغاية المنح ودليل الجود؛ لأنّ الذي هو أعزّ من الولد هو ولد الولد كما يقول الناس في المثل السائر^(١).

ويعدّ إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ من بين الأنبياء الذين اختار لهم ربنا تعالى أسماءهم، وكما جاء هذا النبي كطفل في سن كبيرة، وكان مع تقدمها في هذه السن من الاستحالة أن ينجباها لولا تدخل قدرة الله المطلقة ورحمته الواسعة ومشيتته النافذة وحكمته البالغة، ليس هذا فقط بل إنّ الله تعالى قد وصف نبيه إسحاق بأنه غلام عليم، وأنه سوف يكون نبياً من الصالحين^(٢).

إنّ نبيّ الله إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ جاء بمعجزة إلهية، حيث ولدته أمه، وهي عجوز عقيم، وجعل في ذريته أنبياء بني إسرائيل، وله الفضل ولابنه يعقوب بعد الله تعالى في تواجد الأمة اليهودية، وبني إسرائيل، ومع ذلك قد نال هؤلاء القوم الظالمون منهما، حيث أنزلاهما منازل سيئة، ومشبوهة، فيما قالوا وكتبوا عنهما في التوراة المزورة، بل وشمل هذا التزوير والافتراء على الله تعالى معظم أنبياء بني إسرائيل أو كلّهم، وللأسف، فإن من لم يشمل هذا التزوير، والتقول عليه بالكاذب ناله التعذيب والقتل^(٣).

وقد أشار القرآن الكريم إلى تلك الأفعال المشينة من جانب بني إسرائيل تجاه أنبيائهم، مع أن الله تعالى قد كرّم هؤلاء الأنبياء ووصفهم وصفاً حميداً،

(١) ملة أبيكم إبراهيم، عبد الستار كريم المرسومي، دار المعراج للنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ٢٠٢١م، ص٩٦.

(٢) ثمانون شخصية مشهورة في القرآن الكريم، حنفي المحلاوي، دار النشر للجامعات، ٢٠١٣م، ص٦٥.

(٣) ثمانون شخصية مشهورة في القرآن الكريم، المصدر السابق، ص٦٥.

كما أثنى عليهم وعلى ما قاموا به من مهام تجاه قومهم من بني إسرائيل؛ لأجل هدايتهم وإعادتهم إلى الصراط المستقيم، ومن بين هؤلاء الذين حدثنا عنهم كتابُ الله إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ^(١).

٤- قال تعالى: ﴿قَالَتْ يَوَیْلَتَىٰ أَلَدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: ٧٢]:

بُشرت امرأة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بالولد في الآية السابقة، وتسجّل هذه الآية ردّ فعلها على تلك البشرى، وأنه كان الاندهاش الذي أطلق صحتها.

أ- ﴿قَالَتْ يَوَیْلَتَىٰ﴾:

قالت امرأة إبراهيم معبرة عن استغرابها ودهشتها ومفاجأتها يا ويلتى: يا للنداء، والمنادى الويل مضافاً إلى ياء المتكلم، وزيدت التاء للتقوية، وتحولت الياء إلى ألف مقصورة: يا ويلتى، فكانها تنادي الويل للحضور، وهو تعبير غير مقصود معناه حرفياً، وإنما هو تعبير عن منتهى التعجب والاستغراب^(٢).

﴿يَوَیْلَتَىٰ﴾: كلمة تستعمل عند وقوع الداهية العظيمة، والمراد بها التعجب لا الدعاء، وقد جاءت في سياق النداء، وكأنها تتصور الويل غير حاضر فنادته كالذي يعقل، وذلك على سبيل الاستعارة المكنية، لقد صورت الآية الكريمة دهشتها، وتعجبها الشديدين من وقوع هذه المفاجأة، وذلك من خلال أسلوب الندبة في ﴿يَوَیْلَتَىٰ﴾^(٣).

(١) ثمانون شخصية مشهورة في القرآن الكريم، المصدر السابق، ص ٦٥.

(٢) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص ٣٦٥.

(٣) صناعة الحوار، حمد عبد الله السيف، ص ٣٤٩.

ب- ﴿وَأَلِدْ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾:

الهمزة الأولى للاستفهام التعجبي أو الإنكاري ثم الفعل ألد، فمقتضى البشري بالولد أن تحمل وأن تلد، وهذا في مألوف البشر غير مألوف ولا معهود ولا متوقع، ومن هنا جاءت الدهشة، وجمع همزتين متتاليتين وصعوبة نطقهما؛ لتدل على معناها من صعوبة تصور الموقف.

﴿وَأَنَا عَجُوزٌ﴾؛ الواو للحال والمبتدأ والخبر بعدها في محل نصب حال، ومن يدخل تحت هذا الوصف كبير السن، لكن بلا تحديد سن معين، فهل هو من سنّ الستين مثلاً أو قبلها وما بعدها، هذا يحدده العرف أكثر مما تحدده اللغة، لكن اللغة وضعت للكبير والكبيرة كالشيخ^(١).

ج- ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾:

الواو للحال أو للعطف، وهذا اسم إشارة للقريب لتعيينه، واستخدمت لفظ ﴿بَعْلِي﴾ دون زوجي فيها دقة شديدة؛ لأنّ البعل هو الذي يقوم بأمر المبعول ولا يحوجه لأحد، فالبعل هو الزوج الذي يقوم على أمر زوجته، فلا يحوجه إلى غيره في أي شيء من الأشياء^(٢).

و﴿شَيْخًا﴾: حال أو الجملة كلها في موضع حال، والشيخ الكبير السنّ دون تعيين، وللعرف الاجتماعي واللغوي دوره في تعيين وتحديد السن^(٣). ويقال: إنّها كانت في سنّ التسعين، وكان إبراهيم عليه السلام في سنّ المائة والعشرين، والله أعلم^(٤).

(١) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص ٣٦٥.

(٢) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١١/٦٥٦٣).

(٣) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص ٣٦٦.

(٤) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٧٨/٤).

د- ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾:

إن: للتوكيد، وللإشارة إلى غرابة الأمر ووقعه عليها، هذا: للمرة الثانية بعد ﴿وَهَذَا بَعْلِي﴾؛ لتعيين الشيء المتحدث عنه واستحضاره بتمامه، وفيه قبل أن نصل إلى كلمة عجيب فيه رائحة التعجب^(١).

﴿لَشَيْءٌ﴾: اللام لمزيد التأكيد، فتأمل كيف شُخص النصّ بالمؤكدات على قصره؛ لتوكيد غرابة الأمر وعجيب الشأن، وكلمة شيء مطلقة عامة تطلق على كل شيء، حتى الأشياء المعنوية مثل هذا الأمر.

﴿عَجِيبٌ﴾: متعجب منه، مستغرب وبعيد في التصور وموغل في العجائية^(٢).

• الدروس والفوائد في الآية الكريمة:

- العجيب كيف ينقل النصّ القرآني على محدودية عدد كلماته انفعالات الشخص، وكيف يغوص في أعماقهم؛ ليرصد أدقّ خلجاتهم، وهذا هو الإعجاز القرآني، أو الإعجاز النفسي في القرآن الكريم إن شئت تحديداً أو رُمت تعييناً.

- السنن الكونية جعلها الله ليضبط الناس شؤونهم ولا يبنوها على الخوارق، أما هو سبحانه فإنه متى شاء خرق هذه السنن لمن شاء؛ ليعلم الناس أن للكون إلهاً، وليست قوانين تسير وحدها، وخرق السنن يؤيد إيمان المؤمنين بالخالق العظيم ويجعلهم يتوكلون عليه.

- أسباب عدم الانجاب في حالة إبراهيم وزوجه كاملة، وليست من طرف واحد ولكن الله لا يعجزه شيء.

(١) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص ٢٦٦.

(٢) تفسير سورة هود، المصدر السابق، ص ٢٦٧.

- بين الفينة والأخرى يري الله الناس آياته ويكسر رتابة الحياة والإيقاع المألوف للأشياء؛ ليخرجوا من قوقعة الإلف الذي يقتل الدهشة، فكم جميل أن تعود لنا مشاعر الدهشة بالأشياء والانفعال بها^(١).

- قال ابن كثير: حكى قولها في هذه الآية ﴿قَالَتْ يَوَيْلَئِي ۖ أَلَدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ كما حكى فعلها في الآية الأخرى ﴿فَأَقْبَلَتِ أُمْرَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: ٢٩]، كما جرت به عادة النساء في أقوالهم وأفعالهن عند التعجب^(٢).

- وقال الرازي: إنها إنما تعجبت بحسب العرف والعادة لا بحسب القدرة، فإن الرجل المسلم لو أخبره مخبرٌ صادق بأن الله تعالى يقلب هذا الجبل ذهباً إبريزاً، فلا شك أنه يتعجب نظراً إلى أحوال العادة؛ لا لأجل أنه استنكر قدرة الله تعالى على ذلك^(٣).

- وقال الألوسي: ومقصدها كما قيل: استعظام نعمة الله تعالى عليها في ضمن الاستعجال العادي لا استبعاد ذلك من حيث القدرة^(٤).

٥- قوله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣]:

نجد تمام الاتصال وكمال الاتساق بين هذه الآية وسابقتها، فهناك تعجبت امرأة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وعليها من أن تنجب، فيما يبدو أنه محال أو أقرب إلى الخيال، وهنا يرد الملائكة على السؤال (أألد) وعلى قولها: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ فيقولون: ﴿اتَّعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾، فلا محل للتعجب.

(١) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص ٣٦٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، (٢٦٦/٤).

(٣) التفسير الكبير مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، (٢٩/١٨).

(٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي، (١٠٠/١٢).

أ- ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾:

﴿قَالُوا﴾: أي الملائكة والضمير للجميع كما هو للواحد ويبدو أنهم جمع لكننا لا نعلم كم هذا الجمع، أثلاثة أم فوق هذا العدد وليس من شأن القرآن أن يدخل فيما لا جدوى من تفصيله وإنما قلت هذا لأؤكد المؤكّد^(١).

﴿أَتَعْجَبِينَ﴾: ردّوا على همزة الاستفهام أألد بهمزة استفهام: أتعجبين؟ هل تعجبين يا زوج النبي الكريم، وهل تستغربين وأنت في بيت يتلقى صاحبه الوحي من الله ويأتيه الأمر من الله، وهو موصول كل لحظة من لحظاته بالله.

﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾: هذا المستعجب منه والمتعجب من شأنه، أمر من أمر الله، ولا عجب على الله ولا غريب على قدرته، وحرف الجر ﴿مِنْ﴾ متعلق بالفعل قبله.

﴿أَمْرِ اللَّهِ﴾: شأنه سبحانه، وكل أمر هو من أمر الله أي بأمره وإذنه أو أمره ما يأمر به سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

فالأمر لفظ عام ككلمة شيء مطلق يطلق على ما لا يحصى من الأمور، وأضاف الأمر إلى الله لتعظيم شأنه، فالشيء يعظم بالانتساب للعظيم، كتاب الله، رسول الله، بيت الله^(٢).

ب- ﴿رَحِمَتْ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾:

﴿رَحِمَتْ اللَّهُ﴾: فما الفرق بين رحمت الله ورحمة الله؟ الفرق بين رحمت الله ورحمة الله: أن الرحمة التي تأتي فيها التاء مفتوحة أو مبسوطة "رحمت الله" مفادها أنّها رحمة بسطت بعد قبضها وأتت بعد شدة، ودائماً تكون مضافة مباشرة

(١) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص ٢٦٨.

(٢) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص ٢٦٩.

للفظ الجلالة عَزَّوَجَلَّ، مثال: بعد مرور السنين الطويلة وتعدي الزوجة للسن التي تستطيع أن تحمل وتلد وتعطي الذرية فيها، تأتي البشرى لإبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وزوجه، قال تعالى: ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾: فتح بعد قبض.

وتأتي كذلك استجابة لدعاء زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ بطلب الولد، قال تعالى: ﴿ذَكَرَ رَحِمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [مريم: ٢] ثم تأتي بعدها قصة وهب الله يحيى لزكريا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فتح بعد قبض، وأيضاً قال تعالى: ﴿فَأَنْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحِمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠] فتح بعد قبض، وتدل أيضاً التاء المبسوطة على اتساع رحمة الله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]^(١).

أما الرَّحمة التي تأتي فيها التاء مربوطة، هي رحمة مرجوة لم تفتح للسائل بعد، فالعابد القانت الساجد آناء الليل ويحذر الآخرة، فهو يرجو رحمة ربه في الآخرة، ألا وهي الجنة التي هي مقفلة دونه في الحياة الدنيا، وستفتح له يوم القيامة إن شاء الله، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩] هي رحمة مرجوة، وفي قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النساء: ١٧٥] هي رحمة موعود بها.

وأضيفت رحمت في آية ﴿رَحِمَتُ اللَّهِ﴾ إلى لفظ الجلالة لتعظيم شأنها، وفي هذه الآية ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ...﴾ ثلاث كلمات مضافة

(١) تفسير سورة هود، المصدر السابق، ص ٢٦٩.

إلى لفظ الجلالة أو الضمير العائد إليه، وأما الأولى والثانية فقد تفوقت فيهما سورة هود، وأما الثالثة فانفردت بها، فتأمل^(١).

﴿وَبَرَكَتُهُ﴾: أضيفت البركات إلى لفظ الجلالة كذلك، ولم ترد كما مر في القرآن إلا هنا، أعني مضافة، ووردت بركات في هذه السورة قبل آيات البركة والخير الكثير، وهي مفهوم كبير قد لا يفهمه المادي والملحد والحسابي، أعني من يحسب الأشياء بالأرقام، ويتعامل مع حدود الفيزياء، فأتى يفهم معنى البركات، وما درى أن الله يصرف عنكم من البلاء والمرض، وتلف الأشياء والحوادث ويبارك به دخلك، وكم من أناس دخلهم أُلوف ولا يكفيهم وأناس يعيشون سعداء ومستورين بالقليل.

وكيف تعيش بلدان فقيرة بالأمطار كالأردن وفلسطين وبلاد الشام، بل إن ثمراتها أطيب الثمرات؛ لأنها أرض مباركة.

وعلى كل حال هذا مفهوم إيماني، فمن كان لا يؤمن فلا يتمحل ولا يحرم المؤمن من إيمانه واعتقاده وراحة باله، فليظل هو في أرقامه وحساباته وآلاته التي تساعد على الحساب ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨]، هذا شأن البشر وشأن الدنيا ومن عليها، فلا نتجادل في الكلام ولا نتزيد في الخصام، وليمض كل في سبيل^(٢).

﴿عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾؛ أي: رحماته تعالى متتابعة عليكم وخيراته النامية المتكاثرة عليكم يا أهل البيت، والمراد به بيت النبوة، البيت المفرد العلم، معدن النبوة، وموضع الرسالة، الذي تفرعت منه كل النبوات والرسالات حتى ختمت بخاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد (عليه وعلى آله الصلاة والتسليم)،

(١) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص ٢٧٠.

(٢) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص ٢٧٠.

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، ودلت الآية على دخول الزوجة في أهل البيت ويؤكد ما أنزل الله في بيت النبوة مخاطباً أمهات المؤمنين: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]^(١). وقوله تعالى في قصة موسى: ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ﴾ [طه: ١٠] تأكيداً لهذا المفهوم^(٢).

قال ابن عطية الأندلسي: وهذه الآية تعطي أن زوجة الرجل من أهل بيته؛ لأنها خوطبت بهذا، فيقوى القول في زوجات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنهن من أهل بيته الذين أذهب عنهم الرجس^(٣).

وقال القرطبي: ويُسْتَدَلُّ من هنا على أن زوجة الرجل من أهل بيته، ودلت الآية أيضاً على أن منتهى السلام: ﴿وَبَرَكَتُهُ﴾؛ كما أخبر الله عن صالح عباده: ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾، والبركة: النمو والزيادة، ومن تلك البركات أن جميع الأنبياء والمرسلين كانوا في ولد إبراهيم وسارة^(٤).

ج- ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾:

إِنَّهُ الْمُسْتَحَقُّ الْحَمْدَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والمستحقُّ التمجيدَ والتعظيم، فله المجد، وله العزة، وله الكبرياء، وله المحامد كلها ربنا العظيم، وقال ابن عاشور: جملة:

(١) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٧٨/٤).

(٢) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص ٢٧٠.

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تفسير ابن عطية)، ابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، (١٩١-١٩٢).

(٤) تفسير القرطبي "الجامع لأحكام القرآن"، (٧١/٩).

﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾: تعليل لتوجه رحمته وبركاته إليهم بأن الله تعالى يحمد من يطيعه وبأنه مجيد: أي عظيم الشأن لأحد لنعمه فلا يعظم عليه أن يعطيه ولداً وفي اختيار وصف الحميد - والمجيد - من بين الأسماء الحسنی كناية عن رضا الله تعالى على إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وأهله^(١)، فالله مصدر كل فعل محمود ومنشأ كل كرم وجود، ويفيض برحمته وبركاته على من يشاء من عباده.

• اسم الله الحميد:

هو الحميد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فله من الأسماء أحسنها، ومن الصفات أكملها، ومن الأفعال أتمها وأفضلها، فإن أفعاله دائرة بين الفضل والعدل^(٢).

فهو سبحانه المحمود بما اتصف به من صفات الكمال ونعوت الجلال، وهو المحمود ولا يزال على ما أبدى من النعم وأسدى من الكرم^(٣). ويقول أبو حامد الغزالي: الحميد بحمده لنفسه أولاً، وبحمده عباده له أبداً^(٤).

وقال الطبري: "حميد": محمود في تفضله عليكم بما تفضل به من النعم عليكم وعلى سائر خلقه^(٥).

(١) تفسير سورة هود، أحمد نوفل، ص ٢٧٢.

(٢) والله الأسماء الحسنی، عبد العزيز ناصر الجليل، دار طيبة، الرياض، ط ٣، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م، ص ٣٧٢.

(٣) المرأة في القصص القرآني، أحمد الشرقاوي، (١/ ١٧٠).

(٤) المقصد الأسمى في شرح أسماء الله الحسنی، الغزالي، الجفان والجابي، قبرص، ط ١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ص ١١٥.

(٥) تفسير الطبري "جامع البيان في تأويل القرآن"، (١٥/ ٤٠٠).

• اسم الله المجيد:

قال السعدي: المجيد: الكبير العظيم الجليل، وهو الموصوف بصفات المجد والكبرياء والعظمة والجلال، الذي هو أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، وأجل وأعلى، وله التعظيم والإجلال في قلوب أوليائه وأصفيائه، قد ملئت قلوبهم من تعظيمه وإجلاله والخضوع والتذلل لكبريائه^(١). ويقول أيضاً: والمجد هو عظمة الصفات وسعتها، فكل وصف من أوصافه عظيم شأنه؛ فهو العليم الكامل في علمه، الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، القدير الذي لا يعجزه شيء، الحليم الكامل في حلمه، الحكيم الكامل في حكمته، إلى بقية أسمائه وصفاته^(٢).

وقد جاء في الحديث القدسي: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي، فإذا قال العبد الحمد لله رب العالمين، قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: الرحمن الرحيم، قال الله تعالى: أثنى عليّ عبدي، وإذا قال: مالك يوم الدين، قال: مجّدني عبدي»^(٣).

ومن هذا الحديث، يظهر لنا معنى من معاني التمجيد، حيث إن من تمجيد الله تعالى وصفه والاعتراف له بالملك والقهر والحكم يوم الدين والحساب، لا معقب لحكمه، ولا مهرب من جزائه، وقد وصف الله عزّ وجلّ كتابه بـ "المجيد" وذلك في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْوَقْرُ إِنَّ الْوَقْرَ لَمُجِيدٌ﴾ [سورة ق: ١]، وفي قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ [في لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ] [البروج: ٢١، ٢٢]؛ فالقرآن مجيد أي: شرف كريم عظيم

(١) تفسير السعدي "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان" نقلاً عن كتاب والله الأسماء الحسنی، عبد العزيز ناصر الجليل، ص ٣٨٧.

(٢) الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، دار ابن القيم للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط ٢، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م، ص ٣٣.

(٣) صحيح مسلم، رقم (٣٩٥).

واسع الخير والفضل والكرم، وذلك لما تضمنه من العلوم والمكارم والمقاصد العليا والمصالح الدنيوية والأخروية، ولا غرابة في ذلك فإنه كلام الله (عَزَّجَلَّ) المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، ومن عظمة هذا القرآن ومجده؛ أن الله يرفع به أقواماً، ويخفض به آخرين، يرفع به من عمل به، واتَّخذه ديناً ومنهجاً ويخفض به ويذل من تركه وراءه ظهيراً^(١).

ثانياً: إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يحمد الله على أن وهب له إسماعيل وإسحاق عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في سورة إبراهيم، ويدعو الله أن يجعله مقيم الصلاة ومن ذريته، ويقبل دعاءه:

١- قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

ابتدأ كلامه بالحمد إشعاراً بشكر النعمة وتقديرها، إذ إن هذه الآيات من سورة إبراهيم، تحدثت عن آخر حياة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد فراغه من بناء البيت وإقرار الله عينه برؤية أبنائه وذريته، ودعائه لهم بأن يكونوا ممن يقيم الصلاة، ويسلم من الشرك^(٢).

أ- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾:

فيه معنى القصر، أي أن الحمد لله تعالى وحده، فهو مانح النعم ومُجريها وحده^(٣).

(١) والله الأسماء الحسنى، عبد العزيز ناصر الجليل، ص ٣٨٩.

(٢) حديث القرآن عن إسماعيل وإسحاق عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، د. سليمان إبراهيم الحصين، ص ٤٧٥.

(٣) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (٨/ ٤٠٤٢).

وعرّف ابن قيم الجوزية "الحمد" بأنه: إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه^(١)، وإنَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يحمد الله على نعمائه ويحمده كذلك على ما اتّصف به سبحانه من صفات الكمال والعظمة^(٢).

ب- ﴿الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾:

والوهب هو عطاء من الله بلا مقابل منك وكل الذرية هبة^(٣)، ولذا قال الله تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَرَ﴾ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿[الشورى: ٤٩، ٥٠]، إنه يحمد الله ويشكره على وهبه إسماعيل وإسحاق ﴿عَلَى الْكِبَرِ﴾ مع أنه كبير، وهذا يدلُّ على جلال الشعور بالنعمة، إن ذلك واضح أنه إكرام من الله بخرق الأسباب، وإنَّ شكر النعمة بذكر إسماعيل وإسحاق فيه معنى جليل؛ لأنهما ولدا أبي الأنبياء الذين جاؤوا بعد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكان النبوة انحصرت في ذريته عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما يبدو من قصص القرآن الكريم الصادق في ذاته^(٤).

وإنما ذكر ﴿عَلَى الْكِبَرِ﴾؛ لأن المنة بهبة الولد في هذا السن أعظم من حيث إن هذا الزمان زمن وقوع اليأس من الولادة، والظفر بالحاجة في وقت اليأس من أعظم النعم، ولأن الولادة في تلك السن العالية كانت آية لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٥).

(١) بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، (٢/٩٣).

(٢) الثناء في القرآن الكريم، هتون سامي عبد الرحمن فلمبان، دار ابن حزم، بيروت، ط ١، ٢٠١٦، ص ٣٧.

(٣) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١٢/٧٥٨٢).

(٤) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (٨/٤٠٤٢).

(٥) التفسير الكبير مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، (٩/٢٦٢).

وفي قوله تعالى: ﴿عَلَى الْكِبَرِ﴾: تفيد ﴿عَلَى﴾ الاستعلاء، فالكبر ضعف، ولكن إرادة الله أقوى من الضعف فقوله تعالى: ﴿وَهَبْ لِي عَلَى الْكِبَرِ..﴾ جعل قدرة الله في العطاء فوق الشيخوخة^(١).

وفي قوله: ﴿إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾، قدم إسماعيل على إسحاق عَلَيْهِمَا السَّلَامُ يدل على أن إسماعيل هو الأكبر^(٢).

ويعلمنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ الاعتراف بفضل الله ونعمائه علينا التي لا تحصى، والواجب أن تقابل بالحمد والشكر، وذلك بتسخيرها في طاعة الله، كما يعلم البشرية ألا تتوقف عن الدعاء لله وألا تقنط من رحماته تعالى، وذلك بالتأكيد على أن الله سميع الدعاء^(٣).

ج- ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾:

فالمراد بالسمع هنا: السمع الخاص، وهو سمع الإجابة والقبول، لا السمع العام؛ لأنه سبحانه سميع لكل مسموع، وإذا كان كذلك فالدعاء هنا يتناول دعاء الثناء ودعاء الطلب، وسمع الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى له إثباته على الثناء، وإجابته للطلب، فهو سميع لهذا وهذا^(٤).

وقد أكد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أن الله سميع الدعاء:

- أولاً: بالجملة الاسمية.

(١) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١٢/ ٧٥٨٤).

(٢) حديث القرآن عن إسماعيل وإسحاق عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، د. سليمان إبراهيم الحصين، ص ٤٧٦.

(٣) إبراهيم الذي وفى، د. فرحات بن علي الجعيري، المكتبة السعيدية للنشر، مسقط، سلطنة عُمان، ط ٢، ٢٠١٤م، ص ١٠٠.

(٤) بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، (٤/ ٣).

- ثانيًا: ب "إن" المؤكدة.

- ثالثًا: باللام في قوله ﴿لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

وعبر بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ فيه أيضًا شعور بالشكر الجزيل لربه، لأنه الذي ربّاه وكونه وقام على شئونه واستجاب دعاءه.

لقد كان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ صورة سامية للفطرة الإنسانية، وأوضح هذه الفطرة حبّ الذرية والحدب عليها وإكرامها وتوجيهها إلى الحق وإلى عبادة الله تعالى ولذا قال الله تعالى على لسانه^(١).

٢- قال تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠]:

يعود السياق القرآني مرة أخرى لبيان أهمية إقامة الصلاة، واحتفاء سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بها، فيقول:

أ- ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾:

﴿رَبِّ﴾: ويكرر هنا الاستعطاف والتذلل لله (عَزَّجَلَّ) للفظه ﴿رَبِّ﴾ هذه اللفظة التي تزيّن بداية كل آية، وكأنها مصباح يضيء الطريق أو يتيح الفرصة للمضيء - فيما سيرد من دعاء بعد ذلك -^(٢).

إنّه النداء والدعاء إلى الله تعالى بوصف أنه ربّه الذي كوّنه وخلقه ورزقه، وهو المتصرف في حياته والمالك له والمدير لشؤونه يستغيث به ليعينه على طاعته.

(١) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (٨/ ٤٠٤٣).

(٢) وجوه البيان في دعاء سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، سميرة عدلي محمد رزق، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، العدد (١٠)، ١٤١٤ هـ، ص ٢٤١.

وفي قوله: ﴿أَجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾: يطلب العون من الله على إقامة الصلاة فربه الذي غذاه في بدنه وعموم أحواله وحاجاته البدنية، وأن يعينه على غذائه الروحي بعد غذائه الجسدي، أي صبرني وحولني ووجهني إلى أن أكون مقيم الصلاة، أي مؤدياً لها أداءً مقوماً مستقيماً كاملاً، بأن تكون أركانها الحسية مستوفاة، ومنها الخشوع والخضوع المطلق، والصلاة رمز إلى القيام بحق الدين كاملاً من غير التواء^(١).

إنَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يطلب من المولى عَزَّجَلَّ أن يكون مقيماً للصلاة رغم كونه نبياً، وهذا منهج تربوي عالٍ ولا شكَّ، فالمؤمن يجب ألا يغترَّ بنفسه ويزكِّيها بل عليه أن يتحرى الدقة والصواب في كل أعماله وأقواله^(٢).

وفي قوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾: لم يكتف بالدعاء لنفسه، بل أضاف إلى ذلك الدعاء لذريته، ولكن أشار إلى أنه سيكون من ذريته من لا يشكر الله تعالى ومن يعصيه ولذا قال: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ و"مِنْ" هنا للتبعض، أي اجعل من ذريتي مقيم الصلاة؛ ليكون حبل العباداة متصلاً إلى يوم القيامة لا ينقطع التوحيد وإقامة شعائره، بل تتصل إلى يوم القيامة ومن ذريته قائمون على الحق يهتدون بهديه ويسرون في طريق الحق، وهو الطريق المستقيم^(٣).

ب- ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾

أي: تقبل دعائي وعبادتي وطاعتي وهو أدب رفيع مع الله تعالى يدعوه ويتذلل إليه، ثم يسأله أن يتقبله بفضله وكرمه وقد ظهر مثل هذا الأدب أيضاً في دعائه عَلَيْهِ السَّلَامُ

(١) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (٤٠٤٤/٨).

(٢) وجوه البيان في دعاء سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، سميرة عدلي محمد رزق، ص ٢٤١.

(٣) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (٤٠٤٤/٨).

مع ولده إسماعيل عندما كانا يرفعان قواعه بيت الله الحرام: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧] ^(١).

- قول الطبري في تفسير الآية: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾: ربنا وتقبل عملي الذي أعمله لك وعبادتي إياك وهذا نظير الخبر الذي روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ» ^(٢)، ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] ^(٣).

- قول الشوكاني في تفسير الآية:

﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾: ثم سأل الله سبحانه أن يتقبل دعاءه على العموم، ويدخل في ذلك دعاؤه في هذا المقام دخولاً أولاً أو لاحقاً قيل: والمراد بالدعاء هنا: العبادة فيكون المعنى: وتقبل عبادتي التي أعيدك بها ^(٤).

ثالثاً: قصة ضيف إبراهيم من الملائكة في سورة الحجر والبشرى بغلام عليم (إسحاق) عَلَيْهِ السَّلَام:

قال تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۖ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ۖ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۖ قَالَ أَبَشْرُكُمْ عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تُبَشِّرُونَ ۖ قَالُوا بَشَرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ۖ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ۖ﴾ [الحجر: ٥١-٥٦].

(١) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٤/ ٣٣٢).

(٢) مسند أحمد، الإمام أحمد بن حنبل، تح: شعيب أرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ٢٠٠٨ م، (٤/ ٢٦٧، ٢٧١)، سنن الترمذي، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية، ١٣٩٥ هـ، رقم (٢٩٦٩)، قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٣) تفسير الطبري "جامع البيان في تأويل القرآن"، (١٣/ ٢٣٥).

(٤) فتح القدير، الشوكاني، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ، (٣/ ١٦١).

هذه الآية تتممة الإنباء الذي ذكر في الآيتين السابقتين وهو: ﴿تَبَيَّنَ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [٤٩] وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿[الحجر: ٤٩، ٥٠] و﴿وَنَبِّئُهُمْ﴾، فهي تتممة لما مرّ، وتطبيق وتحقيق، ففي قصة إبراهيم مع ضيفه أو ضيوفه تحقيق لما مرّ، فقد تجلت رحمة الله على عبده إبراهيم والتفضل عليه بالولد، وتجلت معاني عذابه على قوم لوط، هذا في قصة واحدة، ظهر فيها المعنيان، فقد سألهم عن مهمتهم فقالوا كما ستبين الآيات الآتية: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ [الحجر: ٥٨] أي لإهلاكهم وعذابهم، فتبين مصداق ما ذكرت الآيتان في هذه الآية عن ضيف إبراهيم الذين جاؤوا بالبشرى لإبراهيم بالولد وبنجاة قوم لوط، وجاؤوا بعذاب الكافرين المجرمين وهلاكهم^(١).

والمتدبر للآيات الكريمة في سورة الحجر، يجد أنها لا تحدثنا عمّا جرى بين إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وبين قومه، وإنما عن جانب مما كان بينه وبين الملائكة، ويلمح المتدبر في الآية الجديد في قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لأول مرة دون عناء:

أولاً: يسميهم القرآن ضيفاً.

ثانياً: يُطوى فيها ذكر الطعام وما يتّصل به.

ثالثاً: يُطوى فيها ذكر المرأة.

رابعاً: يُشعرهم إبراهيم هنا بوجله، وهو مقدمات الخوف، ﴿إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ [الحجر: ٥٢]، وفي السورة السابقة - أي هود - ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾.

خامساً: يصف الغلام الذي بُشّر به هنا بأنه غلام.

(١) تفسير سورة الحجر "دراسة تحليلية موضوعية"، أحمد نوفل، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، عمان، الأردن، ط ١، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م. ص ٢٧٩.

سادساً: تقف عند هذه العبارة المصوّرة المعبرة في قوله: ﴿مَسْنَى الْكِبَرِ﴾

[الحجر: ٥٤].

سابعاً: نجد هنا صفة زائدة على ما تقدم في سورة هود وهي عدم "القنوط" إنما الذين يقنطون هم الضالون فقط، وإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من أكرمهم الله بالهداية، ألا ترى - أخي القارئ - أن ما في السورة كله جديد لا تحوم حوله شبهة تكرار ولا تشوبه شائبة إعادة، وأن الذين يدعون التكرار إنما هم واحد من اثنين، إما أنهم لا يعلمون نظراً، وإما أنهم لا يفقهون خبراً^(١).

أ- قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئَهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحجر: ٥١]:

- ﴿وَنَبِّئَهُمْ﴾:

الواو للعطف، عطف للإنباء على الإنباء مع التصريح بالعامل أو بالفعل ﴿نَبِّئْ عِبَادِي﴾ ﴿وَنَبِّئَهُمْ﴾، والضمير "هم" في هذه الكلمة يعود إلى العباد المذكورين في الآية السابقة، والأنباء الأخبار ذات الشأن، ولا ريب أن ضيف إبراهيم قد أتوا لأمر جليل ذي شأن^(٢).

- ﴿عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾:

﴿عَنْ﴾: حرف جر: متعلقة بنبيهم أي عن أخبارهم.

﴿ضَيْفٍ﴾: للإفراد والجمع، ويبدو هنا أنها للجميع.

﴿إِبْرَاهِيمَ﴾: هو الخليل، باني البيت، صاحب الملة الحنيفية السمحة، وهو أعظم الرسل جميعاً بعد الرسول الأعظم^(٣).

(١) قصص القرآن الكريم، فضل حسن عباس، دار النفائس للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط ٣، ١٤٣٠هـ - ٢٠١٠م، ص ٢٨٩.

(٢) تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، ص ٢٧٨.

(٣) تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، ص ٢٧٨.

- قول السعدي:

﴿وَنَبِّئُهُمْ عَنْ صَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: عن تلك القصة العجيبة، فإن في قصصك عليهم أنباء الرسل، وما جرى لهم مما يوجب لهم العبرة والافتداء بهم، خصوصاً إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ، الذي أمرنا الله أن نتبع ملته وضيئه هم الملائكة الكرام، أكرمهم الله بأن جعلهم أضيافه^(١).

• الدروس والفوائد في الآية الكريمة:

- الماضي مشحون بالدروس والعبر، وقد انتقى القرآن الكريم هذا الماضي بالدروس وقصصه علينا فأين من يبحث في كنوزه ويعتبر؟

- إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من أعظم أولي العزم من الرسل، ويجب ذكر هذه الشخصية العظيمة والتأسي بها.

- يجب التضلع من اللغة العربية ومعرفة أسرارها ومعاني مفرداتها، وأن الضيف مثلاً تصحُّ للمفرد والجمع.

- القصص القرآني حق مطلق مصفى لا يجوز خلطه بخرافات بني إسرائيل وتلفيقاتهم وافتراءاتهم على الأنبياء، من إسقاطات صفات بني إسرائيل على الأنبياء وحاشاهم، ولا تمل من تكرار التحذير من الإسرائيليات^(٢).

ب- قوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ [الحجر: ٥٢]:

- ﴿إِذْ﴾:

ظرف لما مضى من الزمان ومن شأنه أن يستحضر لحظة معينة أو مشهداً معيناً من شريط طويل للأحداث فهو - أي الظرف "إذ" - يوقفك عند المطلوب من هذا الشريط الطويل ومن المشاهد المتعددة.

(١) تفسير السعدي "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، ص ٨٦٤.

(٢) تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، ص ٢٨٠.

- ﴿دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾:

أول دخولهم على إبراهيم دون سابق إعلام، والضمير في عليه عائذ إليه سبحانه،
فالحديث عنه منذ الآية السابقة.

- ﴿فَقَالُوا سَلَامًا﴾:

فقال الملائكة ولم يحدد النص الكريم عددهم، وكلمة ضيف في الآية السابقة
تحتمل الأفراد والجمع، وإن كان قوله: ﴿دَخَلُوا﴾ يفيد الجمع ولا يعينه تمامًا، فقد
تكون للتعظيم مثلاً، و﴿سَلَامًا﴾: تسلم عليك سلاماً^(١).

- ﴿قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾:

أي فزعون خائفون ولا تظنن أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ واجههم بهذا عندما دخلوا
عليه، فقد كان عَلَيْهِ السَّلَامُ كريماً، ويحب أن يغشاه الضيوف دائماً في بيته، وإنما قال
ذلك في نفسه بعد أن قدم لهم الطعام ولم تمتد أيديهم إليه؛ لأنَّ أجسام الملائكة
نورانية، فهم لا يأكلون ولا يشربون، ولا يحتاجون إلى ما يحتاج إليه الإنسان
المخلوق من تراب الأرض والذي يتغذى بما تخرجه له الأرض^(٢).

ولم يسجل النص الكريم هنا ردَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ اكتفاءً بما ذكر في غير موضع،
فكل موضع يعرض طرفاً مختلفاً وجزءاً متمماً من القصة والمشاهد تتكامل^(٣).

ففي سورة هود ردَّ عليهم بقوله تعالى: ﴿قَالَ سَلَّمٌ طَّيِّبٌ لِّمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ﴾
[هود: ٦٩]، وفي سورة الذاريات: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾^(٤)

(١) تفسير سورة الحجر، المصدر السابق، ص ٢٨١.

(٢) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٤/ ٣٨٨).

(٣) تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، ص ٢٨١.

فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ ﴿[الذاريات: ٢٥، ٢٦]﴾، قال الدكتور أحمد نوفل: فلا يتخيل ولا يعقل أن يرد التحية بالقول: ﴿إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾، ولا أتصور أن هذا الكلام المصرح به والملفوظ ولكنه من الكلام النفسي الملحوظ على الملامح والسمات والقسمات وكم عبر القرآن بـ "قَالَ" أو "قالوا" وقصد الكلام النفسي ومن ذلك: ﴿فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانٍ﴾ [يوسف: ٧٧].

وخلاصة القول: هذا فيما أرى من الكلام النفسي، قرأه الملائكة على صفحة وجه الشريف وملامحه الكريمة (عليه الصلوات والسلام)^(١).

• الدروس والفوائد في الآية الكريمة:

- الكلام النفسي يُعبر عنه بـ "قَالَ"؛ لشدة ظهوره ووضوحه على الملامح، فكأن لسان الحال ولسان المقال شيء واحد.

- الأنبياء الكرام يعترفهم ما يعتري البشر من الحذر والوجل والخوف والحزن والضيق.. ولكن بمقادير مختلفة.

- قد يحذف القرآن ما ذكره في مكان اعتماداً على ما ذكره في مواضع أخرى وإحالة عليه، كرد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام تحية الملائكة.

- الرسل لا يعلمون الغيب ولا ما وراء الأشياء، إلا إذا علمهم مولاهم، أو جاءهم العلم من مصدره^(٢).

(١) تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، ص ٢٨١.

(٢) تفسير سورة الحجر، المصدر السابق، ص ٢٨٤.

ج- قال تعالى: ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣]:

هذه الآية فيها ردُّ الملائكة على ما رأوه من وجل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أو ما صرح به من وجل، هذا جوابه من قبل الملائكة بعدم التوجس والوجل، فإنما هم مرسلون من الله وأولياء الله لا يخافون من أولياء الله.

- ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ﴾:

قالت الملائكة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لما رأوا وجله أي خوفه: لا تخف وقرّ عيناً واطمئن بالاً، فإنما نحن رسل الله إليك بالبشرى^(١).

- ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾:

كثير العلم، وهو إسحاق إذ جاء التصريح به في سورة هود ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١].

فقد صرحت الآيات باسمه واسم ولده يعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وأما الغلام الذي بشر به إبراهيم والموصوف بالحلم ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١]، فهو إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٢).

فالبشارة تكررت لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ولهذا حكى الله عن إبراهيم قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

د- قوله تعالى: ﴿قَالَ أَبَشِّرْهُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ﴾ [الحجر: ٥٤]:

في الآية السابقة، بشرت الملائكة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بغلام عليم، وهنا في هذه الآية يستفهم إبراهيم من الملائكة فيقول لهم: هل تبشرونني بعد أن مسني الكبر ﴿فِيمَ تَبَشِّرُونَ﴾.

(١) تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، ص ٢٨٥.

(٢) تفسير سورة الحجر، المصدر السابق، ص ٢٨٥.

- ﴿قَالَ أَبَشِّرْهُمُونِي﴾:

﴿قَالَ﴾؛ أي: إبراهيم عليه الصلوات والتسليم، ﴿أَبَشِّرْهُمُونِي﴾: الهمزة للاستفهام داخله على الفعل الذي يتضمن فعلاً وفاعلاً ومفعولاً به.

- ﴿عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾:

على بمعنى أو متضمنة البعدية أو هي على معناها الأصلي، كما نقول: "أتغفر لي على ما كان مني" أي على وضعي الذي أنا عليه؛ فهي للاستعلاء والتمكّن، أي بعد أن توغلت في الكبر وتمكن مني وتمكنت منه، بمعنى أبعدت وأوغلت، وعبر بالمسّ ليفيد أن الكبر منه، والكبر: الهرم وقطع سنوات عديدة من العمر.

- ﴿فَإِمَّ تَبَشِّرُونَ﴾:

الفاء تفرعية، و"بم" بأي شيء تبشرونني، وحذفت الياء ليس لمراعاة الفواصل، فهي مقصد يتبع المعنى والبلاغة، ولكن الأهم من مراعاة الفواصل، وهي مهمة لكنها أقل أهمية، والأهم المسارعة في التعبير وخفة القول والنطق، والحذف ليس من نصيب الياء فحسب، بل معها أيضاً حذف النون الثانية من أهل الكلمة وهو: تبشرونني.

• الدروس والفوائد في الآية الكريمة:

- الاستفهام يحمل معاني عديدة وعريضة، والمقصد الأصلي منه الاستعلام والتعجب، والآية هنا جاءت على هذا الغرض وليس الاعتراض.

- هذه الآية فيها البشري في أولها وآخرها ﴿قَالَ أَبَشِّرْهُمُونِي﴾؟ والتكرار مقصود لذاته وهو تقرير المعنى بالتكرير.

- في الكون سنن يتعامل بها البشر ويعيشون وفقها، ومتى شاء الله خرق هذه السنن ونقض هذه النواميس.

- إِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ استعظم نعمة الله عليه؛ فاستفهم هذا الاستفهام التعجبي المبني على السنن التي أجزاها الله بين عباده، لا أنه استبعد ذلك على قدرة الله فهو من أجل من ذلك قدراً.

- ﴿فَإِمَّا﴾ هي "ما" الاستفهامية أو ماذا؛ دخلها معنى التعجب كأنه قيل فبأي أعجوبة ﴿تُبَشِّرُونَ﴾^(١).

هـ- قال تعالى: ﴿قَالُوا بَشِّرْنَا بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾ [الحجر: ٥٥]:

﴿قَالُوا﴾: أي الملائكة الكرام رداً على إبراهيم.

﴿بَشِّرْنَا بِالْحَقِّ﴾: ما قلناه لك من البشري هو الحق؛ فالبشري ملتبسة بالحق مرتبطة به، بمعنى أنها متحققة لا محالة، فهذا وعد من الله، والله منجز وعده.

﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾: ليس إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من القانطين، والملائكة تعلم هذا، ولكن إبراهيم ربما قاس الأمر بمنظور السنن والناواميس المعهودة والمألوفة، ولكن الله تعالى متى شاء خرق النواميس، فقولهم فلا تكن من القانطين يعني لا ترتبط بالناواميس والسنن، وتقول: في ضوء المألوف من السنن لا يمكن إنجاب الولد مع هذه الحيشيات الموجودة من الكبر وعقم الزوجة والقنوط واليأس من الشيء وعدم توقع حدوثه^(٢).

(١) تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، ص ٢٨٩.

(٢) تفسير سورة الحجر، المصدر السابق، ص ٢٩٠.

• الدروس والفوائد في الآية الكريمة:

- السنن لا تعرقل نفاذ الإرادة الإلهية.
- نحن نعيش وفق السنن ونبني تصرفاتنا وفقاً لها ونعتقد دائماً بطلاقة المشيئة الإلهية.
- وعد الله حق ولا يأس من رحمة الله.
- نهى الملائكة لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ عن القنوط أو الكون من القانطين لا يعني أنه كان مستعداً له أو موجوداً عنده فالله يقول: ﴿وَمَنْ يَقْنُطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾.
- فالأنبياء محال عليهم ولكنه إشارة لعدم الارتهان إلى ربط الأمور بالأسباب والله أعلم^(١).
- و- قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنُطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]:
- ﴿قَالَ﴾: أي إبراهيم عليه الصلوات والتسليم.
- ﴿وَمَنْ﴾: الواو استئنافية.
- ﴿يَقْنُطُ﴾: القنوط: اليأس واستبعاد حصول الشيء.
- ﴿مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ﴾: من: متعلقة بالفعل يقنط، وأضاف الرحمة إلى لفظ ربه لتعظيمها من ناحية وقربها من ناحية، وأضاف الرب إلى ضمير الغائب؛ لجعلها قاعدة عامة وقانوناً شاملاً وليس أمراً متعلقاً به فحسب.

(١) تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، ص ٢٩٢.

﴿إِلَّا الضَّالُّونَ﴾: الذين لا يعرفون الله ولا يهتدون إليه سبيلاً ولا يرجونه ولا يخشونه^(١)، الذين ضلوا عن طريق الله فلا يحسون رحمته، ولا يستشعرون رأفته وبره ورعايته، وأما القلب النديّ بالإيمان المتصل بالرحمن فلا يئأس ولا يقنط مهما أحاطت به الشدائد، ومهما ادلهمت الخطوب^(٢).

قال أسعد حومد: أجابهم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه ليس قانط من رحمة الله وإن كان قد كبر وأسنت زوجته، فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك ولا يقنط من رحمة الله إلا من ضلّ طريق الهداية والإيمان وجهل عظمة الخالق^(٣).

• الدروس والفوائد في الآية الكريمة:

- القنوط والإيمان لا يجتمعان.
- الضلال أساس الكفر والعكس صحيح فبينهما علاقة جدلية، كل واحدة تؤدي للأخرى.
- رحمة الله قريب ولا يئأس من وصولها وشمولها كل من طلبها.
- إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يستغرب ذلك قنوطاً من رحمة الله ولكن استبعاداً له في العادة التي أجراها الله والسنن التي اعتادها البشر وبنوا حياتهم ومعاشهم عليها، ولم ينسوا بالطبع أن الله فعّال لما يريد يخرق المعتاد وقت يشاء^(٤).

(١) تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، ص ٢٩٣.

(٢) تفسير سورة الحجر، المصدر السابق، ص ٢٩٤.

(٣) أيسر التفاسير، أسعد محمود حومد، حقوق الطبع محفوظة للمؤلف، ط ٤، ١٤١٩ هـ - ٢٠٠٩ م، ص ١٨٥٩.

(٤) تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، ص ٢٩٥.

❖ رابعاً: قصة الغلام العليم إسحاق عليه السلام في سورة الذاريات:

قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَأَى إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴿٢٨﴾ قَالُوا لَا تَحْزَنْ وَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ عَالِمٍ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَتْ أَمْرَاتُهُ فِي صَرَقٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٣٠﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣١﴾﴾

[الذاريات: ٢٤-٣٠]:

١- قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤]:

هنا نوع جديد في شأن قصة من أشهر قصص إبراهيم الخليل عليه السلام والسؤال تبجيل وتفخيم؛ لأنه عبرة وعظة، وهو أسلوب مألوف في القرآن كله كقوله: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ [طه: ٩]، وقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ [البروج: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبْوُ الْخَضِرِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمَحْرَابَ﴾ [سورة ص: ٢١]، ومقصده حشد الاهتمام وتوجيه النظر إلى القصة^(١).

أ- ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾:

تلازم دائماً الشيء العجيب الذي يستحق أن تلتفت إليه، ويشوقنا الحق سبحانه إلى معرفته كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذْكَرٌ عَلَى تَجَرَّةٍ تُنَجِّيْكُمْ مِنْ عَذَابِ آلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠]، يشوقنا لنقول: نعم يا رب دلنا^(٢).

وقوله: ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾: بمعنى: قد أتاك فهو سؤال للتقرير، وفيه تذكير بالقصة وسماء الله تعالى حديثاً، إشارة إلى أنه خبر حقيقي^(٣).

(١) إشرافات قرآنية، سلمان العودة، مؤسسة الإسلام اليوم للنشر، السعودية، ط١، ١٩٧٠م، (١٢٩/١).

(٢) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١٤٥٨١/٢٣).

(٣) إشرافات قرآنية، سلمان العودة، (١٢٩/١).

ب- ﴿ضَيْفٍ إِبْرَاهِيمَ﴾:

جاءت كلمة ضيف مفردة مع أنهم كانوا جمعاً من الملائكة، فلم يقل ضيوف ولا أضياف، إنما اختار اللفظ المفرد فقال: ﴿ضَيْفٍ﴾، قالوا: لَأَنَّ ﴿ضَيْفٍ﴾ تُطْلَقُ على المفرد والمثنى والجمع مِمَّنْ استدعيته إلى بيتك، أو جاءك فصار ضيفاً عليك، والمستضيف ينبغي أن يعامل الأضياف معاملة واحدة، ويستقبلهم بوجه واحد لا يفضل أحداً على أحد، ولا يحتفي بأحد دون أحد، فكأنهم عنده شخص واحد لا يميز أحداً لا في مجلسه، ولا في نظره إليهم، لذلك عبر القرآن الكريم عنهم بصيغة المفرد فهم في حكم الرجل الواحد.

وقد علمنا سيدنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الدرس، فقد روي عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كان يُسوي بين جلسائه حتى في نظره إليهم، حتى ليظنَّ كل منهم أنه لا يوجد في المجلس غيره^(١).

وفي القرآن الكريم مواضع كثيرة تستخدم المفرد وتريد به الجماعة، ذلك حينما يكون توجههم واحداً وهدفهم واحداً، وحينما يجتمعون على أمر الله، وأمر الله دائماً واحد لا اختلاف فيه، والجماعة حينئذ في حكم الواحد، اقرأ هذا مثلاً في قوله تعالى في قصة سيدنا موسى وسيدنا هارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]، إذن: ضيف يعني أضيافاً من الملائكة^(٢).

ج- ﴿الْمُكْرَمِينَ﴾:

وصفهم بالمكرمين، أي: جمع مكرم، وهو الذي يقع عليه الكرم من غيره، والفاعل مُكْرَم، والمفعول به مُكْرَم، فوصف الملائكة بأنهم مكرمون،

(١) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (٢٣/١٤٥٨٤).

(٢) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (٢٣/١٤٥٨٤).

فمن أكرمهم؟ قالوا: لها معنيان: أكرمهم الله تعالى كما قال سبحانه: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦، ٢٧]، أو مكرمون، قد أكرمهم سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حينما أعد لهم طعاماً، وباشر خدمتهم بنفسه لا بعبده، وجعل امرأته تشاركه في خدمتهم، وأكرمهم بأن ردّ عليهم التحية بأحسن منها، ثم إنه لم يقدم لهم الطعام الحاضر فقط، وإنما أكرمهم وذبح لهم عجلاً؛ مرة وصفه بأنه سمين ومرة وصفه بأنه حنيد^(١).

وهذا كمال في الوصف، فهو سمين في ذاته أي ليس هزياً في تكوينه وهو حنيد، والحنيد هو أفضل أنواع الشواء عندهم، فهو من حيث طريقه طعمه حنيد مشوي وهذا منتهى الإكرام^(٢).

٢- قوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥]:

أ- ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾:

يُفيد أن دخولهم كان مفاجئاً، وكأنه لم يذكر استئذاناً، وقد يكون بيت إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مفتوحاً للأضياف - لها مقرّ خاص بهم - لا يحتاج الناس فيه إلى استئذان لكونه كريماً مضيافاً.

ب- ﴿فَقَالُوا سَلَامًا﴾:

أي: نسلم عليك سلاماً، فهو مفعول مطلق، فردّ عليهم سلامهم بأطيب منه.

(١) حنذ اللحم: شواه على الحجارة، فهو حنيد أي مشوي، ولحمه يكون أطيب من المسلوق والمطبوخ في الماء.

(٢) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (٢٣/ ١٤٥٨٥).

ج- ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾:

أي عليك "سلام"، والجملة الإسمية التي قالها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أقوى وأثبت من جملتهم التي هي فعلية والفعل ليس له ثبات^(١)، وهذه بداية الكرم من إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

د- ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾:

وهذه الكلمة لم يقلها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لهم مباشرة، وإنما قالها خفية عنهم^(٢)، بمعنى أنه استنكر حالهم، فقد كانوا على هيئة شباب في نضارة وجمال، قيل: هم ثلاثة ملائكة: جبريل وإسرافيل وميكائيل^(٣).

وقيل: كانوا عشرة، أو اثني عشر، أو ثلاثة عشر^(٤).

وفي التوراة ذكر هذا المعنى، وفي بعض الآثار أنهم كانوا ثلاثة في سنّ الشباب، وفي غاية الجمال، ولم يكن يعرفهم، وهذا جزء من الإنكار أنه لم يرههم من قبل، ربما سحنات وجوههم غير مألوفة، كذلك سلامهم كان شيئاً يستغرب، فالناس ما كانوا يُحسِنون السلام، فهم لما قالوا له: ﴿سَلَامًا﴾ كان هذا ما استنكره واستغربه فضلاً عن أنهم ربما دخلوا دون أن يستأذنه^(٥).

(١) روح البيان في تفسير القرآن، إسماعيل حقي بن مصطفى الخلوّتي البروسوري، دار الفكر، بيروت، ٢٠١٣م، (٩/١٦١).

(٢) الوسيط في تفسير القرآن المجيد، الواحدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م، (٤/١٧٨).

(٣) التفسير الكبير مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، (٢٨/١٧٤)، إشراقات قرآنية، سلمان العودة، (١/١٣٠).

(٤) مدارك التنزيل وحقائق التأويل (تفسير النسفي)، (٣/٣٧٥)، إشراقات قرآنية، سلمان العودة، (١/١٣٠).

(٥) إشراقات قرآنية، سلمان العودة، المرجع السابق، (١/١٣١).

والأظهر أن إماماً مثل إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ السيد العظيم الذي اتَّخذه الله تعالى خليلاً، لديه من قوة الحدس والبصيرة والعرفان ما يغوص فيه على دقائق المعاني والأسرار، حتى ولو لم يوجد في ظاهر الحال ما يدل عليها، فلذلك أحسَّ أن الأمر ليس طبعياً، وهذا فيه حكمة عملية؛ أن الإنسان إذا استغرب شيئاً، عليه أن يتعامل معه بشكل طبيعي، ويبحث بعد ذلك حتى تتضح له الأمور، ولا يتعجل باتخاذ موقف ما، ولا يفاجئ الناس بما يستغربون، وينتظر حتى تنكشف الأمور بعد ذلك، ومن كمال الضيافة عند إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ التي عُرف بها ألا يواجههم بوصفهم بالנקارة، وقد يكون قالها في نفسه أو يكون قالها لأهل بيته لما ذهب إليهم ليضعوا طعاماً^(١).

٣- قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٦]:

أ- ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾:

﴿فَرَاغَ﴾: والروغان الذهاب بسرعة واختفاء، وهو يتضمن المبادرة إلى إكرام الضيف، والاختفاء يتضمن ترك تخجيله، وألا يعرضه للحياء، وهذا بخلاف من يتناقل ويتبارد على ضيفه، ثم يبرز بمرأى منه ويحل صُرَّةَ النفقة، ويزن ما يأخذ، ويتناول الإناء بمرأى منه، ونحو ذلك مما يتضمن تخجيل الضيف وحيائه، فلفظ ﴿فَرَاغَ﴾ تنفي هذين الأمرين، وفراغ: أي: ذهاب مع شيء من الخفية، و﴿إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾: مدح آخر لما فيه من الإشعار أن كرامة الضيف معدة حاصلة عند أهله، وأنه لا يحتاج أن يستقرض من جيرانه ولا يذهب إلى غير أهله؛ إذ قرى الضيف حاصل عندهم^(٢).

(١) إشرافات قرآنية، المصدر السابق، (١/ ١٣١).

(٢) بدائع التفسير، ابن قيم الجوزية، تحقيق: يسري السيد، صالح الشامي، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، د.ت، (٤/ ٢٤٣).

ب- ﴿فَجَاءَ بِعِجْلِ سَمِينٍ﴾:

يتضمن ثلاثة أنواع من المدح:

- أحدها: خدمة الضيف بنفسه، فإنه لم يرسل به، وإنما جاء بنفسه.

- الثاني: أنه جاءهم بحيوان تام، لم يأتهم ببعضه، ليتخيروا من أطيب لحمه ما شاؤوا.

- الثالث: أنه سمين ليس بمهزول، وهذا من نفائس الأموال؛ ولد البقر السمين فإنهم يعجبون به، فمن كرمه هان عليه ذبحه وإحضاره^(١).

٤- قوله تعالى: ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٧]:

أ- ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾:

وهذا من تمام الضيافة، إذا حضر الطاعم قربه إليهم حتى لا يُحوجهم إلى القيام، وإن كان هذا من العادات، والعادات بابها واسع، وظروف الناس تختلف واليوم جرت عادة الناس على إدخال الضيوف إلى الطعام؛ لكون الولائم كبيرة، ولكن ما جرى من خليل الرحمن هنا هو تحقيق كمال الضيافة في زمنه مع اليسر والعفوية وعدم التكلف كما في الحديث: نُهِنَا عن التكلف للضيف^(٢).

ب- ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾:

وهذا من حسن الضيافة، لم يقل: "كلوا" على سبيل الأمر، وإنما على سبيل العرض المؤدّب^(٣)؛ لأنَّ "ألا" حرف استفتاح وعرض، وفيه الدعوة اللطيفة لهم^(٤).

(١) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز ناصر الجليل، (٣/ ١١٩).

(٢) مسند أحمد، رقم (٢٣٧٣٣)، سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني، رقم (٢٤٤٠).

(٣) روح البيان في تفسير القرآن، (٩/ ١٦٢)، إشرافات قرآنية، سلمان العودة، (١/ ١٣٢).

(٤) إشرافات قرآنية، سلمان العودة، (١/ ١٣٢).

ونستخلص من قصة ضيف إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ قواعد الضيافة في ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ والتي منها:

- أن الضيف مكرّم وأنه يدخل البيت بيسر وسهولة، وعلى المضيف ردّ تحيته بتبسط وبشاشة وعدم تأخير القرى وأن يُعد أهل البيت الطعام بأنفسهم ويؤمّرون بذلك خلسة لتجنب إحراج الضيف.

- ومنها أن يأتي المضيف بأجود ما عنده من الطعام وأن تقرّبه إلى الضيف، فلا يقوم إلى طعامه بل يؤتي بالطعام إليه في مجلسه.

- ومن تلك القواعد أيضاً الدعوة إلى الطعام بلطف، والتبسط بالحديث والسؤال عن الغرض من الزيارة بعد انقضاء مدة الضيافة.

- ومنها أن المرأة تشارك في إكرام ضيف زوجها من الرجال، ويؤنس في تحديد مدى تلك المشاركة ما كان من مسلك زوج إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلم يكن منها مجالسة ومحادثة مستفيضة واكتفت بالقيام على خدمة الضيف، كمساعدة زوجها في تقديم الطعام والشراب والترحيب.. إلخ.

- حق الضيافة وإكرام الضيف من أخلاق أتباع ملة أبينا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وكان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يسمى أبو الضيفان، وكان يجب أن يكرم ضيوفه بأعز ما يملك، وهذا دليل على كرمه العظيم وسماحة نفسه وأصاله معدنه وتقرّبه إلى ربه بإكرام الضيوف^(١).

(١) من أنباء القرى، أحمد عبيد الكبيسي، تحقيق: فاطمة محمد شنون، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط ١، ٢٠٠٧م، ص ٢٥٠.

هـ - قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً^ط قَالُوا لَا تَحَفُّ^ط وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾

[الذاريات: ٢٨]:

أ - ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾:

حين لم يأكلوا خاف منهم، وجاء في الآية الأخرى في سورة هود: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠]، وهذا يؤكد ما ذكرته آنفاً أنه لم يواجههم بقوله: ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ وإنما قاله في نفسه فهو لما ﴿رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾، وحُق له أن يوجس منهم خيفة، والضيف إذا لم يأكل، فإنه يُخشى منه الغدر، وقد يكون يضر سوءاً وإيجاس الخيفة لا يعني أنه خاف من أشخاصهم، لكن خاف مما وراءهم وسبب مجيئهم، وعادة فإن الأشياء الغامضة تبعث على الخوف، ولذا قالوا له: ﴿لَا تَحَفُّ﴾^(١).

ب - ﴿لَا تَحَفُّ^ط وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾:

قد ظهر لهم في قسمات وجهه ما يدل على توجُّسه، فقالوا له تطميناً وتبشيراً: ﴿لَا تَحَفُّ^ط وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾، وسرعان ما انقلب الخوف بُشراً بغلام، وهو إسحاق وأمه سارة زوج إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام.

ويدل على ذلك ما جاء في الآية الأخرى، حيث نصَّ الله تعالى على اسم هذا الغلام، فقال: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] أي: من ولد إسحاق: يعقوب^(٢).

(١) إشرافات قرآنية، سلمان العودة، (١/١٣٣).

(٢) إشرافات قرآنية، المصدر السابق، (١/١٣٣).

وقد حدث من سارة موقف إنساني عظيم فإنها لما كبرت ولم يُولد لها وعرفت أنها عقيم، تحاملت على نفسها وأهدته هاجر من أجل أن تأتيه بغلام، فأذن الله تعالى أن يكون إسماعيل ولداً لهاجر، وأن يكون إسحاق ولداً لسارة، ولم يقل: "بغلام جميل" ولا "طويل"، وإنما ﴿عَلِيمٌ﴾، وهذا دليل على أن الصفات المعنوية هي التي يجب أن يُحرص عليها ويُمدح بها، وفي الآية الأخرى قال: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصفات: ١٠١]، فالآية الأولى - آية الذاريات - في شأن إسحاق، وآية الصفات في شأن إسماعيل، فإسحاق "عليم"، وإسماعيل "حليم" عَلَيْهِمَا السَّلَامُ^(١).

٦- قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَعةٍ فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَ عَجَزَ عَقِيمٌ﴾

[الذاريات: ٢٩]:

أ- ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَعةٍ فَصَكَتْ وَجْهَهَا﴾:

﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَعةٍ﴾: أي في صياح وصوت^(٢)، وذكر هنا أنها صَكَتْ وجهها أي: ضربته^(٣)، وهي على عادة النساء ضربت خديها بكفّيهما^(٤)، وليست دليلاً على ضعف عقل المرأة كما يظنه بعضهم، ولا ينبغي أن يقال هذا الكلام في هذا السياق، فيكفي من نضج عقلها التضحية التي بذلتها لخليل الرحمن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ والصبر معه، وهي حركة عفوية تلقائية تعبر عن شدة التصديق وشدة الاستغراب^(٥).

(١) إشرافات قرآنية، سلمان العودة، (١/ ١٣٤).

(٢) تفسير القرطبي "الجامع لأحكام القرآن"، (١٧/ ٤٦).

(٣) المرجع نفسه، (١٥/ ٣٩٥).

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٦/ ٣٣٨٣).

(٥) إشرافات قرآنية، سلمان العودة، (١/ ١٣٤).

ب- ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾:

العجز والعقم هما سببان لعدم الإنجاب، فهي لم تنجب وهي فتاة شابة، فكيف وهي في سنّ اليأس، وكذلك زوجها شيخ كبير، كما قالت: ﴿قَالَتْ يُونَيْتَىٰ ۚ أَلِدْ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ۚ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: ٧٢]، حتى في بيت النبوة يتكلم أهله بعفوية ويعبرون عن مشاعرهم دون تكلف^(١).

لقد أخذتها المفاجأة العنيفة التي لم تكن تتوقعها أبداً، فنسيت أن البشري تحملها الملائكة، عندئذ ردّها المرسلون إلى الحقيقة الأولى، حقيقة القدرة التي لا يقيد شئ، والتي تدبر كل أمر بحكمة وعلم^(٢).

٧- قوله تعالى: ﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٣٠]:

هذا قول الملائكة، أخبروها أنه ليس دعاء ولا تمنياً، وإنما هو خبر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ^(٣).

أ- وفي قولهم: ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾:

إشارة إلى لطفه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعطفه على عباده ورحمته بهم، وخليق لمن يكون عنده معاناة من العقم أو الفقر أو المرض أو الهم والغم والحزن والنكد أن يستشعر مثل هذا الموقف، وكيف خرق الله تعالى النواميس والسنن والعادات ورزقهم الغلام العليم، والتعبير بالرّب مع الضمير يُشعرك باللطف فهو ﴿رَبُّكَ﴾ القريب المجيب الرحيم الذي يجيب دعوة الداعي إذا دعاه^(٤).

(١) إشرافات قرآنية، سلمان العودة، (١/ ١٣٤).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٦/ ٣٣٨٣).

(٣) إشرافات قرآنية، سلمان العودة، (١/ ١٣٤).

(٤) إشرافات قرآنية، المصدر السابق، (١/ ١٣٥).

ب- ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾:

فهو ﴿الْحَكِيمُ﴾ في خلق هذا الغلام وفي تأخيرهِ، وهو ﴿الْعَلِيمُ﴾ الذي منح هذا الغلام من علمه، فجاء غلاماً عليمًا، وهو ﴿الْعَلِيمُ﴾ بالأشياء والأسباب، ولذلك لا يعجزه شيء ولا تخفى عليه خافية^(١).

ولأنه قول الله الحكيم العليم، فقد أصبح هذا الشيخ المسنن، وهذا العجوز العقيم أباً لأجناس ممتدة من البشرية، فالعرب من ذرية ابن إبراهيم إسماعيل، واليهود من ذرية إسحاق عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فإذا بارك الله فلا حدَّ لبركته، ورحمته تجري حيث يرى الناس وحيث لا يرون^(٢).

وقد اقترن اسم الله ﴿الْحَكِيمُ﴾ باسمه ﴿الْعَلِيمُ﴾ في نحو سبعة وثلاثين موضعاً أكثرها بتقديم "العليم" على "الحكيم"، كما ورد في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦]، وفي مواضع أخرى، وهي قليلة ورود تقديم "الحكيم" على "العليم"^(٣).

ويلاحظ أن المقامات التي يتقدم فيها اسم "العليم" على اسم "الحكيم" منوطة بالعلم أولاً ثم بالحكمة:

- ففي مقام الاعتراف بالعجز وقصور العلم، يقابله - ولا بُدَّ - الإقرار والتسليم للعليم، فإذا كان "العليم" هو "الحكيم"، فذلك هو العلم البالغ حد الكمال،

(١) إشرافات قرآنية، سلمان العودة، (١/ ١٣٥).

(٢) إشرافات قرآنية، المصدر السابق، (١/ ١٣٥).

(٣) والله الأسماء الحسنی، عبد العزيز ناصر الجليل، ص ٣٠٤.

فيكون الاعتراف مصحوباً بغاية الرضا والتسليم، كما في قوله تعالى عن الملائكة: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

- في مقام ارتباط الصبر وانتظار الفرج باسم "العليم" ارتباط قوي وثيق، وذلك أنَّ العبد إذا كان عظيم الإيمان، عميق الصلة بربه، واستلث عليه الفرج، لم يتزعزع يقينه؛ لأنه معتمد على علم الله عزَّ وجلَّ في اختيار الزمان الأنسب لما يرجوه من الفرج معوّل على حكمته في تهئية الأسباب له؛ ليقع على أحسن ما يكون، كما في قول الله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣].

- وأما مقام التشريع وإقرار الحكم، فالأمر فيه راجع إلى العلم الشامل أولاً؛ لأن العلم هو أساس بناء الأحكام، ثم تأتي الحكمة لتنزل الحكم على الواقع، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [التحریم: ٢] (١).
وتقديم اسم "العليم" على الحكيم؛ لأنَّ مبنى الأحكام على إحاطة العلم أولاً، ثم الحكمة في تنزيل العلم على الواقع بما يحقق الانسجام والتوافق بين الأحكام الشرعية والطبائع البشرية، وذلك ما يميز الشريعة الإسلامية عن الدساتير والشرائع الوضعية.

وأما تقدم اسمه سبحانه "الحكيم" على اسمه عزَّ وجلَّ "العليم"، فيلاحظ في مقامين متعلقين بسيرة إبراهيم عليه السلام (٢)، هما:

- مقام التوحيد كما في قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣].

(١) والله الأسماء الحسنى، عبد العزيز ناصر الجليل، ص ٣٠٤.

(٢) والله الأسماء الحسنى، عبد العزيز ناصر الجليل، ص ٣٠٤.

- مقام إجراء المعجزات كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٣٠].

وذلك أن مضمون الألوهية في مقام التوحيد قهر وقوة وغلبة، يقابلها من العباد طاعة وعبادة وخضوع، فتقديم الحكمة في هذا المقام - والله أعلم - ليعلم أن ألوهيته عَزَّجَلَّ السارية على من في السماوات والأرض مسارها الحكمة، ولعلَّ لما كان العلم الشامل هو رافد الحكمة وعلى أساسه تنزل الأشياء منازلها، وتوضع الأمور في مواضعها التي بها تستقيم، تبع اسم "الحكيم" باسم "العليم".

أما مقام إجراء المعجزات فهو كذلك راجع إلى القوة الغالبة والمشئمة الطليقة التي تعلو على سنن الكون ونواميسه، واقتران القوة بالحكمة هو ضمان انتظام الأمور وألا تتحول إلى عبث يفضي إلى اختلال السنن وفساد الكون، فالحكمة هنا لها الصدارة، يليها العلم الذي على أساسه يكون إجراء السنن على ما قُدر لها، أو تعطيها لحكمة ترجع لعلم "العليم".

يقول ابن قيم الجوزية عن اقتران اسمه سبحانه "الحكيم" باسمه عَزَّجَلَّ "العليم": العلم والحكمة متضمنان لجميع صفات الكمال، فالعلم يتضمن الحياة ولوازم كمالها من القيومية والقدرة والبقاء، والسمع، والبصر، وسائر الصفات التي يستلزمها العلم التام، والحكمة تتضمن كمال الإرادة والعدل، والرحمة، والإحسان، والجود والبر، ووضع الأشياء مواضعها على أحسن وجوهها، ويتضمن إرسال الرسل وإثبات الثواب والعقاب^(١). والحكمة أخص من العلم، إذ هي إجراء العلم على نحو خاص، يحقق أسمى الغايات^(٢).

(١) أسماء الله الحسنى، ابن قيم الجوزية، المكتبة التوفيقية، د. ط، د. ت، ص ١٢٧.

(٢) والله الأسماء الحسنى، عبد العزيز ناصر الجليل، ص ٣٠٥.

• اسم الله ﴿الْحَكِيمُ﴾:

هو الذي له الحكمة العليا في خلقه وأمره، الذي أحسن كل شيء خلقه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، فلا يخلق الله شيئاً عبثاً ولا يشرع سدى، الذي له الحكم في الأولى والآخرة، وله الأحكام الثلاثة لا يشركه فيها مشارك، فيحكم بين عباده في شرعه وفي قدره وجزائه، والحكمة: وضع الأشياء مواضعها وتنزيلها منازلها^(١).

• اسم الله ﴿الْعَلِيمُ﴾:

وهو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن والإسرار والإعلان وبالواجبات والمستحيلات، والممكنات وبالعالم العلوي والسفلي وبالماضي والحاضر والمستقبل، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء^(٢).



(١) والله الأسماء الحسنى، المصدر السابق، ص ٢٨٣.

(٢) والله الأسماء الحسنى، المصدر السابق، ص ٣٣٣.

المبحث الرابع:

ذكر إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في سورة مريم

أولاً: قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْجُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۖ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۖ﴾ [مريم: ٤٩، ٥٠]:

هاجر الخليل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الشام معتزلاً الأب والأهل والقوم والوطن في سبيل الله؛ لعلّه يجد أرضاً خصبة لنشر عقيدة التوحيد، وكانت مكافأة الله تعالى أن عوضه بذرية صالحة تؤنسه في غربته، واعتزاله، فقد وهب الله تعالى إسحاق على كبر، ومن امرأة عاقر عقيم هي السيدة سارة، ثم رزق بحفيده يعقوب ومن قبلهما رزق بابنه إسماعيل (عليهما السَّلَامُ جميعاً) وهب الله لهم من صنوف خيري الدنيا والآخرة ما وهب، وجعلهم أنبياء، وجعل لهم بين الناس ذكراً حسناً وثناءً جميلاً إلى يوم القيامة، وهكذا أبدل الله سبحانه خليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أهلاً خيراً من أهله، ووطناً خيراً من وطنه، ولتأمل هذا المعنى في صياغة تلك الآيات المباركة^(١).

١ - ﴿فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْجُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم: ٤٩]:

اعتزل قومه، ومظاهريهم، وشركهم، وطقوسهم، وكفرهم^(٢)، فالفاء في الآية: ﴿فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْجُدُونَ﴾ تطوي وراءها زمناً، وقد أعلن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في الآيات السابقة عن عزمه الاعتزال، وفي قوله ﴿فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ﴾ إخبار بوقوع الاعتزال

(١) تأملات في سورة مريم، عادل أحمد صابر الرويني، دار النوادر، دمشق، سوريا، ٢٠١١م، ص ٢٠٨.

(٢) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٥/ ١٨١).

وإنباء عن هجرة الخليل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهكذا طوت الفاء هذا الزمن "زمن الهجرة" للإشعار بسرعة تنفيذ ما عزم عليه، حتى بدت هجرته أرض الكفر، وكأنها وقعت بعد عزمه اعتزال أبيه وقومه مباشرة وكرّر ذكر الاعتزال بعد الفاء؛ لتحقيق الترابط والتلاحم بين مشاهد القصة وأحداثها، فتبدو حلقاتها شديدة الترابط والاتساق رغم اختلاف أزمنة وأمكنة حدوثها^(١).

٢- ﴿وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٤٩]:

ترتبت هبة إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ على اعتزال إبراهيم الخليل؛ لبيان عظم المكافأة التي أعطاها الله تعالى له بمقابلة من اعتزلهم من الأهل والأقارب، وجاء نظم تلك الهبة الجليلة على صورة الشرط وجوابه؛ للإشعار بتحقيق مكافأة الله له بعد تحقيق الشرط وهو الاعتزال، وهذا لا يمنع من وجود مدة زمنية فاصلة بين الاعتزال والهبة المذكورة، فالمشهور أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ رُزِقَ بإسماعيل أولاً ثم رُزِقَ بإسحاق بعد ذلك بمدة طويلة^(٢).

وعرف إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ بالصلاح، واختصّه الله بالبركة، ومنّ عليه بالذرية التي منها الصالح والطالح وامتدحه الله تعالى بقوله: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ۖ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ۖ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٢-١١٣].

ووصفه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالكريم، وفي الحديث الذي رواه أبو هريرة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: قيل للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: من أكرم الناس؟

(١) خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، د. الشحات محمد أبو ستيت، مطبعة الأمانة، مصر، ط ١، ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م، ص ٤٨.

(٢) تأملات في سورة مريم، عادل أحمد صابر الرويني، ص ٢٠٩.

قال: «أكرمهم أتقاهم»، قالوا: يا نبي الله ليس عن هذا نسألك، قال: «فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله»، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «أفعلن معادن العرب تسألونني؟»، قالوا: نعم، قال: «فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا»^(١).

فالكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، كما أن الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى وصفه بأنه قدوة يُقتدى به في الأعمال الصالحة، وقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، وكان عبد الله، وهذا هو معين التوحيد الصافي، أن يكون الإنسان عبد الله^(٢).

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ۚ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٢-٧٣]، ويعقوب هو ابن إسحاق بن إبراهيم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وهو المسمى إسرائيل، وقد بشر الله تعالى به جده إبراهيم الخليل حينما جاءه رسل الله ليخبروه خبر قوم لوط^(٣)، كما سيأتي تفصيل ذلك بإذن الله تعالى.

ويُحسب يعقوب ولداً لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لأنه ولد في حياة جده، فنشأ في بيته وحجره، وكان كأنه ولده المباشر وتعلّم ديانتَه ولقَّنها بنيه وكان نبياً كأبيه^(٤)، وهنا دلالة على أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ عاش مدة طويلة من الزمان بعد اعتزال قومه حتى أدرك حفيده يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٥).

(١) صحيح البخاري، رقم (٣٣٧٣).

(٢) أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ، د. جمال عبد الهادي و د. وفاء محمد رفعت، دار الوفاء للطباعة والنشر، مصر، ٢٠٠٥م، ص ٨٨.

(٣) أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ، د. جمال عبد الهادي و د. وفاء محمد رفعت، ص ٨٩.

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٤/٢٣١٢).

(٥) تأملات في سورة مريم، عادل أحمد صابر الرويني، ص ٢١٠.

لقد وهب الله عَزَّجَلَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وهباً دون مقابل ورحمةً منه تعالى؛ لأنه هو الوهاب الذي يعطي الهبة بلا عوض ولا مقابل ولا مَنْ ويعطي ما يشاء لمن يشاء، وهبات الله ونعمه وعطاياه من الكثرة لا يدونها قلم ولا يحصوها حساب، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨]، فالهبة من الوهاب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو الذي يكسر العطاء بلا عوض ويهب ما يشاء لمن يشاء بلا غرض، ويعطي الحاجة بغير سؤال، فقد وهب سبحانه إسحاق ويعقوب لإبراهيم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ تفضلاً وكرماً وجوداً وأثراً من أثر اسمه الوهاب^(١).

إِنَّ الله الوهاب سبحانه يهب شفاءً لسقيم، وولداً لعقيم، وهدى لضال، وعافية لذي بلاء، وسع الخلق جوده ودامت مواهبه واتصلت مننه وعوائده^(٢). وقال ابن القيم في قصيدته النونية الكافية الشافية:

وَكَذَلِكَ الْوَهَّابُ مِنْ أَسْمَائِهِ فَانْظُرْ مَوَاهِبَهُ مَدَى الْأَزْمَانِ
أَهْلُ السَّمَاوَاتِ الْعُلَى وَالْأَرْضِ عَنْ تِلْكَ الْمَوَاهِبِ لَيْسَ يَنْفَكَّانِ^(٣)
والتعبير بالهبة في قوله تعالى: ﴿وَهَبْنَا لَهُ﴾ [مريم: ٤٩]: إشارة إلى أنها عطاء خالص من الله تعالى، وإضافة الهبة إلى ضمير العظمة "نا" يدلُّ على كمالها^(٤).

(١) صفات الأنبياء من قصص القرآن "إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ولوط"، عقيل حسين عقيل، سما للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ٢٠١١م، ص ٢٣٢.

(٢) والله الأسماء الحسنى، عبد العزيز ناصر الجليل، دار طيبة، الرياض، ط ٣، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م، ص ٦٨٤.

(٣) والله الأسماء الحسنى، المصدر السابق، ص ٦٨٤.

(٤) تأملات في سورة مريم، عادل أحمد صابر الرويني، ص ٢١٠.

وهنا نسأل عن السرِّ في تخصيص إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بالذكر على الرغم من أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ رُزق بولده إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ قبلهما^(١)؟ والجواب على هذا السؤال يكون من وجوه عدة:

أولها: لأن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا اعتزل قومه خرج بزوجه سارة، وهي قد اعتزلت قومها أيضاً؛ إرضاءً لرَبِّها ولزوجها، فذكر الله الموهبة الشاملة لإبراهيم وزوجه، ولأن هذه الموهبة لما كانت كفاءً لإبراهيم على مفارقتها أباه وقومه، كانت موهبة من يعاشر إبراهيم ويؤنسه وهما إسحاق ويعقوب، وقد كان إسماعيل بعيداً عنه^(٢).

ثانيها: أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَصَّ إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ بالذكر منفرداً ليكون تنبيهاً على عظم شأنه وعلو قدره عند ربه، وهذا نقرأه في قوله سبحانه في السورة نفسها: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ۖ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ۝﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥].

وثالثها: أن إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ شجرتا الأنبياء، حيث جعل من أولادهما وذريتهما أنبياء كثيرين وأحفاداً أولي شأن عظيم، وإسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يخرج من صلبه إلا محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٣).

ورابعها: خصَّ يعقوب وإسحاق بالذكر للزومهما محل إقامة إبراهيم، وقيامهما بخلافته فيه، وأما إسماعيل فكان الله سبحانه هو المتولي لتربيته بعد نقله رضيعاً إلى المسجد الحرام، لذا أُخِّر في الذكر، وجُعِل أصلاً في إجراء الكلام عليه^(٤) والله أعلم.

(١) تأملات في سورة مريم، المصدر السابق، ص ٢١٠.

(٢) تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (١٢٤ / ١٦).

(٣) القصص القرآني بين الآباء والأبناء، عماد زهير حافظ، ص ٧١.

(٤) تأملات في سورة مريم، عادل أحمد صابر الرويني، ص ٢١٠.

وخامسها: لأن إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ ولد من سارة وكانت عجوزاً عقيماً، وإسماعيل ولد من أمه، فكانت المنّة في هبة إسحاق أظهر^(١).

وهذه الوجوه جميعها راجعة إلى اجتهد المفسرين، وهي مسألة لا يترتب عليها شيء، وأياً كان السبب فلا ضير، وكلها محتملة والله أعلم بمراده^(٢).

٣- ﴿وَكَلَّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۖ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُم لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۖ﴾ [مريم: ٤٩، ٥٠]:

عوض الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ عن الفرحة بالولد والأحفاد، أما الولد فإسحاق وأما الحفيد فيعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فكانوا فتنه التي اعتزل بعد الله تعالى بها، وكان أنسه في هذا الاعتزال، وفي قوله تعالى: ﴿وَكَلَّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ أي جعلنا كل واحد منهما نبياً، و﴿كَلَّا﴾ مفعول مقدم على ﴿جَعَلْنَا﴾ وقُدِّم لأهميته، وللإشارة إلى أن بدله من أبيه المشرك الذي نهره وهدده بالرجم ثم طرده محروماً من محنته، بدله من هذا أنبياء من ذريته استأنس بهم بعد وحشة الاعتزال^(٣).

وقد قدم المفعول الأول ﴿كَلَّا﴾ [النساء: ١٣٠] على فعله ﴿جَعَلْنَا﴾ للتخصيص، فكل واحد منهما كان نبياً، ولم تقتصر النبوة على واحد منهم، بل شملتهما معاً، ولفظ "كل" يقتضي استغراق ما أضيف إليه، وحكم الاستغراق أن يثبت الحكم لكل فرد من المجموع، والتنوين فيها عوض عن المضاف إليه^(٤).

(١) القصص القرآني بين الآباء والأبناء، عماد زهير حافظ، ص ٧١.

(٢) القصص القرآني، المصدر السابق، ص ٧١.

(٣) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (١/٤٦٥٣).

(٤) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام الأنصاري، تحقيق: مازن المبارك، محمد علي حمد الله، دار الفكر، دمشق، ط ٦، ١٩٨٥م، (١/٢٠٠)؛ تأملات في سورة مريم، عادل أحمد صابر الرويني، ٢١١.

تلك إذن كانت المكافأة لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وهي بيان نعمة الله عليه بالذرية التي كان يتشوق إليها، كما أن النعمة الربانية تتصل بولده إسحاق وحفيده يعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ حيث وهبهم الله تعالى من خيري الدنيا والآخرة، وجعل لهم بين الناس ذكراً حسناً موصولاً وثناءً جميلاً ظاهراً غير مخفٍ^(١).

وتأمل قول ربك ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ حيث حذف الموهوب "المفعول"، ولم ينص على الهبة، بل ذكر مصدرها ﴿مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ لذا كانت هبته عظيمة شاملة؛ لأنّها من رحمة الله التي هي أصل الهبات^(٢). ويعود الضمير في ﴿لَهُمْ﴾ إلى إبراهيم وإسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ولم يذكر الموهوب وإنه من رحمته سبحانه، فكان العقل يذهب في تقديره أعلى المذاهب التي تليق بهبة الله ورحمته فهي تشمل النبوة وتشمل الأموال، وتشمل الجاه والسلطان وتشمل العزة والكرامة والعلو في الأرض ووراثتها والإمامة فيها، وكل ذلك كان في ذرية إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط^(٣).

وفي قوله تعالى: ﴿مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ يشمل جميع ما وهب الله تعالى لهم من الرحمة في العلوم النافعة والأعمال الصالحة والذرية الكثيرة المنتشرة، حيث كثر فيهم الأنبياء والصالحون^(٤).

ومن النعائم التي أنعم الله بها على إبراهيم وذريته ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾، وفي قوله: ﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾ فيه من إضافة الاسم إلى وصفه، أي لساناً صادقاً عليّاً، رافعاً لهم وليس خافضاً لمآثرهم، والمراد الكلام الطيب

(١) تأملات في سورة مريم، عادل أحمد صابر الرويني، المرجع نفسه، ص ٢١١.

(٢) تأملات في سورة مريم، عادل أحمد صابر الرويني، ٢١١.

(٣) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (٩/٤٦٥٤).

(٤) تفسير السعدي "تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، ص ١٠٠٢.

والذكر الطيب من قبيل إطلاق الآلة على ما يكون، فأطلق اللسان والكلام، وهذا استجابة لدعوة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إذ قال في دعائه عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]، وقد أتى الله إبراهيم ذلك وذريته^(١).

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾؛ فكانوا صادقين في دعوتهم، مسموعي الكلمة في مجتمعهم، يؤخذ قولهم بالطاعة والاحترام والتقدير والتبجيل، وهذا أيضاً من الرحمة التي وهبها لهم؛ لأنَّ الله وعد كل محسن أن ينشر له ثناء صادقاً بحسب إحسانه، وهؤلاء من الأئمة المحسنين، فنشر الله الثناء الحسن الصادق غير الكاذب، العالي غير المخفي، فذكرهم ملء الخافقين، والثناء عليهم ومحبتهم امتلأت بها القلوب وفاضت بها الألسنة، فصاروا قدوة للمتقين، وأئمة للمهتدين، ولا تزال أذكارهم في سائر العصور المتجددة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم^(٢).

(١) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (٩/ ٤٦٥٤).

(٢) تفسير السعدي "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، ص ١٠٠٢.

المبحث الخامس:

ذكر إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَام في سورة الأنبياء

قال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء: ٧١، ٧٣]

تفسير الآيات الكريمة:

أولاً: قال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١]:

هاجر إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام من موطن قومه في العراق إلى دار هجرته "فلسطين"؛ الأرض المقدسة التي بارك الله فيها للعالمين، وأقام فيها، قال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾.

وتكون البركة الربانية في فلسطين كاملة شاملة لكل مجالات البركة وألوانها، وإنها بركة إيمانية واقتصادية وسياسية وعلمية وحضارية وجهادية، ويُقرّر القرآن الكريم أن هذه البركة الربانية الشاملة في فلسطين (للعالمين).

وفي هذا ردّ على أباطيل وإسرائيليات اليهود الذين يجعلون بركة الرب في فلسطين خاصّة بهم، ومقصورة عليهم، إنّها بركة للعالمين جميعاً، ففلسطين المسلمة المباركة تقدم بركتها ودروسها ودلالاتها وحقائقها وأنوارها وإشعاعاتها للعالمين كلهم^(١).

(١) تفسير السعدي، المصدر السابق، ص ١٠٨.

وقد أقام إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في فلسطين الأرض المقدسة المباركة؛ لأنها دار هجرته، تماماً كما فعل محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما هاجر للمدينة المنورة استقر في دار هجرته، ومنها انطلقت رحلاته إلى الأماكن المجاورة، ثم كان يعود إلى دار هجرته ومقر إقامته.

وعندما أقام إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في فلسطين المباركة، كان يغادر المنطقة إلى الأماكن المجاورة في عدة رحلات سجلها القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، وكانت الرحلة الأولى لمصر والباقي للحجاز، أكثر من أربع رحلات، وكان معه زوجه هاجر وابنه إسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في رحلة الحجاز الأولى، أما باقي الرحلات فكان لوحده يذهب لزيارة ابنه إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ^(١).

ونوجز أهم الأحداث البارزة التي وقعت لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد الهجرة، فيما يأتي:

- رحلته مع زوجته سارة إلى مصر.
- رحلته مع زوجته هاجر وابنه إسماعيل إلى الحجاز.
- رؤياه وهو يذبح ابنه إسماعيل.
- ضيوفه في دار هجرته وتلقيه البشرى بإسحاق ويعقوب.
- بناؤه الكعبة المشرفة بالتعاون مع ابنه إسماعيل.
- أذانه بالحج استجابة لأمر الله.

(١) قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٢م، ص ١٠٨.

ولأهمية هذه الأحداث، سندرسها في مباحث قادمة بإذن الله تعالى، وقد ورد حديث رحلته مع زوجه سارة إلى مصر في السنة الصحيحة، وقد وقع حدث ضيوف إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام في دار هجرته في فلسطين في بلاد الشام التي أقام بها بعد هجرته وهي الأرض المباركة^(١).

وقد ذكرت هجرة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام في مواضع في القرآن الكريم:

- **الموضع الأول:** في قول الله تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم: ٤٨]، فاعتزلهم في العبادة واعتزلهم كذلك في المكان.

- **الموضع الثاني:** في قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عن إبراهيم: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩].

- **الموضع الثالث في سورة العنكبوت:** ﴿فَمَنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، وفي قوله تعالى: ﴿وَبَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١].

واختلف أهل العلم في البلد التي هاجر إليها نبي الله عَلَيْهِ السَّلَام على قولين؛ القول الأول: إنه هاجر إلى مكة المكرمة التي شرفها الله، والقول الثاني: إنه هاجر إلى الشام، وهو لا شك دخل الشام ودخل مكة المكرمة^(٢).

واستقر في فلسطين وبلاد الشام، وهذا ما رجحته وهو ما ذهب إليه جمهور المفسرين أن المراد بالأرض التي بارك الله فيها للعالمين هي أرض الشام؛ وذلك لأن الله بارك فيها لكثرة خصبها وثمارها وأنهارها، ولأن الله بعث أكثر الأنبياء منها^(٣).

(١) المرجع نفسه، ص ١٠٨.

(٢) فبهدهم اقتده "قراءة تأصيلية في سير وقصص الأنبياء"، عثمان محمد الخميس، دار إيلاف الدولية، الكويت، ط ١، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م، ص ١٣٣.

(٣) تفسير القرطبي "الجامع لأحكام القرآن"، القرطبي، (١١/٢٠٢).

يقول ابن كثير في معنى الآية الكريمة: يقول الله تعالى مخبراً عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه سلمه من نار قوميه وأخرجه من بين أظهرهم مهاجراً إلى بلاد الشام إلى الأرض المقدسة منها^(١).

وفي قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾: أي نجينا إبراهيم من النار، ولوطاً من الدمار، والجار والمجرور متعلقان بـ ﴿وَنَجَّيْنَاهُ﴾، أي حفظناهما إلى أن وصلا إلى الأرض المباركة^(٢).

وكان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أول مهاجر في سبيل الله، ومعه لوط ابن أخيه وزوجه سارة، وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن الفرار بالدين واجب من دار الكفر إلى بلد يتمكن فيه الفارّ بدينه من إقامة دينه، وهذا النوع من الهجرة وجوبه باقٍ بلا خلاف بين العلماء في ذلك^(٣).

وفي السنة النبوية الشريفة عدد من الأحاديث في فضل بلاد الشام حتى عقد الإمام المنذري في كتابه "الترغيب والترهيب" فصلاً خاصاً جعل عنوانه: "الترغيب في سكنى الشام، وما جاء في فضلها" ذكر فيها ثمانية عشر حديثاً منها: طوبى للشام، إِنَّ مَلَائِكَةَ الرَّحْمَنِ بِاسْطِةٍ أَجْنَحَتْهَا عَلَيْهِ^(٤)، وفلسطين هي أفضل أرض في بلاد الشام؛ لأن فيها أولى القبلتين؛ المسجد الأقصى ومسرى رسول الله^(٥).

(١) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، (٣/٢٢٦).

(٢) زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، (٩/٤٨٩٣).

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، (٤/٥٩٠-٥٩١).

(٤) سنن الترمذي، رقم (٣٩٥٤).

(٥) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٥/٣٧٢).

وإن أرض الشام التي هاجر إليها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وابن أخيه كانت مهبط الوحي فترة طويلة ومبعث الرسل من نسل إبراهيم، وفيها الأرض المقدسة وثاني الحرمين، وفيها بركة الخصب والرزق إلى جانب بركة الوحي والنبوة جيلاً بعد جيل^(١).

لقد كانت الهجرة باب النجاة ووسيلتها، ولو لم يهاجر إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لما أمن مكر قومه، ولما أمن مكر الشيطان الذي يسعى إلى تدجين الإنسان بكل الوسائل، وإنَّ البقاء مع القوم الكافرين والركون إلى فئة الظالمين لا يؤمن معه من الوقوع في النار، وقد قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

لقد كانت الهجرة منطلقاً فعلياً واقعياً وحقيقياً للنجاة والخلاص من كيد الظالمين والمجرمين، وتلك كانت أولى فتوحاتها وأولى رحمتها، ولذلك فإن حياة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ والتي أراد قومه أن تؤول إلى الاضمحلال والفناء، وسوف تؤول وتصبح حياة بناء وعطاء منذ لحظة الهجرة بالذات؛ لأنها نجاة من القوم الظالمين وتخليص النفس من آفات معاشره الكافرين، وسوف تكون كذلك نقطة التأسيس وبداية مشروع البناء لكل الإنجازات الإبراهيمية الكبرى بعد ذلك.

ومن الفتوحات في هذه الهجرة توريث إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وآله من بعده الأرض التي بارك الله فيها للعالمين، كما أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بهجرته كان يتجه نحو القبلة الأولى التي رضيها الله سبحانه للأمة الإبراهيمية الأولى، أبناء إسرائيل يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل (عليهم صلوات الله وسلامه).

إنَّ ظهور القبلة الأولى حدث كبير من أحداث التاريخ، وهو ليس بالهين ولا البسيط إلا لأولئك الذين لا يرون شيئاً من التدبير الإلهي لتاريخ العالم

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٤/٢٣٨٨).

ولمسيرة الإنسان بالذات فوق الأرض، وأما المؤمنون فيعلمون أن مثل هذا الحدث الجليل يمثل إحدى علامات التاريخ الفارقة والفاصلة، وأنه نقطة مهمة من نقاط فهم حقيقة مسيرة الإنسان، وخفايا حراك الأمم فوق الأرض^(١).

❖ **ثانياً:** ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٢]:

ذكر الله سبحانه في هذه السورة بعض المنح والعطايا التي وهبها لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، نتيجة لهجرته وتضحياته في سبيله، فلم يتركه الله وحيداً، بل وهب له ذرية وعوضه خيراً، فإسحاق هو ابن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ رزقه من سارة وكانت عقيماً، ويعقوب هو ابن إسحاق ولكنه يُحسب ولدًا لإبراهيم؛ لأن إسحاق رزقه في حياة جده إبراهيم، فنشأ في بيته وحجره وكان كأنه ولده المباشر، وتعلم ديانته ولقنه دينه وكان نبياً كأبيه.

ولم يذكر السياق إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، مع أنه الابن الأكبر لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وولده هاجر؛ لأن السياق يتكلم عن الأرض التي هاجر إليها إبراهيم وعن أنبياء بني إسرائيل الذين سكنوا تلك المنطقة، بينما إسماعيل ذكر في سياق الهجرة مباشرة في سورة الصافات: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَّهِدُ ۖ رَبِّي هَبْ لِي مِن الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ٩٩، ١٠٠]، فالغلام الحليم هو إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومن ذرية إسحاق جاءت أمة بني إسرائيل اليهود والنصارى، ومن ذرية إسماعيل جاءت أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانت هبة الله لإبراهيم إسماعيل وإسحاق عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أعظم هبة من الله له، وقد تلقّاها خليل الله بالشكر والثناء، وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]^(٢).

(١) درب إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، سعيد الشبلي، ام كي للنشر والتوزيع، ط ١، ٢٠١٩م، ص ٢٥١.

(٢) قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٢م، ص ١٠٥.

ومعنى ﴿نَافِلَةً﴾ هو وصف ليعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لأنه ولد ولده يعني أن يعقوب ولد إسحاق، وقال مجاهد: نافلة: عطية^(١)، وقال الرازي: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ﴾؛ إجابة لدعائه ووهبنا له يعقوب نافلة على ما سأل، كالصلاة النافلة التي هي زيادة على الفرض، وعلى هذا النافلة يعقوب خاصة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ أي: جعلنا كلا من إبراهيم وإسحاق ويعقوب أنبياء مرسلين، هذا قول الضحاك، وقال آخرون عاملين بطاعة الله مجتنبين محارمه^(٢).

وجاءت الهبة بإسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بحرف العطف "الواو" مما يدل على تأخرها، وأنها لم تأت بعد هجرته مباشرة، بل بعد مجيء الملائكة بهلاك قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ كما سيأتي تفصيله بإذن الله تعالى^(٣).

ولقد ترك إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وطناً وأهلاً وقوماً، فعوضه الله الأرض المباركة وطناً خيراً من وطنه، وعوضه ابنه إسحاق وحفيده يعقوب أهلاً خيراً من أهله وعوض من ذريته أمة عظيمة العدد قوماً خيراً من قومه^(٤).

فقد نشأت من ذريته أمتان عظيمتان كان لهما الدور المحوري والبارز في مستقبل الحضارة الإنسانية، وهاتان الأمتان المنحدرتان من صلبه هما على التوالي؛ الأمة العربية التي أنشأها أبناء إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ وأمة بني إسرائيل التي تشكلت من أحفاد يعقوب بن إسحاق عَلَيْهِمَا السَّلَامُ^(٥).

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، (٥/ ٥٩١-٥٩٢).

(٢) التفسير الكبير مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، (٢٢/ ١٩١-١٩٢).

(٣) حديث القرآن عن إسماعيل وإسحاق عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، د. سليمان إبراهيم الحصين، ص ٤٨٣.

(٤) قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، ص ١٠٦.

(٥) سنن الله في الحضارة الإنسانية، أحمد سريرات، ص ٤٨.

ثالثاً: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣]:

١- قول الرازي:

اعلم أن الله سبحانه وصفهم أولاً بالصلاح؛ لأنه أول مراتب السائرين إلى الله تعالى، ثم ترقى فوصفهم بالإمامة، ثم ترقى فوصفهم بالنبوة والوحي، وإذا كان الصلاح الذي هو أول العصمة أول مراتب النبوة دلّ ذلك على أن الأنبياء معصومون، فإن المحروم أول المراتب أولى بأن يكون محروماً عن النهاية، ثم إنه سبحانه كما بيّن أصناف نعمه عليهم بيّن بعد ذلك اشتغالهم بعبوديته، فقال تعالى: ﴿وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ﴾، وكأنه سبحانه لما وفي بعهد الربوبية في الإحسان والإنعام، فهم أيضاً وفوا بعهد العبودية وهو الاشتغال بالطاعة والعبادة^(١).

٢- قول السعدي:

إنّ من صلاحهم، هو أن الله جعلهم أئمة يهدون بأمره، وهذا من أكبر نعم الله على عبده أن يكون إماماً يهتدي به المهتدون، ويمشي على خلقه السالكون، وذلك لما صبروا، وكانوا بآيات الله يوقنون، وفي قوله: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي: يهدون الناس بديننا لا يأمرؤن بأهواء أنفسهم، بل بأمر الله ودينه واتباع مرضاته، ولا يكون العبد إماماً حتى يدعو إلى أمر الله، وفي قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ يفعلونها ويدعون الناس إليها، وهذا شامل لجميع الخيرات كلها، من حقوق الله وحقوق العباد، وفي قوله: ﴿وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ هذا من باب عطف الخاص على العام لشرف هاتين العبادتين وفضلهما، ولأن منكملهما كما أمر،

(١) التفسير الكبير مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، (٢٢/١٩٣).

كان قائماً بدينه، ومن ضيعهما كان لما سواهما أضيع؛ لأن أفضل الأعمال التي فيها حق والزكاة أفضل الأعمال التي فيها الإحسان لخلقه، وفي قوله: ﴿وَكَاْنُوا لَنَا﴾ أي: لا غيرنا ﴿عَبْدِينَ﴾ أي: مديمين على العبادات القلبية والقلوية والبدنية في أكثر أوقاتهم فاستحقوا أن تكون العبادة وصفهم فاتصفوا بما أمر الله به الخلق، وخلقهم لأجله^(١).

٣- قول ابن عاشور:

إنَّ تخصيص إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة بالذكر بعد شمول الخيرات إياهما تنويه بشأنهما؛ لأنَّ بالصَّلاة صلاح النفس، إذ الصَّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وبالزكاة صلاح النفس، وبالزكاة صلاح المجتمع لكفاية عوز المعوزين، وهذا إشارة إلى أصل الحنيفية التي أرسل بها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومعنى الوحي بفعل الخيرات وإقام الصَّلاة وإيتاء الزكاة أنَّه أوحى إليهم الأمر بذلك كما هو بيِّن، ثم خصهم بذكر ما كانوا متميزين به على بقية الناس من ملازمة العبادة لله تعالى كما دل عليه فعل الكون المفيد تمكَّن الوصف، ودلَّت عليه الإشارة بتقديم المجرور إلى أنهم أفردوا الله بالعبادة، فلم يعبدوا غيره قط كما تقتضيه رتبة النبوة من العصمة عن عبادة غير الله من وقت التكليف، كما قال يوسف: ﴿مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [يوسف: ٣٨]، وقال تعالى في الثناء عن إبراهيم: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]^(٢).

٤- قول الشنقيطي:

يشمل الضمير في قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ كل المذكورين: إبراهيم ولوطاً وإسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، كما جزم به أبو حيان في البحر المحيط، وهو الظاهر،

(١) تفسير السعدي "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، (٥/ ٢٤٥-٢٤٦).

(٢) تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (١٧/ ١١١).

وقد دلت هذه الآية الكريمة على أن الله جعل إسحاق ويعقوب من الأئمة، أي جعلهم رؤساء في الدين، يُقتدى بهم في الخيرات وأعمال الطاعات، وقوله: ﴿بِأَمْرِنَا﴾ أي بما أنزلنا عليهم من الوحي والأمر والنهي، أو يهدون الناس إلى ديننا بأمرنا إياهم، بإرشاد الخلق ودعائهم إلى التوحيد.

وتبين هذه الآية الكريمة أن طلب إبراهيم الإمامة لذريته المذكور في سورة البقرة أجابه الله فيه بالنسبة إلى بعض ذريته دون بعضها، وضابط ذلك: أن الظالمين من ذريته لا ينالون الإمامة بخلاف غيرهم، كإسحاق ويعقوب، فإنهم ينالون كما صرح به تعالى في قوله هنا: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً﴾، وطلب إبراهيم هو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]. وفي قوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾؛ أي: واجعل من ذريتي أئمة يقتدى بهم في الخير، فأجاب الله بقوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا ينال الظالمين عهدي بالإمامة، على الأصوب، ومفهوم قوله: ﴿الظَّالِمِينَ﴾ أن غيرهم ينال الظالمين عهدي بالإمامة، كما صرح به هنا، وهذا التفصيل المذكور في ذرية إبراهيم أشار له تعالى في سورة الصافات بقوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ۖ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٣].

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فَعَلِ الْخَيْرَاتِ﴾؛ أي أن يفعلوا الطاعات، ويأمرُوا الناس بفعلها، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة من جملة الخيرات، فهو من عطف الخاص على العام وعكسه في القرآن الكريم من باب الإطناب في بلاغتنا العربية.

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَاْنُوا لَنَا عَبْدِينَ﴾ أي: مطيعين باجتناب النواهي وامتنال الأوامر بإخلاص، فهم يفعلون ما يأمرون الناس به ويجتنبون ما ينهونهم عنه

كما قال نبي الله شعيب: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمُ إِلَىٰ مَا أَنْهَكُمُ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨]، وفي وقوله ﴿أَيَّمَّةَ﴾ معلوم أنه جمع إمام، والإمام: هو المُقْتَدَى به ويطلق في الخير كما هنا، وفي الشر كما في قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص: ٤١]^(١).

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ﴾ أي: كانوا مطيعين وخاضعين لله تعالى وحده، وهي شهادة عالية رفيعة من الله تعالى، تدلُّ على براءتهم من جميع افتراءات المفترين وسهام المغرضين، المذكورة في الكتب التي يتداولها أهل الكتاب والتي حاولوا بها تشويه سمعتهم (عليهم الصلاة والسلام)^(٢).



(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، (٤/ ٥٩٢-٥٩٣).

(٢) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٥/ ٣٧٤).

المبحث السادس:

ذكر إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في سورة العنكبوت

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لِمِنَ الصَّالِحِينَ﴾
[العنكبوت: ٢٧]:

وهو فيض من العطاء جزيل، يتجلى فيه رضوان الله سبحانه على الرجل الذي يتمثل فيه الخلوص لله بكلّيته، والذي أجمع الطغيان على حرقه بالنار، فكان كلّ شيء من حوله برداً وسلاماً، وعطفاً وإنعاماً، جزاءً وفاقاً^(١).

♦ **أولاً: قوله تعالى:** ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]:

لقد أنسه الله (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى) في غربته، ورزقه الذرية الطيبة الصالحة بعد أن تقدم به العمر، وعاش حتى قرّت عينه برؤية حفيده يعقوب بن إسحاق، كما وهب له سبحانه إسماعيل قبل ذلك أيضاً من هاجر المصرية، ويبدو أن الآيات سكّنت عن ذكره هنا؛ لأنه عاش مع أمه هاجر منذ كان رضيعاً في أرض الحرم بعيداً عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فما استأنس إبراهيم في العيش معه كما استأنس بإسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ^(٢).

وفي كلمة ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ تعني: أن الابن الصالح هبة من الله عَزَّوَجَلَّ، فمن كان له ولد صالح، فليسجد لله عَزَّوَجَلَّ، وليتضرع إليه بقوله: يا ربي لك الحمد على هذه النعمة،

(١) تفسير السعدي (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ١٣١١).

(٢) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، (٦/ ٣٨٤).

فما من نعمة أعظم من أن يكون لك ولد صالح، يعبد الله من بعدك ويعلم الناس من بعدك^(١).

فكيف بإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام الذي رزقه الله إسحاق ويعقوب وجعلهما من الأنبياء والأئمة الذين يهدون بأمر الله، وأوحى إليهم فعل الخيرات والمحافضة على الصلوات وإعطاء الزكوات، ووصفهم بأنهم ﴿وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

❖ **ثانياً: قوله تعالى:** ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]:

لم يأت بعد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام نبي إلا من ذريته، ولا نزل كتاب إلا على ذريته حتى خُتموا بابنه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعليهم أجمعين، وهذا من أعظم المناقب والمفاخر، أن تكون مواد الهداية والرحمة والسعادة والفلاح والفوز في ذريته وعلى أيديهم اهتدى المهتدون، وآمن المؤمنون، وصلاح الصالحون^(٢).

لقد كان أنبياء بني إسرائيل من نسل يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عَلَيْهِمُ السَّلَام قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [٨٤] وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ [٨٥] وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا كُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ [٨٦] وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَأَجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [٨٧] ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [٨٨] أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَئِسُوا بِهَا كَافِرِينَ [٨٩-٨٤].

(١) تفسير النابلسي "تدبر آيات الله في النفس والكون والحياة"، (٩/ ٢٢١).

(٢) تفسير السعدي "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، ص ١٣١١.

وقد بُعث محمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من نسل إسماعيل بن إبراهيم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فكان خاتم الأنبياء من ذرية إبراهيم وآل بيته الأطهار، وبهذا يكون إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أباً للأنبياء جميعاً عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وللناس من بعده نسباً، وأباً لجميع المؤمنين بالوحي، والرسالة، والملة الحنيفية التي بعث بها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وأبناؤه من الأنبياء والرسل الذين جاؤوا من بعده وهي دعوة التوحيد^(١).

وفي قوله ﴿وَالْكِتَابَ﴾ أي: الكتب التي نزلت على الأنبياء من ذريته، وهي: القرآن، والإنجيل، والتوراة، والزبور^(٢).

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً^ط وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٢]:

١- قال ابن كثير:

أي: جمع الله له بين سعادة الدنيا الموصلة بسعادة الآخرة، فكان له في الدنيا الرزق الواسع الهنيئ، والمنزل الرحب، والمورد العذب، والزوجة الصالحة، والثناء الجميل، والذكر الحسن، فكل أحد يحبه ويتولاه، كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم، مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه، كما قال تعالى: ﴿وَابْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧] أي قام بجميع ما أمر به، وكمل طاعة ربه ولهذا قال: ﴿وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا^ط وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^{١٠} شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ أَجْتَبَاهُ وَهَدَيْنَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ^{١١} وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً^ط وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ [النحل: ١٢٠-١٢٢]^(٣).

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، (١/ ٨٥-٨٦).

(٢) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١٨/ ١١١٣٨).

(٣) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، (٦/ ٢٨٤-٢٨٥).

٢- قال السعدي:

في قوله تعالى: ﴿وَوَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ من الزوجة الجميلة فائقة الجمال، والرزق الواسع، والأولاد الذين بهم قَرَّتْ عينه، ومعرفة الله ومحبته والإنابة إليه: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾: بل هو ومحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل الصالحين على الإطلاق، وأعلاهم منزلة، فجمع الله له بين سعادة الدنيا والآخرة^(١).

٣- قال الرازي:

إنَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لما أتى ببيان التوحيد أولاً دفع الله عنه عذاب الدنيا، وهو عذاب النار، ولما أتى به مرة بعد مرة مع إصرار القوم على التكذيب وإضرارهم به بالتعذيب، أعطاه الجزاء الآخر، وهو الثواب العاجل وعدده عليه بقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ وفي الآية لطيفة، وهي أن الله بدل جميع أحوال إبراهيم في الدنيا بأضدادها، لما أراد القوم تعذيبه بالنار وكان وحيداً فريداً، فبدّل وحدته بالكثرة حتى ملأ الدنيا من ذريته، ولما كان أولاً قومه وأقاربه القريبة ضالّين مُضِلّين من جملتهم آزر، بدل الله أقاربه بأقارب مُهتدين هادين، وهم ذريته الذين جعل الله فيهم النبوة والكتاب، وكان أولاً لا جاء له ولا مال، وهما غاية اللذة الدنيوية، آتاه الله أجره من المال والجاه، فكثّر ماله حتى كان له من المواشي ما علم الله عدده، وأما الجاه فصار بحيث يقرن الصلاة عليه بالصلاة على سائر الأنبياء إلى يوم القيامة، فصار معروفاً بشيخ المرسلين بعد أن كان خاملاً حتى قال قائلهم: ﴿سَمِعْنَا فَقِيَ يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠].

وهذا الكلام لا يقال إلا في مجهول بين الناس، ثم إن الله تعالى قال: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ يعني ليس له في هذا الدنيا فحسب، كما يكون لمن قدم له

(١) تفسير السعدي "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، ص ١٣١١.

ثواب حسناته أو أملى له استدراجاً ليكثر من سيئاته، بل هذا له عجالة وله في الأجر ثواب الدلالة والرسالة، وهو كونه من الصالحين، فإن كون العبد صالحاً أعلى مراتبه، لما بيّنا أن الصالح هو الباقي على ما ينبغي،... ومن بقي على ما ينبغي لا يكون في عذاب، ويكون له كل ما يريد من حسن ثواب^(١).

وهذه المرتبة التي نالها أبو الأنبياء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ كانت بسبب تحقيقه للتوحيد ودعوته إليه، وقد ذكر الله أخباره في القرآن وبيّن مواقفه العقدية، وأنه كان أمة قانتاً لله حنيفاً، وما كان من المشركين والأنبياء كلهم على منهاجه؛ لكنه تميز بما ذكره الله من صلابته في الدعوة إلى التوحيد وسعة علمه وطول نفسه وشمول دعوته^(٢).



(١) التفسير الكبير مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، (٥٧ / ٢٥).

(٢) التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، (٧١ / ٢٦).

المبحث السابع:

ذكر إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة الصافات، وذكر إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في سورة ص

قوله تعالى: ﴿وَتَرْكُنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝١٠٨ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝١٠٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝١١٠ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۝١١١ وَبَشَرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ۝١١٢ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۖ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿[الصافات: ١٠٨-١١٣].

♦ **أولاً: قوله تعالى: ﴿وَتَرْكُنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٨]:**

هو مذكور على توالي الأجيال والقرون، وهو أمة، وهو أبو الأنبياء، وهو أبو هذه الأمة المسلمة، وهي وارثة ملته، وقد كتب الله تعالى لها وعليها قيادة البشرية على ملّة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فجعلها الله لها عقباً ونسباً إلى يوم الدين^(١).

قال الشيخ مصطفى العدوي: ... تركنا على إبراهيم ثناءً حسناً في الأمم التي جاءت من بعد، فالأمم التي جاءت من بعده تثني عليه عَلَيْهِ السَّلَامُ، بل واليهود ينسبونه إليهم والنصارى كذلك، وقد قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

ولعل هذا الثناء - والله تعالى أعلم - إنما هو إجابة لدعوة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إذ دعا قائلاً: ﴿وَأَجْعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]، هذا ومن صور هذا الثناء الحسن ذكره المتكرر في الكتاب العزيز في معرض الثناء عليه، وكذا ذكرنا له في صلاتنا،

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/ ٢٩٩٧).

فنصلي عليه في كل صلاة نصليها، وندعو الله تعالى أن يبارك عليه وعلى آله أجمعين، وكذا نذكره في أذكار الصباح والمساء^(١).

❖ **ثانياً: قوله تعالى:** ﴿سَلِّمْ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات: ١٠٩]:

لما صبر سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ واستسلم لأمر ربه عَزَّجَلَّ، جاءه الفرج من الله تعالى، وعوفي وولده من هذا البلاء، وعُوفينا جميعاً معه من هذه المسألة، فكلما ذكر قلنا: عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنَّه حمانا من هذا الموقف الصعب^(٢).

سَلِّمْ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ، سلام عليه من ربه، إنَّه سلام يسجل في كتابه الباقي، ويرقم في طوايا الوجود الكبير^(٣).

❖ **ثالثاً: قوله تعالى:** ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١١٠]:

كذلك نجزيهم بالبلاء، والوفاء، والذكر، والسلام، والتكريم^(٤)، كذلك يعني كما فعلنا مع إبراهيم نجزي كل مُحسن، ومحسن هو الذي لا يقف عند حدِّ الواجب المطلوب منه، إنما يتعداه إلى الزيادة من جنس ما فُرض عليه وكُلف به، فالحق سبحانه فرض علينا خمس صلوات في اليوم والليلة، فمن زاد على ذلك فهو من الإحسان، الله فرض علينا الحقَّ المعلوم للفقير وهو الزكاة، فمن زاد وأعطى غير المعلوم فهو من الإحسان، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآءَ ثَلْثِهِمْ رِيًّا فِئْتَهُمْ كَأَنُورًا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ [الذاريات: ١٥، ١٦]، يعني: زائدين عما فرض الله

(١) قصص الأنبياء، مصطفى العدوي، مكتبة مكة، طنطا، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م، (٢/٢٥٢).

(٢) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (٢٠/٢٨٠٢).

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/٢٩٩٧).

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/٢٩٩٧).

من جنس ما فرض الله عليهم، ثم يذكر سبحانه حيثيات هذا الإحسان: ﴿كَأَنُوقَ قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۖ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿[الذاريات: ١٧-١٩]، والمحسن يستحق هذا الجزاء؛ لأن الذي يتقرب إلى الله بأكثر مما فرض الله عليه، دليل على أنه عشق التكليف والمكلف، وعلم أن الله كلفه بأقل مما يستحق فزاد^(١).

❖ **رابعاً: قوله تعالى:** ﴿إِنَّهُ مِّنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصفات: ١١١]:

إنه جزاء الإيمان، وتلك حقيقته، فيما كشف عنه البلاء المبين^(٢). وهذا الإيمان الذي أثنى الله تعالى به على إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام قد وصله إلى ذروته في درجة اليقين، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]^(٣).

❖ **خامساً: قوله تعالى:** ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحٰقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّٰلِحِينَ﴾ [الصفات: ١١٢]:

هذه البشارة الثانية بإسحاق الذي من ورائه يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام، فبشر بوجوده وبقائه، ووجود ذريته وكونه نبياً من الصالحين، فهي بشارات متعددة^(٤).

❖ **سادساً: قوله تعالى:** ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصفات: ١١٣]:

أنزلنا عليهما البركة - النمو والزيادة - في علمهما وعملهما وذريتهما، فنشر الله من ذريتهما ثلاث أمم عظيمة: أمة العرب من ذرية إسماعيل، وأمة بني إسرائيل

(١) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (٢٠/٢٨٠٢).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/٢٩٩٧).

(٣) تفسير السعدي "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، ص ١٤٧٩.

(٤) تفسير السعدي، المصدر السابق، ص ١٤٧٩.

وأمة الروم من ذرية إسحاق: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ أي: منهم الصالح والطالح والعاقل والظالم الذي تبين ظلمه بكفره وشركه، ولعل هذا من باب دفع الإيهام، فإنه لما قال: ﴿وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾، اقتضى ذلك البركة في ذريتهما، وأن من تمام البركة أن تكون الذرية كلهم محسنين، فأخبر الله تعالى أن منهم محسن وظالم^(١). وقد بينت الآيات الكريمة أهمية وراثته الملة والمنهج، فمن اتبع فهو محسن، ومن انحرف فهو ظالم لا ينفعه نسب قريب أو بعيد^(٢).

◆ سابعاً: ذكر إسحاق ويعقوب في سورة ص:

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَرِ﴾ ﴿١٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ ﴿١٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ [سورة ص: ٤٥-٤٧].

تفسير الآيات:

- ١- ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾: الخليل.
- ٢- ﴿وَإِسْحَاقَ﴾: ابنه ﴿وَيَعْقُوبَ﴾: ابن ابنه.
- ٣- ﴿أُولَى الْأَيْدِي﴾: أي: القوّة على عبادة الله تعالى.
- ٤- ﴿وَالْأَبْصَرِ﴾: أي: البصيرة في دين الله فوصفهم بالعلم النافع والعمل الصالح.
- ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ﴾ عظيمة وخصيصة جسيمة وهي ﴿ذَكَرَى الدَّارِ﴾: جعلنا ذكرى الدار الآخرة في قلوبهم والعمل لها صفوة وقتهم والإخلاص والمراقبة لله ووصفهم الدائم، وجعلناهم ذكرى الدار، يتذكر أحوالهم المتذكر ويعتبر بهم المعتمر ويذكرون بأحسن الذكر^(٣).

(١) تفسير السعدي، المصدر السابق، ص ١٤٨٠.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٥/٢٩٩٧).

(٣) تفسير السعدي "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، ص ١٤٩٩.

٥- ﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾: الذين اصطفاهم الله من صفوة خلقه (الأخيار): الذين لهم كلُّ خلق كريم وعمل مستقيم^(١).



(١) تفسير السعدي، ص ٩٥٩.

المبحث الثامن:

يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ مع بنيه في سورة يوسف

قال تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ وَالشَّمْسَ كُوكَبًا عَشْرًا أَحَدَ رَأَيْتُ إِذْ يَأْتِيَنَّكَ رُءُوسُ الْقَوْمِ لَوَّاعَةً ۚ وَكَانَ لَكَ فِيهَا مَلَكٌ مُنْجِيٌ ۚ﴾

﴿سَجِدِينَ لِي رَأَيْتُهُمْ﴾

مُيِّنٌ عُدُوَّ لِلْإِنْسَانِ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدًا لَكَ فَيَكِيدُوا إِيَّكَ عَلَىٰ رُءُوسِكَ تَقْصُصُ لَا يَجْتَنِي قَالَ يَعْقُوبُ ءَالَ وَعَلَىٰ عَلَيْكَ نِعْمَتُهُ وَوَيْتُمْ الْأَحَادِيثَ تَأْوِيلُ مِنْ وَيُعَلِّمُكَ رَبُّكَ يُجَنِّبُكَ وَكَذَلِكَ ﴿٥﴾ فِي كَانَ لَقَدْ ﴿٦﴾ حَكِيمٌ عَلِيمٌ رَبَّكَ إِنَّ وَاشْحَقْ إِبْرَاهِيمَ قَبْلُ مِنْ أَبَوَيْكَ عَلَىٰ أَتَمَّهَا كَمَا إِلَىٰ أَحَبِّ وَأَخُوهُ يُوسُفُ قَالُوا إِذْ ﴿٧﴾ لِلسَّالِفِينَ ءَايَتٌ وَإِخْوَتَهُ يُوْسُفُ أَيُّنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوَّةُ فِي عِيَّتِ الْجَبِّ يَلْتَقِظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا يَتَّابَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَتَصَحَّوْنَ ﴿١١﴾ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافُظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزَنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَّسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَّتِ الْجَبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَتَّابَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَوْلَهُ قَالَ بِيْشْرِي هَذَا عَلَّمَ وَأَسْرُوهُ بِضْعَةَ ٢٠ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرُّهُ بِشْمَنِ بَحْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنْ

الزَّاهِدِينَ ﴿يوسف: ٤-٢٠﴾.

تفسير الآيات الكريمة:

أولاً: قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ۝ قَالَ يَبْنَئُ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝﴾ [يوسف: ٤-٦].

١- ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]:

كانت هذه الرؤيا محور القصة وبدايتها، وكان تحققها وتأويلها هي نهايتها السعيدة^(١).

أ- ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾:

واذكر لقومك يا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قصصك عليهم من قصة يوسف إذ قال لأبيه. وأبوه هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم (عليهم الصلاة والسلام)^(٢).

ومن هذه الآية، تبدأ قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وحتى الآية (١٠١) بالظرف الزماني (إذ)، والذي وظيفته اقتطاع جزء من الزمن الممتد والتركيز عليه ووضع تحت الأضواء لأخذ العبرة منه والفائدة، ولذلك كثر هذا الظرف في القصص القرآني وكثر أيضاً في المواطن التي يراد لفت نظر العباد إلى ما فيها من آيات الله وأفضاله، وتأمل - إن شئت - آيات الأنفال التي وصفت لنا غزوة بدر.

(١) التفسير الموضوعي، مرجع سابق، (٤/١٢٦).

(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، (٤/٣٦٩).

- ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ﴾ [الأنفال: ٩].
- ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال: ١١].
- ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾ [الأنفال: ١٢].
- ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ [الأنفال: ٤٣].
- ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي آعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي آعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال: ٤٤].

وفي اللغة يقدر لهذا الظرف فعل محذوف يتعلق به، كقولنا: (واذكر إذ^(١)).
 إن الآية الكريمة ابتدأت بكلمة: ﴿إِذْ﴾ وهي مفعول لفعل محذوف والتقدير:
 اذكر إذ. أي: زمن يوسف. و(إذ) لا تحمل إلينا قصة يوسف، وإنما تحملنا نحن
 إلى زمن قصة يوسف، وكأننا صرنا في الحضرة التي كان فيها يوسف يقص رؤيته
 على أبيه يعقوب. وهذا معنى: (إذ) الدالة على زمان الحدث^(٢).

وتأمل كيف أن الآية الأولى في القصة ذكرت لنا اسم الشخصية الأساسية،
 وذكرت لنا أهم الشخصيات الأخرى في القصة، وذكر عاقبة القصة^(٣).

- ب- ﴿يَبَاتٍ إِفٍّ رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾:
- ﴿يَبَاتٍ﴾: قال يا أبت، ولم يقل يا أبي، وضع التاء مكان ياء المتكلم، والتاء
 لا تأتي بدلاً من ياء المتكلم إلا مع الأب والأم، وهذان في الدنيا هم الرحماء،

(١) سورة يوسف، أحمد نوفل، ص ٢٤٥.

(٢) من حديث يوسف وموسى، محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى،
 ٢٠٢١م، ص ٥٥.

(٣) سورة يوسف، د. أحمد نوفل، مرجع سابق، ص ٢٤٥.

ولها دلالة هي التقرب، والتودد والحب والتدلل أيضاً، وكل معنى يسبق إلى قلبك حين تسمع ولدك يقول لك يا أبت، جاء في المؤتمر العلمي لتفسير سورة يوسف: كأن هذه الكلمة ﴿يَأْتِ﴾ من الابن إلى الأب استعطاف واسترحام وتذكير بالأبوة وواجباتها، نحو الشفقة التي تجب مراعاتها والوفاء بها من الطرفين^(١).

﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾: وهذا التوكيد لأمرين:

الأول: غرابة الخبر.

الثاني: شدة عناية سيدنا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ به وفراط اقتناعه به وحرصه على أن يقصّه على أبيه، ثم كرر ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾، وتجوز في دلالة الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر ودل عليهم بضمير جمع العقلاء، وقدم الجار والمجرور في قوله: ﴿لِي﴾ والأصل أن يقول: رأيتهم ساجدين لي. ولكن لما كان هذا الجار والمجرور هو الأصل في المعنى قدّمه. إن الحق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يعلم دقائق ما جرى في قلب وعقل هذا النبي الكريم، فأبان عنه باللسان العربي المبين الذي أنزل به كتابه لعلمكم تعقلون، وما كان للغة من لغات الأرض أن تتسع طرائقها لبيان هذه الخواطر، إلا هذه اللغة الشريفة، كما قال وقرر خيار علمائنا - رضوان الله عليهم -، وسكت يوسف وانقطع صوته ومضت أحداث، وألقي في الجبّ، وخرج منه، وبيع بثمن بخس، ودخل بيت العزيز، ولم نسمع له صوتاً، إلا لما أرادت امرأة العزيز أن ترميه بما هو بريء منه حينئذ نطق، وقال كلمة واحدة: ﴿قَالَ هِيَ رَاودَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ [يوسف: ٢٦].

﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَجِدِينَ﴾: أمّا الأحد عشر كوكباً فهم الإخوة، ووصفهم بهذا الوصف بدل - من أول القصة - أن نهايتهم خير،

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف، عبد الله العلمي، دار الفكر، دمشق، ١٩٦١م، (١/ ١٧١).

وأنهم طيبون، غلب على نفوسهم نزعة الخير، لا نزعة الشياطين ونزعات الشر. ومعلوم أن الرؤى رموز في الغالب، ولا تكون مباشرة^(١).

قال ابن عطية: القمر تأويله: الأب، والشمس تأويلها: الأم، فانتزع بعض الناس في تقديمها وجوب بر الأم، زيادة على بر الأب^(٢).

وهذا موافق لما ثبت عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ رجلاً قال: من أحق الناس بصحبتي قال: «أَمَّك»، قال: ثم من؟ قال: «أَبوك»^(٣).

والطفل محتاج لأُمّه وعنايتها وحنانها أكثر من حاجته لأبيه، فتعبير الشمس بالأم مستقيم؛ لأن الشمس تمدّ الخلق بالحرارة والإشراق، كما تمد الأم ولدها بالدفء والحنان^(٤).

قال السعدي: فكانت هذه الرؤيا مقدمة لما وصل إليه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من الارتفاع في الدنيا والآخرة. وهكذا إذا أراد الله أمراً من الأمور العظام قدم بين يديه مقدمة، توطئة له، وتسهيلاً لأمره، واستعداداً لما يرد على العبد من المشاق، لطفاً بعبد، وإحساناً إليه، فأولها يعقوب بأن الشمس: أمه، والقمر: أبوه، والكواكب: إخوته، وأنه ستنتقل به الأحوال إلى أن يصير إلى حال يخضعون له، ويسجدون له إكراماً وإعظاماً، وأن ذلك لا يكون إلا بأسباب تتقدمه من اجتناء الله له، واصطفائه له،

(١) سورة يوسف، أحمد نوفل، مرجع سابق، ص ٢٤٥.

(٢) المحرر الوجيز، مرجع سابق، (٣/ ١٢١٩).

(٣) أخرجه البخاري، مرجع سابق، رقم: ٥٩٧١.

(٤) إتحاف الإلف بذكر الفوائد الألف والنيف من سورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، محمد بن موسى بن نصر، مكتبة الرشد، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، (١/ ٥٤).

وإتمام نعمته عليه بالعلم والعمل، والتمكين في الأرض. وأن هذه النعمة ستشمل آل يعقوب، الذين سجدوا له وصاروا تبعاً له فيها^(١).

وقال ابن عاشور: وابتداءً قصّة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام بذكر رؤياه إشارة إلى أن الله هياً نفسه للنبوّة، فابتدأه بالرؤيا الصادقة كما جاء في حديث عائشة «أَوَّلُ مَا بُدِيَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ؛ فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ». وفي ذلك تمهيد للمقصود من القصّة وهو تقرير فضل يوسف عَلَيْهِ السَّلَام من طهارة وزكاء نفس وصبر. فذكر هذه الرؤيا في صدر القصّة كالمقدمة والتمهيد للقصّة المقصودة، وجعل الله تلك الرؤيا تنبيها ليوسف عَلَيْهِ السَّلَام بعلو شأنه ليتذكرها كلّما حلّت به ضائقة فتطمئن بها نفسه أن عاقبته طيبة^(٢).

وقال الشنقيطي في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾. لم يبين هنا تأويل هذه الرؤيا، ولكنه بيّن في هذه السورة الكريمة في قوله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوِيَهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مَعِيَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾^(٣) وَرَفَعَ أَبْوِيَهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ٩٩، ١٠٠] الآية. ومن المعلوم أن رؤيا الأنبياء وحي^(٣).

وقال الشيخ الشعراوي: وكلنا رأينا الشمس والقمر؛ كلّ في وقت ظهوره؛ لكن حلم يوسف يُبين أنه رآهما معاً، وكلنا رأينا الكواكب متناثرة في السماء آلافاً لا حصر لها، فكيف يرى يوسف أحد عشر كوكباً فقط؟ لا بُدَّ أنَّهُم اتصفوا بصفات خاصة ميّزتهم عن غيرهم من الكواكب الأخرى؛ وأنه قام بعدّهم.

(١) تفسير السعدي، مرجع سابق، ص ٥٠٠.

(٢) التحرير والتنوير، مرجع سابق، (٢٠٨/١٢).

(٣) أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي، دار عطاءات العلم، الطبعة الخامسة، ١٤٤١هـ، (٣/٥١-٥٢).

إن رؤيا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ تَبَيَّنَ أَنَّهُ رَأَاهُمْ شَمْسًا وَقَمَرًا وَأَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا؛ ثُمَّ رَأَاهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ سَاجِدِينَ. وهذا يعني أَنَّهُ رَأَاهُمْ أَوَّلًا بِصِفَاتِهِمُ الَّتِي نَرَى بِهَا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّجُومُ بِدُونِ سَجُودٍ؛ ثُمَّ رَأَاهُمْ وَهُمْ سَاجِدُونَ لَهُ؛ بِمَلَامَحِ الْخُضُوعِ لِأَمْرِ مِنَ اللَّهِ، وَلِذَلِكَ تَكَرَّرَتْ كَلِمَةُ (رَأَيْتُ) وَهُوَ لَيْسَ تَكَرُّرًا، بَلْ لِإِيضَاحِ الْأَمْرِ.

ونجد أَنَّ كَلِمَةَ: ﴿سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] وَهِيَ جَمْعُ مَذْكَرٍ سَالِمٍ؛ وَلَا يُجْمَعُ جَمْعُ الْمَذْكَرِ السَّالِمِ إِلَّا إِذَا كَانَ الْمَفْرَدُ عَاقِلًا، وَالْعَقْلُ يَتَمَيَّزُ بِقُدْرَةِ الْإِخْتِيَارِ بَيْنَ الْبَدَائِلِ؛ وَالْعَاقِلُ الْمُؤْمِنُ هُوَ مَنْ يَجْعَلُ اخْتِيَارَاتِهِ فِي الدُّنْيَا فِي إِطَارِ مَنْهَجِ الدِّينِ، وَأُسَمِّيَ مَا فِي الْخُضُوعِ لِلدِّينِ هُوَ السَّجُودُ لِلَّهِ. وَمَنْ سَجَدُوا لِيُوسُفَ إِنَّمَا سَجَدُوا بِأَمْرِ مِنَ اللَّهِ، فَهُمْ إِذَنْ يَعْقِلُونَ أَمْرَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى^(١).

مثلهم في ذلك مَثَلُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۖ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۖ﴾ [الانشقاق: ١، ٢]، هَذِهِ السَّمَاءُ تَعْقِلُ أَمْرَ رَبِّهَا الَّذِي بَنَاهَا. وَقَالَ عَنْهَا أَنَّهُا بَلَا فُرُوجٍ ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [سورة ق: ٦] وَهِيَ أَيْضًا تَسْمَعُ أَمْرَ رَبِّهَا، مُصَدِّقًا لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۖ﴾. أَيُّ: أَنَّهَا امْتَلَكْتَ حَاسَةَ السَّمْعِ؛ لِأَنَّ «أَذْنَتْ» مِنَ الْأُذُنِ؛ وَكَأَنَّهَا بِمَجْرَدِ سَمَاعِهَا لِأَمْرِ اللَّهِ؛ تَنْفَعِلُ وَتَنْشَقُّ. وَهَكَذَا نَجِدُ أَنَّ كُلَّ عَالَمٍ مِنَ عَوَالِمِ الْكَوْنِ أُمَمٌ مِثْلُ أُمَّةِ الْبَشَرِ، وَيَتَفَاهَمُ الْإِنْسَانُ مَعَ غَيْرِهِ مِنَ الْبَشَرِ مِمَّنْ يَشْتَرِكُونَ مَعَهُ فِي اللُّغَةِ، وَقَدْ يَتَفَاهَمُ مَعَ الْبَشَرِ أَمْثَالُهُ مِمَّنْ لَا يَعْرِفُ لُغَتَهُمْ بِالْإِشَارَةِ، أَوْ مِنْ خِلَالِ مُتَرَجِّمٍ، أَوْ مِنْ خِلَالِ تَعَلُّمِ اللُّغَةِ نَفْسَهَا^(٢).

(١) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، (١١ / ٦٨٤٤).

(٢) تفسير الشعراوي، المصدر السابق، (١١ / ٦٨٤٥).

ولكن الإنسان لا يفهم لغة الجماد، أو لغة النبات، أو لغة الحيوان؛ إلا إذا أنعم الله على عبد بأن يفهم عن الجماد، أو أن يفهم الجماد عنه. والمثل: هو تسبيح الجبال مع داود، ويشكل تسبيحه مع تسبيحها «جوقة» من الانسجام مُكوّن من إنسان مُسبّح؛ هو أعلى الكائنات، والمُردّد للتسبيح هي الجبال، وهي من الجماد أدنى الكائنات ونحن نعلم أن كلّ الكائنات تُسبّح، لكننا لا نفقه تسبيحها، ولكن الحق سبحانه يختار من عباده مَنْ يُعلّمه مَنْطِق الكائنات الأخرى، مثلما قال سبحانه عن سليمان: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَاءَتِيهَا النَّاسُ عُلْمَنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ...﴾ [النمل: ١٦] وهكذا عَلِمْنَا أن للطير منطقاً.

وعَلِمَ الحق سبحانه سليمان لغة النمل؛ لأننا نقرأ قول الحق: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَتَاءَتِيهَا النَّملُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٨) فَتَبَسَّ صَاحِغًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٨، ١٩].

إذن، فلكلّ أُمَّة من الكائنات لغة، وهي تفهم عن خالقها، أو مَنْ أَرَادَ له الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يفهم عنها، وبهذا نعلم أن الشمس والقمر والنجوم حين سجدت بأمر ربها ليوسف في رؤياه؛ إنّما فهمت عن أمر ربها^(١).

﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾: فسجدوا للوالدين رحمة ومحبة وشكر لله على ما أنعم على ابنهما وأمّا سجود الإخوة فتكريم واحترام وتقدير ليوسف وعرفان له بالفضل. والسجود - هنا - مظهر للاحترام وليس عبادة بطبيعة الحال، وهذا المظهر منعه شرعنا سداً للذرائع ومنعاً لأي بارقة من بوارق الشرك أن تتسلل إلى القلب^(٢).

(١) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، (١١/٦٨٤٦).

(٢) سورة يوسف، د. أحمد نوفل، مرجع سابق، ص ٢٤٦.

وقال الدكتور أحمد نوفل: وملخص الرؤيا التي يقصها الفتى يوسف على أبيه أنه رأى أحد عشر كوكباً يسجدون بين يديه، ورأى الشمس والقمر. والذي أرجحه هنا أن الواو ليست للعطف، وإنما هي واو المعية، كما تقول رجعت والغروب، تقصد مع الغروب، وتقول مشيت والساحل، أي: مع الساحل، فهنا يقول يوسف أنه رأى أحد عشر كوكباً تسجد له، بحضور الشمس والقمر؛ إذ لا يليق أن يسجد الأب والأم لابن، خاصة وأن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ نبي قد بلغ من الكبر مبلغاً، ويرجع ما أقول بإذن الله ما ورد في آخر السورة الكريمة: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠]؛ أي: الإخوة^(١).

الرؤى؛ ثبوتها وحكمها وأنواعها:

من مواضيع سورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ موضوع الرؤيا، وقد ورد في القرآن الكريم ذكر سبع رؤى في ستة مواضع، ثلاثة مواضع اشتملت على أربعة رؤى، جاءت في سورة يوسف، وهي:

- رؤيا يوسف، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

- ثم الموضع الثاني، وفيه رؤيتا صاحبي السجن اللذين ذكرا له ما رأيا، وكل واحد منهما رأى رؤيا غير التي رآها صاحبه.

- ثم جاءت الرؤيا الرابعة في الموضع الثالث من السورة، وهي رؤيا الملك، فهذه ثلاثة مواضع اشتملت على أربعة رؤى كلها في سورة يوسف.

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٢٤٨.

- وتجد ذكر الرؤيا في بقية القرآن، مرّة في سورة الأنفال عند قول الله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَدْنَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَاشَلْتُمْ وَلَتَنزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [الأنفال: ٤٣].

- ثم الصفات في قصّة إبراهيم مع إسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلَام، قال الله رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَٰأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصفات: ١٠٢].

- والموضع السادس والأخير جاءت فيه الرؤيا السابعة وهي رؤيا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي أخبر الله رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ عنها من سورة الفتح، فقال: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحْلِقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧].

فهذه سبع رؤى في القرآن أكثر من نصفها جاء في سورة يوسف^(١).

ثبوت الرؤى:

إنّ سورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام تدلّ على ثبوت الرؤى والاعتداد بها سواء كانت من مؤمن أو غيره، وإنّ أوّل ما بُدئ به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح^(٢).

فصدّق الرؤيا المناميّة حقّ، وهذا ثابت بالكتاب والسنة، ويؤيده العقل المتفتح على الواقع وتؤمن به النفوس السويّة، ولم ينكر كون الرؤيا الصالحة من الله تعالى

(١) آيات للسائلين تفسير تحليلي وموضوعي، د. ناصر العمر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م، ص ٦٨.

(٢) البخاري، رقم: ٣.

إلا الفلاسفة ومن نحاً نحوهم في هذا العصر من بعض من يشتغلون بعلم النفس، فجعلوا الرؤى أضغاث أحلام وهؤلاء يفسرون الرؤى بنوع من أنواع مرئيات المنامات، وينكرون الحق فيها، ومثل هؤلاء ومن أخذ بقولهم لا يلتفت إليهم، لأنّ الرؤيا الصالحة ثابتة بالكتاب والسنة وهذه الآيات في سورة يوسف دليل عليها. وفي السنة المطهرة عشرات الأحاديث التي تتناول الرؤى وتُظهر العناية بها^(١).

أنواع الرؤى:

هناك أحاديث صحيحة تدلّ على أنواع ما يراه الإنسان، وهي ثلاثة أقسام:

- الرؤيا الصادقة، فهي من الله تعالى، منها قول النبي ﷺ: «رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعون جزءاً من النبوة»^(٢).

- الحلم: وهو من الشيطان، فقال النبي ﷺ: «الحلم من الشيطان»^(٣)، وقال ﷺ: «إذا لعب الشيطان بأحدكم في منامه، فلا يحدث به الناس»^(٤).

- أضغاث أحلام، أو أحاديث النفس: وهي تفاعل للنفس تجاه الواقع والمواقف التي يمرّ بها الإنسان، فتستخرج هذا المخزون في شكل أحلام، يقول النبي ﷺ: «والرؤيا ثلاثة: فرؤيا الصالحة بُشًرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث المرء نفسه»^(٥).

(١) آيات للسائلين، مرجع سابق، ص ٦٩.

(٢) أخرجه البخاري، مرجع سابق، رقم ٦٩٨٤.

(٣) أخرجه البخاري، مرجع سابق، رقم (٣٢٨٢، ٦٩٩٥).

(٤) أخرجه مسلم، مرجع سابق، رقم ٣١٧٤.

(٥) أخرجه مسلم، رقم ٢٢٦٣.

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا اقترب الزمان لم تكذب رؤيا المسلم تكذب. وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً. ورؤيا المسلم جزء من خمسة وأربعين جزءاً من النبوة والرؤيا ثلاثة: فرؤيا الصالحة بشرى من الله. ورؤيا تحزين من الشيطان. ورؤيا مما يحدث المرء نفسه. فإن رأى أحدكم ما يكره، فليقم فليصل. ولا يحدث بها الناس»^(١). وهذا الحديث أصل عظيم في موضوع الرؤيا، وإثباتها، وأنواعها، وأقسامها، وكيف نتعامل معها^(٢).

وأما المنهج الشرعي في التعامل مع الرؤى، فتعتمد على الرؤى، وهي ثلاثة أنواع كما مر معناها في الحديث السابق:

- الرؤيا الصالحة: لا تحدث بها إلا من تحب وذلك لأسباب، منها: منع الحسد والضغينة.

- حديث النفس: ومن علامته أن يفكر المرء في أمر ما، ثم يرى في نومه ما يتعلق به، كمن يفكر في شراء سيارة ثم ينام فيراها. والموقف منه، الإعراض عنه وعدم الاشتغال به.

- رؤية ما يحزن: وهذا من تهويل الشيطان، وعلى الرائي:

أولاً: أن يتعوذ بالله من شر ما رأى، ومن شر الشيطان.

ثانياً: ينث عن يساره ثلاثاً.

ثالثاً: ينقلب على جنبه الآخر.

رابعاً: يقوم فيتوضأ، ثم يصلي ما شاء الله.

(١) أخرجه مسلم، رقم ٢٢٦٣.

(٢) آيات للسائلين، مرجع سابق، ص ٦٩.

خامساً: لا يحدث بها أحداً.

ومن عمل بهذا فلن تضره - بإذن الله - ومن لم يتمكن من عمل هذه الخمس فليعمل بعضها، كأن ينقلب على جنبه، وأن يستعيز بالله من شرها، ومن شر الشيطان، والمهم ألا يحدث بها أحداً، فإنه يُخشى إذا حدث بها أن يكون أثر لها عليه، فقد ورد في حديث عن رسول الله ﷺ: «أن الرؤيا على رجل طائر فإذا عُبرَتْ وقعت»^(١).

وسنة رسول الله ﷺ في حياته ومن بقية الأدلة المعتبرة، ولا تؤخذ من الرؤى لأن اعتمادها سيفتح باباً خطيراً وشرّاً مستطيراً في زيادة الأحكام أو نسخها، فالدين قد اكتمل والإسلام قد تم، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

ويدل على ذلك، ما رواه البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَمْ يَبْقَ مِنَ النُّبُوَّةِ إِلَّا الْمُبَشِّرَاتُ». قالوا: وما المُبَشِّرَاتُ؟ قال: «الرؤيا الصالحة»^(٢)، حيث يدل على حصره أنه لا تأخذ الأحكام الشرعية من الرؤيا، وإنما هي دلالات وإشعارات لوقوع شيء^(٣).

٢- ﴿قَالَ يَبْنَى لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يوسف: ٥]:

أدرك يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ بحدسه وبصيرته أن وراء هذه الرؤيا شأنًا عظيمًا لهذا الغلام، ولم يفصح هو عنه سياق ذلك، وأمام تمامه فلا يظهر إلا في نهاية القصة

(١) سنن الترمذي، مرجع سابق، (٤/٥٣٦)، رقم ٢٢٧٨، وقال حسن صحيح.

(٢) البخاري، مرجع سابق، رقم ٦٩٩٠.

(٣) يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، القره داغي، مرجع سابق، ص ٣٩.

بعد انكشاف العيب المحجوب ولهذا ينصحه بأن لا يقص رؤياه على إخوته خشية أن يستشعروا ما وراءه لأخيهم الصغير - غير الشقيق - فيجد الشيطان من وراء هذا ثغرة في نفوسهم، فتمتلى نفوسهم بالحق فيدبروا له الأمر^(١).

أ- ﴿قَالَ يَبْنَىٰ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾:

- ﴿قَالَ يَبْنَىٰ﴾: وهو خطاب تحنين، ويدل على القرب من القلب، و (بنى) تصغير: (ابن)، وفيها كثير من الحنان والرحمة والشفقة والعطف. فقد جاءت كلمة ابن مصغرة وهو تصغير تدليل، وما من نبي نادى ابنه في القرآن كله إلا صغر الابن: - قال تعالى على لسان سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَىٰ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢].

- وقال نوح لابنه: ﴿يَبْنَىٰ أَزْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود: ٤٢].

وفي هذا النداء دلالة تربوية أيضاً، ذلك أن طلب الأنبياء من آبائهم، أو أبنائهم، لا بد أن يسبقه تودد وتحبب، فسيدنا إبراهيم قبل أن يعرض الرؤيا على ابنه إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ قدم النداء بالتصغير، وكذلك فعل سيدنا نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ مع ابنه، وهكذا ينبغي أن يفعل الآباء مع أبنائهم أن يقدموا جانب المودة والقرب قبل الطلب، فقد أتبع يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ الطلب بذكر السبب، وما ذلك إلا احترام لعقل المخاطب^(٢). وقول يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لابنه: ﴿يَبْنَىٰ﴾، يفهم منه أن الابن ما زال صغيراً، ليست له ذاتية منفصلة عن الأب ليقرر بها ما هو المناسب وغير المناسب.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ٤/ ١٩٧١.

(٢) الإعجاز الدلالي في سورة يوسف، د. أشرف أحمد، مكتبة آفاق، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٣٦/ ٢٠١٥ م، ص ٤٥.

وحين يفزع يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ مما يُزعجه أو يُسيء إليه أو أيُّ أمر معضل، فهو يلجأ إلى من يحبّه، وهو الأب لأن الأب هو الأقدر في نظر الابن على مواجهة الأمور الصعبة^(١).

- ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾: نهى يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ابنه يوسف عن أن يقص رؤياه على إخوته؛ لأنّه قد علم تأويلها وخاف أن يقصها على إخوته، فيفهمون تأويلها ويحصل الحسد له^(٢). وهذه الآية أصل في ألا تُقص الرؤيا على غير شقيق ولا ناصح، ولا على من لا يحسن التأويل فيه؛ فجاء في الحديث كما تقدّم: «الرؤيا جزء من أربعين جزءاً من النبوة»^(٣). «والرؤيا معلقة برجل طائر ما لم يحدث بها صاحبها فإذا حدث بها وقعت فلات تحدثوا بها إلا عاقلاً أو محبّاً أو ناصحاً»^(٤).

وقيل لمالك: أيعبر الرؤيا كل أحد؟ فقال: أبالنبوة يُلعب؟ وقال مالك: لا يعبر الرؤيا إلا من يحسنها، فإن رأى خيراً أخبر به، وإن رأى مكروها فليقل خيراً أو ليصمت، قيل: فهل يعبرها على الخير وهي عنده على المكروه لقول من قال إنها على ما تأولت عليه؟ فقال: لا! ثم قال: الرؤيا جزء من النبوة فلا يتلاعب بالنبوة^(٥).

وقال القرطبي: وفي هذه الآية دليل على أنه مباح أن يحذر المسلم أخاه المسلم ممن يخافه عليه، ولا يكون داخل في معنى الغيبة، لأن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ قد حذر يوسف أن يقص رؤياه على إخوته فيكيدوا له، وفيها ما يدل على جواز ترك إظهار النعمة

(١) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، (١١/٦٨٤٨).

(٢) فتح القدير، مرجع سابق، (٨/٣).

(٣) التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، أبو سهل محمد المغراوي، (٦/٢٧).

(٤) سنن الترمذي، مرجع سابق، حسن صحيح، تفسير القرطبي، (٣/١٠٧٥).

(٥) تفسير القرطبي، مرجع سابق، (٣/١٠٧٥).

عند من تخشى غائلته حسداً وكيداً، وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «استعينوا على إنجاح حوائجكم بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود»^(١).

وفيها أيضاً دليل واضح على معرفة يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ بتأويل الرؤى، فإنه علم من تأويلها أنه سيظهر عليهم، ولم يبال بذلك من نفسه؛ فإن الرجل يود أن يكون ولده خيراً منه، والأخ لا يود ذلك لأخيه، ويدل أيضاً على أن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ كان أحسن من بنيه حسد يوسف وبغضه، فنهاء عن قص الرؤيا عليهم خوف أن تغل صدورهم، فيعملوا الحيلة في هلاكه^(٢).

- ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾: علّل سيدنا يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أمره ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بكتمان الرؤيا عن إخوته، لأنهم إن علموا بذلك يدفعهم الحسد والغيرة إلى الكيد والمؤامرة وظاهر الجملة: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ يدل على أنهم يكيّدون مجتمعين، وأن كيدهم يتجدد حتى ينالوا مبتغاهم، وأن كيدهم مؤكد مطلق وشامل، ثم بين سبب ذلك بأن ﴿الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾، فيوسوس لإغرائهم على الإقدام على ما يؤذي يوسف كما فعل ابن آدم من قبل حين استغلّ غيرته وحسده على قبول قربان أخيه؛ لأن يدفعه إلى قتله، فأصبح من الخاسرين^(٣).

والكيد: احتيال مستور لمن لا تقوى على مجابته، ولا يكيّد إلاّ الضعيف؛ لأن القوي يقدر على المواجهة، ولذا يقال: إن كيد النساء عظيم؛ لأن ضعفهن أعظم^(٤).

(١) السلسلة الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م، (٣/١٠٧٥).

(٢) التدبر والبيان، مرجع سابق، (٦/٢٧).

(٣) يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، علي القره داغي، مرجع سابق، ص ٤٢.

(٤) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، (١١/٦٨٥٣).

ويحتمل أن تكون ﴿كَيْدًا﴾ للتعظيم أو التحقير، فإن كان للتعظيم فليردع ابنه، وليكون المنع أكد، وإن كان للتهوين والتحقير، فحتى يخفف من أضغان النفوس بين يوسف وإخوته^(١).

وقال حسين مخلوف: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾: فيحتالون في هلاكك احتيالا خفيًا، لا قبل لك بدفعه، و (كاد) يتعدى بنفسه فيقال: كاده كيداً، ويتعدى باللام، لتضمنه معنى احتال.

والكيد في اللغة: يكون ممدوحاً ومذموماً وإن كان يستعمل في المذموم أكثر من مثل:

- ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢].

- ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ [الطور: ٤٢]. وسميت الحرب كيداً لما فيها من الاحتيال والخديعة، ومنه حديث ابن عمر: "غزا رسول الله ﷺ غزوة كذا وكذا ولم يلق كيداً". أي: حرباً^(٢).

- ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾: أي: يتكلموا معك بكلام حسن، وهم في أنفسهم يضمرون لك السوء، ويظهرون الفعل الجميل، وهم يرصدون لك الانتقام.

والكيد بهذا المعنى من صفات العاجز الذي يحتال على عدو له قوي، لا يقدر على معارضته بالبطش، ولا مصارعته بالانتقام فيظهر له رفقا ولين جانب، وهو من خلال ذلك ينصب له حبال الشر حتى يرتطم فيها^(٣).

(١) سورة يوسف، د. أحمد نوفل، مرجع سابق، ص ٢٧٥.

(٢) سورة يوسف، د. أحمد نوفل، مرجع سابق، ص ٢٧٣.

(٣) سورة يوسف، د. أحمد نوفل، مرجع سابق، ص ٢٧٣.

ب- ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَنِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾:

فالشيطان يُوغر صدور الناس بعضهم على بعض، ويزين لهم الخطيئة والشر^(١). ولقد أبرزت قصة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ما جرّه الشيطان للإنسان من شر ووبال وما يضمّره الشيطان في نفسه للإنسان من كره شديد^(٢).

وهذه العداوة معروفة لنا تماماً، لأنّه خرج من الجنة ملعوناً مطروداً، عكس آدم الذي قبل الله توبته، وقد أقسم الشيطان بعزة الله ليغوينّ الكل، واستثنى عباد الله المخلصين؛ ولذا يقول الرسول الكريم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لقد أعانني الله على شيطاني فأسلم»^(٣). ونحن نقرأ القرآن، نجد إحاطة الشيطان بالإنسان فيه يقظة: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

ولم يأت كر للمجيء من الفوقية، أو من التحتيّة لأنّ من يحيا في عبودية تحتية، وعبودية فوقية، لا يأتيه الشيطان أبداً^(٤).

قال أبو السعود رَحِمَهُ اللهُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَنِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يوسف: ٥]؛ ظاهرُ العداوة فلا يألُو جهداً في إغواء إخوتك وإضلالهم وحملهم على ما لا خير فيه وهو استئناف، كأن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: كيف يصدر ذلك عن إخوتي الناشئين في بيت النبوة؟ ف قيل: إنّ الشيطان يحملهم على ذلك^(٥).

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، (٤/ ١٩٧١).

(٢) سورة يوسف، د. أحمد نوفل، مرجع سابق، ص ٢٧٦.

(٣) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، (١١/ ٦٨٥٣).

(٤) المصدر السابق، (١١/ ٥٨٥٤).

(٥) تفسير أبو السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)، أبو السعود العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣١ هـ، (٤/ ٥٣).

وقال محمد رشيد رضا رَحِمَهُ اللهُ في قوله تعالى: ﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة بينها لا تفوته فرصة لها، فيضيعها. هذا بيان مستأنف للسبب النفسي لهذا الكيد، وهو أنه من وسوسة الشيطان في النزغ بين الناس عندما تعرّض له داعية من هوى النفس، وشرها الحسد الغريزي في الإنسان^(١).

ودليل ذلك قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الشيطان يئس أن يعبد المصلون في جزيرة العرب، ولكن بالتحريش بينهم»^(٢).

يَبْنِ يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لابنه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنَّ «الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ»؛ أي: أن أعمال الكيد التي يقوم بها الناس، قريتهم وبعيدهم تجاه الحق والصدق والتقوى، إنما الشيطان هو بطلها الحقيقي. ولذلك تجد الشيطان في هذه القصة حاضراً في كل مواطن التآزم والكيد والمكر، وفي تسلسل الحوادث، وغير خاف أن السرج الذي يركبه الشيطان من الإنسان هو - في الأعم الأغلب - النفس^(٣).

وهكذا يبرز الشيطان من وراء الستار في الأدوار الآتية:

- مكر الإخوة.
- كيد النسوة، وعلى رأسهن امرأة العزيز.
- محاولة إبقاء يوسف في السجن.
- والأحداث في القصة ستبين ذلك.

(١) تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم)، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م، (١٢/٢٥٤).

(٢) أخرجه مسلم، مرجع سابق، رقم ٢٨١٢.

(٣) في التذوق الجمالي لسورة يوسف، محمد علي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م، ص ٧٢.

٣- ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾
[يوسف: ٦].

أ- ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾:

والإشارة في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ إلى ما دلت عليه الرؤيا من العناية الربانية به. أي: ومثل ذلك الاجتناء يجتبيك ربك في المستقبل. والاجتناء: الاختيار والاصطفاء^(١). واختارك سبحانه وتعالى، لتكون خالصاً لله تعالى. والإشارة إلى ما تضمنته الرؤيا، أي كهذه الرؤيا التي سجدت لك فيها الكواكب والشمس والقمر، يختارك الله تعالى لتكون نبيه^(٢).

وقد علم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام ذلك بتعبير الرؤيا ودلالاتها على رفعة شأنه في المستقبل، فتلك إذا ضُمت إلى ما هو عليه من الفضائل آلت إلى اجتناء الله إياه، وذلك يؤذن بنبوءه. وإنما علم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام أن رفعة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام في مستقبله رفعة إلهية لأنه علم أن نعم الله تعالى متناسبة فلما كان ما ابتدأه به من النعم اجتناء وكمالاً نفسياً تعين أن يكون ما يلحق بها، من نوعها ثم إن ذلك الارتقاء النفساني الذي هو من الواردات الإلهية غايته أن يبلغ بصاحبه إلى النبوة أو الحكمة، فلذلك علم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام أن الله سيعلم يوسف عَلَيْهِ السَّلَام من تأويل الأحاديث، لأن مسبب الشيء مسبب عن سبب ذلك الشيء، فتعليم التأويل ناشئ عن التشبيه الذي تضمنه قوله: ﴿وَكَذَلِكَ﴾، ولأن اهتمام يوسف عَلَيْهِ السَّلَام برؤياه وعرضها على أبيه دل أباه على أن الله أودع في نفس يوسف عَلَيْهِ السَّلَام الاعتناء بتأويل الرؤيا وتعبيرها.

(١) التحرير والتنوير، مرجع سابق، (٦٤١/٥).

(٢) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، مرجع سابق، (٣٧٩٩/٧).

وهذه آية عبرة بحال يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ مع ابنه إذ أشعره بما توسمه من عناية الله به ليزداد إقبالاً على الكمال بقوله: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾^(١).

وفي خطاب يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لابنه: ﴿وَوَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾، التركيز على أن يتعلق ابنه بربه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولذلك قال: ﴿رَبُّكَ﴾: الذي هو مربّيكَ بالتدبير وأصناف النعم وإصلاح قلبك والارتقاء بروحك وأخلاقك، ومدبر أمرك في شؤونك كلّها، فالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ربّ كلّ شيء، وخالقه ومليكه والقادر عليه، والمتصرف في جميع أموره وبهذا فإنه لا يخرج شيء عن ربوبيته، وكل من في السماوات والأرض عبد له في حقيقته، وتحت قهره فهو المحي والمميت والرزاق الكريم^(٢).

ب- ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾:

قال شيخنا الدكتور علي القره داغي في تفسير الآية: إنّ جماهير المفسرين قد فسّروا هذه الآية بتعبير المنام وهذا حقّ لا شك فيه، ولكنّ الكلمتين: ﴿تَأْوِيلِ﴾، ﴿الْأَحَادِيثِ﴾، تحملان معنى آخر، وهو استعمال العقل والبصيرة والفطر السليمة لمعرفة نتائج الأفعال ومآلاتها وآثارها السلبية، أو الإيجابية، وهذا ما يسمى بالتحليل العقلي: الاقتصادي، أو السياسي^(٣). ولا مانع من الجمع بين هذين المعنيين، إذ لا تعارض في الجمع بينهما، بل إنّ كمال النعمة وتمامها بتحقيق النبوة والحكمة، فالنبوة هبة من الله تعالى، وليست مكتسبة، أمّا الحكمة فهي مكتسبة من حيث المبدأ، وقد أجاز علماؤنا الجمع بين المعاني المشتركة، أو بين الحقيقة والمجاز ما دام ذلك ممكناً^(٤).

(١) التحرير والتنوير، مرجع سابق، (٦٤١/٥).

(٢) والله الأسماء الحسنی، عبد العزيز الجليل، بدون طبعة، ص ٩١.

(٣) يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، علي القره داغي، مرجع سابق، ص ٣٢.

(٤) المصدر السابق نفسه، مرجع سابق، ص ٣٢.

فالتأويل لغة: من آل يؤول أولاً، ومالاً. أي: رجع وصار، وأول الشيء إليه: أرجعه. وأول الكلام: فسرته وردّه إلى الغاية المرجوة منه.

وأما الأحاديث فهي تشمل الحوادث والوقائع والأخبار والرؤى وبالتالي فإن تفسير: ﴿تَأْوِيلُ الْأَحَادِيثِ﴾، بالمعنيين صحيح، وحينئذ تكون دلالة الآية على التحليل العقلي الحكيم واضحة. يقول ابن عاشور: والتأويل إرجاع الشيء إلى حقيقته ودليله^(١).

ويصح أن تكون جمع حديث، بمعنى الشيء الحادث، فتأويل الأحاديث: إرجاع الحوادث إلى عللها وأسبابها، بإدراك حقائقها على التمام، وهو المعنى بالحكمة وذلك بالاستدلال بأصناف الموجودات على قدرة الله وحكمته، ويصح أن تكون جمع حديث، بمعنى الخبر المتحدث به، فالتأويل: تعبير الرؤيا، وعلى هذا المعنى حملها بعض المفسرين، واستدلوا بقوله في آخر القصة: ﴿وَقَالَ يَتَابَتَ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وقال ابن عاشور: ولعلّ كلا المعنيين مراد، بناءً على صحّة استعمال المشترك في معنييه، وهو الأصح^(٢).

وبناءً على ذلك، فإن تأويل الأحاديث يشمل ما يسمّى في عصرنا الحاضر بالتحليل السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي، وبذلك يتحقق الاقتداء الكامل؛ لأنّ تأويل يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ للأحاديث إذا حمل على النبوة فلا قدوة فيها، لأنها غير مكتسبة، ولكن إذا شمل التحليل العقلي القائم على الحكمة فإن ذلك هو محلّ الاقتداء^(٣).

(١) المصدر السابق نفسه، مرجع سابق، ص ٣٤.

(٢) التحرير والتنوير، مرجع سابق، (٥/٦٤٢).

(٣) يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، القره داغي، مرجع سابق، ص ٣٣.

وقال أبو السَّعود رَحِمَهُ اللهُ: وكان يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أشار بقوله: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾، إلى ما سيقع من يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من تعبيره لرؤيا صاحبي السجن ورؤيا الملك وكون ذلك ذريعةً إلى ما يبلغه الله تعالى إياه من الرياسة العظمى التي عبر عنها بإتمام النعمة وإنما عَرَفَ يعقوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذلك منه من جهة الوحي أو أراد كونه هذه الخصلة سبباً لظهور أمره عَلَيْهِ السَّلَامُ على الإطلاق فيجوز حينئذ أن تكون معرفته عَلَيْهِ السَّلَامُ لذلك بطريق الفراسة والاستدلال من الشواهد والدلائل والأمارات والمخايل بأن من وفقه الله تعالى لمثل هذه الرؤيا لا بد من توفيقه لتعبيرها وتأويل أمثالها وتمييز ما هو آفاقي منها مما هو أنفسي كيف لا وهي تدل على كمال تمكّن نفسه عَلَيْهِ السَّلَامُ في عالم المثل وقوة تصرفاتها فيه فيكون أقبل لفيضان المعارف المتعلقة بذلك العالم وبما يحاكيه من الأمور الواقعة بحسبها في عالم الشهادة^(١).

وقال الشيخ محمد متولي الشعراوي: ومعنى تأويل الشيء أي: معرفة ما يؤول إليه الشيء، ونعلم أن الرؤى تأتي كطلاسّم، ولها شفرة رمزية لا يقوم بحلّها إلا مَنْ وهبه الله قدرة على ذلك؛ فهي ليست علماً له قواعد وأصول؛ لأنها إلهامات من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وبعد ذلك تصوير يوسف على خزائن الأرض؛ حين يُوجد الجَدْبُ، ويعمُّ المنطقة كلّها، وتصبح عزيز مصر^(٢).

ج- ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾:

الكثير يظنون أن النعمة هي ما تراه العيون من زينة الدنيا، أو ما تتعلّق به القلوب من الجاه والملك والسلطان، والحقيقة أن النعم على وجهين:

(١) تفسير أبو السَّعود، مرجع سابق، (٤/٢٥٤).

(٢) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، (١١/٦٨٥٦).

- نعم مؤقتة زائلة كالصّحة والمال والوقت والسمع والبصر والعافية، حيث إنها تزول بالموت وتنتهي بانتهاء الأجل.

- نعم مؤبّدة، لا ينقطع نفعها في الدنيا ولا في الآخرة، وهذه هي نعمة الإيمان واليقين والطاعة والأعمال الصالحة. وكل النعم من الله وحده: ﴿وَمَا يَكُرِّهُ مِنْ نِعْمَةٍ فَنِ الْهُ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]، المؤقتة منها والمؤبّدة، الظاهرة منها، والباطنة، فالمنعم واحد، والجميع متمتعون بنعمه غارقون في فضله وكرمه^(١).

وفي قوله: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾، تمام النعمة هنا ليس هو الملك والسلطان؛ لأن الله يعطي الدنيا من يحبّ ومن لا يحبّ، وإنّما تمام النعمة تكون بالنعمة الكبرى، وهي الرسالة والدعوة التي خص الله بها أباه من قبل، وذلك أنّ الله لا يعطي الدين إلّا من يحبّ. فالعلم النافع والهداية لطريق الحق، والاستقامة على منهج الله ودعوة عباد الله إلى الله كلّ ذلك من النعم العظيمة التي لا توازن بها نعم الدنيا الظاهرة كلّها، ولا أدلّ على ذلك من أنّ كلمة (سبحان الله) تملأ الميزان. و(سبحان الله والحمد لله) تملأ أو تملآن ما بين السماء والأرض. وقد جاءت نصوص كثيرة تعمّق هذا المعنى في القلوب، حتّى تبدّل رغبات النفوس، وتتطلّع إلى النعم الحقيقيّة الباقية، وتنظر إلى الحياة على أنّها فرصة لتحصيل الأجور والمنافسة في الخيرات^(٢).

وقال الشيخ محمّد متولي الشعراوي في الآية الكريمة ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾: فكل ما تَمَتَّعَ به يوسف هو من نعم الدنيا، وتاج نعمة الدنيا أنّ الله اجتباها رسولاً. أو أن: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ...﴾، بمعنى ألاّ تسلب منك النعمة أبداً؛ ففي حياة يوسف منصب مهم،

(١) وقفات في حياة الأنبياء، خالد عبد العليم، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م، ص ٩٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩٧.

هو منصب عزيز مصر، والمناصب من الأغيار التي يمكن أن تنزع. أو أن: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ...﴾، بأن يصل نعيم دنياك بنعيم آخرائك^(١).

وقال الدكتور محمد أبو موسى في قوله تعالى ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾: وهذا يوشك أن يكون نصاً في النبوة، وإن كانت كلمة: ﴿يَجْتَبِيكَ﴾ جعلت سيدنا يوسف كأنه على باب النبوة؛ وألحق يعقوب إتمام النعمة به وبأبويه إبراهيم وإسحاق، وهي لا تكون إلا النبوة.

د- ﴿وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾:

وعلى من يصطفاهم ويختارهم للنبوة من آل يعقوب. فكلمة ﴿آلِ يَعْقُوبَ﴾، تعم الأنبياء وغيرهم، وقد تفرّع من آل يعقوب: الأسباط - القبائل - الاثنا عشر، الذين يكونون اليهود، وقد اختار الله تعالى، منهم من عهد موسى إلى عهد عيسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، كثيراً من الأنبياء. ولا دليل في الآية على أن إخوة يوسف كانوا أنبياء، كما رأى بعض المفسرين، فما صدر منهم في حق أبيهم وأخيهم - كما سيأتي - لا يتفق مع أخلاق الأنبياء، قبل النبوة وبعدها، ولو كان إخوة يوسف هم مراد قوله تعالى: ﴿آلِ يَعْقُوبَ﴾، لكان الأظهر أن يقول: وعلى إخوانك.

والقول بأنهم لم يكونوا أنبياء هو قول أكثر المفسرين سلفاً وخلفاً، فلم يُنقل عن أحد من الصحابة ولا عن التابعين أنه قال بنبوتههم، ولكن وُجد بعد ذلك بعض المفسرين القائلين بنبوتههم كابن زيد، وقد بالغ في ردّه البغوي وابن كثير، وذكر ابن تيمية في مؤلف له خاص بهذه المسألة وملخصه: الذي يدل عليه القرآن واللغة والاعتبار أن إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ليسوا بأنبياء، واحتجّ من قال بأنهم أنبياء

(١) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، (١١-٦٨٥٦).

بقوله تعالى في آيتي البقرة والنساء: ﴿وَالْأَسْبَاطُ﴾ [البقرة: ١٣٦]، وفَسَّر ذلك بأولاد يعقوب، والصواب: أنه ليس المراد بهم أولاده لصلبه، بل ذريته، كما يقال لهم: (بنو إسرائيل)، ويقال لسائر النَّاس: (بنو آدم). وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]، صريح في أن الأسباط هم الأمم من بني إسرائيل. وكل سبط أمة، وقد صرَّحوا بأن الأسباط من بني إسرائيل كالقبائل من بني إسماعيل، وأصل السبط: شجرة واحدة ملتفة كثيرة الأغصان، فلا معنى لتسمية الأبناء الاثني عشر أسباطاً قبل أن ينتشر عنهم الأولاد^(١).

ولو كانوا أنبياء ما وصَّاهم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما حضره الموت بالثبات على عبادة الله الواحد الأحد، قال تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ أَبَايَكَ إِِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣]^(٢).

هـ- ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾:

أَتَمَّهَا بإكرامهما بالنبوة^(٣). والآية الكريمة تبين أفضال الله على آل إبراهيم بما أنعم عليهم فجعل منهم أنبياء آباءً وأحفاداً^(٤).

ولقد اجتمع ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من عراقة النسب الشيء العظيم، فعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ»^(٥).

(١) روح المعاني، شهاب الدين الألوسي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ، (١٢/١٨٤).

(٢) التفسير الموضوعي، مرجع سابق، (٤/١٢٣).

(٣) المصدر السابق نفسه، (٤/١٢٣).

(٤) إتحاف الإلف بذكر فوائد الألف، (١/٨٤).

(٥) أخرجه البخاري، رقم ٣٣٨٢.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، سئل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: من أكرم الناس؟ قال: «أَتَقَاهُمْ اللَّهُ»، قالوا ليس عن هذا نسألك. قال: «فأكرم الناس يوسف نبي الله بن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله»^(١).

وقال القاسمي: استدل بالآية على أن الجد يطلق عليه اسم الأب^(٢). وهذا الاستعمال مألوف عند العرب وغيرهم وكانوا يقولون للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يا ابن عبد المطلب، بل قاله هو أيضاً^(٣).

وأراد بالأبوين: الجد وأبا الجد، لأنهم في حكم الأب في الأصالة^(٤). وسمي الجد وأبا الجد أبوين، لأنهما في عمود النسب^(٥).

ومن الفوائد التربوية في الآية، حرص يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ على ربط ابنه بأبائه الصالحين: (إبراهيم وإسحاق). ولا شك أن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ قصَّ على أولاده ومن بينهم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ سيرة إبراهيم وما حدث له من أحداث في العراق وهجرته إلى الشام، وزهابه إلى مصر وبناء البيت الحرام بمكة المكرمة، وكذلك سيرة إسحاق جده، وإسماعيل عمَّ يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، وما بذلوه من جهاد عظيم في الدعوة إلى الله وتوحيده، وإفراده بالعبادة، ومحاربة الشرك، والتحلي بالأخلاق الحميدة، والمحافظة على العبادة الرشيقة، وفهم تصوّرات الوجود عن الكون والحياة، والإنسان والقضاء والقدر، والجنة والنار.

(١) أخرجه البخاري، رقم ٣٣٨٣.

(٢) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، مرجع سابق، (٦/١٩١).

(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، (١٢/٢٥٦).

(٤) الكشف، مرجع سابق، (٢/٢٤٣).

(٥) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ، (٦/٢٤٠)، إتحاف الإلف بذكر فوائد الألف، (١/٨٤).

إنَّ سيرة إبراهيم وإسحاق ويعقوب عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كانت من عوامل الثبات بعد الله والاستمرار على نهجهم في حياة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ.

و- ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾:

بعدما بيّن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ فضل الله عليه باصطفائه له وتعليمه تأويل الأحاديث، وإتمام نعمته عليه، قام بتعريف ابنه ببعض أسماء الله الحسنى، وصفاته العلى فعندما تستقر هذه المعاني، في نفس الصغير، فإنه سيتذكر عند كل ابتلاء أن الله تعالى الذي أحبه فاصطفاه هو الأعلم والأحكم، وأن ما سيصيبه من بلاء إنما هو بعلمه وحكمته، فيطمئن، ولا يلتجئ لغير العليم الحكيم.

وقد بدا جلياً عظيم أثر هذه التربية على يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ إذ قال لأبيه في نهاية القصة: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠]، فرد الفضل إلى الله في تحقيق رؤياه وخروجه من السجن واجتماع شملهم، ثم جعل نزغ الشيطان هو السبب فيما حل بهم من بلاء، فكأنه يقول: إن ما وقع فيه إخوتي بلاء، وما مسني من ضر بلاء، والسبب في البلاءين نزغ الشيطان، ثم كأن تعقيبه الذي جاء به بصيغة التوكيد دالاً على عميق إحساسه بلطف الله ﷻ وعلمه وحكمته، ولذا لم يحدث أباه عما حل به من بلاء، لم يحدثه عن السجن، عن طول مكثه فيه، لكن حدثه عن إحسان الله بإخراجه من السجن، وأبوه يرى ما ترتب على هذا الخروج من عزّ وسلطان، ولم يحدثه عن غربته على طولها، ووحشتها لكن ذكره بإحسان الله لهم جميعاً بجمع شملهم وإبداهم حياة أطيب من حياتهم الأولى قبل أن يأتوا من البدو،

وكان يوسف يقول لأبيه عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: يا أبت ها قد تحققت رؤيتي وأنا مُستمسك بما علمتنيه، وأنا أقصها عليك. وإذا تأملت قول يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، وقارنته بقول يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾؛ بدا لك عظيم أثر صفات ذي الجلال والإكرام في نفس يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ولا سيما تلك التي غرسها الأب في نفس ابنه عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. فانظر كيف عملت فيه عملها فتعامل مع الحوادث العظام بمقتضى علمه بها^(١).

قال ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: وجملة ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تذييل بتمجيد هذه النعم، وأنها كائنة على وفق علمه وحكمته، فعلمه هو علمه بالنفوس الصالحة لهذه الفضائل، لأنّه خلقها لقبول ذلك فعلمه بها سابق، وحكمته وضع النعم في مواضعها المناسبة.

وتصدير الجملة بـ (إن) للاهتمام، لا للتأكيد إذ لا يشك يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في علم الله وحكمته. والاهتمام ذريعة إلى إفادة التعليل. والتفريع في ذلك تعريض بالثناء على يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وتأمله لمثل تلك الفضائل^(٢). إن التربية في الصغر لها فوائد في الكبر^(٣).

قال الدكتور أحمد نوفل: وتأمل كيف لطفُ الله: أنّ هذا الفتى ما غادر حجر النبيّ الكريم يعقوب إلى بلاد الشرك إلّا بعد أن تشرب عقيدة التوحيد، وهذا بحد ذاته أعظم اللطف إذ لو كان إلقاءه في الجبّ في سن مبكرة وهجرته إلى بيئة جاهلية قبل سن التفتح والتمييز والإدراك لكان محتاجاً إلى المربي. وأين يجده؟^(٤).

(١) آيات للسائلين، د. ناصر العمر، ص ١٠٨.

(٢) التحرير والتنوير، (٦٤٣/٥).

(٣) إتحاف الإلف، (٩٣/١).

(٤) سورة يوسف دراسة تحليلية، ص ٩٤.

الله أعلمُ بمنْ يستحق حمل الرسالة، وهو الحكيم الذي لا يترك شيئاً للعبث؛ فهو المُقدِّر لكل أمر بحيث يكون مُوافقاً للصواب^(١). كما أن الآية الكريمة احتوت على ثلاثة من أسماء الله الحسنی: (الرب، العليم، الحكيم).

معنى اسم الرب:

معنى الرب هو المربي جميعَ عباده بالتدبير وأصناف النعم، وأخص من هذا: تربيته لأصفيائه بإصلاح قلوبهم وأرواحهم وأخلاقهم، ولهذا أكثر دعائهم له بهذا الاسم الجليل لأنهم يطلبون منه التربية الخاصة. وهذا واضح وجلي فيما ذكره الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في كتابه الكريم عن أنبيائه عليهم الصلاة والسلام وأوليائه الصالحين حيث صَدَّروا دعاءهم بهذا الاسم الكريم، ومن ذلك:

- دعاء الأبوين عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بقولهما: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

- دعاء نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨].

- دعاء يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]. وهكذا مع الأنبياء وكذلك الصالحين في القرآن الكريم.

إنَّ حديث المولى عزَّجَل في قصَّة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ عن اسم (الرب) هي دعوة للتأمل في هذا الاسم العظيم وآثاره في خلقه. إنَّ ربوبيته سبحانه إنَّما تتحقق بكونه فعلاً مدبراً، متصرفاً في خلقه بعلم وقدره وأنه يريد ويسمع ويبصر وذلك هو حقيقة الألوهية.

(١) تفسير الشعراوي، (١١/٦٨٥٧).

إِنَّ الرَّبَّ هُوَ الْقَادِرُ الْخَالِقُ، الْبَارِئُ، الْمَصْصُورُ، الْحَيُّ، الْقَيُّومُ، الْمَعْطِي، الْمَانِعُ، الضَّارُّ، النَّافِعُ، الْمَقْدَمُ، الْمُؤَخَّرُ، الَّذِي يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَيَسْعُدُ مَنْ يَشَاءُ، وَيَشْقِي مَنْ يَشَاءُ، وَيَعِزُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيَذِلُّ مَنْ يَشَاءُ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي رَبوبيته الَّتِي لَهُ مِنْهَا مَا يَسْتَحَقُّهُ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى^(١).

- ومن معاني الربوبية، اختصاصه سبحانه بجلب المنافع ودفع المضار، وتفريج الكروب، وقضاء الحاجات، فإن العباد - بما أودع الله في فطرتهم من معرفة ربهم بهذه الصفات - يلجؤون إلى ربهم ويتضرعون إليه في الشدائد والملمات، وينفضون أيديهم من كل ما سوى الله عَزَّوَجَلَّ، وكلما عرف العبد ربه بأسمائه وصفاته أثر هذا في دعائه وقوة رجائه ولجوئه وتضرعه لربه سبحانه، والوثوق بكفائته سبحانه، وقدرته على قضاء حوائج عبادته، ولذلك سنرى في دعاء يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣]. وقوله: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّقْنِي بِالصِّدْقِ﴾ [يوسف: ١٠١].

الله العليم:

إِنَّ اسْمَ الْعَلِيمِ ذَكَرَ بوضوح في قصّة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في مواطن متعدّدة. وعندما نتدبّر اسم الله العليم نعلم أن العلم كلّه بجميع اعتباراته وجوهره لله تعالى، فهو يعلم الأمور المتأخّرة، أزلاً وأبداً، ويعلم ظواهر الأشياء وبواطنها، غيبها وشهادتها، ما يعلم الخلق منه وما لا يعلمون، ويعلم تعالى الواجبات -أو المستحيلات- والجائزات، ويعلم تعالى ما تحت الأرض السفلى ويعلم ما فوق السماوات العلى،

(١) بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ، (٢/٢١٢).

ويعلم تعالى جزئيات الأمور وخبايا الصدور، وخفايا ما وقع ويقع في أرجاء العالم وأنحاء المملكة؛ فهو الذي أحاط علمه جميع الأشياء في كل الأوقات، ولا يعرض تعالى لعلمه خفاء، ولا نسيان؛ كقوله في غير موضع: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١١٩] (١).

فالله عَزَّوَجَلَّ علمه شامل لكل شيء في السماوات والأرض، ولكل ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، وعلمه بمفاتيح الغيب وما يحدث من صغير أو كبير في البر، أو في البحر، وعلمه بمكنونات القلوب، وما تخفيه الصدور، وما توسوس به النفوس، وعلمه بكل ما يقوله له العباد، ويعملونه سرّاً وعلانية، وعلمه بما في الأرحام لكل أنثى، وعلمه سبحانه لكل الأشياء قبل وقوعها، وأنّ ذلك في كتاب، وله الحكمة البالغة في تقديرها. وعلمه سبحانه بأحوال عباده تقيهم وفاجرهم، وغنيهم وفقيرهم، وغير ذلك من الفوارق. وذلك قبل أن يخلقهم ويكلفهم، وأنّ توفيقه لمن يشاء وخذلانه لمن يشاء إنّما يكون عن علم بأحوال عباده، وعن حكمة بالغة، وعلمه سبحانه محيط، ودقيق بكلّ مناجاة بين اثنين فأكثر مهما أسروا النجوى، وعلمه شامل لما ينزل من الشرائع على رسله، وأنّه أعلم بما ينزل وبما يصلح لعباده، واختص الله عَزَّوَجَلَّ نفسه بعلوم الغيب (٢).

إنّ الله سبحانه - لكمال علمه - يعلم ما كان ويكون، ومالم يكن لو كان كيف يكون، أي إنّ الله يعلم الأمور الماضية التي وقعت، والأمور المستقبلية التي لم تقع بعد، ويعلم الأمور التي لم تقع لو فرض أنّها تقع كيف تقع، وهذا من كمال علمه بالغيب وعواقب الأمور. ولا شك أنّ يعقوب ويوسف عَلَيْهِمَا السَّلَام آمنوا إيماناً عظيماً

(١) والله الأسماء الحسنی، ص ٣٣٥.

(٢) والله الأسماء الحسنی، المصدر السابق، ص ٣٥٢-٣٥٣.

باسم العليم وعرفوا عظمة الله تعالى من خلال أسمائه الحسنى وصفاته العلى وأثمر يقينهم بعلم الله الشامل وقدرته المطلقة ومشيتته النافذة وحكمته العظيمة في وضع الأشياء مواضعها.

والإيمان باسم الله تعالى العليم اقتضى محبة يعقوب ويوسف عَلَيْهِمَا السَّلَامُ للعلم والحرص عليه، لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْعَلِيمُ، يحبُّ كلَّ عليم يسير في طريق التَّعلم والتَّعليم والمعرفة التي تدلُّ على حقائق الأمور وتعمِّق الصِّلة بالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعباده على هذه الأرض. إنَّنا مطالبون بتعميق الإيمان في نفوسنا، وتحقيق التَّوحيد في قلوبنا، والسَّير على منهج الله في حياتنا. وإنَّ التأمل في قصَّة يوسف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأبعادها المتعدِّدة وأعماقها المتنوعة والوقوف مع أسماء الله الحسنى وصفاته العُلا والحرص على حفظها وفهمها والتَّعبد به؛ تفتح للإنسان الذي يريد أن يتَّصل بموكب الأنبياء والمرسلين آفاقاً رحبة وحياة طيبة.

الله الحكيم

قد دلَّت العقول الصحيحة والفطر السليمة على ما دلَّ عليه القرآن والسنة؛ أنَّه سبحانه حكيم لا يفعل شيئاً عبثاً ولا لغير معنى ومصلحة. وحكمته هي الغاية المقصودة بالفعل بل أفعاله سبحانه صادرة عن حكمة بالغة لأجلها فعل. كما أنَّها ناشئة عن أسباب بها فعل، وقد دلَّ كلامه وكلام رسوله على هذا. وهذا في مواضع لا تكاد تحصى ولا سبيل إلى استيعاب أفرادها^(١).

"والحكيم" هو الذي له الحكمة العليا في خلقه وأمره، الذي أحسن كلَّ شيء خلقه ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، فلا يخلق شيئاً عبثاً،

(١) شفاء العليل، ابن القيم، دار عطاءات العلم، الطبعة الثانية، ١٤٣٣هـ، (١/ ٩٠).

ولا يشرع سدى، الذي له الحكم في الأولى والآخرة، وله الأحكام الثلاثة لا يشاركه فيها مشارك؛ فيحكم بين عباده في شرعه وفي قدره وجزائه، والحكمة: وضع الأشياء مواضعها وتنزيلها منازلها^(١).

وقد لاحظت في سورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ اقتران اسم الله العليم بالحكيم في مقام الصبر وانتظار الفرج ومقام التواضع والتحدث بنعمة الله.

مقام الصبر وانتظار الفرج

إن مقام ارتباط الصبر وانتظار الفرج باسم الله "العليم" ارتباطاً قوياً، وذلك أن العبد إذا كان عظيم الإيمان عميق الصلة بربه واستلبت عليه الفرج لم يتزعزع يقينه؛ لأنه معتمد على علم الله عَزَّجَلَّ في اختيار الزمان الأنسب لما يرجوه من الفرج، معول على حكمته في تهيئة الأسباب له ليقع على أحسن ما يكون، كما في قول يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣].

مقام التواضع والتحدث بنعمة الله:

مثل ذلك يقال في مقام التواضع والتحدث بنعمة الله وفضله؛ لأن قوامه أحداث ترجع إلى علم "العليم" وحكمة "الحكيم"، كما في قوله تعالى عن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠]^(٢).

(١) قصّة بدء الخلق وخلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، علي الصلابي، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، ٢٠٢٠م، ص ٣٥٨.

(٢) قصّة بدء الخلق وخلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، الصلابي، ص ٣٥٨.

ثانياً: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٌ لِلِّسَّائِلِينَ ۖ﴾ ٧ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٨﴾ أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾ [يوسف: ٧-١٠].

١- ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٌ لِلِّسَّائِلِينَ﴾ [يوسف: ٧]:

درات هذه الآية على الزمان والمكان، في الماضي في مواطنها الجغرافية في بادية الشام ومصر وأبطالها الحقيقيين: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ﴾، بصيغ التوكيد والتحقيق ﴿لَقَدْ﴾ فالقصة قد وقعت فعلاً وحقاً. وفي الحاضر، قريش في مكة واليهود من ورائهم في يثرب في مناسبة القصة، يسألون محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنها. وفي المستقبل في كل زمان ومكان، الكل سائل ينشد الحقيقة والحكمة والعبرة^(١).

ومن دلالات هذا الآية:

- وكلمة: ﴿ءَايَاتٌ﴾ تدلّ على كثرتها وتنوعها، وقد ذكر بعض المفسرين أنها نزلت إجابة عن سؤال سئل عنه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والأظهر أن الآية أعم من أن تكون مجرد إجابة عن سؤال واحد، بل فيها آيات للسائلين في شتى المجالات الإيمانية والعقدية والسياسية والتربوية والاقتصادية والاجتماعية، وفيها تبياناً لسبيل الخروج من كثير من الفتن كفتنة النساء والسجن والملك والمال والعلم،

(١) يوسف أيها الصديق، د. محمد عاطف السقا، دار المكتبي، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م،

وغيرها. وقل أن يسلم الإنسان من الوقوع في فتنة أو أكثر، وقد أشير في المقدمة إلى بعض ما تتضمنه قصّة يوسف وإخوته في أهميّتها، ومن دلالات هذه الآية، وجود علاقة بين الماضي والحاضر والمستقبل، فقد نزلت هذه الآيات في العهد المكي، تسرية عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابّة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وعبرة وهدى ورحمة، وهي كذلك لأولي الألباب والمؤمنين إلى قيام الساعة حيثما كانوا^(١).

- قال الإمام محمد أبو زهرة: وقد ابتدأ الله سبحانه بالإشارة إلى ما في قصّة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام من آيات بينات في تكوين النفوس والمجتمعات من أول الأسرة إلى المجتمع الإنساني الأكبر الذي يجمع العناصر المكونة للمجتمع الكبير والمجتمع الصغير، وفي الأسرة والحي.

أول هذه الآيات بدءا وظهورا: "الحسد" الذي يعتري أولاد العلات أو أولاد الضرائر، وهو ظاهرة من الظواهر التي تبدو، ويحسب بعض الناس أنه داء لا علاج له، والسورة تشير إلى أنه داء، يمكن توقّيه، وإذا وقع يمكن تحسين عواقبه، وأنه لا يصح لإبعاده، منع تعدد الضرائر، أو منع تعدد الزوجات ولكن السورة أشارت إلى أن الوقاية منه هو منع ما يثيره، بإظهار المنزلة العالية، لبعض الأبناء، وإظهار البخس للآخرين أشار إلى ذلك قول يعقوب ليوسف: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾، وإنّ هذا الحسد ليس حسداً مستمكناً، بحيث يبقى بين الإخوة ما داموا، بل إنّ سرعان ما تقضي عليه المحبة التالية التي إن اختفت حيناً، فلن تختفي طوال الحياة، وسرعان ما تكون، وهي الباقية، والأصل، والحسد عارض لا يدوم، ألم تر لقاء يوسف بإخوته ذلك اللقاء الحبيب، وهم يقولون: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩١].

(١) آيات للسائلين، ص ١٠٩.

والثانية: من الآيات النفسية، أنه لا يذهب بقوة الرجل غير الحزن الدفين المستكن في النفس، فهذا يعقوب الإنسان يَمُضُّ نفسه الحزينة، حتى تبيَضَّ عيناه من الحزن وهو كظيم.

الثالثة: إنَّ البُشر بعد البؤس، والسرور بعد الألم يرد إلى النفس ما أذهبه الحزن، فإنه لما ألقى على وجهه قميص يوسف ارتد بصيرا؛ لأن الحزن قد ذهب إلى غير أوبة، والسرور يفعل فعله في الجسم فيزيل ما فعلته الكآبة فيه.

الرابعة: أنه في وسط ثورة الباطل وحدته في غلمان يعقوب وحسدهم لأخيهم وجد من يدعو إلى الرفق، ويستمع إليه، فقد اتفقوا على قتله، فجاء واحد منهم، وهم في حدة الحسد، وقال: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوَهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾، وهذا يوحى إلى أن كلمة الرفق لها استجابة في أشد الإخوة عنفاً.

الخامسة: إنَّ أشد ما يثير الحسد، هو الإيثار بالمحبة، فإن إثارة الحسد، لا تكون بالإيثار بالطعام أو الشراب وإعطاء المال فقط، بل إن الإيثار بالمحبة أفعّل وأشد، ألم تر أولئك الغلمان يقولون: إن يوسف وأخاه أحب إلى أيينا منا ونحن عصابة.

السادسة: إنَّ الصُّبا أقرب إلى حبِّ الانتقام من كِبَر في السن، فشدة الصبا، معها شدة الجهالة وحب الانتقام، من غير نظر إلى العواقب، وأنت ترى صبيان يعقوب، وهم يحسدون يوسف قد بدَّله الله تعالى منهم رجالا يتحملون التبعات بعد أن أوشكوا أن يكونوا كهؤلاء أو غيرهم..

السابعة: لا يطفئ الحسد إلا المحبة القوية المانعة، ألم تر أن المحبة التي كانت تنبعث من قلب الأب الرفيق الشفيق كانت خشيته من حدة الحسد فيهم؛ وقد بدا ذلك منهم عندما طلب يوسف أخاهم من أبيهم، فقالوا: ﴿إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَعَكَ نَاهُ﴾ [يوسف: ٧٨]، فهل كانت هذه حالهم عندما أخذوا يوسف، وألقوه في غيابة الحب بعد أن أرادوا قتله.

وإنّ هذا يدلّ على أنّ حسد الإخوة مهما يكن مآله إلى زوال، وعوامل زواله أقوى من عوامل بقاءه.

الثامنة: إنّ الدّعوة إلى الخير لا يصحّ أن يكفّ عنها المؤمن مهما يكن في حال من البؤس والألم، ألم ترى يوسف الصديق وهو في السجن، لم تشغله حاله عن الدعوة إلى التوحيد^(١).

التاسعة: أنّ السّورة تصور النفس الإنسانية في انحرافها، واستقامتها، ألم ترها تصور امرأة العزيز وقد انحرفت عن الجادة نحو فتاها، وأنه شغفها حبا، وإن ذلك يدل على فساد القصور في هذا العهد، وألا ترى أن في هذا دعوة لأن يحتاط أرباب البيوت فلا يجعلون في خدمهم جميلا؛ فإنهم يفسدون به نساءهم، ويفسدونهم، ويطمعونهم فيهم.

وإنّ هذه الحال من شغف امرأة العزيز بيوسف، وردّها، ومقاومة دواعي الهوى في شاب قوي فتي، يدل على أنّ الإرادة القوية الحازمة تكبح جماح الشهوة.

العاشر: أنّ السّورة تصور نساء الطبقة المترفة في ذلك العصر، لقد كنّ يُشعن إشاعة السوء وينشرنها، وهنّ غير ملتفتات إلى عواقب ما يقلن، وما أشبه الليلة بالبارحة، فإن ذلك لا يزال خلق المترفات من نساء مصر، وخصوصا أهل القصور.

الحادية عشرة: أنّ الرّؤيا الصادقة سبحة روحانية، وأنها تكون للمشرّكين كما تكون للمؤمنين، والإنسان -ولو كان مشركا- له روح، فقد رأى الفتيان صاحبا يوسف في السجن، رأيا رؤية كانت صادقة، فأولّ لهما يوسف الصديق الرّؤيا، ووقعت كما أوّل.

(١) زهرة التفاسير، (٧/ ٢٨٠٠).

الثانية عشرة: أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، كان علمه لدينًا من الله تعالى، فما تعلم على أحد، وما درس، فقد فصل عن أبيه في سن دون سن التعلم، وعاش عيش العبيد، وهو «الكريم ابن الكريم»، وقد علمه الله تأويل الأحاديث، وعلمه تدبير السلطان، وخصوصا وقت أن تعقد الاقتصاد وتأزمت حلقاته.

الثالثة عشرة: أن مصر كانت مصدر الخير، لأهل الشرق، فكانت مزرعته الذي يقصد إليها في شدائده.

الرابعة عشرة: أن أرض الله يفيض خيرها بعضها على بعض، كما رأيت ما أفاضت به مصر على جيرانها، وكيف كانت تميرهم، وتمونهم.

الخامسة عشرة: أن الله تعالى له عبرة في خلقه، كيف جعل ذلك الأسير الذي باعوه بثمان بخس - لأنهم لا يريدونه - ملكا مسيطرا على مصر، ومن حولها من بقاع الأرض^(١).

السادسة عشرة: أن سيادة العدل تأتي بالخير الوفير، وأن الظلم لا يأتي إلا بالشر المستطير.

السابعة عشرة: أن الصفح الجميل علاج كل الآفات الاجتماعية ما دام الصفح عن قوى.

الثامنة عشرة: أن العز الحقيقي يجب أن يفيض على الأحباب حتى من ظلم، ولا يُبخس لحق غيرهم كما فعل يوسف مع أبويه.

التاسعة عشرة: أنه يجب أن يخضع الكبير في سنه، لحكم الصغير في سنه ما دام عدلا، وقد رأيت خضوع يعقوب ليوسف، كما قال: ﴿وَحَرُّوا لَهُ سُجْدًا﴾ [يوسف: ١٠٠] أي خاضعين؛ لا أنهم سجدوا له سجود الصلاة.

(١) زهرة التفاسير، (٧/٣٨٠٣).

الآية المتممة للعشرين: شكرُ المنعم، كما فعل يوسف الصديق، فقد قال خاضعاً خاشعاً: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (١).

هذا ما نراه في معنى الآيات التي ذكرها الله سُبحَانَهُ وتعالى في قوله الآية المتممة للعشرين: شكرُ المنعم، كما فعل يوسف الصديق فقد قال لله تعالى خاشعاً خاضعاً: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

وقال الشيخ محمد رشيد رضا: أي لقد كان في قصّة يوسف وإخوته لأبيه أنواع من الدلائل على أنواع من قدرة الله وحكمته، وتوفيق أقداره ولطفه بمن اصطفى من عباده، وتربيته لهم، وحسن عنايته بهم، للسائلين عنها، من الراغبين في معرفة الحقائق والاعتبار بها، لأنهم هم الذين يعقلون الآيات ويستفيدون منها، ومن فاته العلم بشيء أو بحكمته أو بوجه العبرة فيه سأل عنه من هو أعلم به منه، فإن للظواهر غايات لا تعلم حقائقها إلاّ منها، فإخوة يوسف لو لم يحسدوه لما ألقوه في غيابة الجبّ، ولو لم يلقوه لما وصل إلى عزيز مصر، ولو لم يعتقد العزيز بفراسته وأمانته وصدقه لما أمّنه على بيته ورزقه وأهله، ولو لم تراوده امرأة العزيز عن نفسه ويستعصم لما ظهرت نزاهته وعرف أمرها، ولو لم تخب في كيدها وكيد صواحبها من النسوة لما ألقى في السجن لإخفاء هذا الأمر، ولو لم يسجن لما عرفه ساقى ملك مصر وعرف براعته وصدقه في تعبير الرؤيا، ولو لم يعلم الساقى منه هذا لما عرفه ملك مصر وآمن به وله وجعله على خزائن الأرض، ولو لم يتبوأ هذا المنصب لما أمكنه أن ينقذ أبويه وإخوته وأهلهم أجمعين من المخمصة،

ويأتي بهم إلى مصر فيشاركوه في رياسته ومجده، بل لما تم قول أبيه له: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾، فما من حلقة من هذه السلسلة إلّا وكان ظاهرها محرقاً، وباطنها مشرقاً، وبدايتها شراً وخسراً، وعاقبتها خيراً وفوزاً، وصدق قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] (١).

إنّ في قصّة يوسف عليه السّلام وإخوته عبر كثيرة، وعظات بليغة، وأدلة قاطعة على أنّ القرآن الكريم كلام الله تعالى لكلّ الذين سألوا عن قصّتهم، أو للذين يسألون وللذين لا يسألون، فالقصّة مليئة بالعبر والمواعظ والحكم والأحكام، ولم تذكر في التنزيل الحكيم لمجرد الاطلاع على أحوال بعض الأمم السالفة، ويتنزّه كلام الحكيم العليم عن اللغو والباطل وما لا فائدة فيه؛ ولهذا كرّر القرآن الكريم دعوة النّاس ليتدبروا آياته ويعرفوا ما فيها من حكم وأحكام وإعجاز، كقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤] (٢).

وبعد أن أشارت الآية السّابقة إلى ما في السّورة من عظات وعبر، نقلتنا الآيات مباشرة إلى إخوة يوسف وبيان سبب هذا الكيد والمكر (٣).

٢- ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْنَا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٨]:

من هذا المشهد يتبدئ سرد قصّة يوسف بالظرف (إذ) مرّة أخرى، فهناك اقترنت إذ بالوجد وهنا اقترنت ببداة التفصيل. والغريب أنّ الإخوة يجتمعون على قضيّة

(١) تفسير المنار، (١٢/٢٥٩-٢٩٠).

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/١٣٤).

(٣) المصدر السابق، (٤/١٣٦).

لا يليق بمثلهم سناً ولا تربية أن يجتمعوا عليها، وتأمل أن رجالاً أشداء، أبناء نبي، بل أنبياء، يعقوب وإسحاق، يعقدون مؤتمراً صاحباً لأجل حبّ أبيهم لأخيهم يوسف^(١).

أ- ﴿إِذْ قَالُوا لْيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْنَا﴾:

إنّ التصريح باسم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وإخفاء اسم الأخ الآخر دلالة أن القوم مغتاظون من يوسف، وأمّا أخوه فليس بذي شأن بالنسبة ليوسف، فألحقوه إلحاقاً. وثمة لفظة قد نبّه عليها الدكتور حسن باجودة في كتابه "الوحدة الموضوعية": عن بروز ضمير المتكلم في هذه الآية والتأكيد على ذواتهم في معرض الحديث عن تشخيص الواقع الذي يعيشون، فانظر كم مرّة تردد ضمير المتكلم في نصف سطر: (أبينّا)، (منّا)، (ونحن عصبية)، (إنّ أبانا). وهنا نبّه إلى أنّ الوهم قد يسيطر على الإنسان فيقع الإنسان فريسة له وهذا الذي حدث مع أبناء يعقوب، وهل كان ثمة شيء من الذي قالوه، أم أنّها خيالاتهم السقيمة، وإلا فإنه لا يعقل من نبي كريم كيعقوب أن يقع منه ما يستوجب ثورة هؤلاء الأبناء ولا حقدهم على أخيهم. ولئن كان مميزاً يحبّ، فهذا لا جريرة ليوسف منه، فإن كان من خطأ فليس هو مخطئاً.

يدّعي الإخوة أنّهم أحقّ بالحب من يوسف لأنّهم عصبية. والعصبية كما في الكشف: العشرة فصاعداً^(٢)، وكما في مفردات الراغب: الجماعة المتعصبة المتعاضدة، وكما في النهاية لابن الأثير: من العشرة إلى الأربعين^(٣). والاثنتان لا يطلق عليهما لغة عصبية، وكأنّ الإخوة يقولون: نحن عصبية وليس هذان بعصبية.

(١) التفسير الموضوعي، (٤/١٣٤).

(٢) الكشف، (٢/٣٠٤).

(٣) النهاية، ابن الأثير، (٢/٢٠٤).

وهذا الذي قالوه من أفضليتهم، عنوان على فساد قياسهم؛ إذ متى كانت الكثرة عنوان الأفضلية ومعياريها، فمثقال من ذهب خير من مائة من تراب.

إن المقدمات الفاسدة تؤدي إلى نتائج فاسدة، فإخوة يوسف افترضوا أن أباهم في ضلال مبين وأنه يحب أخاهم أكثر منهم رغم أنهم عصبه، ثم تصرفوا بناءً على هذا التصور، والنتيجة أنهم ندموا ندمًا عظيمًا، فلم يخل لهم وجه أبيهم كما افترضوا، ودفعوا نتيجة فعلهم والله يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١].

لقد أساءوا الظنّ، وحسدوه على منزلته وأخاه من أبيه، والحسد داء عضال قتال، وهو نكد في الدنيا وخسارة في الآخرة؛ لذا جاء النهي عنه صريحًا واضحًا: «ولا تحاسدوا»، وفي الحديث الآخر قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ: الحسد والبغضاء هي الحالقة، لا أقول: تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين، والذي نفسي بيده، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم؟ أفشوا السلام بينكم».

ورُوي عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، -أو قال: العشب-»، وتكلّم في ثبوته^(١).

ومما يحكى عن بعض السلف قوله: " لا تعادوا نعم الله. قيل له: ومن يعادي نعم الله؟ قال: الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله"^(٢).

إنّ هذا الذنب العظيم الذي وقع فيه إخوة يوسف ابتداءً كان مقدمة فاسدة، ثم كان بدورة مقدمة لفعل أشنع. ومما يحسن التنبيه إليه هنا، هو أنّ حبّ يعقوب

(١) سنن أبي داود، رقم ٤٩٠٣.

(٢) آيات للسائلين، ص ١١١.

ليوسف عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لم يكن سبباً يستحق لأجله يوسف ما فعله به إخوته، وهنا يحسن التنبيه إلى أنه قد أخطأ من خطأ يعقوب، وشارك بعض من تكلم في الآيات بطريق مباشر أو غير مباشر في تخطئة يعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في حبه لابنه، والصواب أن حبَّ يعقوب ليوسف عَلَيْهِمَا السَّلَامُ حبَّ طبيعي بشري له مسوغاته العقلية والفطرية والشرعية، ومنها:

- كان يوسف عَلَيْهِمَا السَّلَامُ من أصغر إخوانه وكما هو مسلم به عند كل أب وأم أن للصغير حباً خاصاً تظهر فيه معاني الحنان والشفقة، والكبير محبوب أيضاً ولكن يعكس هذا الحب التقدير والاحترام والاعتزاز بالابن، فمثلاً النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يحب فاطمة ويحب ابنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولكن كان أسلوبه في استقبالهم والتعامل معهم مختلفاً، فكان إذا دخلت عليه فاطمة قام إليها وقبلها ورحب بها وأخذ بيدها وأجلسها في مجلسه^(١). أمّا ابنها فقد روي أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج إلى طعامٍ دُعي له فإذا حسين يلعب مع الغلمان في الطريق، فاستقبله أمام القوم، ثم بسط يده وطفق يمرها هنا مرةً وها هنا مرةً، وجعل رسول الله يضاحكه حتى أخذه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجعل إحدى يديه تحت ذقنه والأخرى تحت قفاه، ثم أقنع رأسه فوضع فاه على فمه وقبله^(٢). وورد غيره في هذا المعنى. والشاهد، أن حبَّ يعقوب ليوسف كان حباً فطرياً يلائم سنّه. ويحكى أن أعرابياً سُئل: مَنْ أحبُّ أبنائك إليك؟ فقال: أصغرهم حتى يكبر، وغائبهم حتى يحضر، ومريضهم حتى يشفى^(٣).

(١) سنن أبي داود، رقم ٥٢١٧.

(٢) سنن الترمذي.

(٣) آيات للسائلين، ص ١١٤.

- قال الدكتور علي القره داغي: فقد كان تقدير الإخوة للأمر غير صحيح، وحكمهم على أبيهم بأنه يفرّق بينهم حكماً ظالماً؛ لأنّ أباهم كان يحبّ يوسف وأخاه بنيامين، لأنّهما كانا صغيرين توفيت أمّهما في حين أن إخوتهما العشرة كانوا كباراً، ومن أمّ واحدة ما زالت موجودة معهم، فيكون من الطبيعي أن يكون حبّ يعقوب لهما لصغرهما وفقدان أمّهما حتّى يعوضهما حنان الأم. وقد اعترف الإخوة بأن يعقوب يحبهم، ولكن حبّه يوسف وأخاه كان أكثر، وهذا يدل على التعبير بكلمة ﴿أَحَبُّ﴾، فهم يبنّوا استحقاقهم لحب أكبر، لأنهم عصبة قوية، تقوم بواجبات البيت، وهذا باطل لما تقدّم^(١).

- لا جناح على المرء أن يحبّ أحد أبنائه، أو إحدى زوجاته حباً يفوق حبه لبقية أبنائه أو زوجاته، ما لم يتسبب هذا الحبّ في ظلم الباقيين. ويعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يظلم بقية أبنائه وحاشاه^(٢).

إنّ الشخص لا يلام على محبّته لبعض أبنائه دون بعض، أو بعض الناس دون بعض؛ إذ المحبة من الله تعالى، فهو الذي يلقيها في قلوب العباد، فهذا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عبداً نادى جبريل! إن الله يحبّ فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل. فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحبّ فلاناً فأحبه، فيحبه أهل السماء، ثمّ يوضع له القبول في الأرض»^(٣).

هذا، وقد قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لنبيه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]. وقال نبينا محمّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شأن أم المؤمنين

(١) يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، د علي القره داغي، ص ٤٣.

(٢) آيات للسائلين، ص ١١٤.

(٣) رواه البخاري، رقم: ٣٢٠٩.

خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «إني رزقت حبها». وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحب عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حباً خاصاً، لكنه كان تامّ العدل. والإنسان بإمكانه أن يقوم بالعدل، لكن ليس بإمكانه التحكم في ميل قلبه؛ ولهذا لما سئل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في الصحيح من حديث عمرو بن العاص، قال: أي الناس أحب إليك؟ قال عائشة. قلت: من الرجال؟ قال: أبوها. قلت: ثم من؟ قال: عمر بن الخطاب. فعد رجالاً^(١). وروي عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كان يقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك»^(٢).

وهنا يحسن التنبيه إلى مسألة مهمة: إذا أحب أحد ابنًا له حباً خاصاً فعليه أن يركّز على أن سبب الحب هو الصفة التي تحلّى بها هذا الابن لا شخصه، حتى يتنافس الأبناء في تحقيق هذه الصفة كأن يكون باراً بوالديه، أو فيه صلاح، أو غير ذلك. مع الحرص على العدل^(٣). كما أنه ينبغي للوالد على ألا يحمل حبه لولد من أولاده على أن يعطيه ويحرم إخوانه، فهذا من الظلم الذي نهى الله عنه. وعن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "أعطاني أبي عطيةً، فقالت عمرة بنت رَوَاحَةَ: لا أرضى حتى تشهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأتى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: إني أعطيت ابني من عمرة بنت رَوَاحَةَ عطيةً، فأمرتني أن أشهدك يا رسول الله، قال: «أعطيت سائر ولدك مثل هذا؟» قال: لا، قال: «فأتقوا الله وأعدلوا بين أولادكم»، قال: فَرَجَعَ فَرَدَّ عَطِيَّتَهُ. وفي رواية لمسلم: فلا تشهدني إذن فإني لا أشهد على جور^(٤). وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اتَّقُوا الله وأعدلوا بين أولادكم»^(٥).

(١) رواه البخاري، رقم: ٣٦٦٢.

(٢) سنن أبي دواد، رقم: ٢١٣٤.

(٣) آيات للسائلين، ص ١١٥.

(٤) رواه البخاري، رقم ٢٥٨٧. ورواه مسلم، رقم ١٦٢٣.

(٥) يوسف الأحلام، محمود المصري، مكتبة الصفا، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م، ص ٤٨.

- قال الشيخ محمد متولي الشعراوي: إِنَّ الحبَّ مسألة عاطفية لا تخضع إلى التقنين؛ ولا تكليف بها؛ وحينما يتعرض القرآن لها، فالحقَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوضح: أَنَّ الحبَّ والبغض انفعالات طبيعية؛ فأحبُّ مَنْ شئتَ وأبغضُ مَنْ شئتَ؛ ولكن إياك أن تظلم النَّاسَ لمن أحببت؛ أو تظلم مَنْ أبغضت، بل اقرأ قول الحق سبحانه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨] ^(١).

ب- ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ آبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾:

إن العصابة من عدد عشرة فما فوق. والعصابة أيضاً هم المتكاتفون المتعصبون لبعضهم البعض، وهم الذين يقومون بالمصالح، ويقضون الحاجات، وقد تقاعد أبوهم، وترك لهم إدارة أعمال العائلة وقالوا: ما دُمنا نقوم بمصالح العائلة، فكان من الواجب أن يَخُصَّنَا أبونا بالحب ولم يلتفتوا إلى أَنَّهُمْ عُصْبَةٌ، وهذا ما جعل الأب يحبهم، لكنَّه أعطى مَنْ ليسوا عصابة مزيداً من الرعاية، ولكنهم سدرُوا في غِيَّهم، ووصلوا إلى نتيجة غير منطقية وهي قولهم: ﴿إِنَّ آبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٨] ^(٢). أي: إِنَّه بعيد عن الصواب. وأكّدوا ذلك بقولهم: ﴿إِنَّ﴾ المؤكدة. و﴿اللام﴾ في قوله ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، والتعبير: ﴿لَفِي﴾، فيه إشارة إلى أَنَّ الضلال محيط به إحاطة عظيمة. وسيطر الشيطان على نفوسهم فحرّك الحسد إلى أقصى غاياته ^(٣).

قال محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: الظاهرُ أَنَّ مراد أولاد يعقوب بهذا الضلال الَّذي وصفوا به أباهم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام في هذه الآية الكريمة -

(١) تفسير الشعراوي، (١١/٦٨٦٦).

(٢) المصدر السابق، (١١/٦٨٦٨).

(٣) زهرة التفاسير، (٧/٣٨٠٥).

إنّما هو الذهاب عن علم حقيقة الأمر كما ينبغي. ويدل لهذا ورود الضلال بهذا المعنى في القرآن وفي كلام العرب، فمنه بهذا المعنى قوله تعالى عنهم مخاطبين أباهم: ﴿قَالُوا تَاللّٰهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيرِ﴾ [يوسف: ٩٥] وقوله تعالى في نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧] أي لست عالمًا بهذه العلوم التي لا تعرف إلا بالوحي، فهذاك إليها وعلمك بما أوحى إليك من هذا القرآن العظيم. ومنه بهذا المعنى قول الشاعر:

وتظنُّ سلمى أنّي أبغي بها بدلاً أراها في الضلال تهيمُ
يعني: أنّها غير عالمة بالحقيقة في ظنها أنّه يبغي بها بدلاً وهو لا يبغي بها بدلاً. وليس مراد أولاد يعقوب الضلال في الدين، إذ لو أرادوا ذلك لكانوا كفارًا، وإنّما مرادهم أن أباهم -في زعمهم- في ذهاب عن إدراك الحقيقة، وإنزال الأمر منزلته اللاتقة به، حيث أثر اثنين على عشرة، مع أن العشرة أكثر نفعًا له، وأقدر على القيام بشئونه وتدبير أموره.

واعلم أن الضلال أطلق في القرآن إطلاقين آخرين:

أحدهما: الضلال في الدين، أي الذهاب عن طريق الحق التي جاءت بها الرسل صلوات الله عليهم وسلامه، وهذا أشهر معانيه في القرآن؛ ومنه بهذا المعنى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] وقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصفات: ٧١] وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ [يس: ٦٢] إلى غير ذلك من الآيات. الثاني: إطلاق الضلال بمعنى الهلاك والغيبة، من قول العرب: ضل السمن في الطعام، إذا غاب فيه وهلك فيه، ولذلك تسمى العرب الدفن إضلالًا؛ لأنّه تغيب في الأرض يؤول إلى استهلاك عظام الميت فيها؛ لأنها تصير رميمًا وتمتزج بالأرض. ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠] الآية.

ومن إطلاق الضلال على الغيبة قوله تعالى: ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٤] أي غاب واضمحل^(١).

٣- ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ آيِكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ [يوسف: ٩].

أ- ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾:

هكذا كانت مشاورات إخوة يوسف فيما بينهم؛ التفكير بالقتل لأخيهم الصغير الذي لم يرتكب جريمة ولا جريمة، وهذا يذكرنا بقتل ابن آدم لأخيه ويذكرنا بأن الإنسان إذا خضع لوسوسة الشيطان انحطَّ إلى أسفل سافلين ورُدَّ إلى مرتبة أحوط من الوحوش، وصار كما توقعت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠]؟ وأيِّ دماء؟ إنها دماء بريء، وأي بريء؟ إنه الأخ اللطيف المهذب الذي لم يسيء ولن يسيء.

ب- ﴿أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾:

مع التراجع السريع عن القتل إلى الطرح أرضاً، والطرح أرضاً أخف من القتل، وقد يصل إلى حد القتل ولكنه قتل بالتسبب، وهم لا يريدون القتل بالعمد، ولكن لا بأس بالقتل بالتسبب، وقد لا يترتب على الطرح أرضاً موت ولا قتل^(٢).

ولفظة: ﴿اطْرَحُوهُ﴾، احتوت دلالاتٍ دقيقة كشفت لنا ما في نفوس الإخوة من غلٍّ وحسد حتَّى وصل بهم الأمر أن تقترح نفوسهم الطرح أرضاً، فالكلمة تعبّر

(١) أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي، دار عطاءات العلم، الطبعة الخامسة، ١٤٤١هـ، (٥٣/٣-٥٢).

(٢) سورة يوسف، د. أحمد نوفل، ص ٢٩٧.

عن نوبة صرع جامحة للنفس لا تجد من يروضها ويطنئ نارها إلا بالخلاص من هذا الفتى الصغير، فكان الطرح، والذي يضمن النبذ والإلقاء والرمي بعيداً عن قلب أبيهم وعدم الاعتداد به، وعدم الالتفاف والحاجة له، وهذا النبذ والرمي وعدم الالتفاف له لا يكون في مكان قريب أو مكان يأمن فيه على نفسه، بل هو مكان بعيد غاية البعد والجهالة، وما هذه المعاني إلا لتدل على مزيد التخلص من يوسف وعلى غض النظر بما يحصل له مكروه، محاولة لإطفاء نار الحسد والغيرة، التي تتغلغل في جنباتهم دون النظر إلى أنه الأخ الصغير البريء في طفولته؛ لأنّ البصائر قد عميت والقلوب قد أقفلت فجاءت لفظة: (الطرح) مؤدية للغرض الذي سيق لأجله من بيان ما اعترى في نفوسهم من حسد وغيرة، تحمل في طياتها معاني الإبعاد الحسي الذي يراد منه الإبعاد القلبي والمعنوي بعد ذلك ولا يمكن للفتة أخرى أن تؤدي هذه الرسالة التي اختصّ بها هذا اللفظ.

وفي قوله: ﴿أَوْ أَطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾، جعلوا طرحه أرضاً مساوياً لقتله وهذا يعني أن يطرحوه أرضاً بعيدة مجهولة منكراً في بوادي بعيدة منكراً، تأكله الذئاب^(١)، ولاحظ ما في كلمة: (اطرحوه) من غلظة وقسوة ورغبة في هلاكه، وما في كلمة (أرضاً) من تنكير تتسع الدلالة فيه وتأخذ آماداً بعيدة ولو حاولت أن تعبر عن المعاني التي يتسع إليها التنكير في هذه الكلمة لوجدتكم في حاجة إلى كلام طويل.

ج- ﴿يَجْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ﴾:

صورة بيانية من أرقى صور البيان، وكأنّ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ كان شاغلاً لوجه أبيهم، ولم يكن خالياً لهم، يعني كأن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ كان قاطعاً لهم الطريق

(١) من حديث يوسف وموسى، محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى،

الَّذِي يَصْلُونَ مِنْهُ إِلَى وَجْهِ أَبِيهِمْ، إِذَا قَتَلْتُمُوهُ، أَوْ طَرَحْتُمُوهُ أَرْضًا خَلَا هَذَا الطَّرِيقَ وَأَمَكْنَكُمْ أَنْ تَسْلُكُوهُ إِلَى وَجْهِ أَبِيكُمْ^(١). وَ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾: أي: يَصْفُ لَكُمْ وَيَخْلُصْ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ، فَيَقْبِلَ عَلَيْكُمْ وَيَزِدَادَ حُبَّهُ لَكُمْ، وَقَدْ ظَنُّوا أَنَّهُ عِنْدَمَا يَفْقَدُ يَوْسُفَ، يَخْرُجُ حُبُّهُ مِنْ قَلْبِهِ وَمَا عَلِمُوا أَنَّهُ عِنْدَمَا يَفْقَدُهُ سِيزِدَادَ حُبًّا لَهُ وَشَوْقًا إِلَيْهِ وَأَنَّ خَيَالَ وَلَدِهِ الْمَفْقُودِ سَيَبْقَى فِي قَلْبِهِ، وَأَنَّ قَلْبَهُ لَنْ يَخْلُو لَهُمْ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنََّّهُمْ سَبَبُ إِعَادِ حَبِيبِهِ عَنْهُ وَمَفَارَقَتِهِ لَهُ.

وقولهم: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾: يدلُّ على غلظة نفوسهم وتبلد مشاعرهم، فغِيَابُ الْمَحْبُوبِ يُلْهَبُ الشَّوْقَ وَيَضَاعِفُ الْمَحَبَّةَ، وَأَتَى لَهُمْ أَنْ يَسْتَشْعِرُوا هَذِهِ الْمَعَانِي وَقُلُوبُهُمْ مَمْتَلئةٌ بِالْحَقْدِ وَالْحَسَدِ وَالضَّغِينَةِ وَالْبَغْيِ^(٢).

د- ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾:

لَقَدْ عَلِمَ إِخْوَةُ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ مَا عَزَمُوا عَلَى فِعْلِهِ ذَنْبٌ وَأَنَّهُمْ قَدْ عَقَدُوا الْعِزْمَ عَلَى التَّوْبَةِ مِنْهُ بَعْدُ. وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ مَسَوِّغًا لِفَعْلِهِمْ؛ إِنْ مِنْ قَدَمِ الْعِزْمِ عَلَى التَّوْبَةِ قَبْلَ صُدُورِ الذَّنْبِ تَسْهِيلًا لِفَعْلِهِ وَإِزَالَةً لَشَنَاعَتِهِ، وَتَنْشِيطًا لِنَفْسِهِ عَلَيْهِ، فَلَا يُحْمَدُ لَهُ أَبَدًا هَذَا الْعِزْمُ وَذَاكَ التَّعْلِيقُ، بَلْ قَدْ يَكُونُ صَنْيعُهُ هَذَا دَالًّا عَلَى اسْتِخْفَافِ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَوْ صَدَقَ فِي إِرَادَةِ التَّوْبَةِ وَاجْتِمَاعِ عَمَلِ الْقَلْبِ الَّذِي يَقُومُ بِالتَّائِبِ؛ لَمَّا أَقْدَمَ عَلَى الذَّنْبِ أَصْلًا، فَإِذَا كَانَ تَقْدِيمُ الْعِزْمِ عَلَى ذَنْبٍ مُتَعَلِّقًا بِحَقِّ آدَمِي كَانَ ذَلِكَ أَشَدَّ، فَإِنْ مِنْ شُرُوطِ التَّوْبَةِ رَدُّ الْحَقُوقِ إِلَى أَهْلِهَا، فَإِذَا تَعَلَّقَ بِأَكْثَرِ مَنْ مَخْلُوقٍ وَاحِدٍ كَانَ أَعْظَمَ، فَإِنْ كَانَ الْمَخْلُوقُ قَرِيبًا يَجِبُ بَرُّهُ أَوْ يَجِبُ تَعْظِيمُهُ مِنْ نَحْوِ عَالَمٍ وَأَبٍ كَانَ ذَلِكَ أَكْبَرَ، وَلَا يَسَوِّغُ ذَلِكَ بِحَالِ حَسَنِ النِّيَّةِ وَالْقَصْدِ، فَإِخْوَةُ يَوْسُفَ مَا فَعَلُوا فَعَلْتَهُمْ إِلَّا لِيَخْلُوا لَهُمْ وَجْهُ أَبِيهِمْ، فَالْغَايَةُ لَا تَجْعَلُ الْوَسِيلَةَ الْمَحْرَمَةَ حَلَالًا^(٣).

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٦٦.

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٣٨).

(٣) آيات للسائلين، ص ١١٦.

﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾: هكذا ينزع الشيطان، وهكذا يسوّل للتّفوس عندما تغضب وتفقد زمامها، وتفقد صحة تقديرها للأشياء والأحداث، وهكذا لما غلا في صدورهم الحقد برز الشيطان ليقول لهم: اقتلوا... والتوبة بعد ذلك تُصلح ما فات وليست التوبة هكذا، إنّما تكون التوبة من الخطيئة التي يندفع إليها المرء غافلاً جاهلاً غير ذاك، حتّى إذا تذكر ندم وجاشت نفسه بالتوبة. أمّا التوبة الجاهزة التي تُعدّ سلفاً قبل ارتكاب الجريمة لإزالة معالمها، فليست توبة، وإنّما تبرير لارتكاب الجريمة بزينة الشيطان^(١).

ولا بدّ من الإشارة أنّ باب التوبة مفتوح للعبد ما لم يغرغر ولم تطلع الشمس من مغربها، فالتوبة والأوبة والإنابة إلى الله، باب مفتوح لم يُغلق في وجه واحد قال لا إله إلاّ الله. وإن العبد قد يرتفع إلى أعلى عليين بالأوبة والتوبة والإنابة والعمل الصالح، وقد كان يوماً في أسفل السافلين^(٢). وإنّ إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه السّورة في نهاية المطاف ندموا وطلبوا العفو والسماح من يوسف ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وحسنت توبتهم ورجوعهم إلى الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٤ - ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيِّبَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [يوسف: ١٠].

إنّ الإخوة لم يكونوا متوانين عن قتل يوسف، بل اقترح أحدهم حلاً يشفي غليل الإخوة ويبعد مسألة القتل الذي هو أعظم الجرائم بعد الشرك بالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٣).

(١) في ظلال القرآن، (٤/ ١٩٧٣).

(٢) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص ٦٧.

(٣) يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، د. علي القره داغي، ص ٥٣.

أ- ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾:

وفي هذه الصيغة جمالية لغوية، تتمثل في انتخاب أفضل أسلوب لغوي، بأفضل الكلمات فيما يتناسب مع موضوع الكلام. فالكلام هنا سُرد لواقعة تتواصل فصولاً مع الآيات في حديث بين عدّة أشخاص، والصيغ المطروحة عديدة، كأن تقول: قال أحدهم، أو قال كبيرهم، أو قال فلان منهم. أما أن تقول: قال قائل منهم، فإن الوقع في الأذن أرق، والقبول في النفوس أوفق، والتناسق محقق.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾ إشارة أخرى إلى الإعجاز القرآني وتفوّقه على كلام البشر، فلو أنّ الرسول - عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم - كان يأتي بهذا الكلام من عنده لكان اعتمد على ما فطرت النفس البشرية في خصائصها وسلوكها في تحديد الأشخاص بدقة، كأن يقول: قال روبيل. أو قال: يهوذا. لكنّه ما هو إلّا مبلغ عن ربّه وشاء الله تعالى ألا يذكر اسم القائل علّوا عن منهج النّاس في السرد والكلام، فبلّغ الرسول الكريم ما جاءه من ربه بالحرف^(١).

إنّ هذه الكلمة ﴿قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾؛ تشمل واحداً غير متعين منهم، وبالتالي حفظ مقامهم جميعاً، حيث لا يجوز لنا تخصيص واحد منهم بعينه بنية القتل، ووصفه بأنه مجرم بعينه، فهذا إرشاد من الله تعالى إلينا بالاستفادة من القصّة بأخذ العبرة، دون الخوض في اتهام أحد بعينه، أو كرهه، ولا سيما أنّهم جميعاً تابوا إلى الله تعالى وغفر لهم، وعفا عنهم والدهم وأخوهم يوسف^(٢).

(١) لطائف التفسير، د. فؤاد العريسي، دار المعرفة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ -

٢٠٠٥م، ص ٤٦.

(٢) لطائف التفسير في سورة يوسف، المرجع السابق، ص ٤٦.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾ التحريض على الإخلاص في دفع المفسد ما أمكن فلم يذكر اسمه ولا صفته مع أهمية موقفه فإذا علم الله صدقك فليس مهمًّا أن يعرف الناس اسمك^(١).

- ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾: ففي ظاهر السياق لا حاجة إلى ذكر يوسف لا كتمال المعنى، وقد ذكر اسمه في الآية السابقة إلاَّ أنَّ إعادة اسمه يحمل فوائد عدة؛ منها: الأولى: لغوية، في انشراح الصدر بعد انقباضه مما ورد في الآية السابقة على الواقع خاصة، فبعد أن سمعنا: ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾، سمعنا مباشرة: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾. الثانية: معنوية، فإن تكرار ذكر اسم يوسف أمام الإخوة، يحملهم على استذكار كلِّ ما يحمله الاسم من النواحي الإيجابية في نفوسهم حياله، وقد التصق اسمه في أذهانهم بمواصفاته أنَّه أخوهم وصغير فيهم.

الثالثة: رمزية، فكما أنَّنا لاحظنا أنَّ المتكلم الأوَّل في الآية السابقة، أبعد عن نفسه شخصيًّا مسألة قتل يوسف، أو الاشتراك القولي في قوله: ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾، فهذا هو الأخ الثاني الذي ينتهج المنهج ذاته في إبعاد نفسه قوليًّا عن الاشتراك في التفكير في قتل يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ. فقال: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾.

وفي قوله: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ دروس، منها:

- إن لم تستطع إزالة الشرِّ فخففه ما استطعت.

- محزن أن تبدو الرحمة في شكل رفض القتل، حتَّى يظهر أنَّ أكثر الموجودين حنانًا ورحمة هو ذلك الذي يرفض القتل ويرضى بما دونه من التعذيب والتنكيل.

(١) لطائف التفسير في سورة يوسف، المرجع نفسه، ص ٤٦-٤٧.

ولا شكَّ أنَّ الألفاظ الربانيَّة كانت تحوط بيوسف، فمن بين مكائد إخوته ارتفع صوت: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾. ومن عمق البئر جاءته صرخة: ﴿يَبْشُرِي﴾. وفي أولى خطوته في القصر سمع همسة: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ [يوسف: ٢١]، ولحظة إصااق التهمة به في بيت العزيز ارتفعت شهادة: ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٢٧]، وقبيل خروجه من السجن جاءته رسالة: ﴿أَتُونِي بِهِ أَتَخْلِصَهُ لِنَفْسِي﴾ [يوسف: ٥٤] ^(١).

- ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾، كان مجرد اقتراح، لكنه أنقذ مصر والشام من المجاعة وغير مسار التاريخ فلا تحقروا فكرة أو رأياً. وسبحان الله! حتَّى أصحاب النيّات السيّئة تتفاوت نواياهم في السوء والشرّ والعداوة مراتب ودرجات، والخصوم يتفاوتون ضراوة ونكاية وقد يدفع الله ببعضهم شرّ بعض ^(٢).

ب- ﴿وَالْقَوَاهُ فِي عَيْبَةِ الْجَبِّ﴾:

من المعروف في اللغة أنَّ الجبَّ يختلف عن البئر في مواصفاته: ذاك أنَّ البئر هي الحفرة في الأرض التي تضم في قعرها ماء متّصلاً بينوع يؤمّن استمرار تدفق الماء، أو بشريان مائي يجري تحت سطح الأرض، وقد أقام الناس على حواف هذه الحفرة، بناءً محيطاً بها، منعاً من اندراسها. أما الجبّ: البئر الواسعة. وسميت جبّاً لأنها قطعت من الأرض قطعاً، وهي كذلك يتصل قعرها بالماء، ولكن لا حواف لها عند السطح فهي الركيّة التي لم تطوّق. أما غيابة الجبّ، فهي ما غاب عن سطح الأرض داخل الجبّ، ولكنه ارتفع عن سطح الماء ولم يغب فيه.

(١) يوسفيات، علي جابر الفيقي، دار الميمان، الطبعة الأولى، ٢٠١٩م، ص ٣٩.

(٢) يوسف أيها الصديق، محمّد خيرى، ص ٣٣.

وإنما ذكرت الغيبة مع الجبّ دلالة على أن هذا القائل أشار عليهم بإلقائه في موضع بناحية الجبّ في إحدى أطرافه السفلى، بعيداً عن وسطه الذي فيه الهوّة، التي تكون عادة لكي يجتمع الماء فيها عند أواخره، فهذه المشورة خطوة ثالثة تحتوي سلامة يوسف، وتضمن حياته، وتكفل بقاءه، وذلك لا يكون إلاّ بما قلنا وصورنا، فالمراد أن يُلقوه في ناحية من نواحيه إلاّ في وسطه حتّى يكون بعيداً عن الماء؛ لأنّهم اتفقوا أخيراً على عدم إهلاكه، وهذا لا يتحقق إلاّ بهذه الصورة، وأمّا لو كانوا يريدون إلقاءه في جب مملوء ماء لكانوا يريدون إهلاكه وهو خلاف ما وقع عليه اتفاقهم أخيراً^(١).

إن الوصف القرآني يصور لنا بدقته واقع الخطة بكاملها بكلمتين اثنتين: ﴿غَيَّبَتِ الْجُبَّ﴾، فإذ بنا نفهم أنّ المقترح أراد التخلص من يوسف دون أن يتم قتله بصورة مباشرة، بأن يُقصى عن أبيه، وأن لا يذهبوا به بعيداً جداً لمشقة ذلك عليهم، ولا يتركوه في مكان قريب يمكنه من العودة إلى أبيه، ولا يتركوه في الفلاة في مكان مكشوف. إلاّ أنّه خشي أن يقول: ألقوه في البئر، فيغرق، فإذا به يتحرى الدقة في موضع إلقائه، فيقول: ﴿ألقوه في غيابة الجبّ﴾، بما يضمن عدم قتله. وأل هنا ﴿الْجُبِّ﴾ للعهد لا للجنس أي: الجبّ المعهودة المعروفة لكم، والتي ليس فيها ماء مغرق وليست مهجورة بحيث تكون مأوى العناكب والحيات والعقارب، وليست معزولة عن طريق المارة فيموت من الجوع، ولكنها الجبّ التي تعرفون على ممرّ السيارة حتّى يلتقطه هؤلاء ويأخذونه^(٢).

(١) مؤتمر تفسير يوسف، (١/ ٣٣٤).

(٢) سورة يوسف، أحمد نوفل، ص ٣٠٣.

ج- ﴿يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾:

يلتقطه بعض المسافرين السائرين على الطريق.

- والالتقاط: تناول شيء من الأرض أو الطريق. واستعير لأخذ شيء مضاع^(١).
ومنه اللقيط، وهو: الولد الصغير الذي يوجد ملقى على الأرض ولا يعرف أبواه^(٢).

- والسيارة: الجماعة الموصوفة بحال السير وكثرته. والتعريف به تعريف العهد
الذهني لأنهم علموا أن الطريق لا تخلو من قوافل بين الشام ومصر^(٣). وبهذا أصبح
الكريم ابن الكريم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لقيطاً في أيدي الغرباء^(٤).

﴿يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾: قال: يلتقطه بعض السيارة، فالتقطه بعض السيارة
بالفعل. هناك نوع من المقادير مرتبط بكلمة تخرج من فم متفائل أو مؤول، أو ظن بالله
ظن الخير، فلتكن ألفاظك دائماً تحمل توقعات الخير لعلّ قدراً ما، يوافق ذلك^(٥).

﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾: أي: كنتم فاعلين بمشورتي. ويدلّ قوله هذا على أنّه كان
مرتباً من قبولهم لرأيه، بسبب ما يرى من شدة حقدهم وضغيتهم على يوسف
عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولكن الله غالب على أمره، قدر ليوسف ألا يموت حتّى يتبلي بما ابتلي
به، ثمّ يمكنه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في الأرض، فانصرفوا عن قتله، وإلقائه في الأرض، إلى
إلقائه في الجب الواقعة على طريق القوافل، واتّفقوا على هذا الرأي^(٦).

(١) المصدر السابق، ص ٣٠٥.

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٣٩).

(٣) سورة يوسف، د. أحمد نوفل، ص ٣٠٥.

(٤) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٣٩).

(٥) يوسفيات، علي جابر الفيحي، ص ٣٨.

(٦) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٤٠).

- إنَّ هذه الآية الكريمة تدلُّ على وجوب درء المفساد بقدر الإمكان، وأنَّ من كان قادراً على درء أيِّ مقدارٍ من المفساد فعليه أن يفعله، حيث إنَّ هذا القائل لم يكن مرتاحاً للإجراءات السابقة حتَّى في هذا الإجراء فقال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَعَلِينَ﴾، فاستعمل لفظ: (إن) الدال على التشكيك والتشيط، وفي هذا توجيه إليهم بعدم الفعل، ولكنهم كانوا مصرّين على ذلك^(١).

ولقد أشارت الآية الكريمة إلى سنّة من سنن الله تعالى وهي سنة التدافع، وهو الصّراع بين الخير والشر، وبين الحقّ والباطل، فهؤلاء إخوة يوسف عملوا على قتله ظلماً وجوراً وفساداً في الأرض فهياً الله تعالى واحداً منهم صرفهم عن قتله إلى تركه يقع في يد السيارة ونجح في ذلك.

قال أبو بكر الجزائري رَحِمَهُ اللهُ: في الآية دليل على مشروعية التقاط اللقطة وقد أذن فيها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يأذن في ضالة الإبل إذ قال في اللقطة: «اعْرِفْ عِفَاصَهَا (وعاءها) ووِكَاءَهَا، ثُمَّ عَرِّفْهَا سَنَةً، فَإِنْ جَاءَ صَاحِبُهَا وَإِلَّا فَشَأْنُكَ بِهَا». وقال في ضالة الغنم: «هي لك أو لأخيك أو للذئب»^(٢).

وقال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: وهذا القائل أحسنهم رأياً في يوسف وأبرهم وأتقاهم في هذه القضية فإن بعض الشر أهون من بعض والضرر الخفيف يدفع به الضرر الثقيل^(٣).

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: لفظ اللقيط في الشرع لا يطلق إلّا على الطفل الصغير لا على الكبير^(٤).

(١) يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، د. علي القره داغي، ص ٥٤.

(٢) رواه البخاري، رقم: ٢٩٧٢. أيسر التفاسير، (٢/٥٩٦).

(٣) تفسير السعدي، ص ٥٠١.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، (٩/١٣٤).

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَبَابَنَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ ۝١١﴾
 أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَب وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ ۝١٢ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ
 وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ۝١٣ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ
 عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَلْخُسِرُونَ ۝١٤ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجَبِّ
 وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتَبَيِّنَنَّ لَهُمْ بَأْمَرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿[يوسف: ١١-١٥].

تفسير الآيات الكريمة:

بعدما اتفق إخوة يوسف على أن يلقوه في غيابة الجب شرعوا في التنفيذ
 وارتكاب الجريمة وبدأوا في محاورة أبيهم للوصول إلى هدفهم...

١ - ﴿قَالُوا يَبَابَنَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ﴾ [يوسف: ١١]:

التعبير يرسم بكلماته وعباراته كل ما بذلوه ليندسوا به إلى قلب الوالد المتعلق
 بولده الصغير الحبيب، الذي يتوسم فيه أن يكون الوارث لبركات أبيه إبراهيم.

- ﴿يَبَابَنَا﴾ بهذا اللفظ الموحى والمذكر بما بينه وبينهم من أصرة.

- ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾؛ سؤال فيه عتب، وفيه استنكار خفي، وفيه
 استجاشة لنفي مدلوله من أبيهم، والتسليم لهم بعكسه، وهو تسليمهم يوسف، فهو
 كان يستبقي يوسف معه ولا يرسله مع إخوته إلى المراعي والجهات العلوية التي
 يرتادونها لأنه يحبه، ويخشى عليه ألا يحتمل الجو والجهد الذي يحتملوه وهم
 كبار، لا لأنه لا يأمنهم عليه، فمبادرتهم له بأنه لا يأمنهم على أخيهم وهو أبوهم،
 المقصود بها استجاشته لنفي هذا الخاطر، ومن ثم يفقد إصراره على احتجاز
 يوسف، فهي مبادرة ماكرة منهم خبيثة^(١).

(١) في ظلال القرآن، (٤/١٩٧٤).

- ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ﴾: قلوبنا له صافية لا يخالطها سوء، وذكر النصح هنا - وهو الصفاء والإخلاص - يظهر عكس ما كانوا يخفونه من الدغل المريب^(١).

قال أبو حيان رَحِمَهُ اللهُ: وفي قولهم: ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا﴾، دليل على أنهم تقدم منهم سؤال في أن يخرج معهم، وذكروا سبب الأمان وهو النصح أي: لِمَ لَا تَأْمَنَّا عليه وحالتنا هذه؟ والنصح دليل على الأمانة، ولهذا قرأنا في قوله: ﴿تَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨]، وكان قد أحس منهم قبل ما أوجب ألا يأمنهم عليه^(٢).

وقال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: أي؛ لأي شيء يدخلك الخوف منا على يوسف، من غير سبب ولا موجب؟ ﴿وَالْحَالُ﴾ ﴿إِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ﴾ أي: مشفقون عليه، نودّ له ما نودّ لأنفسنا، وهذا يدل على أن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام لا يترك يوسف يذهب مع إخوته للبرية ونحوها.

فلما نفوا عن أنفسهم التهمة المانعة من عدم إرساله معهم، ذكروا له من مصلحة يوسف وأمنه الذي يحبه أبوه له، ما يقتضي أن يسمح بإرساله معهم^(٣).

وقال البغوي رَحِمَهُ اللهُ في قوله: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ﴾: النصح هو القيام بالمصلحة وقيل: البر والعطف، إنا عاطفون عليه، قائمون بمصلحته، ونحفظه حتى نردّه إليك^(٤).

وقال أبو السعود رَحِمَهُ اللهُ في قوله: ﴿يَا أَبَانَا﴾ خاطبوه بذلك تحريكاً لسلسلة النسب بينه وبينهم وتذكيراً لرابطة الأخوة بينهم وبين يوسف عَلَيْهِ السَّلَام

(١) في ظلال القرآن، المصدر السابق، (٤/ ١٩٧٤).

(٢) البحر المحيط، (٦/ ٢٤٤-٢٤٥).

(٣) تفسير السعدي، ص ٥٠١.

(٤) مختصر معالم التنزيل، (١/ ٤٣٢).

ليتسبوا بذلك إلى استنزاله عَلَيْهِ السَّلَامُ عن رأيه في حفظه منهم لَمَّا أَحَسَّ مِنْهُمْ بِأَمَارَاتِ الْحَسَدِ وَالْبَغْيِ فَكَأَنَّهُمْ قَالُوا ﴿مَا لَكَ﴾ أَيُّ شَيْءٍ لَكَ ﴿لَا تَأْمَنَّا﴾ أَيُّ لَا تَجْعَلُنَا أَمْنَاءَ ﴿عَلَى يُوسُفَ﴾ مَعَ أَنَّكَ أَبُونَا وَنَحْنُ بَنُوكَ وَهُوَ أَخُونَا ﴿وَأَنَّا لَهُ لَنَصِحُونَ﴾ مَرِيدُونَ لَهُ الْخَيْرَ وَمَشْفِقُونَ عَلَيْهِ لَيْسَ فِينَا مَا يُحِلُّ بِالنَّصِيحَةِ^(١). وَقَبْلَ أَنْ يَسْمَعُوا جَوَابَ أَبِيهِمْ عَلَى سُؤْلِهِمْ وَعَتَابِهِمْ طَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يَرْسِلَهُ غَدًا مَعَهُمْ إِلَى الْمَرَاعِي وَالْقَفَارِ، كَأَنَّ كَلَامَهُمْ أَمْرَ مُحَقِّقٍ لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا ارْتِيَابَ^(٢).

٢- ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعَ وَيَلْعَبَ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢]:

- ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا﴾: فِي لَفْظَةِ: ﴿أَرْسِلْهُ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ كَانَ يُمْسِكُهُ وَيَصْحَبُهُ دَائِمًا^(٣).

- ﴿غَدًا﴾: يُطْلَقُ عَلَى الْيَوْمِ الَّذِي يَلِي يَوْمَكَ، وَعَلَى الزَّمَنِ الْمُسْتَقْبَلِ مِنْ غَيْرِ تَقْيِيدٍ^(٤).

- ﴿يَرْتَعُ﴾: الرَّتْعُ الْأَكْلُ وَالشَّرْبُ فِي الرَّبِيعِ رَغْدًا. وَالرَّتْعُ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الْخَصْبِ. وَرَتَعَ فُلَانٌ فِي الْمَالِ إِذَا تَقَلَّبَ فِيهِ أَكَلًا وَشَرَبًا^(٥). وَهَذِهِ اللَّفْظَةُ قَدْ احْتَوَتْ عَلَى دَلَالَاتٍ دَقِيقَةٍ كَشَفَتْ لَنَا أَيْضًا مَا فِي نَفُوسِ الْإِخْوَةِ مِنْ مَكْرٍ وَحِيلَةٍ وَتَمْوِيهِ تَجَاهَ أَخِيهِمْ لِتَحْقِيقِ خَطَّتِهِمُ الَّتِي اتَّفَقُوا عَلَيْهَا لِإِلْقَائِهِ فِي الْبُئْرِ. وَهَذِهِ اللَّفْظَةُ الَّتِي فِيهَا مِنَ التَّقَلُّبِ فِي الْأَكْلِ وَالشَّرْبِ وَالسَّعَةِ، لِتُوحِيَ عِنْدَ سَمَاعِهَا بِالِاسْتِقْرَارِ وَالرَّاحَةِ وَالطَّمَأْنِينَةِ وَالنَّعِيمِ وَالْإِنْبِسَاطِ الَّذِي سِيلِحُ بِأَخِيهِمُ الصَّغِيرِ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِلتَّمْوِيهِ وَالتَّغْطِيَةِ عَلَى مَجْرِيَّاتِ الْخَطَّةِ بِطَمَأْنَةِ أَبِيهِمْ عَلَى يُوسُفَ حَتَّى

(١) تفسير أبي السَّعُود، (٤/ ٢٥٧).

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٤٠).

(٣) البحر المحيط، (٦/ ٢٤٥).

(٤) إتحاف الإلف بذكر الفوائد الإلف، (١/ ١٥٦).

(٥) دلالات الألفاظ التي انفردت بها سورة يوسف، ص ٨.

يصلوا إلى مرادهم من الانفراد بيوسف، وإلقائه في البئر وعلّلوا طلبهم والخروج به بما يمكن أن يستهوي يوسف لصباه من الرتوع واللعب والنشاط^(١).

- ﴿وَيَلْعَبُ﴾: والمراد اللعب المباح بقصد الاستجمام ورفع السّامة^(٢). وهذا اللعب من شريعة يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وأولاده.

قال ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: وهو مباح في الشرائع كلّها إذا لم يصّر دأباً^(٣). وهو يتفق مع فطرة الإنسان وحاجة جسمه إليه، وهو مقرر في جميع الشرائع، ويقتضيه العقل والفطرة، للكبار والصغار خاصة، ولذا قيل: من كان له صبيّ فليتصاب معه، وليلعب معه، وجاء في الأثر: لاعب ابنك سبعاً، وصاحبه سبعاً.

وجاءت شريعة الإسلام لتقرر اللعب والرياضة المفيدة النافعة للجسم للصغار والكبار، وسيأتي المزيد بإذن الله في السياق، وبأنّ الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سابق عائشة وقالت: سابقني رسول الله فسبقتُهُ^(٤). وقالت: "كنت ألعب بالبنات (الألعاب) وأنا عند رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكان يُسرّب إليّ صواحي يلاعبنني"^(٥). والأدلة على ذلك كثيرة.

وهذا ما استمر مع البشريّة، وظهر اللعب في المدارس من الروضة إلى الجامعة، مع فتح النوادي الرياضية، والملاعب، والمسابقات في ذلك، استمراراً لشرعة الله تعالى^(٦).

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٩.

(٢) تفسير القرطبي، (٢٧٢ / ١١)؛ التحرير والتنوير، (٦٥٠ / ٥).

(٣) التحرير والتنوير، (٦٥٠ / ٥).

(٤) سنن ابن ماجه، رقم ١٩٧٩.

(٥) أخرجه البخاري، رقم ٥٧٧٩.

(٦) شرعة الله للأنبياء، د. محمّد الزحيلي، ص ٢٥٧.

ويُفَضِّلُ الشرع أن يكون اللعب في مجال قد يطلبه الجدُّ مستقبلاً؛ كأن يتعلم الطفلُ السباحةَ، أو المصارعةَ، أو إصابة الهدف؛ وهي الرماية وهكذا نفهم معنى اللعب: أنه شُغْلٌ لا يُلهي عن واجب، أما اللهو فهو شُغْلٌ يُلهي عن واجب وهناك بعضُ من الألعاب يمارسها الناس؛ ويجلسون معاً؛ ثم يُؤذَنُ المؤذن؛ ويأخذهم الحديث؛ ولا يلتفتون إلى إقامة الصلاة في مياعدها؛ وهكذا يأخذهم اللهو عن الضرورة؛ أما لو التفتوا إلى إقامة الصلاة: لَصَارَ الأمر مجرد تسلية لا ضرر منها^(١).

- ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾: من أن يناله مكروه وأكّدوا مقاتلهم بأصناف التأكيد من إيراد الجملة إسمية، وتحليتها بأنّ واللام، وإسناد الحفظ إلى كلهم، وتقديمه له على الخبر احتيالاً في تحصيل مقصدهم^(٢).

- ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أي: نستريحه، ونحفظه من أذى يريده^(٣).

لقد أكّدوا لأبيهم أنهم سيقومون على حفظه ورعايته، وقابل يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ مكر أولاده وكيدهم بصدر سليم ونفس بريئة صافية، فهو نبي كريم، لا يحمل في صدره شيئاً على أحد، فضلاً عن أولاده، وهو أيضاً أب عظيم رحيم ممتلئ القلب بعاطفة الأبوة الصادقة، ولهذا صرح أولاده بما يحمله في قلبه من المحبة الشديدة لولده يوسف، وما درى أنّه بهذه المصارحة والمكاشفة قد سَعَر أحقاد أولاده على أخيه، وألهب مشاعر الحقد والغضب في نفوسهم، فجعلهم أكثر تصميمًا على تنفيذ جريمتهم^(٤).

(١) تفسير الشعراوي، (١١/٥٨٧٧).

(٢) تفسير أبي السَّعود، (٤/٢٥٧).

(٣) تفسير السعدي، ص ٥٠١.

(٤) التفسير الموضوعي، (٤/١٤١).

٣- ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ، وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾

[يوسف: ١٣].

- ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾: أي: إنَّ ذهابكم به يُدخل عليَّ حزنًا، فأنا شديد المحبة له، لا صبر لي على مفارقتة، ولو لبعض يوم، وشدة المحبة تؤدِّي إلى مشاعر الخوف والقلق على المحبوب^(١).

- ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾: فقد كانت أَرْضهم كثيرة الذئاب، وكان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ صغيرًا لا يستطيع الامتناع منها بنفسه.

- ﴿وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ أي: وأنتم عنه في غفلة وانشغال^(٢).

جمع يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه الآية بين الخوف والحزن وهو ما يعبر عن مكنونات النفس البشريّة. والحزن له تأثير سلبيّ على النفس البشريّة ويساهم في إضراره، وهو يتولد من مكروه ما مضى أو حاضر. والخوف كذلك له تأثير سلبيّ على الإنسان وهو يتولّد من مكروه مستقبلي، فإذا اجتمعاً على شخص ما، تنغصت حياته ولم ينتفع بعيشه^(٣) إلا إذا التجأ إلى الله عَزَّجَلَّ.

إنَّ يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ عمل على إبقاء الثقة بينه وبين أولاده، واعتذر عن دعوتهم لأخيهم بعدرين:

الأول: الحزن على يوسف، وذهابه من عنده.

(١) المصدر السابق نفسه (١٤١/٤).

(٢) المصدر السابق نفسه، (١٤١/٤).

(٣) عجائب فريدة من سورة يوسف، عادل أكتوف، دار طليطلة، الجزائر، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ،

ثانياً: الخوف من أن يأكل الذئب يوسف في ساعة غفلة منهم.

وتأمل الحكمة وأسلوب التربية العظيمة، فإنه ليس من الحكمة أن يهدم جسر الثقة بينه وبين أبنائه، فيعقوب عَلَيْهِ السَّلَام يعلم منهم يقيناً ما هم عليه من سوء طويّة، لكنّه لا يفاتحهم بذلك حرصاً على بقاء خيط الحياء في نفوس الأبناء موصولاً، فإذا انقطع تجرأوا على المعصية أكثر. فليتبّه الآباء والأمّهات والمدرّسون إلى هذه النقطة: أن انقطاع حبل الحياء بين الكبير والصغير يجعل الحياة لا تطاق^(١). واستمر أبناء يعقوب في جدالهم وحوارهم مع أبيهم لإقناعه بذهاب يوسف معهم فقالوا:

٤- ﴿قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَسِرُونَ﴾ [يوسف: ١٤]:

- ﴿قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعة فينا قوة ومنعة، وحالهم أنّهم عشرة رجال بمثلهم تُعَصَّبُ الأمور وتُكْفَى الخطوب^(٢).

- ﴿إِنَّا إِذًا لَّخَسِرُونَ﴾: أي: لضعفاء عاجزون مستحقون للهلاك، لأنّه لا نفع في حياتنا. فإذا ضيعنا أخانا، وأكله الذئب، فنحن لما سواه أشد تضييعاً^(٣).

قال أبو حيان: هالكون ضعفاء وجوراً وعجزاً، أو مستحقون أن يهلكوا، لأنهم لا غنى عندهم ولا جدوى في حياتهم، أو مستحقون بأن يدعى عليهم بالخسار والدمار، وأن يقال: خسّرهم الله ودمّرهم حين أكل الذئب بعضهم وهم حاضرون^(٤). وهكذا استسلم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام لهذا التوكيد ولذلك الإجراء، ليتحقق قدر الله وتتم القصة كما تقتضي مشيئته.

(١) سورة يوسف، أحمد نوفل، ص ٣٠٩.

(٢) البحر المحيط، (٦/٢٤٧)؛ الكشف، (٢/١٤٥).

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/١٤١).

(٤) البحر المحيط، (٦/٢٤٧)؛ اتحاف الإلف، (١/١٧٩).

الآن ولقد ذهبوا به، وها هم أولاء ينفذون المؤامرة النكراء، والله تعالى يُلقِي في روع الغلام أنها محنة وتنتهي، وأنه سيعيش وسيذكر إخوته بموقفهم هذا منه وهم لا يشعرون أنه هو^(١).

٥- ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجَبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥]:

- ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾: إن التعبير بلفظ (الفاء) في قوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾ مشعر باستعجال الإخوة في التنفيذ، فالفاء للتعقيب المباشر دون التراخي، أي: إنهم أخذوا يوسف بمجرد الموافقة التي قد تكون صريحة، أو ضمنية، لأن القرآن الكريم قد طوى ذلك. وقد طوى جواب الشرط (فلما)، لأن جوابه هو جميع نتائج القصة، وهذا من إعجاز القرآن الكريم، وقد حذف لأجل هذا التعميم، ولا مانع لغويًا من أن يكون جزاء وجواب: (فلما)، قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا﴾ في الآية التي بعدها، وفي ذلك دلالة على سرعة التنفيذ والإيقاع.

وإن منهج القرآن الكريم يقبل هذا التنوع العظيم. والتعبير بلفظ: ﴿ذَهَبُوا بِهِ﴾ أي: بتعدية الفعل بالياء ولم يقل: ذهبوا معه، أو ذهب معهم، وذلك مشعر بالإسراع بالأخذ به بصورة غير ودية. إن إيقاع هذه الجملة الشرطية يدل على أنهم بمجرد الموافقة أخذوا بيد يوسف وذهبوا به، ثم إن وضع جملة: ﴿ذَهَبُوا بِهِ﴾ مع: ﴿اجْمَعُوا﴾ [يوسف: ١٠٢] مؤذن بالعجلة خوفًا من تراجع الوالد من موافقته التي لم يكن مرتاحًا إليها، ولكنهم حاصروه من كل جانب، وأخرجوه بجميع الوسائل، وأعطوه كل الضمانات، حتى استسلم لهذه التوكيدات، فوافق على ذهاب يوسف معهم، ليدؤوا تنفيذ مراحل هذه الخطة.

(١) في ظلال القرآن، (٤/ ١٩٧٥).

إنَّ يوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه الحالة: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾، مغلوب على أمره. يكفي أن نتأمل الصيغة في قوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾ حتى ندرك أنَّهم لم يذهبوا معه، ولم يصطحبونه بمودّة، ولم يرافقه برفق، بل أخذوه أخذاً قسريّاً بعد جهود كثيفة وكذب كثير.

ونعرف أنَّ علينا أن ننتظر حدثاً بعد الذهاب به، لورود الآية بصيغة تعليق الذهاب على نتيجة لاحقة، مما يشدّ المستمع لمتابعة أحداث المشهد^(١).

- ﴿وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ﴾ أي: اتفقوا كلهم على إلقائه في ظلمة الجبّ، وحكى الله تعالى إجماعهم على جريمتهم هذه، لأنّها جريمة فظيعة منكّرة، فكلّهم اشتركوا بها وتحملوا وزرها، وقاموا بتنفيذها بلا رادع ولا مانع، فلم يهتزّ ضمير واحد منهم في أثناء تنفيذ الجريمة وهو يرى أخاه الصغير خائفاً زائغ البصر، يستجير بصراخه ودموعه، فلا يتحرّك قلب واحد منهم ولا يهتزّ ضميره ووجدانه.

ولا بدّ أن يوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قد فوجئ بعد ابتعادهم عن أبيهم بانفجار أحقادهم المكبوتة في صدورهم، فقد ظهرت فجأة في عيونهم التي تنظر إليه، شرراً وتقذّر في وجهه ناراً، وفي أيديهم التي انهالت عليه ضرباً ولكماً ألا ما أقسى قلوبهم التي لم تتأثر باستغاثات أخيهم الصغير ودموعه وهم يدفعونه دفعاً إلى مكان الجريمة، ثمّ وهم يشتركون جميعاً كلهم في إلقائه في ظلمة قعر الجبّ^(٢).

وأدركت رحمة الله الغلام الصغير وهو في قعر الجبّ وظلمته، بتحسّس موطئاً لقدميه وموضعاً يستند إليه، وهو يرتعش من برودة الماء ويرتجف من هول الجريمة

(١) لطائف التفسير، د. فؤاد العريسي، دار المعرفة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ -

٢٠٠٥م، ص ٦١.

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٤٣).

التي فاجأته على غير توقع وانتظار. خرج مع إخوته طلباً للأنس والانشراح، فإذا به يُلقى في قعر بئر مظلمة، ويتنقل من حجر والده وعطفه عليه وحنانه إلى وحشة الجبّ وظلمتها ورطوبتها، وتداركه الله برحمته ولطفه^(١).

كانت عناية الله ليوسف عَلَيْهِ السَّلَام فوق كلّ عناية، وحفظه فوق كلّ حفظ، قال الشاعر:

وإذا العناية لاحظتك عيونها نمّ فالمخاوف كلّها أماناً

فيوسف عَلَيْهِ السَّلَام نزل في الجبّ وهو بحالة الذلّ ولم يغادره إلا وهو موحى إليه^(٢).

- ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾: اختلف فيه المفسرون فذهب بعضهم إلى أن المراد بالوحي هنا وحي النبوة والرسالة، ولكن يعكّر صفوه أن يوسف لم يكن بالغاً، بل كان صغيراً^(٣). قال الضحاك: كان عمره ستّ سنين، وقال الحسن: ألقي يوسف في الجبّ وهو ابن اثني عشرة سنة، ولقي أباه بعد ثلاثين سنة^(٤)، والله أعلم. ولذلك أجابوا عنه بأنّ الله تعالى أكمل عقله وجعله صالحاً لقبول الوحي والنبوة. وذهب جماعة أخرى إلى أن هذا الوحي هنا هو الإلهام، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧]^(٥).

(١) المصدر السابق نفسه، (٤/١٤٣).

(٢) يوسف وقصته العجيبة، عlish متولي، شركة مكتبة المعارف المتحدة، الكويت، الطبعة الأولى، ٢٠١٥م، ص ٩٠.

(٣) يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، القره داغي، ص ٥٧.

(٤) البكاء والقيم الجمالية له بصيغة الجمع في النصوص القرآنية، د. قاسم صالح العالي، دار المقتبس، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م، ص ٢٥٦.

(٥) يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، القره داغي، ص ٥٨.

وأياً ما كان، سواء بوحى إلهام، أو بوحى النبوة، الله سبحانه هو أعلم بذلك، المهم أن الله سبحانه تداركه برحمته ولطفه، بما سكن نفسه المضطربة، وأزال وحشته وخوفه، ف شعر أن الله معه يرعاه ويرحمه، ويلطف به، وأنه سينجيه من محنه، ويظهره أيضاً على إخوته، حتى يأتي الوقت الذي يذكرهم فيه بجريمتهم هذه^(١).

- ﴿لَتَبَيَّنَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾:

إعلام غيبي من الله تعالى ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ زاهر بالمعاني، غني بالإشارات، منها ما يلي:

- لقد أعلم الله تعالى نبيه أنه سيعود ليلتقي بإخوته لاحقاً، مما يشير إلى أن دورة الحياة مهما ذهبت به بعيداً، فإنه سيلتئم شمل عائلته من جديد مما يهدئ نفسه وهو في أشد أوقات محنته.

- فيه إعلام بأنه يجتمع بهم مجدداً، ويكون قد مرّ وقت طويل تتغير ملامحه فيكون قد أصبح رجلاً، يعرفهم ولا يعرفونه، يختار هو الوقت والمناسبة لتعريفهم بنفسه.

- فيه إعلام بأنه حين يجتمع بهم مجدداً، تكون له الغلبة في الموقف فيكون هو الطرف القوي، ويكونون هم في موضع الضعف ويستشعر الإمداد بالقوة، من قوله تعالى: ﴿لَتَبَيَّنَهُمْ﴾، ففيها التوكيد على حصول اللقاء، وفيها التوكيد على العلوّ ساعة اللقاء^(٢).

إنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَسَهُ وهو في قعر الجبّ وظلمتها، فأزال وحشته، ونفّس كربته، بما أوحى إليه، فتحول قعر الجبّ المظلمة الموحشة إلى أنس ونور،

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٤٣).

(٢) لطائف التفسير في سورة يوسف، ص ٦٥.

ولا يتخلى سبحانه عن أصفياه وأوليائه أبداً، يمدّهم ويرعاهم، ويكلّوهم برحمته وعنايته، وهم في ذروة معاناتهم، فعندما كان رسول الله ﷺ في غار ثور، والمشركون محدقون بالغار من كل جانب، والسيوف بأيديهم مشرعة وقلوبهم ممتلئة بالحق والغضب، وأبو بكر يذرف الدمع بصمت، وهو داخل الغار مع رسول الله ﷺ خوفاً عليه، أنزل الله قوله الكريم: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

وعندما خرج رسول الله ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة المنورة، ونظر إليها نظرة مودّع أنزل الله عليه قوله الكريم مثبّتاً له ومبشراً إياه بالعودة إليها: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَن هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [القصص: ٨٥]. ولما خافت أم موسى على ولدها من فرعون ووحشيته وذبحه للأطفال وقتلهم، أوحى الله إليها أن تلقيه في اليم، وهو أمر كبير وخطير على كلّ أم في مثل موقف أم موسى، فثبّتها الله سبحانه وسكّن قلبها وأزال حزنها: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]. وانتظر إخوة يوسف بعد ارتكاب جريمتهم حلول الظلام ليستروا به وجأوا بالكذب الشنيع لإخبار والدهم المبتلى.

رابعاً: قوله تعالى: ﴿وَجَاءُوا آبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْلَعِنَا فَانْكَرَ الْذُبُّ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّيْتُ لَكُمُ أَنْفُسَكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يوسف: ١٦-١٨].

١ - ﴿وَجَاءُوا آبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يوسف: ١٦]:

جاء إخوة يوسف عشاء، حتى لا تظهر ملامح وجوههم، عند بكائهم لدى والدهم، فيتبين له أن بكاءهم، أو بكاء بعضهم ليس حقيقة، وهو ذو فراسة وبصيرة؛ لأن من المعلوم أن النائحة المستأجرة ليست كالثكلي، بالإضافة إلى إشعار والدهم بأنهم تأخروا للاهتمام بالحادثة^(١).

- يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي رَحِمَهُ اللهُ: وهنا تتجلى لنا قدرة أداء القرآن أداءً دقيقاً معبراً عن الانفعالات التي توجد في النفس الإنسانية، فها هم إخوة يوسف خدعوا أباهم ومكروا بأخيهم، وأخذوه وألقوه في الجب مع أنهم يعلمون أن أباه يحبه، وكان ضنيناً أن يأتمنهم عليه، فكيف يواجهون هذا الأب؟

هذا هو الانفعال النفسي الذي لا تستطيع فطرة أن تثبته؛ فقالوا: نؤخر اللقاء لأبينا إلى العشاء: والعشاء محلُّ الظلمة، وهو ستر للانفعالات التي توجد على الوجوه من الاضطراب؛ ومن مناقضة كذب ألسنتهم؛ لأنهم لن يخبروا الأب بالواقع الذي حدث؛ بل بحديث مُختلق.

وقد تخدعهم حركاتهم، ويفضحهم تلجلجهم، وتتكشف سيماهم الكاذبة أمام أبيهم؛ فقالوا: الليل أخفى للوجه من النهار، وأستر للفصائح؛ وحين ندخل

(١) يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، القره داغي، ص ٥٨.

على أيّنا عِشَاءً؛ فلن تكشفنا انفعالاتنا. وبذلك اختاروا الظرف الزمني الذي يتوارون فيه من أحداثهم: ﴿وَجَاءُوا آبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ [يوسف: ١٦] ^(١).

قال الشيخ محمد أبو زهرة رَحِمَهُ اللهُ: أي أنّهم قضوا النهار غائبين عن أبيهم، ثم عادوا في العشية، يقول المفسرون: أنّهم كانوا يتباكون، ولا يكون. ونحن نميل إلى أنّه كان ثمة بكاء حقيقي من بعضهم على الأقلّ، وهو بعض من الندم على ما ارتكبوا وقد أحسّوا بفظاعته، وخصوصاً عندما لقوا أباهم، فإن لم يكن لأجل يوسف، فلاجل أبيهم الثاكل ^(٢).

- قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: والعشاء: وقت غيوبة الشفق الباقي من بقايا شعاع الشمس بعد غروبها. والبكاء: خروج الدموع من العينين عند الحزن والأسف والقهر. وقد أطلق هنا على البكاء المصطنع وهو التباكي. وإنّما اصطنعوا البكاء تمويهاً على أبيهم لئلا يظن بهم أنّهم اغتالوا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولعلّهم كانت لهم مقدرة على البكاء مع عدم وجدان موجه، وفي الناس عجائب من التمويه والكيد. ومن الناس من تتأثر أعصابهم بتخيل الشيء ومحركاته فيعترتهم ما يعترى الناس بالحقيقة. وبعض المتظلمين بالباطل يفعلون ذلك، وفطنة الحاكم لا تنخدع لمثل هذه الحيل ولا تنوط بها حكما، وإنّما يناط الحكم بالبيئة. جاءت امرأة إلى شريح تخاصم في شيء وكانت مبجلة فجعلت تبكي، وأظهر شريح عدم الاطمئنان لدعواها، ف قيل له: أما تراها تبكي؟! فقال: قد جاء إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أباهم عِشَاءً ويكون وهم ظلّمة كذبة، لا ينبغي لأحد أن يقضي إلّا بالحق. قال ابن العربي: قال علماؤنا: هذا يدل على أنّ بكاء المرء لا يدلّ على صدق مقاله

(١) تفسير الشعراوي، (١١/ ٣٨١).

(٢) زهرة التفاسير، (٧/ ٣٨١٠).

لاحتمال أن يكون تصنعاً. ومن الخلق من لا يقدر على ذلك ومنهم من يقدر^(١).
ومن الأمثال: "دموع الفاجر يبيديه".

قال الدكتور محمد أبو موسى رَحِمَهُ اللهُ فِي قوله تعالى: ﴿وَجَاءُوا آبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾: جملة ﴿يَبْكُونَ﴾، جملة حالية، وفعل المضارع يفيد إحضار صورتهم، وكأنك الآن وأنت تقرأ تراهم يبكون، وهكذا تفعل اللغة، تحيي الموتى، وتطوي الزمان، وتريك الميت حياً يبكي، وكلّ هذا لتنفيذ المعاني في قلبك وعقلك، ولاحظ أنّ الجملة الحالية أيضاً وقعت فاصلة، والجملة كلّها صورة تمثيلية تصوّر زورهم وكذبهم، ومكرهم الساذج الغبي^(٢).

٢- ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا فَاكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]:

- ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا﴾؛ نادوه باسم: (الأب) المضاف إليهم ليرحمهم فيترك غضبه عليهم، الداعي إلى تكذيبهم، فهم يحاولون تلطيف الجو الممتلئ بالمخاوف بهذا النداء، ثمّ قدّموا بين يدي النبأ السبب الذي من أجله أكل الذئب يوسف، هذا السبب يبدو من قولهم:

- ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾؛ قال الدكتور محمد مصطفى الزحيلي: وقوله: ﴿نَسْتَبِقُ﴾ افتعال من السبق، وهو بمعنى التسابق، والمراد: الاستباق بالجري على الأرجل، وذلك من مرح الشباب ولعبهم^(٣).

(١) التحرير والتنوير، (٥/ ٦٥٥).

(٢) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص ٧٣.

(٣) شرعة الله للأنبياء، د. محمد الزحيلي، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، ٢٠١٨م، ص ٢٥٧.

قال ابن العربي رَحِمَهُ اللهُ: المسابقة شرعة من الشريعة وخصلة بديعة، وعون على الحرب، وقد فعلها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنفسه وبخيله^(١). وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: "سابقني رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسبقتُهُ، فلبشنا حتى إذا أَرَهَقَنِي اللحم، سابقني فسبقتني، فقال: هذه بتلك"^(٢). والأمثلة على السباق والمسابقة كثيرة في السيرة النبوية، والأحاديث الشريفة، ومن الصحابة رضوان الله عليهم، وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا سبق إلا في خفٍّ أو حافرٍ أو نصل»^(٣).

واستمر السباق والمسابقة في عصور التاريخ، وظهر في العصر الحاضر الأندية الرياضية، وحلبات السباق، والملاعب، وتبنت الدول في المدارس والجامعات، وغيرها. ويألفه الناس بكثرة، ويتفق مع حاجات الإنسان والجسم، ولكن ظهر فيه المبالغات الكثيرة، والإفراط، والبذخ الشديد، بل أصبح ملهًا للشعب في كثير من الأحيان^(٤).

- ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا﴾: أي: تركناه عند متاعنا من فضل ثيابنا وطعامنا وشرابنا ليحفظه لنا. وقولهم هذا نقض لشرط يعقوب عليهم لخروج يوسف معهم، فأين فعلهم هذا من قولهم لأبيهم: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ﴾، ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾، هل هم الذين سيحفظونه، أم هو الذي سيحفظ لهم المتاع، وكيف يتسابقون،

(١) أحكام القرآن، ابن العربي، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ، (٣/ ١٠٧٥).

(٢) صحيح ابن حبان، ابن حبان البستي، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م، (١٠/ ٥٤٥).

(٣) سنن أبي داود، (٢/ ٢٥٨).

(٤) شرعة الله للأنبياء، ص ٢٥٧.

جميعاً وهم عشرة دون أن يتركوا واحداً مع أخيه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد تعهّدوا لأبيهم بالحفظ والرعاية والحماية لأخيه^(١).

هذا، ولعلمهم قصدوا بقولهم: ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَعِنَا﴾، إيهام أبيهم عَلَيْهِ السَّلَامُ أنّهم لم يقصّروا في المحافظة على يوسف ومراقبته، بل تركوه في مأمن حيث لا يكاد يُطرح المتاع إلّا في مكان يؤمن فيه الغوائل وأنّهم يتسابقون قريباً منه، وما فارقه إلّا ساعة يسيرة حدث أثناءها ما لم يتوقع حسب زعمهم^(٢).

﴿فَأَكَلَهُ الذِّبُّ﴾: أي عقب تركنا له عند متاعنا من غير مضىّ زمان يعتاد فيه التفقّد والتعهّد، وهكذا لم يجدوا عذراً يقدمونه لأبيهم خيراً من العذر الذي نبّههم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الحذر من الالتجاء إليه، ونكثوا في عهودهم بالمحافظة عليه من الذنب، حيث قالوا لأبيهم جواباً لقوله لهم: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّبُّ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾، قالوا: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّبُّ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَاسِرُونَ﴾، وحكمهم هذا على أنفسهم بالخسران قد تحقق فيهم الآن بلا شك، فقد خانوا وكذبوا ولفّقوا وارتكبوا جريمة منكّرة في حق أبيهم فلم يرعوا فيه أبوة ولا نبوة ولا في حق أخيهم قرابة ولا أخوة^(٣).

- ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾: قولهم هذا يدلّ على أنّ أباهم غير مصدّق ولا واثق منهم، حيث إنّ التعبير بالجملة الإسمية يدلّ على الثبات والاستقرار في عدم التصديق، كما أنّ وقوع كلمة: ﴿مُؤْمِنٍ﴾ [التوبة: ١٠] نكرة في سياق النفي يدلّ على نفي إيمانه لهم مطلقاً وعدم وجود أيّ تصديق لهم.

(١) يوسف وقصته العجيبة، عlish متولي، ص ٩٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٩٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ٩٩.

وقولهم: ﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾، حيث أثبتوا الشك في صدقهم من خلال هذه الجملة المبدوعة بـ: (لو)^(١).

- ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾: فيها تأكيد شديد يؤكد أن أباهم لن يصدقهم، ولو كانوا صادقين، وتوشك هذه الجملة أن تكشف كذبهم^(٢).

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: نحن نعلم أنك لا تصدقنا والحالة هذه لو كنّا عندك صادقين، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك، لأنك خشيت أن يأكله الذئب، فأكله الذئب، فأنت معذور في تكذيبك لنا لغرابة ما وقع، وعجيب ما اتفق لنا في أمرنا هذا.

قال العلمي رَحِمَهُ اللَّهُ: يقولون: ﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾، يرحم الله هؤلاء آباء الأسيباط، فإنهم ما كانوا صادقين في بكائهم، ولا في قولهم، أنهم ذهبوا يستبقون، وقد تركوا يوسف عند متاعهم، ولا في قولهم: إن الذئب أكله، فكل ذلك كذب، كما أن الدم الذي جاؤوا به على قميصه كان كذباً، فروايتهم هذه التي مثلوها كاذبة من الرأس للعقب ومن الجذر للفرع. الصادق عند الإطلاق، والصادق على الحقيقة من صدق قلباً ولساناً وجارحة، فلا ينطوي قلبه على كذب، ولا يعمل أعمال كذب، بل يكون في كل أفعاله وأقواله ظاهراً وباطناً على حق، ولكن الجماعة لم يكونوا في شيء من هذا، فالقلب واللسان ليسا بصادقين، وعمل جارحة اليد وهو تلويث القميص بالدم ليس بصادق، وهم يقولون لأبيهم: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾، وهم إنما يعبرون بذلك عن إحساس أبيهم^(٣). وهم يعرفون أنفسهم أنهم كاذبون وعلموا من فراسة أبيهم وذكائه وفطنته أنه لن يصدقهم.

(١) يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، القره داغي، ص ٥٨.

(٢) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص ٧٤.

(٣) مؤتمر تفسير سورة يوسف، (١/ ٣٧٥).

٣- ﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۚ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۚ﴾ [يوسف: ١٨]:

- ﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾: نلاحظ فيها غضباً شديداً من وصف الدم بأنه كذب والدم مكذوب به، ولو بالغت قلت: دم كاذب، لأنّ الدم لا يكذب، وإنّما أُسند إليه الكذب للمبالغة، والتعبير في الآية لم يقل بدم كاذب، وإنّما جعل الدم نفسه كذباً. ومن غباء أهل الباطل أنّ القميص الذي جاءوا به، وعليه الدم الكذب، ليكون دليل صدقهم في أنّ الذئب أكل يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ كان هو دليل كذبهم، لسبب ظاهر لا يخفى، على من عنده قدر ضئيل من الفكر، وهو أنّ هذا الدم لو كان دم يوسف وأكله الذئب لكان القميص ممزقاً، ويستحيل أن يأكله الذئب، ويبقى القميص غير ممزق، ولذلك لم يلتفت يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى هذا وضرب عنه صفحاً، ولم يناقش، ولم يبيّن الكذب وإنّما قال^(١):

- ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾: وهذا القول من يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ إضراب عن تكذيب صريح، تقديره: إنّ الذئب لم يأكله، بل سَوَّلَتْ لكم أنفسكم أمراً. ومعنى: ﴿سَوَّلَتْ﴾ أي: زَيَّنَتْ وسَهَّلَتْ. والتسويل: تزيين النفس للمرء ما يحرص عليه، وتصوير القبيح بصورة الحسن. وجاء لفظ: ﴿أَمْرًا﴾ منكرّاً فهو أمر عظيم منكر اقترفوه في حق يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٢). فكأنه كان يرى أنّهم عملوا معه مكيدة ولا بدّ، ولكن كان لا يراها إلّا إجمالاً؛ لأنها لم تتعين عنده صورتها، إذ اشتبه في نظره شكلها واختلط، وغمّ عليه أمرها واستعظم. والتنكير في ﴿أَمْرًا﴾ إمّا للتعظيم والتفخيم، كأنه يقول: أمراً عظيماً ارتكبتموه في يوسف وهونته عليكم نفوسكم،

(١) من حديث يوسف وموسى، ص ٧٥.

(٢) يوسف وقصته العجيبة، ص ١٠٥.

أمرًا ذا بال، أمرًا من نوع الدهاء، أمرًا فيه دسيسة ومكر أو للإيهام فكأنه يقول: أمرًا لا يعلمه إلا أنتم ويوسف^(١).

- ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾: وهذه الجملة الثانية في رده على بنيه، وخاطب بها نفسه، أي: فصبري صبر جميل لا يشوّه جماله جزع اليائسين من روح الله، القانطين من رحمة الله ولا الشكوى إلى غير الله^(٢).

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي: فشأنني وحالي صبر لا جزع منه ولا شكوى فيه للخلق، مع الرضا بقدر الله تعالى وقضائه^(٣). فالشكوى لغير الله مذلة وكلما ارتفع مستوى الإيمان، وجدت المؤمن يستحي أن يشكو مصيبتة لغير الله^(٤).

إنَّ يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ قرر أن يصبر صبراً جميلاً، لأنّه من أعلى درجات الصبر وهذا يحتاج العون من الله تعالى؛ ولذا قال:

- ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾: وهو في صبره الجميل يتجه إلى الله ويقول: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ أي: لا يستعان إلا بالله وحده في الصبر على ما يصفون من قول ولم يقل على ما وقع، بل قال على ما وصفتم، وللإحساس بأن ما وصفوا غير ما وقع^(٥).

﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾: فما لم تحصل للعبد من الله إعانة على التحلي بالصبر الجميل، لم تحصل له الغلبة على مشقات الحياة وكدرها،

(١) إتحاف الإلف، (١/٢٤٨).

(٢) يوسف وقصته العجيبة، ص ١٠٦.

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/١٤٦).

(٤) تفسير النابلسي، د. محمد راتب النابلسي، (٦/١٥٩).

(٥) زهرة التفاسير، (٧/٣٨١١).

ولهذا جُمِّلَ بمقتضى ذلك أن تختتم هذه الآية بما ختمت به، وهو قوله: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي: وهو سبحانه عوني على تحمل ما تصفون من الكذب، ولا يستطيع الإنسان تحمّل مثل هذا الاختلال والتمويه إلاّ بعون الله، وتجميله بالصبر الجميل^(١).

هكذا استقبل يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ مصيبتَه بفراق ولده الحبيب يوسف الصديق، ومصيبته أيضاً بعقوق أولاده، واحتياهم وكذبهم وحقدهم على أخيه وحسداهم له؛ ولهذا طلب المعونة من الله تعالى ليواجه كذبهم وتزويرهم وما كان عَلَيْهِ السَّلَامُ يستطيع أن يفعل شيئاً سوى الصبر الجميل، والاستعانة بالله تعالى. فهو استعان بالله تعالى وحده، ولم يطلب معونة أولاده؛ لأنّه يعلم أنّهم هم سبب بلائه ومصيبته، فكيف يستعين بهم؟ ولم يقم عَلَيْهِ السَّلَامُ يبحث بنفسه عن ولده، ويتفحص عنه، لمعرفة بشدة حقدهم على يوسف، فقد خشي إن بالغ في الطلب والبحث عنه أن يُقدّموا على إيذائه وقتله؛ ولهذا لم يجد سوى الصبر الجميل، وتفويض الأمر بالكلية لله تعالى، لا سيما إن قلنا: إنّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كان عالماً بأن ما وقع لا يمكن تلافيه حتّى يبلغ الكتاب أجله^(٢). وفي قوله: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ غاية البلاغة، لأنّه كان متأكداً من كذبهم ووثاقاً أنّهم ألحقوا بأخيه الضرر، وأنّهم ضخموا الحدث وقلّبوا الأمور ليصدقهم عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٣).

وتركت الآيات الكريمة يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وقد طوى جوانحه على آلامه وأحزانه وانتقلت إلى يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في قعر الجب تقصّ أخباره، وتحكي أحواله^(٤).

(١) دعاء الأنبياء والرسل، محمد محمود، مركز الكتاب للنشر، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م، ص ١٣١.

(٢) روح المعاني، (٢/٢٠٢).

(٣) إتحاف الإلف، (١/٢٥٩).

(٤) إتحاف الإلف، (١/٢٦٠).

المبحث التاسع:

يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ على ملة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب

عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

عندما دخل يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ السجن، ومعه فتیان رأوا منه ما جذبهم إليه من الإحسان وكریم السجال، ونبل الأخلاق، وطلبوا منه أن يُنبئهم بتأويل الرؤى التي رأوها في المنام، أجابهم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وبين لهم دينه وأهميّة التوحيد ونبد الشرك واتباع الأنبياء والمرسلين، وذكرهم بالأسماء، وقد ذكر الله تعالى ذلك في سورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال تعالى: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ٣٨﴾ يَصْحَبِي السِّجْنُ وَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿[يوسف: ٣٧-٤٠].

وإليك تفسير الآيات الكريمة:

أولاً: قوله تعالى: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ٣٧﴾ [يوسف: ٣٧]:

١ - ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ﴾:

الذين كان يعيش معهم خارج السجن، فهم قوم الفتيين الذين يتحدث إليهما فهو أسلوب لطيف بين فيه خطأ ما كانا فيه من ملة واعتقاد^(١).

(١) التفسير الموضوعي، (٤/١٧٦).

٢- ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾:

حقّ الإيمان، لأنهم لا يعبدونه سبحانه وحده ولا ينزهونه عن صفات النقص، فمعرفة وجود الله تعالى غير كافية للإيمان به، وقد كانوا - كما مر معنا - يعرفون بوجود الله تعالى ويجري على ألسنتهم ذكره، ولكنهم ما كانوا يتجهون إليه وحده بالعبادة والطاعة. ومن ثم وصفهم بصفة أخرى تجعلهم غير مؤمنين بالله تعالى:

٣- ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾:

لا يصدقون بيوم القيامة وما فيه من حساب وجزاء وهو ركن هامّ من أركان الإيمان يدل على كمال قدرته تعالى وكمال علمه وحكمته^(١).

وقال الشيخ محمد أبو زهرة رَحِمَهُ اللهُ: وقد وصفهم بحالتين سلبيتين إحداهما: أنهم لا يؤمنون بالله بل يعبدون الأوثان، والثانية: أنهم يكفرون بالبعث، وأكد كفرهم بالبعث بتقديم (الآخرة) على الكفر وذلك لمزيد الاهتمام بالآخرة. وكان التأكيد لغرابته عند أهل العقول المدركة فالعقل يوجب الإيمان بالآخرة لأن الله تعالى لم يخلق الإنسان سدى، ولأن فيه سلوان لمن لا يدرك حظه في الدنيا، ولأنه يتفق مع العلو الإنساني^(٢).

ثانياً: قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٨]:

بعد أن عرّف يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ الفتيين - في الآية السابقة - أنه نبي يوحى إليه بما ذكر من إخباره بالغيوب؛ ذكر في هذه الآية آباءه ليريحهما أنه من بيت النبوة، ليقوي رغبتهما في الاستماع إليه واتباع قوله^(٣).

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١١٧٧).

(٢) زهرة التفاسير، (٣٨٢٤).

(٣) يوسف وقصته العجيبة، ص ٢٦٤.

١- ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾:

أنبياء الله الذين دعوا إلى توحيد الخالص. وبين أسماءهم بقوله: ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾، فلفظ الآباء يشمل الجدود وإن علوا وبين أساس ملتهم التي اتبعها وراثة وتلقيناً فكانت يقيناً له ولهم.

٢- ﴿مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾:

ما كان من شأننا معشر الأنبياء ولا مما يقع منا ﴿أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾، نتخذه رباً أو إلهاً معبوداً معه، لا من الملائكة ولا من البشر فضلاً عما دونهما من البقر (كالعجل أبيس)، أو من الشمس والقمر، أو ما يتخذ لها من التماثيل والصور^(١).

٣- ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾:

الإشارة إلى عبادة الله وحده وترك عبادة غير الله تعالى أيا كان، فهو فضل الله إذ هداهم إلى عبادة المنعم وحده^(٢).

- ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾: بهدائتنا إلى معرفته وتوحيده في ربوبيته وألوهيته بوحيه وآياته وخلقته.

- ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾: بإرسالنا إليهم نشر فيهم دعوته، ونقيم عليهم حجته ونبين لهم هدايته^(٣).

نرى يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يبين لصاحبيه في السجن معالم ملة الإيمان التي يتبعها هو وآباؤه، فهي ملة التوحيد الخالص، فضل من الله على المهتدي، وهو فضل في

(١) تفسير المنار، (١٢/ ٣٠٤-٣٠٧).

(٢) زهرة التفاسير، (٧/ ٣٨٢٥).

(٣) تفسير المنار، (١/ ٣٠٤-٣٠٧).

متناول الناس جميعاً لو اتجهوا إليه وأرادوه، ففي فطرتهم أصوله، وفي الوجود من حولهم موجباته ودلائله، وفي رسالات الرسل بيانه وتقريره، ولكن الناس هم الذين لا يعرفون هذا الفضل ولا يشكرونه^(١).

- ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾: تلك هي النتيجة الطبيعية للغفلة عن معنى الحياة، لأن قضية الشكر هي قضية وعي وانفتاح وإيمان لتعرف أن الله لم يخلقك عبثاً ولم يخلق الحياة دون هدف ولم يترك الإنسان دون نظام^(٢).

والشكر: هو صرف العبد كل ما أنعم الله به عليه إلى ما خلق لأجله^(٣)، من نعم ظاهرة وباطنة في النفس والمال فيصرف ذلك كله إلى عبادة ربه بما يليق به جارية على الوجه الأكمل، وإذا ما فعل ذلك كان قد أظهر نعم الله عليه وأدى واجب شكرها^(٤). ويعتبر الشكر من أجل الأخلاق السلوكية الإيمانية التي يجب على المؤمن أن يتجلى بها في كل أحواله، لما فيه من الاعتراف بالنعم لمسديها، ولقد كانت عناية القرآن الكريم بهذا الخلق عظيمة كعظم مكانته في الأخلاق، فقد ورد ذكره في نحو من سبعين آية أمراً به، وحثاً عليه، وثناء على أهله ووعداً لهم بحسن جزائه، ونهيًا عن ضده مما يدل على أن أمر هذا الخلق عظيم الشأن^(٥).

(١) في ظلال القرآن، (٤/١٩٨٩).

(٢) تفسير من وحي القرآن، فضل الله، دار الملاك للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٩٨٨هـ، (٣٠/٧).

(٣) المرجع السابق، (٣٠/٧).

(٤) أخلاق النبي في القرآن والسنة، أحمد عبد العزيز، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، ١٤١٣هـ، (١٨٥/١).

(٥) المرجع السابق، (١٨٦/١).

قال أبو حيان في قوله تعالى: ﴿لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾؛ أي: لا يشكرون فضل الله ولا ينتبهون. وقال: ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾؛ لأنه نصب لنا الأدلة التي ننظر فيها ونستدل بها، وقد نصب مثل ذلك لسائر الناس من غير تفاوت، ولكن أكثر الناس لا ينظرون ولا يشكرون اتباعاً لأهوائهم فيبقون كافرين غير شاكرين^(١).

وقال ابن مسعود في قوله: ﴿لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾؛ أي: لا يوحّدون. فإن التوحيد مع كونه من آثار ما ذكر من التأييد شكر الله عزّ وجلّ على النعمة وإنما وضع الظاهر موضع الضمير الراجع إلى ﴿النَّاسِ﴾ لزيادة توضيح وبيان، ولقطع توهم رجوعه إلى المجموع الموهوم لعدم اختصاص غير الشاكرين بالناس. وقيل: ذلك التوحيد من فضل الله علينا حيث نصب لنا أدلة ننظر فيها ونستدل بها على الحق وقد نصب مثل تلك الأدلة لسائر الناس أيضاً ولكن أكثرهم لا ينظرون ولا يستدلون بها، اتباعاً لأهوائهم فيبقون كافرين غير شاكرين، ولك أن تقول: ذلك التوحيد من فضل الله علينا حيث أعطانا عقولاً ومشاعر نستعملها في دلائل التوحيد التي معيها في الأنفس والآفاق، وقد أعطى سائر الناس - أيضاً - مثلها ولكن أكثرهم لا يشكرون أي: لا يصرفون تلك القوى والمشاعر إلى ما خلقت هي له ولا يستعملوها فيما ذكر من أدلة التوحيد الآفاقية والأنفسية والعملية والنقلية^(٢).

وبعد هذه المقدمة اليوسفية - على صاحبها السلام - أشعرهما أنه لم يُرد بذكر آبائه التفاخر وإن كانوا أنبياء وإن كان أحدهم خليل الله، فذكر لهما أن ما به وآبائه من نعمة فمن الله وحده وهذه النعمة - أي نعمة التوحيد - هي أسبغ النعم علي وعلى آبائي وعلى الناس كافة كذلك.

(١) البحر المحيط، ص ٢٧٧-٢٧٨.

(٢) تفسير أبي مسعود، (٤/٢٧٨).

وإن الفرق بيننا وبين الناس أن الناس لا يشكرونها، وشكر نعمة الهداية للتوحيد يكون بالقيام بحق كلمة التوحيد والعمل بمقتضاها وما من شك أن الأنبياء هم أكثر الناس قياماً بحقها وعملاً بمقتضاها وكل ذلك خرج على سبيل الترغيب لهم فيها وتأكيد الدعوة بالفعل فإن رد النعمة إلى موليها والأفضال إلى مُسديها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من جملة توحيد الربوبية ومقتضاه.

والمقصود، أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَام استهل بتلك المقدمة قبل تأويل الرؤيا ليخلص منها إلى دعوتهما^(١)، فقد استطاع أن يدخل عَلَيْهِ السَّلَام إلى نفسيهما هذا المدخل اللطيف وأخذ يتوغل أكثر وأكثر في حذر ولين حتى أفصح عن عقيدته ودعوته إفصاحاً كاملاً وصارحهما بفساد عقيدتهما وبطلانها بأسلوب يقوم على التفكير والموازنة العقلية المؤدبة إلى ظهور الحقيقة ورجحان كفته^(٢).

ثالثاً: قال تعالى: ﴿يَصْحَبِي السِّجْنِ ۖ أَرْيَا بُتُّ مَتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَحْدُ الْقَهَّارُ﴾

[يوسف: ٣٩]:

رسم يوسف الصديق عَلَيْهِ السَّلَام بهذه الكلمات القليلة الناصحة الحاسمة المنيرة كلَّ معالم هذا الدين، وكلَّ مقومات هذه العقيدة كما هزَّ بها كل قوائم الشرك والطاغوت والجاهلية هزاً شديداً عنيفاً.

١ - ﴿يَصْحَبِي السِّجْنِ﴾:

أن يتخذ منهما صاحبين ويتحبب إليهما بهذه الصفة المؤنسة ليدخل من هذا المدخل إلى صلب الدعوة وجوهر العقيدة.

(١) آيات للسائلين، ص ٢٠٢.

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٧٧).

٢- ﴿أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾:

وهو سؤال يهجم على الفطرة في أعماقها ويهزها هزاً شديداً. إن الفطرة تعرف لها إلهاً واحداً ففيم إذاً تعدد الأرباب؟

إنّ الذي يستحق أن يكون رباً يُعبد ويطاع أمره، ويتبع شرعه هو الله الواحد القهار ومتى توحد الإله وتقرر سلطان القهر في حياة الناس وما يجوز لحظة واحدة أن يعرف الناس أن الله واحد وأنه هو القاهر ثم يدينوا لغيره ويخضعوا لأمره ويتخذوا من دون الله رباً.

إنّ الرب لا بد أن يكون إلهاً يملك أمر الكون ويسيره ولا ينبغي أن يكون العاجز عن تيسير أمر هذا الكون كله رباً للناس يقهرهم بحكمته وهو لا يقهر هذا الكون كله بأمره.

إن الله الواحد القهار خير أن يدين العباد لربوبيته، من أن يدينوا للأرباب المتفرقة والأهواء الجاهلة القاصرة العمياء عن رؤية ما وراء - المنظور القريب - كالشأن في كل الأرباب إلا الله.

وما شققت البشرية بشيء قط ما شققت شقاءها بتعدد الأرباب وتفرقهم وتوزع العباد بين أهوائهم وتنازعهم فهذه الأرباب الأرضية التي تغتصب سلطان الله وربوبيته أو يعطيها الجاهلون هذه السلطان، هذه الأرباب الأرضية لا تملك لحظة أن تتخلص من أهوائها ومن حرصها على ذواتها وبقائها، ومن الرغبة الملحة في استبقاء سلطانها وتقويتها، وفي تدمير كل القوى التي تهدد السلطان من قريب أو من بعيد وفي تسخير تلك القوى والطاقات في تمجيدها والطبل حولها والزممر والنفخ فيها كي لا تذبل.

وإن الإله الواحد القهار في غنى عن العالمين فهو سبحانه لا يريد منهم إلا التقوى والصلاح والعمل والعمارة وفق منهجه، فيُعد هذا كله عبادةً، وحتى الشعائر التي يفرضها عليهم إنما يريد بها لإصلاح قلوبهم ومشاعرهم ولإصلاح حياتهم وواقعهم... وإلا فما أغناه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ عِبَادِهِ أَجْمَعِينَ^(١).

اسم الله (الواحد):

ورد اسم الله الواحد في أكثر من عشرين موضعاً في القرآن ومن ذلك:

- قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦].

- قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

وإن في الكتب التي تتحدث عن أسماء الله الحسنى يأتي الحديث عن أسماء الله (الواحد) (الأحد).

ويقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: (الواحد الأحد) هو الذي توحد بجميع الكمالات وتفرد بكل كمال وجلال وجمال وحمد وحكمة ورحمة وغيرها من صفات الكمال، فليس له فيها مثيل ولا نظير ولا مناسب بوجه من الوجوه فهو الأحد في حياته وقيوميته وعلمه وقدرته وعظمته وجلاله وجماله وحمده وحكمته وغيرها من صفاته، موصوف بغاية الكمال ونهايته من كل صفة من هذه الصفات فيجب على كل العبيد توحيده عقلاً وقولاً وعملاً بأن يعترفوا بكماله المطلق وتفرده بالوحداني وبفروده بأنواع العبادة^(٢).

(١) في ظلال القرآن، (٤/ ١٩٩٠).

(٢) والله الأسماء الحسنى، عبد العزيز، ص ١٠٦.

- اسم الله (القهار):

ورد ذكر اسم الله (القهار) في القرآن الكريم ست مرات اقترن فيها باسمه (الواحد) ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، وغيرها من الآيات.

وقال الخطابي: (القهار) هو الذي قهر الجبابرة من عتاة خلقه بالعقوبة وقهر الخلق بالموت^(١).

والقهار: اسم مبالغة (للقاهر) وهو الذي خضع له كل شيء وذل لعظمته وقوته كل شيء لا يخرج شيء عن قدرته وتدبيره وملكه. وقهر كل الخلق بالموت، وهذا يفسر - والله أعلم - شيئاً من سر اقتران اسمه (الواحد) باسمه (القهار) حيث إن من موجبات اسمه الواحد في ربوبيته وملكه وألوهيته وأسمائه وصفاته أن يكون قاهراً قهاراً غالباً لكل شيء لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وما من دابة إلا هو سبحانه أخذ بناصيتها ماض فيها حكمة عدل فيها قضاؤه: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

وكونه تعالى (الواحد) يقتضي كونه (القهار). ووحدته تعالى وقهره متلازمان، فالواحد لا يكون إلا قهاراً، والقهار لا يكون إلا واحداً، وذلك ينفي الشرك من كل وجه^(٢). إن القهر ملازم للوحدة فلا يكون اثنان قهارين، متساويين في قهرهما أبداً، فالذي يقهر جميع الأشياء هو الواحد الذي لا نظير له، وهو الذي يستحق أن يعبد وحده كما كان قاهراً وحده^(٣)، كما يشير هذا الاقتران إلى معنى بديع،

(١) والله الأسماء الحسنی، المصدر السابق، ص ٤١٥.

(٢) تفسير السعدي، (٤/٣٠٨).

(٣) تفسير السعدي، (٤/١٩٩).

وهو أن الغلبة والإذلال من ملوك الدنيا إنما يكون بأعوانهم وجندهم وعددهم، والله تعالى يقهر كل الخلق وهو واحد أحد فرد صمد مستغنى عن الظهير والمعين، فاقتران الاسمين يشير إلى كماله سبحانه في تفرد كماله في قهره^(١).

إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَام كان يدعو إلى توحيد الله من خلال التعريف بأسمائه الحسنی وفي دعوته لصاحبيه في السجن كان حديثه عن (الواحد القهار) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

رابعاً: قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقِيَمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠]:

رسم يوسف عَلَيْهِ السَّلَام بهذه الكلمات القليلة الناصعة الحاسمة المنيرة كل معالم هذا الدين، وكل مقومات هذه العقيدة كما هز بها كل قوائد الشرك والطاغوت والجاهلية هزاً شديداً^(٢).

١- ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ﴾:

أي: ما تعبدون إلا أسماء لا مسميات لها، لأنها في الأصل لا تستحق أن تعبد وتعظم، فكانها معدومة غير موجودة^(٣).

٢- ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾:

ما أنزل الله حجة ولا برهانا على عبادتها^(٤)، ولا عقل يسلم بذلك. إن العبادة لا تكون إلا بسند شرعي، فلا يعبد تَبَارَكَ وَتَعَالَى إلا بما شرعه وبينه ونزل به الوحي،

(١) مطابقة أسماء الله الحسنی مقتضى المقام، نجلاء الكردي، ص ٤٩٢.

(٢) في ظلال القرآن، (٤/١٩٩).

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/١٧٨).

(٤) التفسير الموضوعي، (٤/١٧٨).

فمعبوداتكم ليس لها في عالم الحق مكان، فلم تأتكم بها دعوة من رسول من رسل الله عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولم يحملها إليكم كتاب من كتب الله تعالى، إنها نابعة ومولدة من الوهم والضلال^(١).

كان يوسف صريحاً في بيان ما هم عليه من شرك بالله، ليعرفهما حقيقة ما هما عليه ويميزا بين الحق والباطل؛ ليكون هذا دافعاً لهما إلى ترك الباطل الذي عليه القوم واتباع الحق الذي هو عليه^(٢). وقد بين يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لمن ينبغي أن تكون الطاعة، أو بمعنى آخر لمن ينبغي أن تكون العبادة^(٣).

٣- ﴿إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾:

أي: ما الحكم الحق في الربوبية، والعقائد والعبادات الدينية؛ إلا لله وحده، يوحيه لمن اصطفاه من رسله، ولا يمكن لبشر أن يحكم فيه برأيه وهواه، ولا بعقله واستدلّاه، ولا باجتهاده واستحسانه، فهذه القاعدة هي أساس دين الله تعالى على ألسنة جميع رسله لا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة.

٤- ﴿أَمَرَ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾:

إياه وحده، فادعوه واعبدوه وله وحده فاركعوا واسجدوا، وإليه وحده فتهجدوا، حنفاء لله غير مشركين به، ملكاً من الملائكة الروحانيين، ولا ملكاً من الملوك الحاكمين، ولا كاهناً من المتعبدين، ولا شمساً ولا قمرأً، ولا نجماً، ولا شجراً ولا نهراً مقدساً كالكنج والنيل، ولا حيواناً كالعجل أبيس. فالمؤمن الموحد لله لا يذل نفسه بالتعبد لغير الله من خلقه بدعاء ولا غيره، إلا بإيمانه بأنه هو الرب

(١) يوسف وقصته العجيبة، ص ٢٧٧.

(٢) القصص القرآني، الخالدي، (٢/ ١٤٧).

(٣) في ظلال القرآن، (٤/ ١٩٩٠).

المدير المسخر لكل شيء وأن كل ما عده خاضع لإرادته وسننه في أسباب المنافع والمضار، ولا يملك لنفسه ولا لغيره غير ما أعطاه من القوى التي هي قوام حسنة، ومادة حياة شخصية: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠].

فإليه وحده الملجأ في كل ما يعجز عنه الإنسان أو يجهله من الأسباب وإليه المصير للجزاء على الأعمال يوم الحساب^(١). ويوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يعلل القول بأن الحكم لله وحده، فيقول: ﴿أَمَرَ آلَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾.

وإن العبادة لا تكون إلا لله، والعبادة بمفهومها الواسع الشامل التي تعني الخضوع المطلق وإفراد الله بالحكم صورة من صور إفراده بالعبادة^(٢).

والخضوع له وحده، واتباع أمره وحده، سواء تعلق هذا الأمر بشعيرة تعبدية، أو تعلق بتوجيه أخلاقي، أو تعلق بشريعة قانونية، فالدينونة لله وحده في هذا كله هي مدلول العادة التي خص الله سبحانه بها نفسه، ولم يجعلها لأحد من خلقه. وهذا الفهم في مفهوم العبادة يبين لنا تعليلاً لا اختصاصه بالحكم. فالعبادة - أي: الدينونة - لا تقوم إذا كان الحكم لغيره، وسواء في هذا حكمة القدري القهري في حياة الناس وفي نظام الوجود، وحكمه الشرعي الإداري في حياة الناس خاصة، فكله حكم تتحقق به الدينونة.

إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يقرر لصاحبيه في السجن، ولكل الناس - أن اختصاص الله سبحانه - بالحكم - تحقيقاً لا اختصاصه بالعبادة - هو وحده الدين القيم^(٣).

(١) تفسير المنار، (١٢/٣٠٧-٣١١).

(٢) القصص القرآني، (١٤٧/٢).

(٣) في ظلال القرآن، (٤/١٩٩١).

٥- ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾:

الإسلام وحده هو الدين القيم، الدين المستقيم الصحيح المقبول عند الله. الدين الذي يقوم على معادلة ذات طرفين: إفراد الله بالعبادة يعني إفراده وحده بالحكم، وهذه يعني أن من فعل ذلك كان على دين قيّم، ومن لم يفعله فليس على دين قيم، فهو جاهل غير عالم. والمقصود أن الدين الموصل لرضوان الله هو الدين الذي لا يعبد فيه إلا الله ويكون فيه الحكم لله. ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي: الحق المستقيم الذي لا عوج فيه من جهالة الوثنيين، الذي دعا إليه جميعُ رسل الله أقوامهم، ومنهم آبائي إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب عَلَيْهِمُ السَّلَامُ^(١).

٦- ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾:

ليس لهم علم بالحقائق، بل تسيطر عليه الأوهام الباطلة، التي تخدع العقول فلا تعلم، والمصريون القدماء كانوا خاضعين للأوهام ولا تزال بقية منهم خاضعة للأوهام، وهم الذين لم يدخلوا في دين التوحيد، دين الله القيم.

وهكذا نرى نبي الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ابتداءً بإثبات معجزته ثم نهى عن الشرك، ووجههم إلى الاقتداء بشخصه وقد صاروا له أصحابين ثم وازن بين الوجدانية وتعدد الآلهة، ثم بين لهم أنه لا وجود لما يسمونه آلهة، وأن الدين القويم الحق الذي يوافق قضية العقل البديهية هو الوجدانية^(٢).

وإن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وضع سلسلة من الحقائق المنطقية المتسلسلة المتتابعة بتناسق موضوعي متدرج وصل به إلى هدفه المنشود في دعوة صاحبيه

(١) تفسير المنار، (١٢/٣٠٧ - ٣١١).

(٢) زهرة التفاسير، (٧/٣٨٢٦).

إلى دين الله عَزَّوَجَلَّ، وقد يقال: إن دعوته إلى الوحدانية، كانت بين اثنين. وإنَّ محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابتدأ دعوته بين زوجه وصديقه أبي بكر وابن عمه علي ومولاه زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ جميعاً، وبقي مستخفياً بالدعوة بضع سنين، فليست العبرة بكثرة العدد ولكن بقوة الإيمان^(١).

وبعد أن وجه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ دعوته الصريحة إلى دين التوحيد وعبادة الله وحده عبّر لكل واحد منهما رؤياه التي تخبر عن كل واحد منهم مصيره ومستقبله^(٢).



(١) زهرة التفاسير، (٧/٣٨٢٦).

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/١٤٨).

المبحث العاشر:

مجيء إخوة يوسف إلى مصر وإكرامه لهم وطلبه حضور أخيهم من أبيهم وشفقة يعقوب على أولاده

قال تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفَى الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ٥٩ فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ٦٠ قَالُوا سَنُرَوِّدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ٦١ وَقَالَ لِفَتْنِهِ أَجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٦٢ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ٦٣ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ ٦٤ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ٦٥﴾ [يوسف: ٥٨، ٦٥]:

يشمل القحط والجفاف مصر، وما حولها من البلاد وتسامع الناس في كل مكان أخبار التوزيع للمؤن والطعام في مصر وأخبار العزيز الصالح فشدوا الرحال إليه من كل حذب وصوب، يمتارون في هذه السنوات العجاف^(١).

أولاً: قال تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ٥٨﴾ [يوسف: ٥٨]:

جاء ذكر خبر يوسف عَلَيْهِ السَّلَام مباشرة بعد قصة توليه خزائن الأرض رغم أن الفاصل الزمني بين الحدثين بضع سنين، فإخوته ما جاؤوا إلا بعد انقضاء سنوات الرخاء

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٩٩).

وبداية سنين الشدة، فطوى القرآن أمر امرأة العزيز، وحلول سنين الخصب والادخار ثم اعتراء سنين القحط لقلة جدوى ذلك كله في الغرض الذي نزلت السورة لأجله، وهو إظهار ما يلقاه الأنبياء في طريق دعوتهم، وكيف تكون لهم عاقبة النصر والحسنى، ولأنه معلوم حصوله، ولذلك انتقلت القصة إلى ما فيه العبرة من مصير إخوة يوسف، وقصص القرآن الكريم جميعها تقتصر على مواطن العبر والعظات ولا تعبأ بسرد فضول الأحداث، وترك الفضول من سمات كلام الله تعالى ولما كانت السنة وحيًا كان في كلام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيء من ذلك، فقد اختصر له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكلام اختصاراً وهذا مما فضل به نبينا على سائر الأنبياء^(١).

وكما ضرب الذكر عن بعض تفصيل الأحداث ضرب الذكر عن بيان سبب انقطاع يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ عن أبيه، وهذا السؤال يرد على فرض أنه كان بوسع يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يأتي بأبويه مباشرة بعد توليه وزارة مصر، ولكنه مع عظيم شوقه لأبيه وذويه لم يفعل ذلك والجزم بهذا الغرض فيه نظر، فمن أين لنا أن الملك كان يأذن للوزراء في مغادرة المملكة وحال البلد مخوفة، ولا سيما من تمس الحاجة إلى وجوده، وربما كان السبب أمر الله تعالى له بذلك وهذا يفهم من إمكان طلبهم ولا سيما بعدما مجيء إخوته مع عدم فعله، فقال بعضهم: لا يكون تركه لهذا إلا بتوقيف، فصبر على بعدهم حتى أذن الله تعالى له باستقدامهم. وقيل: بل ربما كان سببه الانشغال بالأعباء الواجبة من إصلاح الفساد الإداري مع العمل الدؤوب والإعداد المتواصل لسبع سنوات حسوم مقبلة، فضلاً عن أعباء وظيفته الربانية المكلف بها إلا وهي دعوة من ضل إلى الهدى. وربما اجتمع أكثر من سبب وهذا الأخير لعله أظهر، ويوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يعلم أن أباه نبي مؤيد بالوحي مسدد،

(١) آيات للسائلين، ص ٢٥٩.

ومن كان هذا شأنه فهو في خير حال، فلم يكن شوقه لرؤيته والاجتماع به وبأمه وإخوته، مقدماً عنده على الحقوق الواجبة، سواء كانت دعوة أو أعباء دولة، ومع ذلك ربما توقع وفدهم عليه بأرض مصر لسابق رؤياه في صغره التي يعلم أنها حق ولعلمه بواقع الناس واضطرابهم للمجيء^(١).

١ - ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ﴾:

دونما حاجة إلى الشرح ومقدمات عن أحول البلاد المجاورة لمصر، علمنا فور رؤيتنا لهؤلاء الإخوة أن فاقة أت بهم وجائحة نزلت ببلادهم وأرزاقهم في فلسطين، وإن جلوس يوسف للناس ليعني أكثر من مسألة، منها أنه يتابع في مصر كل الأمور، وخاصة ما يتعلق بضرورات الناس الحياتية وعدالة توزيع معاشهم. وثانياً: فتح أبوابه للناس حتى يتمكن كل أحد من الوصول إليه والدخول عليه. ثالثاً: لعله لتعليم الله له، علم أن إخوته سيبحثون عن الطعام، فهو جالس يتفقد كل قافلة ينتظر أن يرى إخوانه، ودخولهم عليه يدل على أنه كان يراقب أمر البيع بحضوره ويأذن به في مجلسه خشية إضاعة الأقوات لأن بها حياة الأمة^(٢).

ونلاحظ أن الفاء في قوله: ﴿فَدَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ تعني أن دخولهم عليه كان عقب مجيئهم بلا مُهْلَة، وأن آخر المجيء موصول بأول الدخول^(٣)، وفي قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ نسبتهم الآية إلى يوسف وعرفتهم به، فلولا له لكانوا نكرات لا يذكرهم أحد ولا يعرفهم^(٤).

(١) المصدر نفسه، ص ٢٦٠.

(٢) سورة يوسف، ص ٤٦٠.

(٣) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص ١٤٧.

(٤) التفسير الموضوعي، (٤/ ١٩٩).

٢- ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾:

- ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾: وكانت لحظة رؤيته عَلَيْهِ السَّلَامُ لحظة فاصلة بين ماضٍ ولّى وحاضرٍ أتى، ولعله عَلَيْهِ السَّلَامُ تذكر آخر مشهد معهم وهم يجعلونه في الحب ويتركونه لمصيره المجهول، ثم رأى كيف أفاض الله تعالى عليه من نعمه التي لا تعد ولا تحصى، فأكرمه بالمكان العالي والمكانة الشامخة وبالنبوة والرسالة، وجعله الوحيد الذي يتوجهون إليه مضطرين ويقصدون عطاءه ومدّته لهم، بعد أن ولّوا ظهورهم له في الماضي، وكانوا له كارهين وللعيش معه مبغضين، ولم تتأثر نفسه العالية الكريمة بكل ما وقع منهن تجاهه فلم يكن منه إلا الحنان الصادق والعاطفة الرحيمة نحو إخوته الذين قدموا من بعيد بحثاً عن الطعام لهم ولأهلهم، بعد أن دار عليهم الزمان وتحكم فيهم القحط والجذب، ولم تغن عنهم قوتهم وعصبتهم التي كانوا يتفاخرون بها في إبعاد شبح الجوع عنهم. وشاء الله بحكمته وقدرته أن يعيدهم من شر المجاعة على يديه الكريمتين، ولا شك أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ برؤيته لهم قد شعر بحنان جارف نحو أبيه يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ الرحيم به والحبيب له، الأب المبلى بفقد أحب أولاده إليه والذي أثقلته الهموم وهدّته الأحزان وأضناه فراق حبيبه يوسف الذي انقطع أثره وخبره عنه وتذكر أخاه الشقيق، فهو الوحيد من الإخوة الذي غاب عن المجيء إلى مصر ووَدَّ لو كان معهم لينعم بطيب رؤيته ونعيم قربه^(١).

- ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾: ودلت الفاء على سرعة معرفة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لهم أي: ما إن دخلوا على يوسف حتى عرفهم وربما كان ذلك بسبب يقظته أولاً، وثانياً أن الصور والوجوه، لا تتغير كثيراً في سن الرجولة على عكس مراحل الطفولة والانتقال منها إلى الرجولة^(٢).

(١) يوسف وقصته العجيبة، ص ٣٦٢.

(٢) يوسف أيها الصديق، محمد عاطف السقا، ص ٢٩٨.

- ﴿وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ هم لم يعرفوه، بل أنكروه: ﴿وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾؛ كل ما يعرفونه أن الشخص الذي أمامهم الآن هو عزيز مصر، وهم لا يعرفون اسمه ولا أصله ولا هويته، هل من الممكن أن يتوقعوا أن عزيز مصر الذي أمامهم الآن هو أخوهم يوسف الصغير، الذي ألقوه في البئر قبل سنوات وسنوات؟

ونقف هنا على مظهر من حصافة يوسف وكياسته عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث لم يكشف لإخوته عن هويته ولم يُعرفهم على نفسه، ولم يذكرهم بجريمتهم ضده، ولم يقل لهم: أنتم الذين تآمرتم عليّ، وفعلتم بي كذا وكذا وجاء الآن دور الانتقام والثأر والقصاص ولم يأمر بالقبض عليهم، وسجنهم فقد استعلى يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ على آلامه وأحزانه وجراحه، وتخلص من الحقد والتشفي والانتقام، وأحسن إلى من أساءوا له. وتفاعل يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ مع إخوته بأخلاق النبوة، والأصل أن يكون قد استقبلهم وأكرمهم دون أن يعرفهم على نفسه، والأصل أنه جلس معهم وحدثهم، وسألهم عن أنفسهم وأهلهم وبلادهم، وأنهم أنسوا إليه وحدثوه وأخبروه عن أوضاع أهلهم وعرف منهم أن لهم أخاً صغيراً، وهو أخ من أبيهم، غير شقيق لهم وأنه أثير عند أبيه وأنه لا يدعه يخرج معهم، خوفاً عليه^(١)، كان عَلَيْهِ السَّلَامُ في قمة الحكمة حيث لم يصدر منه أي شيء يؤذن بأنه يعرفهم، وحتى معرفته بأن لهم أخاً من أبيهم جاءت من خلال أسئلته لهم التي تقتضي معرفة العائلة. وفي نظري أن يوسف أعد شيئاً، أو ورقة خاصة بالتموين تتضمن أسئلة مهمة حول المستفيدين، حتى يعرف كم عدد العائلة ومدى الحاجة ونحو ذلك مما تقتضيه العدالة^(٢).

(١) القصص القرآني، (١٨٨/٢).

(٢) يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، للقره داغي، ص ١١٦.

ثانياً: قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [يوسف: ٥٩]:

مما يظهر أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أكرم وفادتهم، وجهزهم بجهازهم، ولعل ذلك كان بدينه شأنه شأن الداعية الكريم فهذا سبيل قد هُيِّئَ له من أجل دعوة الوفود، فحري به أنه يسلكه ولهذا لم يستغرب ذلك منه تجاه إخوته، ولم يستغرب منه لما شاع من خبر كرمه، ويظهر كذلك أن في بعض تلك المحاورات ذكروا أن لهم أخاً، وقد كان يفرض للرجل حمل بعير، ولعلمهم أرادوا الاستزادة من الميرة بذكر أخيهام له وإخبارهم بشأنه لما رأوا إحسانه، فأبى وأظهر الصرامة والجزم في تدبير أقوات الناس وخزينة الدولة^(١)، وطلب منهم إحضار أخيهام معهم المرة القادمة إن كانوا صادقين.

١ - ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾:

أعطاهم ما جاؤوا لأجله وما يحتاجون إليه في سفرهم، وكان يعطي كفاية عام واحد^(٢). وقد قام يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بنفسه بتجهيزهم بحصصهم، وهذا يدل على الإشراف الفعلي الشخصي على عملية التوزيع، وفي هذا دليل على حسن إدارته ونجاحه، لأن التوزيع في مثل هذه الحالات يحتاج إلى الحسم والعدل وعدم المجاملة فيه، ويقتضي الإشراف الفعلي منه^(٣).

وفي هذا إشارة إلى أن الأعمال التي يمكن أن يحدث فيها ظلم أو فساد يجب على المسؤول أن لا يتركها للآخرين^(٤).

(١) آيات للسائلين، ص ٢٦١.

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٠١).

(٣) يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، للقره داغي، ص ١١٦.

(٤) يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، للقره داغي، ص ١١٧.

٢- ﴿قَالَ أَتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ إِيَّكُمْ﴾:

ترك يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ إخوته في ضيافته حتى أنسوا إليه، واستدرجهم حتى ذكروا له مَنْ هم على وجه التفضيل، ثم طلب منهم بعد أن جهزهم بجهازهم إحضار أخيه من أبيهم ليتأكد من صدقهم فيما أخبروه به، وجعل هذا كشرط لقدمهم إلى مصر مرة أخرى للحصول على الميرة، ولم يكن بمقدوره عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يطلب من الإخوة أن يأتوا بأخ من أبيهم، لو لم يكن حصل على هذه المعلومات منهم، وكان هذا الاستدراج أول الخيط في تدبير الخطة التي وضعها عَلَيْهِ السَّلَامُ والتي انتهت بجمع شمل الأسرة كلها.

٣- ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾:

والآية الكريمة تبين أن إكرام يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ليس وقفاً على إخوته النازلين به، بل كان شاملاً لكل قاصد له، إلا أن المرجح أن نصيب الإخوة كان أكثر من نصيب سؤالهم، فقد واجههم بسؤاله: ﴿قَالَ أَتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ إِيَّكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾، مما يؤكد أنهم تمتعوا بثلاثة أنواع من الإكرام: حسن الاستقبال ووفاء الكيل والنزول في ضيافته^(١)، ثم بعد الترغيب توعدهم بالحرمان والمنع من دخول البلاد إذا لم يحضروا أحاهم معهم^(٢).

❖ **ثالثاً: قال تعالى:** ﴿فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَّكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرُبُونِ﴾ [يوسف: ٦٠]:

اشترط يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ مجيء أخيه، فإن لم يأت فلا كيل لكم حين تأتون مصر ثانية، بل ولا تقربوها مرة أخرى، فأنتم مخيرون بين الميرة ودخول بلادي وبين عدم ذلك، ولا تنسوا شرطي عليكم^(٣).

(١) يوسف وقصة العجيبة، ص ٣٦٥.

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٠١).

(٣) اتحاف الألف، سليم الهلالي، (٢/ ٦٣٥).

وإن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدَّم في الآية السابقة الترغيبَ ثم استخدم بعد ذلك التهريب، لأن أمر إحضار الأخ ليس بالشيء اليسير عليهم، وهو يعلم ذلك كل العلم، بل هو أمر ثقيل عليهم كل الثقل، فكيف يمكن لهم أن يسألوا أباهم مرة أخرى أن يرسل معهم (أخاهم) وقد سألوه إرسال شقيقه يوسف من قبل بل ووعدوه بالمحافظة عليه، ولكنهم نقضوا عهدهم معه، ولم يرجع له يوسف حتى الآن، كما أن الأخ المطلوب هو الشقيق الوحيد ليوسف وهو الأحب إلى قلب أبيه بعد يوسف، فكيف يتسنى لهم طلبه من يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

من أجل ذلك عاجلهم عَلَيْهِ السَّلَامُ بسبب قوي ليبرر طلبه أخاهم من أبيه يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وحتى يعلموا أن هذا الأمر ملزم لهم ولا رجعة فيه، فيأخذونه مأخذ الجد، ويبدلون أقصى جهدهم في إقناع أبيهم بهذا الخصوص^(١)، وفي هذا الأسلوب اليوسفي ترغيب ثم تهريب، واللفظ والترغيب مع الحزم والتهريب من أركان القيادة الناجحة لأن القائد الناجح هو الذي يقدر على قيادة القلوب والأبدان^(٢).

❖ **رابعاً: قال تعالى:** ﴿قَالُوا سُرُودٌ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ [يوسف: ٦١]:

لما كان الإخوة يعلمون كيف يضمن أبوهم بأخيهم الأصغر وبخاصة بعد ذهاب يوسف، فقد أظهروا ليوسف أن الأمر ليس ميسوراً وإنما طريقه عقبات من ممانعة أبيهم وأنهم سيحاولون إقناعه، ولهذا قالوا:

١ - ﴿سُرُودٌ عَنْهُ أَبَاهُ﴾:

المرادة تشعر بصعوبة ذلك؛ إذ هي تدل على المجهود العظيم الذي كان على الإخوة أن يبذلوه في مفاتحة يعقوب في هذا الموضوع أولاً،

(١) يوسف وقصته العجيبة، ص ٣٦٩.

(٢) آيات للسائلين، ص ٢٦٢.

ثم المجهود الذي عليهم أن يبذلونه بعد ذلك حتى نجاحهم في أخذ الشقيق ليوسف معهم. ومعنى: ﴿سَنُرَوِّدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ أي: سنحاوله ونستميله في رفق إلى أن يتركه يأتي معنا.

٢- ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾:

تأكد ذلك الوعد بأنهم فاعلو ذلك لا محالة لا يفرطون فيه ولا يتوانون، وأنهم سيبدلون قصارى جهدهم في الإتيان بأخيهم^(١). وإن الآية تبين أنهم سيبدلون غاية الوسع لفعل ما يطلبه منهم وخصوصاً لشدة حاجة آل يعقوب في المستقبل أيضاً إلى الطعام لاستمرار القحط والمجاعة^(٢). وكما يضمن رجوعهم، أمر بعض أتباعه ومعاونيه أن يردوا إليهم ثمن الطعام الذي أحضروه معهم دون أن يشعروهم بذلك، ليعرفوا كرمه وإحسانه فيرجعوا إليه^(٣).

خامساً: قال تعالى: ﴿وَقَالَ لِفَتَيْنِهِ أَجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يوسف: ٦٢]:

هذا تدبير من يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ سيكون له - إن شاء الله - أثر كبير، فكما وضع خطة طويلة لإنقاذ مصر من المجاعة رسم أخرى لاستنقاذ أخيه من المأساة ونفذها على مراحل مما يدل على بعد نظره واستشرافه للمستقبل وصبره الفاتح لما أغلق، إنه يعرف كيف يتحرك ويأخذ الأسباب ويضع الأهداف القريبة والبعيدة بتوفيق الله عَزَّجَلَّ^(٤).

(١) يوسف وقصته العجيبة، ص ٣٧١.

(٢) يوسف وقصته العجيبة، المصدر السابق، ٣٧٢.

(٣) إتحاف الألف، (٢/ ٦٣٨).

(٤) إتحاف الألف، (٢/ ٦٣٨).

١- ﴿وَقَالَ لِفَتْنَيْنِهِ أَجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾:

- (الفتى) من كان في مبدأ الشباب ويطلق على الخدم تلطفاً.

- (البضاعة) المال أو المتاع المعدّ للتجارة^(١)، والتعبير بالبضاعة هنا يدل على أنهم لم يتمكنوا من الإتيان بالنقود الذهبية أو الفضية. وهل هذا يدل على أن التعامل كان يتم بالمقايضة؟ أو أن نقودهم من كثرة ما فيها من نحاس سميت بضاعة؟^(٢).

قال بعض العلماء: البضاعة هنا هي الورق: الدراهم الفضية المضروبة نقوداً، التي ابتاعوا بها الطعام^(٣).

- ﴿رِحَالِهِمْ﴾: الرحال: جمع رحل، وكلاهما الجمع والمفرد ورد في السورة، والرحل: ما يوضع على ظهر البعير من وعاء أو متاع ومنه سُمي البعير: رحالة، وقيل الرحل كل شيء مُعدّ للرحيل، من دابة ووعاء ومتاع ورسن وغيره^(٤).

٢- ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ﴾:

الهدف من ذلك هو أن يعرفوا عند تفريغ أحمال الجمال أنهم لم يدفعوا ثمن الحبوب التي أخذوها من العزيز، فها هو العزيز يعيد لهم بضاعتهم ويعطيهم الحبوب مجاناً وهذا يدعوهم إلى العودة إلى مصر، لأخذ أحمال أخرى ويبدو أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَام دفع ثمن الجمال العشرة التي حملها لهم من حسابه، بعد أن أعاد لهم بضاعتهم من ضمن الحبوب وأراد إكرام أهله بذلك^(٥).

(١) سورة يوسف، ص ٣٦٨.

(٢) يوسف علي السلام، للقره داغي، ص ١١٨.

(٣) تفسير الماوردي (النكت والعيون)، أبو الحسن البصري البغدادي الماوردي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ، (٢/ ٢٨٥)، التفسير الاقتصادي للقرآن الكريم، ص ١٣٧.

(٤) التفسير الاقتصادي للقرآن الكريم، رفيق المصري، دار القلم، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م، ص ١٣٧.

(٥) القصص القرآني، (٢/ ١٩٠).

٣- ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾:

ليكون حالهم حال من يرجع إلينا إذا عرفوها لردّها أو للميرة بها إن لم يكن عندهم غيرها، أو طمعاً في مثلها. وإنما لم يبادروا إلى تعريفهم بنفسه والتعجيل بإدخال السرور لأن ذلك غير ممكن عادة، لما يأتي من الحكم البالغة والتدبير المتين^(١).

- ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: قيل: لعلمه أنهم لا يقبلون الطعام إلا بثمنه وقيل ليستعينوا بذلك على الرجوع لشراء الطعام، وقيل: ليروا فضله ويرغبوا في الرجوع إليه^(٢)، وقد ذكر العلماء مجموعة من الأسباب التي جعلته يجعل بضاعتهم في رحالهم، منها:

- أنهم متى فتحوا المتاع فوجدوا بضاعتهم فيه علموا أن ذلك كان كرمًا من يوسف وسخاء محضًا فيبعثهم ذلك على العود إليه والحرص على معاملته.

- خاف عَلَيْهِ السَّلَامُ أن لا يكون عند أبيه من الورق ما يرجعون به مرة أخرى.

- أراد عَلَيْهِ السَّلَامُ به التوسعة على أبيه لأن الزمان كان زمان القحط.

- رأى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن أخذ ثمن الطعام من أبيه وإخوته - مع شدة حاجتهم إلى الطعام - لؤم.

قال الفراء: إنهم وضعوا تلك البضاعة في رحالهم على سبيل السهو، وهم أنبياء وأولاد أنبياء فرجعوا ليعرفوا السبب فيه، أو رجعوا ليردوا المال إلى مالكه.

- أراد عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يحسن إليهم على وجه لا يلحقهم به عيب ولا منة.

- مقصوده عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يعرفوا أنه لا يطلب ذلك الأخ لأجل الإيذاء والظلم ولا يطلب زيادة في الثمن.

(١) نظم الدرر، (٤/٦٨).

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣٠٤.

- أراد عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يعرف أبوه أنه أكرمهم وطلبه له لمزيد الإكرام فلا يثقل على أبيه إرسال أخيه.

- أراد عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يكون ذلك المال معونة لهم على شدة الزمان، وكان يخاف اللصوص من قطع الطريق، فوضع تلك الدراهم في رحالهم حتى تبقى محصنة إلى أن تصلوا إلى أبيهم.

- أراد عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يقابل مبالغتهم في الإساءة بمبالغته في الإحسان إليهم^(١).
وتدور هذه الأقوال والتعليقات في فعل يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ على معنيين:
الأول: الإحسان لوالده عَلَيْهِ السَّلَامُ وأهله.

الثاني: اضطرار إخوته للعود إليه إما طمعاً في كرمه أو لإعادة ما تركه لهم.
ونلاحظ أن هذا الإحسان من يوسف لأبيه وإخوته في غاية اللطف واللباقة وإحسان دون منّة ولا تكثّر... والإحسان دون منّة من أكبر الدلائل على صدق صاحبه وعلى صفاء خلقه^(٢)، وعندما عادوا إلى أبيهم أخبروه بما حدث لهم، وبادروا إلى مطالبة أن يرسل أخاهم معهم في المرة القادمة^(٣):

سادساً: قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف: ٦٣]:

تطوي الآية الزمن والمسافة وتسقط التفاصيل التي ليس وراءها فائدة وتنقلنا من مصر إلى فلسطين، ومن مواجهة يوسف إلى مواجهة يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(١) مفاتيح الغيب، (١٨/٤٧٩).

(٢) أخلاق الأنبياء، محمد درويش، ص ١٢٠.

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/٢٠٢).

١ - ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾:

- ﴿فَلَمَّا﴾: جاء بالفاء ليدل على التعقيب السريع، أي: ما إن وصلوا من السفر حتى رجعوا إلى أبيهم دون إبطاء.

- ﴿رَجَعُوا﴾: ليدل على التكرار في تلك الرحلة المكوكة بين يوسف وأبيهم.

- ﴿إِلَىٰ أَبِيهِمْ﴾: قاصدين إليه مباشرة.

- ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا﴾: قدموا لطلبهم بلفظ النداء التحبيبي^(١).

- ﴿مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾: حيل بينا وبين الكيل في المستقبل، لأن رجوعهم بالطعام المعبر عنه بالجهاز قرينته أن المنع من الكيل يقع في المستقبل أي منع منا ذلك، إلا إذا وفينا بما وعدنا من إحضار أخينا ولذلك صح تفريع: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا﴾ عليه، فصار تقدير الكلام: منعنا من أن نطلب الكيل إلا إذا حضر معنا أخونا. وجملة ﴿إِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾ عطف على جملة ﴿فَأَرْسِلْ﴾. وأكدوا حفظه بالجملة الإسمية الدالة على الثبات وبحرف التوكيد.

٢ - ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَّكَتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾:

- ﴿فَأَرْسِلْ﴾: الفاء للتعقيب السريع، أي: بادر وللسببية، أي: إن إرساله سبب في إزالة المنع، وجاؤوا بطلبهم على صيغة فعل الأمر "أرسل" للجزم والتأكيد.

- ﴿مَعَنَا آخَانًا نَّكَتَلْ﴾ أي: إن أرسلته معنا نكتل وإلا فلا، وإن إرسال أخيهما للكيل فحسب لا لسبب آخر، وقدموا (معنا) على (أخانا) للحصر والتأكيد على صيغة المعية الدائمة.

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٣٠٦.

- ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾: وإن اللام وصيغة الجمع واسم الفاعل كلها تفيد التأكيد وقدموا له المفعول على الفاعل؛ للحرص والاهتمام وزيادة التأكيد في الحفظ^(١).

ومن هنا يسأل يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام نفسه ويسأل من حوله من أبنائه وما العلاقة بين منع الكيل وإرسال أخيهام معهم؟ أهو مطلوب لعزیز مصر؟ وهل يعرف العزيز أخاهم هنا؟ ومن دله عليه؟ تساؤلات كثيرة عرف يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام جوابها فيما قصه عليه أبنائه مما كان بين العزيز وبينهم، وذكروا له كذلك ما أكرمهم به من حسن استقبال وطيب ضيافة... الخ.

ولكن كيف يقابلهم العزيز بكل هذا الإحسان والإكرام، ثم يتشترط عليهم إحضار أخ لهم من أبيهم ليحصلوا على الميرة في المستقبل، ويحكم عليهم ألا يقربوا مصر ولا يقربوه إلا ومعهم (أخوهم من أبيهم)، من يكون هذا العزيز الذي يصرّ على رؤية أخ لهم من أبيهم ليعرف صدقهم فيما أخبروه به؟

ولعل كل هذه التساؤلات وغيرها قد تواردت على فكر النبي يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام وهو يتلقى الخبر المزعج الذي تلقاه من أبنائه، وأنه لن يكال لهم حتى يأخذوا أخاهم معهم ويلاحظ في كلام إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام الصدق هذه المرة وهم يطلبون اصطحاب أخاهم معهم إلى مصر^(٢). وكانوا حريصين جادين في حفظه إلا أن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام يرفض طلبهم ويذكرهم بيوسف عَلَيْهِ السَّلَام وما فعلوه فيه.

(١) يوسف أيها الصديق، المصدر السابق، ص ٣٠٦.

(٢) يوسف وقصته العجيبة، ص ٣٧٧.

سابعاً: قال تعالى: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]:

مع أن إخوة يوسف أكدوا لأبيهم حفظهم لأخيهم فقالوا: ﴿إِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾، وأكدوا حفظهم بالجملة الاسمية الدالة على الثبات وبلاد التوكيد، إلا أن الكلمة فيما يبدو هيجت أشجان يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأعادت له ذكريات قديمة مريرة، إنها الكلمة نفسها التي قالوها يوم قالوا: ﴿أَرْسَلْهُ مَعَنَا غَدًا يَزْتَعِ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢]، ولقد أعادت إلى ذهن الأب الشفيق الشغوف صورة ابنه الحبيب يوسف، وعندها لم يمتلك يعقوب إلا أن قال:

١ - ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾:

كان جواب أبيهم حاضراً وفورياً إذ ما جرى منهم في أمر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من قبل لا يُنسى وألمه لا يخف والمؤمن لا يلدغ من جحر واحد مرتين، فرد عليهم باستفهام إنكاري تقييقي، أي: هل آمنكم عليه إلا كما آمنكم على يوسف من قبل، وقد أكدتم كما تؤكدون الآن أنكم إن أرسلته معكم فأنتم له حافظون، فضيغتموه وما حفظتموه البتة، فكيف أعيد الكرة^(١).

٢ - ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ﴾:

- ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا﴾: فإنه لا ثقة أبداً في حفظ أي مخلوق، ولكن الثقة كلها في حفظ الله القادر الحفيظ العليم.

- ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ﴾ بخلقه من كل مخلوق^(٢).

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٣٠٧.

(٢) يوسف وقصته العجيبة، ص ٣٧٩.

وهذه من الحقائق الإيمانية القرآنية الراسخة، ذكرها يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وأكد عليها، وتجب على كل مؤمن من أن يغرسها في قلبه، وتكون عقيدة راسخة وثابتة حقة، وأن يجعلها نصب عينيه في كل أمر وشأن^(١).

- ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا﴾:

قال ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: أي خير حفظًا منكم، فإن حفظه الله سلم، وإن لم يحفظه لم يسلم، كما لم يسلم أخوه من قبل حين أمتكم عليه^(٢).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا﴾ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿أي: هو أرحم الراحمين بي، وسير حم كبري وضعفي ووجدي بولدي، وأرجو من الله أن يردّه عليّ ويجمع شملتي به، إنه أرحم الراحمين^(٣)﴾.

وواضح من الآية الكريمة أن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ يعيش، وحفظ الله ليوسف بين جنبيه، وأن تأويله لرؤيا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ساكن في قلبه، وأن الله اجتباؤه وعلمه من تأويل الأحاديث، وسيتم نعمته عليه إلى آخره، لقد عاش يعقوب مع أسماء الله الحسنى وصفاته العلى وظهر أثر ذلك في حياته: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا﴾ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿.

٣- اسم الله (الحافظ):

ورد اسمه الحافظ في القرآن الكريم مرة واحدة بصيغة المفرد في قوله تعالى: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا﴾ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿[يوسف: ٦٤]. وورد مرتين بصيغة الجمع كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقوله تعالى: ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٢].

(١) يوسف وقصته العجيبة، ص ٣٧٩.

(٢) التحرير والتنوير، (١٣/٦).

(٣) تفسير ابن كثير، (١/٣٩٩).

وأما اسمه سبحانه ﴿الحفيظ﴾ فقد ورد في القرآن الكريم ثلاث مرات، وذلك:

- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِظٌ﴾ [هود: ٥٧].

- وقوله: ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِظٌ﴾ [سبا: ٢١].

- وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ

بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى: ٦].

وقال البيهقي: قال الحلبي: الحافظ هو الصائن عبده من أسباب التهلكة في أمور دينه ودنياه^(١).

- ﴿قَالَ اللَّهُ خَيْرَ حَفِظًا﴾: أي: إن الله حافظ لأبناء سيدنا يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام. ومن فوائد اسم الفاعل أنه حاضر الفعل الآن فإنه قد جاء اسم الله (الحافظ) على لسان نبي الله يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام معبراً عن وثوقه المطلق بحفظ الله لولديه يوسف وأخيه حفظاً حاضراً، فإذا خوطب المؤمن باسم الله (الحافظ) فكأنه يعاين الحفظ ويشاهده ولا يقدر على ذلك إلا المؤمن^(٢).

ومن آثار إيمان يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام باسم الله (الحافظ) والحفيظ، صدق التوكل على الله وحده والأخذ بأسباب حفظ الله وأعظمها توحيد الله سبحانه وإفراده بالعبادة وفعل ما يحبه الله واجتناب ما يسخطه، وحفظ الله تعالى في حرّماته ودينه وشرعه^(٣).

(١) الأسماء والصفات، ص ٦٩.

(٢) اللوامع البهية في شرح أسماء الله الحسنى، محمد مصطفى السوالمّة، دار النور المبين، الطبعة الأولى، ٢٠١٩م، (٢/٦٣٥).

(٣) والله الأسماء الحسنى، ص ٤٥٦.

٤ - ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾:

يعني أن رحمته سبحانه تتميز تمييزاً ظاهراً عن رحمة كل الراحمين، فالله رحيم وفي الناس رحيم: والأب رحيم ولكنه سبحانه أرحم الراحمين^(١). وإن اتصاف أرحم الراحمين بالرحمة حقيقة لم يلزم أن تكون رحمته من جنس رحمة المخلوق لمخلوق^(٢).

إن صفة الرحمة من الصفات الثابتة لله تعالى بالكتاب والسنة وهي صفة كمال لائقة بذاته سبحانه كسائر الصفات لا يجوز أن تنفيها أو تؤولها أو تحرفها أو تفوض معناها أو تكيفها كما هو مقرر في مذهب أهل السنة والجماعة.

بعد أن واجه يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أبناءه بقوله: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ٦٤]، تبين لإخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أن مواصلتهم الكلام مع أبيهم الآن بخصوص إرسال أخيه معهم لن تأتي إلا بالفرض، خاصة بعد أن واجههم صراحة لأول مرة واتهمهم بكيدهم لأخيه يوسف من قبل، وأنهم يريدون أن يعيدوا الكرة مع أخيه الشقيق مما أفحهمم وأبهتهم، فما كان منهم إلا أن أجلوا الحديث معه بهذا الخصوص حتى تأتي مناسبة أخرى تهئ لهم العودة إليه^(٣).

وبعد أن فتحوا أو عيبتهم وفوجئوا بوجود ثمن الطعام فيها، عادوا يطالبون أباهم بإرسال أخيه معهم محتجين بما وجدوا في أوعيتهم^(٤).

(١) من حديث يوسف وموسى، ص ١٥٧.

(٢) والله الأسماء الحسنی، ص ١٢٤.

(٣) يوسف وقصته العجيبة، ص ٣٧٩.

(٤) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٠٣).

ثامناً: قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بِصَلْعَتِهِمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بَصَلْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ [يوسف: ٦٥]:

١ - ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بِصَلْعَتِهِمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾:

- ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ﴾: هذا يؤكد أن حديثهم السابق مع أبيهم وطلبهم أن يرسل معهم أخاهم كان قبل إنزال وفتح رحالهم. والمتاع هنا يقصد به حوائجهم التي جعلوها في رحالهم من طعام ولباس وغيره.

- ﴿وَجَدُوا بِصَلْعَتِهِمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾: أي ووجدوا ما أخذوه معهم إلى مصر ثمناً للطعام والميرة قد رُدَّ إليهم كاملاً وجعل في رحالهم.

٢ - ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾:

لما ردت بضاعتهم إليهم تجددت عندهم الرغبة والحماس في تكرار طلبهم وكان هذه المرة ترغيباً خالصاً وابتدروه أيضاً بالنداء الجميل: ﴿يَا أَبَانَا﴾ وباستفهام تحريضي لحث أبيهم على إرسال أخيهام معهم، فقالوا ما نبغي؟^(١).

وقيل في ﴿مَا﴾ إنها استفهامية تعجبية، وقيل نافية. ويحتمل أن تكون موصولة بمعنى (الذي) فإذا كانت استفهامية فالمراد بيان كرم يوسف، أي: ما نريد فوق هذا الإحسان؟

وإن كانت نافية، فالمعنى: لا نريد شيئاً فوق هذا الإحسان. وإن كانت موصولة كان المعنى: يا أبانا هذا الذي نريد؛ أي: الأثمان المردودة. وعليه يكون الموصول مستأنفاً لكلام بعد النداء جديد وكل ذلك محتمل^(٢).

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٣١٠.

(٢) آيات للسائلين، ص ٢٦٩.

٣- ﴿هَذِهِ بَصَعَتُنَا رَدَّتْ إِلَيْنَا﴾:

هذا دليل مادي ملموس أمامك في أن الطلب ليس فيه أدنى شر أو منفعة للعزيز؛ إذ لو كان كذلك لآثر أن يؤذينا ونحن بين يديه على أمر غائب غير مؤكد ولأنقصنا الكيل، بدل أن يوفينا إياه ويرد إلينا الثمن^(١).

٤- ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾:

نحضر لهم ميرة وهي الطعام الذي يجلب إلى بلد^(٢).

٥- ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾:

من المخاطر والمكاهره.

٦- ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾:

زيادة حصة أخيهم الذي سيذهب معهم، وهذا دليل على أن الحصة كانت حمل بعير لكل شخص حاضر^(٣).

٧- ﴿ذَلِكَ كَيْلُ يَسِيرٍ﴾:

سهل على هذا العزيز المحسن لسخائه، أو المعنى قصير المدة ليس سبيل مثله أن تطول مدته بسبب الحبس والتأخير. أو المعنى: ذلك الذي يكال لنا دون أخينا

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٣١٠.

(٢) التفسير الموضوعي، (٢٠٣/٤).

(٣) يوسف أيها الصديق، ص ٣١٠.

شيء يسير قليل، فابعث أخانا معنا حتى نتسع ونتكثر بمكيه^(١). ووافق أخيراً نبي الله يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ على إرسال ولده الشقيق الأصغر ليوسف مع إخوته، بعد أن أخذ منهم ميثاقاً مؤكداً بالآيمان المغلظة على حمايته وحفظه^(٢).



(١) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٨، (٢٤٨-٢٤٩).

(٢) التفسير الموضوعي، (٢٠٢/٤).

المبحث الحادي عشر:

**أخذ يعقوب الميثاق على أبنائه وتوجيههم للتعامل مع
سنة الأخذ بالأسباب وحيلة يوسف في بقاء أخيه معه وفقد
يعقوب لأبنائه الثلاثة**

قال تعالى: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ
إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَبْنَى
لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ
شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا
مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ آبَاؤُهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ
قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى
يُوسُفَ ءَاوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا
جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذِنَ مُؤَدِّدٌ أَيْتُمَا الْعِيرُ لَكُمْ
لَسْرِقُوتَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَقَبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلَمَنْ جَاءَ
بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا
كُنَّا سَادِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي
رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ
اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ
إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ * قَالُوا
إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُّوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ
قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَا

شَيْخًا كَيْلًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ
تَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنَا عَنْدَهُ ۖ إِنَّا إِذَا لَطَلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا أَسْتَيْسُوا مِنْهُ خَلَصُوا
نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ ۖ وَمِنْ قَبْلُ
مَا فَرَطْتُمْ فِي يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَرْجِعَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي إِلَىٰ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ
﴿٨٠﴾ أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَبْنَائِ إِنَّا أَبْنَاكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا
وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا
وَأِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿يوسف: ٦٦-٨٢﴾.

تفسير الآيات:

أولاً: قوله تعالى: ﴿قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنِي
بِهِ ۖ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿يوسف: ٦٦﴾:

١ - ﴿قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ﴾:

قال لهم أبوهم وابتدأ الكلام بصيغة النص، ليدل على أن الأصل هو المنع، وأن
هذا المنع يتخلى ويتنازل عنه إذا ما استجابوا إلى شرطه. وفي هذا قوة في خطابه
بعكس ما ابتدأه بالموافقة كأنه يقول: أرسله معكم إذا آتيتموني الميثاق.

٢ - ﴿حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾:

حتى: أي إلى أن؛ وهي تحمل معنى الشرط.

- ﴿تُؤْتُونَ﴾: أي تعطوني، ولفظ الإتيان أقوى وأكد الألفاظ الدالة على الحضور
والمجيء والإعطاء: ﴿لَنْ أَرْسِلَهُ﴾ [النحل: ١] أي: حصل وأتى معه كل ما وعد به من
عطاء للكافرين بالعذاب وللمؤمنين بالسرور والنعيم^(١).

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٣١٤.

- ﴿مَوْثِقًا﴾: وهو العهد المؤكد.

- ﴿مَنْ أَلَّهِ﴾: أي الملك الأعظم بأيمان عظيمة^(١).

وكل ذلك زيادة في التوثيق لما حصل له من المصيبة بيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وإن كان الاعتماد في حفظه إنما هو على الله، وهذا من باب «اعقلها وتوكل» فأجابوه إلى جميع ما سأل^(٢).

- ﴿لَتَأْتُنَنِي بِهِ﴾: أكد على طلبه باللام للقسم، أو للتأكيد وبلفظ الإتيان نفسه، وبصيغة التشديد في الفعل، وجاء بصيغة الجمع ليكون، المطلب منهم أجمعين يتعاونوا عليه ولا يستثنى ولا يتخلف منهم أحد، وقال به لحصر الطلب فيه وحسب^(٣).

٣- ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾:

فيها أدب مع الله عَزَّجَلَّ وفيها معنى التواضع والتوحيد والعبودية ورغم حرصه عَلَيْهِ السَّلَامُ على اتخاذ الأسباب لئلا يسؤل الشيطان لأبنائه أن يكيدوا بأخيه كما فعلو بيوسف، إلا أنه ما نسي أن الأمر بيد الله تعالى أولاً وآخر^(٤).

- ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾: أي: إلا أن تغلبوا وتهلكون، فلا تقدرُوا على رده. وأصله من إحاطة العدو، فإن من أحاط به العدو فقد هلك غالباً^(٥).

(١) نظم الدرر، (٤/ ٧٠).

(٢) نظم الدرر، المصدر السابق، (٤/ ٧٠).

(٣) يوسف أيها الصديق، ص ٣١٤.

(٤) آيات للسائلين، ص ٢٧٠.

(٥) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٠٥)، روح المعاني، (٥/ ١٤).

والإحاطة: هي أن يكون الشيء محاطاً به من جميع الجهات لا ثغرة فيه أبداً، وهو استثناء منقطع. وقد استثنى لهم أبوهم هذا رحمةً ورأفةً لهم؛ إذ لو لم يستثن لهم من العهد المؤكد والميثاق المغلظ أن يهلكوا جميعاً دون أخيهم إن أحيط بهم بأمر غالب قاهر لا يستطيعون فيه حيلة. وهو أيضاً من التعاليم الإيمانية التي يؤمن بها ويريد أن يربي أبناءه عليها، إذ ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

ولاحظ حرص يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ على ولده رغم أنه الآن صار رجلاً، ولاحظ أيضاً أن خوف يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ من إخوته لا يزال قائماً وأنه مع هذا وذاك يعلم أن العهد والميثاق لا يزال هل في قلوب أولاده حرمة، وأن العهد من الله والموثق من الله لا يزال في قلوبهم قادراً على كف وكبح أهوائهم ونوازع الشر فيهم ثم لاحظ تأكيد ﴿لَتَأْتُنِي بِهِ﴾، وأنها جواب القسم الذي هو الموثق من الله. ومعنى ﴿يُحَاطُ بِكُمْ﴾ من أحاط به العدو إذا غلبه وأهلكه أو كاد. وهذه هي الحالة الوحيدة التي تكونون في حل من الميثاق إذا لم تأتوا به^(١).

٤ - ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْتَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦]:

لصدقهم وصحة قصدهم آتوه ميثاق الله على ذلك. وإنما عبر بالإتيان المشعر بأخذ ورد؛ لأنه من جنس التوثيق العينية التي تؤخذ وترد، بل هو عند أهل الإيمان أبلغ^(٢).

- ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْتَهُمْ﴾: وكأن الذي يعاهدك ويوثقك إنما أتاك بيده عهد الله، وميثاق الله، فإن غدر فهو لم يغدر بك، وإنما غدر بعهد الله الذي أعطاه بيده،

(١) من حديث يوسف وموسى، ص ١٥٧.

(٢) آيات للسائلين، ص ٢٧٠.

وبميثاق الله الذي أعطاه بيده، ومن غدر بعهد الله وميثاقه لا ينتظر منه خيراً إلا جاهل غبي أحرق، لأن من غدر بعهد الله وميثاقه لم يبق في نفسه شيء من الخير^(١).

- ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْتَهُمْ﴾؛ على قوة في الاستجابة نابعة عن عزم صادق في تلك اللحظة^(٢).

- ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾: رقيب وحاضر وشاهد على العهد والميثاق، وناهيك عن عهد شهد الله عليه^(٣).

﴿قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾: الله شاهد على ما نقول وحفيظ عليه، وهو الذي سيحاسبكم ويجازيكم إذا كنتم تريدون الوفاء أو العذر^(٤).

٥- اسم الله (الوكيل):

يأتي اسمه سبحانه (الوكيل) بمعنى الوكيل العام على جميع خلقه، وذلك لأنه خالقهم ومدبر أمرهم والمتكفل بأرزاقهم وحاجاتهم ومحياتهم ومماتهم، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

وورد اسمه الوكيل في القرآن الكريم أربع عشرة مرة، ومن ذلك:

- قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١].

(١) من حديث يوسف وموسى، ص ١٥٨.

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣١٥.

(٣) من حديث الرسل، ص ١٣٨.

(٤) دعوة الرسل، العدوي، ص ١٣٩.

- وقوله: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].
يقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ عن اسم الله الوكيل: هو المتولي بتدبير خلقه بعلمه وكمال قدرته على تدبيرها وكمال تدبيره، وكمال حكمته التي يضع بها الأشياء مواضعها^(١).

ولم ينس يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: أن يزود أولاده بوصاياهم عندما أرادوا السفر^(٢)، فقال لهم:

ثانياً: ﴿وَقَالَ يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَأَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أُلْحَقَ إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧]:

١ - ﴿وَقَالَ يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾:

- ﴿وَقَالَ يَبْنَى﴾: ناداهم ببناء التحبب والقرب جذباً لأنفسهم ليسمعوا، وقوة في التأثير على أفئدتهم لينصتوا^(٣).

- ﴿يَبْنَى﴾ تدل على الحنان الفائق لكل بنيه.

- ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾: أي وأنتم ذاهبون لمقابلة العزيز، أخذاً في الأسباب والحيطة والحذر ودفع الضرر، فهو يريد أن يدفع عنهم حسد الحاسدين وكيد الكائدين وظنون الظالمين^(٤).

(١) والله الأسماء الحسنى، ص ٤٧٧.

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٠٥).

(٣) يوسف أيها الصديق، ص ٣١٧.

(٤) سورة يوسف، القره داغي، ص ١٦٦.

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: وإنما نهاهم أن يدخلوها من باب واحد، خشية أن يسترعي عددهم أبصار أهل المدينة وحراسها، وأزياءهم بأزياء الغرباء عن أهل المدينة أن يوجسوا منهم خيفة من تجسس أو سرقة فربما سجنوهم أو رصدوا الأعين إليهم فيكون ذلك ضرراً لهم وحائلاً دون سرعة وصولهم إلى يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ودون قضاء حاجتهم. وقد قيل في الحكمة: استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان^(١).

٢- ﴿وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾:

توزّعوا على الأبواب بحيث تدخل كل مجموعة من باب، فكأنه خشي عليهم من أعين الحساد ومكرهم بسبب ما كان لهم من الهيئات الحسنة والأبهة والجمال فحذرهم ألا يدخلوا جميعاً من باب واحد عند وصولهم إلى مركز التوزيع، وأوصاهم أن يدخلوا أفراداً من أبواب متفرقة^(٢).

٣- ﴿وَمَا أَعْنِي عَنْكُمْ مِنَ شَيْءٍ﴾:

لما أوصيتكم بهذه الوصية وطلبت منكم الدخول من أبواب متفرقة، فلا يعني هذا أنني أدفع قدر الله وأمره، وإنما أخذتُ بالأسباب المادية، وقمتُ بالحوذر المطلوب، لكن أخذي بالأسباب لا يوقف قدر الله، فإن الله إن قدر وقوع الأذى والضرر بكم، فلا بد أن يقع رغم تحذيركم واحتياطكم ودخولكم من أبواب متفرقة^(٣).

إنَّ يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ بَيَّنَّ لأولاده بأن وصيته لهم لا تدفع عنهم شيئاً أرادَه الله، وإنما وصيته لهم على مقدار ما تهتدى إليه العقول السليمة والفطر المستقيمة، وأنه يفعل ذلك، وهو واثق أن الحكم لله، وأنه متوكل عليه.

(١) التحرير والتنوير، (١٦/٦).

(٢) التفسير الموضوعي، (٢٠٥/٤).

(٣) القصص القرآني، (١٩٦/٢).

وهذا فهم عظيم لعقيدة القضاء والقدر، فعلى المؤمن أن يأخذ كل طريق للسلامة، والغنيمة والإيابة ثم يترك الأمر لله، وإن كل الاحتياطات لا تتنافى مع أي شيء من التوكل. وإن التوكل لا يعني إلغاء شيء أي شيء من الاحتياطات، وإن المسلم يأخذ حذره، وكأنه غير متوكل ثم يتوكل وكأنه لم يأخذ حذره^(١).

﴿وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾: إشارة إلى عدم الالتفاف إلى الأسباب بل إلى التوحيد المحض والبراء من كل شيء سوى الله تعالى.

إن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ يُعَلِّمُ أولاده الاعتماد على توفيق الله تعالى ولطفه مع الأخذ بالأسباب المعتادة الظاهرة تأدباً مع واضع الأسباب، ومقدّر الألفاف في رعاية الحالين؛ لأننا لا نستطيع أن نطلع على مراد الله تعالى في الأعمال، فعلياً أن نتعرفها بعلاقتها ولا يكون ذلك إلا بالسعي لها ويبقى في النهاية أمر الله نافذ على عباده. وبعد أن نفى يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يغني عنهم شيئاً يعني بوصيته علل ذلك بقوله^(٢):

٤ - ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾:

إنه لا يتم إلا ما أَرَادَهُ الله تعالى فما القضاء والحكم إلا لله دون ما سواه فإنه يحكم في خلقه بما يشاء فينفذ فيهم حكمه ولا يرد قضاؤه. فالحق أن العبد يجب عليه أن يسعى بأقصى الجهد والقدرة وبعد ذلك السعي البليغ والجهد الجهد، فإنه يعلم أن كل ما يدخل في الوجود لا بد وأن يكون بقضاء الله ومشيئته وسابق حكمته^(٣). ولقد وردت عبارة ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ مرتين في قصة يوسف وهي في كل مرة واردة في سياق خاص.

(١) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص ١٥٩.

(٢) يوسف وقصته العجيبة، ص ٣٨٨.

(٣) يوسف وقصته العجيبة، ص ٣٨٩.

المرة الأولى: قالها يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ للسجينين معه في السجن لما دعاهم إلى توحيد الله والإيمان به وإفراده بالعبادة: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقِيَمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠]؛ لقد وردت هذه العبارة في سياق الخضوع لحكم الله وأمره وشريعته أي أنه لا حاكم إلا الله وهو الذي يحكم ويشرع ويحلل ويحرم وما على العباد إلا تنفيذ حكم الله والالتزام بشريعته ليحققوا العبادة والعبودية لله ويكونوا على الدين القيم والحق.

أما المرة الثانية: قالها يعقوب لأبنائه وهو يطالبهم بالاحذر والأخذ بالأسباب: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧]؛ وردت هذه العبارة هنا في سياق الرضا بقدر الله والاستسلام لقضائه والإيمان بأن كل ما يصيب الإنسان فهو من الله سواء كان هذا ضرراً أو نفعاً إن ما أراد الله فهو كائن وما قدره فهو واقع ومهما أخذ الإنسان من أسباب الحيلة والاحذر فلن يدفع عنه قدر الله فالأمر أمر الله والقضاء قضاءه والحكم حكمه، وكأن يعقوب يقول لأبنائه: أنا مؤمنٌ بقدر الله راضٍ بقضائه مستسلمٌ لحكمه متوكلٌ عليه.

- الحكم التشريعي لله كما قرره يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ.

- الحكم القدري لله كما قرره أبوه يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ^(١).

هـ- ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧]:

إن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ يُعطينا درساً بأن التوكل على الله يجب أن يصاحبه الأخذ بالأسباب والحيلة والاحذر من الأضرار^(٢)، فالتوكل لا يمنع الأخذ بالأسباب والوقاية والاحذر^(٣).

(١) القصص القرآني، (٢/ ١٩٧).

(٢) سورة يوسف، ص ١٦٧.

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٠٧).

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾: في موضع البيان لجُمْلَةٍ ﴿وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾؛ لِيُبينَ لَهُمْ أَنَّ وصيته بأخذ الأسباب مع التنبيه على الاعتماد على الله، هو معنى التوكل الذي يضل في فهمه كثير من الناس اقتصاراً وإنكاراً، ولذلك أتى بجُمْلَةٍ: ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أمراً لَهُمْ ولغيرهم على معنى إنه واجب كل مؤمن كامل الإيمان لا يخلط إيمانه بأخطاء الجاهليات^(١).

وقال محمد العدوي رَحِمَهُ اللهُ: ذلك معنى التوكل وهو أن تأخذ في الأسباب بقدر استطاعتك ثم ترجع إليه وتفوض أمورك إليه فيما وراء الأسباب التي تعلمها، وليس التوكل كما يفهمه العامة هو التواكل وهو أن تدع الأسباب ثم ترجع إلى الله تعالى ليوصلك إلى المسببات، فإن ذلك حمق وسفه. فالذي يدع العمل للرزق ثم يطلبه من الله ويزعم أنه متوكل عليه، كاذب في دعواه، والذي لا يطلب العلم من طريقه المألوف وهو التعلم، ثم يطلبه من الله لأنه متوكل عليه، كاذب كذلك في توكله، لأن طريق العلم هو التعليم والذي يرمي بنفسه في أحضان المرضى بدون أن يأخذ لنفسه الحيطة والوقاية من العدوى زاعماً أنه متوكل على الله هو جاهل معنى التوكل. والمرأة التي تدع طعامها مكشوفاً معرضاً للأفاعي والحشرات ثم تدعي أنها متوكله على الله كاذبة في دعواها. والأمثلة في ذلك كثيرة وهي كلها ترجع إلى الطمع في النتائج بدون مقدمات والغايات بدون وسائل، وهو طمع مذموم، وتصلح كاذب وإنما الصلاح الصحيح هو الذي يتفق وسنة الله في ربط الأسباب بمسبباتها^(٢).

(١) التحرير والتقريب، (١٨/٦).

(٢) دعوة الرسل، ص ١٣٩-١٤٠.

٦- العين والحسد:

إن عين الحاسد لها تأثير سلبي ضارّ بالمحسود بتقدير الله، أثبتته النصوص القطعية وشواهد الواقع الكثيرة المحسوسة، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ۖ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [القلم: ٥١، ٥٢]. وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «العين حق»^(١)، وقال أيضاً: «العين حق ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا»^(٢). وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كان يؤمر العائن فيتوضأ ويغسل منه العين^(٣). وقالت أيضاً: كان إذا اشتكى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رقاها جبريل قال: «بسم الله يبريك من كل داء يشفيك ومن حاسد إذا حسد ومن شر كل ذي عين»^(٤).

فثمة جانب خفي في الإنسان يتأثر ويؤثر، ولقد دأبت سورة يوسف على إثباته، فالرؤيا تدل على وجوده، كما مر معنا، فهي تدل على تأثره بما يلقي إليه من خارج الإنسان، والوحي وعلومه يؤكد ويحمله ويجعله حقيقة ملموسة، والعين الحاسدة تدل أيضاً على إمكانية تأثر الإنسان في غيره بمشيئة الله تعالى وتقديره^(٥).

وقد علمنا الله عَزَّ وَجَلَّ أن نستعين به سبحانه من الحسد لأنه سبحانه قد علم ألا أن الحسد أمر فوق طاقة دفع البشر له وهو القائل: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ١-٥].

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٠٥)؛ البخاري رقم ٥٧٤٠.

(٢) رواه مسلم رقم ٢١٨٨.

(٣) رواه أبو داود، رقم ٣٨٨٠؛ مستند أحمد (٣/ ٤٤٧).

(٤) رواه مسلم، ٢١٨٥.

(٥) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٠٦).

قال الشيخ الشعراوي رَحِمَهُ اللهُ: وفي أمر الحسد أنت لا تستطيع أن تستعيز بواحد مساوٍ لك؛ لأن الحسد يأتي من مجهول غير مدرك، فالشعاع الخارج من العين قد يتأجج بالحق على كل ذي نعمة، وإذا كان عصرنا وهو عصر الارتقاءات المادية قد توصل إلى استخدام الإشعاع في تفتيت الأشياء، إذن: فمن الممكن أن يكون الحسد مثل تلك الإشعاعات والتي قد يجعلها الله في عيون بعض خلقه وتكون النظرة مثل السهم النافذ، أو الرصاصة الفتاكة^(١). ويمكن للعبد أن يستعيز بالله خالق البشر وخالق الأسرار ويتحصن بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْقَلْقِ﴾ [الفلق: ١].

وأن تقول كلمات رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين كان يعوذ الحسن والحسين رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ويقول: «أعيزكما بكلمات الله التامة ومن كل شيطان وهامة^(٢)، ومن كل عين لامة^(٣)».

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كان أبوكما - إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ - يعوذ بها إسماعيل ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ»^(٤). كما أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا حزبه أمر قام وصلى^(٥). وهنا على الإنسان أن يأوي إلى الله فهو الركن الشديد بعد أن أخذت أنت بالأسباب الممدودة لك من يد الله، وبذلك يكون ذهابك إلى الحق هو ذهاب المضطر لا ذهاب الكسول عن الأخذ بالأسباب، والحق سبحانه تعالى يقول: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِقَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

(١) تفسير الشعراوي، (١١/٧٠١٨).

(٢) الهامة: مفرد هوام وهي الحيات والعقارب.

(٣) الهامة: هي كل ما له سم، وقيل: إن الهوام حشرات الأرض. والعين اللامة: هي العين التي تصيب بالسوء وتلحق الضرر بمن تنظره.

(٤) تفسير الشعراوي، (١١/٧٠١٨).

(٥) سنن الترمذي، رقم ٢٠٦٠، حسن صحيح.

وإن المضطر هو من استنفذ كل أسبابه ولم يدع ربه إلا بعد أن أخذ بكل الأسباب الممدودة فلا تطلب من ذات الله قبل أن تأخذ ما قدمه لك - بيده سبحانه - من أسباب^(١). وهنا في الآية: تجد يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وقد أوصى أبناءه ألا يدخلوا مصر من باب واحد بل من أبواب متفرقة خشية الحسد وتنبهت قيضة الإيمان بما يقتضيه من تسليم لمشية الله ﴿وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: لست أغني عنكم بحذري هذا من قدر الله فهو مجرد حرص أما النفع من ذلك الحرص والتدبير فهو أمر الله فكل الخلق أمرهم راجع إلى الله وعليه يعتمد يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وعليه يعتمد كل مؤمن^(٢).

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: واجب على كل مسلم أعجبه شيء.. أن يقول: تبارك الله أحسن الخالقين، اللهم بارك فيه^(٣). وهذا، وقد نفذ أبناء يعقوب ما أمرهم به أبوهم، يقول سبحانه:

ثالثاً: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٦٨]:

ولما وصاهم أبوهم عَلَيْهِ السَّلَامُ في الآية السابقة بما وصاهم به فكأنه قيل: فهل نفذوا وصية أبيهم؟ فقيل: نعم لقوله تعالى:

١ - ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾:

أول ما تراه في الآية تنفيذ الأبناء لوصية أبيهم وكلمة ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾ كلمةٌ جليلة وكأنهم بحثوا في المداخل عن المداخل التي إذا دخلوا منها

(١) تفسير الشعراوي، (١١/٧٠١٨).

(٢) تفسير الشعراوي، المصدر السابق، (١١/٧-١٨).

(٣) التدبر والبيان في تفسير القرآن، (١٦/٢٦٠).

كانوا داخلين من المكان الذي أمرهم أبوهم بالدخول منه، ويعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يحدد مكاناً بعينه وإنما ذكر أوصافاً واجتهد أبناؤه في أن يكون المكان الذي يدخلون منه أقرب إلى ما وصف^(١).

٢- ﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾:

لما قال يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [يوسف: ٦٧] صدقه الله تعالى في ذلك جل شأنه فقال: ﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾^(٢)، أي: أن هذا الفعل لم يكن ليكفيهم أي شيء أمام أمر الله النافذ^(٣).

٣- ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾:

هي شفقتة عليهم والأخذ بالأسباب مع التوكل على الله تعالى^(٤).

قال الدكتور محمد محمد أبو موسى: قال ﴿حَاجَةً﴾ في نفس يعقوب ولم يبين لنا ما هي. وقوله: ﴿قَضَاهَا﴾ تعني الوصية التي أوصى بها بنيه وليست الحاجة، وإنما الحاجة هي الشيء الذي جعله يوصي أبناءه بهذه الوصية. ثم بين سبحانه أن يعقوب ذو علم للذي علمناه؛ وهذا يدل على أن هذه الحاجة هي من العلم الذي علمه الله. وقوله سبحانه ﴿حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ﴾ سار في الناس سير المثل كما سار قول يوسف لصاحبيه: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١]، سار أيضاً سير المثل. ولما لم يبين لنا القرآن هذه الحاجة وإنما فتح لنا باب معرفتها لما قال: ﴿وَأَنَّهُ لَدُوْ عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ [يوسف: ٦٨] اجتهد أهل العلم في بيانها

(١) من حديث يوسف وموسى، ص ١٦٠.

(٢) يوسف وقصته العجيبة، ص ٣٩٠.

(٣) يوسف أيها الصديق، د. السقا، ص ٣٢٣.

(٤) يوسف وقصته العجيبة، ص ٣٩٠.

فذكروا أن قوله لبنيه: ﴿يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾، كان لخوفه عليهم من الحسد وأوصاهم بذلك ثم قال لهم: ﴿وَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [يوسف: ٦٧]، وأن العلم الذي علمه الله يعقوب من هذا الباب أن تحافظ وتحتاط في كل وجه ولا تبقي شيئاً يمكن أن يدخل عليك منه من الضرر، ثم تتوكل التوكل الذي ليس فوقه توكل، وهذا هو الذي لخصه علماؤنا في كلمتين ليس وراءهما شيء وهو قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ» تتناقلها ألسنتنا من لسان سيدنا (صلوات الله وسلامه عليه) (١)؟

إن الحاجة التي كانت في نفس يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ هي درس تعليمي تربوي تطبيقي لأبنائه بحقيقة التوكل بالقيام باتخاذ الأسباب السليمة اللازمة مع الاعتقاد الجازم بأن الفاعلية المطلقة هي لله وحده بهذا السبب أو ذاك أو بلا سبب البتة: ﴿وَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].

هذه الحكمة في هذا العلم هي الحاجة التي كانت في نفس يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، قضائها لأبنائه بأن علمهم، وبلغهم إياها كما تبلغها وحيًا من الله سبحانه، وهي حقيقة إيمانية ثابتة جاء بها كل نبي وأساس من أسس الدين والتكليف والحساب وسنة من سنن الله العامة، والأمثلة عليها كثيرة لا تحصى. وقصة نبي الله نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ببناء الفلك سبب، والركون إلى الرحمن الرحيم فاعلاً في السبب، ومنجياً من الغرق خير دليل على ذلك. ورحلة هجرة المصطفى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ شاهد تطبيقي عملي ودليل وأسوة حسنة على هذا (٢).

(١) من حديث يوسف وموسى، ص ١٦١.

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣٢٠.

ومن حقائق التوكل الحق، الدعاء الحق الذي يأتي بعد القيام بالعمل واتخاذ الأسباب المستطاعة، فالدعاء من غير أن يُرفق بعمل مستطاع هو نوع من التواكل أيضاً. وفي بدر قام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو ربه بعد أن أقام خطة الحرب وأقام المقاتلين في أماكنهم، إذ هو على يقين بأن الله هو الفاعل المختار وهو الحي القيوم وهو الفعال لما يريد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى^(١).

٤ - ﴿وَاتَّخَذَ لَدُوِّهِ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾:

أي: إن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لصاحب علم بسبب تعليم الله له ومن علمه الذي علمه له أن يأخذ في الأسباب ويعتقد بعد ذلك أن احتياط العبد لا يغير شيئاً في قضاء الله تعالى، إذا كان قد سبق في علمه شيء وراء ما قدر العبد ودبر وذلك هو التوكل الصحيح^(٢).

٥ - ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾:

كُرِّرَتْ هنا مع يعقوب كما ذكرت من قبل مع يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ للتأكيد على معانيها العامة، وجاءت هنا في هذه المناسبة لتخص معنى علم حقيقة التوكل في أن كثيراً من الناس لا يعلمون علم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ عن حقيقة التوكل الحق فهم:

أ- إما غارقون في الأسباب مؤلهون لها معتقدون بالفاعلية في ذاتها غافلون عن قيومية الله المطلقة في الوجود وعلى كل نفس بما كسبت.

- ﴿لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

- ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَابِئُ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣].

(١) يوسف أيها الصديق، المصدر السابق، ص ٣٢١.

(٢) دعوة الرسل، ص ١٤٠-١٤١.

ب- وإما الغافلون عنها تاركون أمر الله لهم باتخاذ أحسنها، وهؤلاء هم المتواكلون وكل منهم لا يعلم التوكل الحق وهم مع الأسف أكثرية الناس.

- ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾:

لأن أكثرهم لا يؤمنون ولأن أكثرهم لا يشكرون والعكس صحيح فالعلم والشكر والإيمان سلسلة وحلقة دائرية كاملة، كل حلقة تؤدي إلى الأخرى في جميع الاتجاهات ومن أي منها انطلقت فالإيمان يدعو إلى العلم والعكس صحيح: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبَكُمُ وَلَمْ يَكُن لَكُمْ﴾ [محمد: ١٩]، فالتوحيد رأس وذروة سنام الإيمان يتقدمه العلم والعلم يثمر الشكر وهكذا، فإن ﴿أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: كسلاً أو تقصيراً (غفلة) أو توجهاً خاطئاً (جحوداً وعدم شكر) أو صداً (كفراً) عن تعلم العلم الحق النافع، وعلى رأسه العلم الذي علمه الله لآدم ولأنبيائه، وأمرهم بتعليمه وتبليغه للناس، فبلغوه كما تبلغوه، وجعل الله العلماء ورثة الأنبياء جيلاً بعد جيل، فالعلم الحق هو الموصول بالله الحق والمستمد منه، فإن لم يكن كذلك فهو إما علم غير نافع أو علم ضار (علم شيطاني)^(١).

رابعاً- قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۚ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۖ﴾ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسِرْقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَآجِنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ۚ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ [يوسف: ٦٩-٧٥]:

١- قال تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبَتِّسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: ٦٩]:

هذا المشهد الثاني من مجيء إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ودخولهم عليه:

أ- ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾:

- (ولما) حرف شرط، وفعل الشرط هو ﴿دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾ وجواب الشرط هو ﴿ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾^(١).

- ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾ أي: من بعد أن دخلوا من أبواب متفرقة كما أمرهم أبوهم، وكالعادة بكل إيجاز ودقة بليغة وإشراك السامع في فهم ما انتهى إليه الكلام^(٢).

ب- ﴿ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾:

استطاع يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أن ينفرد بأخيه ويضمه إليه وينزله عنده ويصرّح له بسرّه وأمره وترك ذكر تفاصيل الكيفية لأنها غير أساسي^(٣).

ج- ﴿قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾:

كان أول كلامه إليه أن ابتدر بتعريف نفسه وتبيان له أمره، كي يطمئن له وتسكن إليه نفسه ويتصرف بعد ذلك فيما سيفعله يوسف عن رضا وقبول من غير فرع ولا جزع بلفظ (إني) للتأكيد و (أنا) للاختصاص والاهتمام و(أخوك) لما للفظ من معاني الأخوة التي تحمل المودة والقربى والعطف والمحبة، ولم يقل أنا يوسف

(١) القصص القرآن، (٢/ ٢٠٠).

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣٢٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٢٦.

بل جاء بأجمل وأرق لفظٍ مع كاف الخطاب لتنفيذ الالتصاق والاختصاص، والتسمية تحصيل حاصر لأن بنيامين يعلم أن لا أخ له غائب غير يوسف الذي افتقد منذ نعومة أظفاره والذي لا يفتأ أبوه يذكره بالأسى واللوعة على فراقه وأمل لقائه^(١).

وإسرار يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لأخيه بأنه أخوه دليل على جواز التناجي للمصلحة وقد كان غرض يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ تهيئة أخيه لما سيحدث فيستعد لذلك نفسياً ولئلا يتأذى بتوجيه التهمة له وهو يعلم أنه بريء وكل ذلك دليل على لطف يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وحكمته ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

د- ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾:

جملة جليلة في معناها وجليلة في موقعها:

أما جلال معناها، فإنه لم يقل له: "فلا تحزن" مثلاً، بل قال: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾، من البؤس، وهو أشد درجات الحزن، ويجمع بين الشدة، والحسرة، والألم، والأسى. ومن ثم جاء الفعل بصيغة "الافتعال"، وهي صيغة تفيد الكثرة والمبالغة، فكأنه قال له: لا تستغرق في الحسرة، ولا تغرق في عمق الألم. ثم إنه لم يقل: "فلا تبتئس بما عملوا"، بل قال: ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. فاختار الفعل المضارع للدلالة على استمرار هذا الفعل وتجدد أذاه في النفس، وكأن أخاه ما زال يراه، ويتألم منه. وهذا هو جلالها في مبناها ومعناها. وأما جلالها في موقعها، فهو فيض من التسامح، ينبع من قلب يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ. فلما التقى بأخيه، الذي كان مفعماً بالحزن، متألماً من سلوك إخوته بعد مضي عقدين أو يزيد، لم يكن أول ما قاله له بعد أن عرفه بنفسه إلا بمثابة:

(١) يوسف أيها الصديق، المصدر السابق، ص ٣٢٧.

"اغسل قلبك، ونقّ روحك من كل ما لقيت من سوء منهم ومني، كأنك لم تر من أحد من أهلك شرّاً قط"... بالله، ما أكرم هذا الإنسان المخلص المجتبي! وما أعظم إحسانه!

وحقاً، لقد أوتي شطر الحسن في الخلق والخلق، وكان في خلقه من الخير والبقاء ما لا يزول. وأجمل القرآن الكريم في هذه الآية بعضاً من محاسن أخلاق يوسف فقد آوى إليه أخاه وعرفه بنفسه ونصح له وتجاوز عن ذكر ما دار بينهما من حديث ومكاشفة ومشاعر وذكريات وأسى وأحزان أدباً رفيعاً بعدم ذكر الإخوة - رغم ما فعلوه - بسوء وعدم رغبة يوسف بالتصريح بذلك والتشهير بهم^(١).



(١) يوسف أيها الصديق، ص ٣٢٧.

المبحث الثاني عشر:

اشتداد البلاء على يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام وصبره العظيم وثقته المطلقة بالله تعالى وعفو يوسف على إخوته

قال تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّاتْ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ٨٣﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَفُ عَلَى يُونُسَ وَأَبَيْضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوْا تَذْكُرُ يُونُسَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٨٦﴾ يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُونُسَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَتَّيِّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّةٍ فَأَوْفَ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُونُسَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ٨٩﴾ قَالُوا أَيْنَكَ لَأَنَّتْ يُونُسَ قَالَ أَنَا يُونُسَ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ٩٢﴾ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ٩٣﴾

[يوسف: ٨٣-٩٣]

تفسير الآيات الكريمة:

أولاً: قال تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّاتْ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ٨٣﴾ [يوسف: ٨٣]

استمع يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبنائه بإنصاف، ولم يقاطعهم، ولم يرفع صوته، بل انتظر فراغهم، ثم قال كلمة هادئة تنم عن صبر جميل، وعقل رجيح يحسن وزن الأمور وتقديرها، يرى الحق حقاً باديًا ساطعاً، وإن التبس على كثير من الناس^(١).

١ - ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾:

فقوله: ﴿بَلْ﴾ إضراب عن كلامه تقديره: ليس الحق كما ذكرتم، ولا يلزم ذلك رميهم بصريح كذب وتهمة، فلو كان ذلك كذلك لما أمرهم - وهم الكاذبون عنده المتهمون بالجرم - أن يذهبوا ويتحسسوا من يوسف وأخيه، فلعل مراده: جانبتم الحقيقة وقد زينت لكم أنفسكم حمل أخيكم نحو أرض مصر، أو صواب ما ذكرتم، وعلى كلا التقديرين فقد أصاب ذلك كبد الحقيقة، فأنفسهم تمكن سوء الظن منها فظنت سوءاً بالأخ دون تريث أو محاولة للدفاع ورد التهمة، بل أثبتت التهمة أولاً، وإن اجتهدوا في خلاصه منها فيما بعد، مع تقريرهم لوقوعه فيها، فترتب على ذلك الظن الفاسد الذي قبلته أنفسهم ما اعتقدوه من الذي قالوه^(٢).

وذهب آخرون من العلماء إلى أن هذا تكذيب لهم وتهمة بالتأمر على أخيه، حتى قال بعض أهل العلم: ينبغي لأهل الرأي أن يتهموا رأيهم عند ظن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو نبي حين قال له بنوه: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْلَعِنَا فَآكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧].

قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] فأصاب هنا، ثم قالوا له: ﴿إِنَّ أَبْنَاكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَفِظِينَ﴾، فقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ

(١) آيات للسائلين، ص ٣١٤.

(٢) آيات للسائلين، ص ٣١٤.

عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ فلم يصب^(١). والأظهر أنه أصاب، فهل سرق بنيامين؟ بل زينت لهم أنفسهم ذلك الأمر فقبلوه، بدليل قوله لهم بعد ذلك: ﴿يَبْنَئِ أَدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْكُسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِيَنَّكَ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ وليست تلك وصية يكلف بها المكذبون المتهمون فالأولى هو ما ذكرناه^(٢).

﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾: ليس الأمر كما تقولون فإن ابني لم يسرق، بل زينت لكم أنفسكم أمراً، وهواكم الفاسد غير ذلك، كما زينته لكم من قبل إذ قلتم في يوسف: إن الذئب قد أكله وجئتم على قميصه بدم كذب^(٣).

٢- ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾:

ويعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ مدرسة كبيرة في الصبر الجميل وهو الصبر الذي ليس معه تأفف، وقد ذكر الله الصبر الجميل والصفح الجميل، والهجر الجميل.

فالصبر الجميل الذي ليس فيه جزع ولا شكوى إلى المخلوق.

والهجر الجميل: الذي ليس فيه أذى^(٤).

والصفح الجميل: الذي ليس فيه عتاب^(٥).

وفي البلاء الأول عند كيدهم ليوسف عقب بقوله: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ وفي هذا قال:

(١) تفسير القرطبي، (٩/ ١٢٩).

(٢) آيات للسائلين، ص ٣١٥.

(٣) يوسف أيها الصديق، ص ٣٦٢.

(٤) يوسف أيها الصديق، المصدر السابق، ص ٣٦٣.

(٥) المصدر نفسه، ص ٣٦٣.

٣- ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾:

لما فيه من بلوغ الشدة مداها، ورجائه بفرجها. ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦]؛ وواضح من الآية الكريمة حسن ظنه بالله وإحسانه وفراسته بقرب وعد الله باللقاء^(١).

- ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾: عسى إذا كانت من الله فهي مؤكدة محققة وإذا كانت إلى الله من عبد مخلص صادق فهي رجاء التحقيق بإذن الله تعالى.

- ﴿أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ﴾: أي ثلاثتهم. ﴿جَمِيعًا﴾ ليس على معنى الجمع العددي فقد دل عليه ﴿بِهِمْ﴾ ولكن على معنى الجمع الصفاتي في الزمان والمكان أي: مجتمعين مع بعض غير متفرقين. وهذا من دقة الأداء القرآني في البيان والتنبؤ بما يكون عليه الحال^(٢).

- ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾: يوسف وأخوه وكبيرهم، فتلك عاقبة الصبر الجميل، والله تعالى عليم بالأمور على حقائقها، حكيم فيها يقضي ويقدر على العباد^(٣).

٤- ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾:

- إن: للتأكيد.

- والهاء: ضمير الغائب المتصل عائداً على الله. أي: إن الله.

(١) آيات للسائلين، ص ٣١٧.

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣٦٤.

(٣) يوسف أيها الصديق، المصدر السابق، ص ٣٦٤.

- هو: ضمير الغائب المفرد المنفصل، وكرر الضمير، للتنبيه والتأكيد والاختصاص والشأن^(١).

- العليم: على أصالة كمال الصفة وإحاطتها وعلة وزن فعيل للمبالغة في الصفة، فهو العليم بالسر، والنجوى، والعالم بالغيب والشهادة، ولا تخفى عليه خافية^(٢).
 فيعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ يخاطب أبناءه ويبين لهم أن الله عَزَّجَلَّ، هو العليم الذي يعلم ما وراء هذه الأحداث والامتحانات.

- ﴿الْحَكِيمُ﴾: فيما يقضي ويدبر ويأتي بكل أمر في وقته المناسب، عندما تتحقق حكمته في ترتيب الأسباب والنتائج^(٣).

وقد ناسب ذكر هاتين الصفتين: جواب يعقوب لأبنائه، فإله سبحانه عليم بما كان وما جرى معهم ومع أخيهام وحقيقة أمر تهمة السرقة التي أخذ بها، عليم بصدق أو كذب ادعائهم، عليم بحقائق أنفسهم، وخفايا الأمور كلها، عليم بما علمه الناس وما لم يعلموه، وهو حكيم فيما كان من أمرهم، حكيم كل ما عل، وحكيم في كل أمر^(٤).

وبعد إجابة يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لأولاده أعرض عنهم وانصرف إلى آلامه وأحزانه:

ثانياً: قال تعالى: ﴿وَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا سَفَى عَلَى يُونُسَ وَأَبْصَتْ عَيْنَاهُ مِنَ

الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤]:

(١) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٠٢٥).

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣٦٤.

(٣) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٠٥).

(٤) القصص القرآني، (٢/ ٢١٩).

وهذه صورة مؤثرة للوالد المفجوع، يحس أنه المنفرد بهمه وحيد بمصابه، لا تشاركه هذه القلوب التي حوله ولا تجاوبه، فينفرد في معزل متذكراً فجيعة في ولده الحبيب (يوسف) الذي لم ينسه ولم تهون من مصيبته السنون^(١).

١ - ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾:

- ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾: قام يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ من عند أبنائه وأسرته وتولى عنهم، وتذكر يوسف وما جرى مع يوسف سابقاً وأيقظت المصيبة الجديدة كوا من حزنه على يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأطلقها زفرة حرّى، ونفثة مكبوتة من صدره^(٢).

- ﴿يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾: يا لها من كلمة تقطر حزناً ومرارة وحرقة ولهفة. وهذه الكلمة في اللغة العربية مثل: يا حسرتي ويا ويلتي. ولا يقصد بها حقيقة النداء، وإنما هو مجاز كأنه ينادي الأسف أن يسعفه^(٣).

والأسف، أشد الحزن والحسرة على ما فات. ومن العجيب أن الأسف لم يأت في القرآن إلا مرة واحدة على لسان يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وكأنه اختص به وحده^(٤) فحياته كانت مفعمة بحوادث الأحزان والكروب النادرة في التاريخ مما لا يطيق مثله إلا مثله^(٥).

وقال الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: واعلم أن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لما سمع كلام أبنائه ضاق قلبه جداً، وأعرض عنهم، وفارقهم ثم بالآخرة طلبهم، وعاد إليهم.

(١) سورة يوسف، ص ٥١٧.

(٢) محاسن التأويل، القاسمي، (٣٥٨٢/٩).

(٣) سورة يوسف، ص ٥١٩.

(٤) تفسير السمرقندي (بحر العلوم)، أبو الليث نصر السمرقندي، (١٧٣/٢).

(٥) يوسف أيها الصديق، ص ٣٦٧.

وأما المقام الأول: وهو أنه أعرض عنهم، وفرّ منهم فهو قوله: ﴿وَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَفَنِ عَلَى يُوسُفَ﴾. واعلم أنه لما ضاق صدره بسبب الكلام الذي سمعه من أبنائه في حق بنيامين عظم أسفه على يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: وقال يا أسفى على يوسف وإنما عظم حزنه على مفارقة يوسف عند هذه الواقعة لوجوه:

الوجه الأول: أن الحزن الجديد يقوي الحزن القديم الكامن، والقدرح إذا وقع على القدرح كان أوجع، وقال متمم بن نويرة:

وقد لامني عند القبور على البكا رفيقي لتذرف الدموع السوافك
فقال أتبكي كل قبر رأيته لقبر ثوى بين اللوى والدكادك
فقلت له إن الأسى يبعث الأسى فدعني فهذا كله قبر مالك
وذلك لأنه إذا رأى قبراً فتجدد حزنه على أخيه مالك فلاموه عليه، فأجاب بأن الأسى يبعث الأسى. وقال آخر:

فلم تنسني أوفي المصيبات بعده ولكن نكاء القرع بالقرح أوجع.

والوجه الثاني: أن بنيامين ويوسف كانا من أم واحدة وكانت المشابهة بينهما في الصورة والصفة أكمل، فكان يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ يتسلى برؤيته عن رؤية يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلما وقع ما وقع زال ما يوجب السلوة فعظم الألم والوجد.

- أن المصيبة في يوسف كانت أصل مصائبه التي عليها ترتب سائر المصائب والرزايا، وكان الأسف عليه أسفاً على الكل.

- الآن هذه المصائب الجديدة كانت أسبابها جارية مجرى الأمور التي يمكن معرفتها والبحث عنها^(١)، أضف إلى أن مكان من فقد مؤخراً معلوماً أما يوسف فيما يعلم يعقوب له مكاناً ولا للمصيبة فيه كيفية.

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٣٦٨.

وقال سعيد بن جبير رَحِمَهُ اللهُ: ما أعطيت أمة من الأمم (إنا لله وإنا إليه راجعون) غير هذه الأمة ولو كان أوتيتها أحد قبلكم لأوتيتها يعقوب حين قال: ﴿يَا سَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾^(١).

٢- ﴿وَأَبْيَضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾.

أ- ﴿وَأَبْيَضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ﴾:

من شدة بكائه وحزنه غشيت عينيه غشاوة بيضاء تسببت في ضعف بصره جزئياً أو كلياً^(٢).

ب- ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾:

على وزن فعيل للمبالغة والقوة في الصفة. أي: يكتم حزنه ومشاعره وأمره في نفسه ولا يظهرها للناس، أو أنه يشكو أمره خفية إلى الله، ولا يعلنه، ولا يشكو إلى غير الله، أو أنه لا يظهر حزنه ولا يعبر عنه بما لا يرضى الله من أمور مخالفة كالعويل والولولة واللطم والصياح وتقطيع الشعر والثياب. والأسوة الحسنة في هذا هو فعل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند موت ابنه إبراهيم، ومن الكظم، كظم الغيظ والغضب. ولا يعني ذلك نفي الغضب مطلقاً، فقد كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يغضب إذا انتهكت حرمة الله عَزَّوَجَلَّ.

وهكذا أفصح القرآن الكريم عن عظيم حزن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وجزعه ولهفته على أبنائه وعلى رأسهم يوسف، بالقول: ﴿يَا سَفَى﴾. وبالجوارح: ﴿وَأَبْيَضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ﴾، وفي النفس: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾.

(١) التفسير الكبير، (١٨/١٩٣) بتصرف.

(٢) التفسير الكبير، المصدر السابق، (٤/٢١٦).

- ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾: ممتلئ غيظاً وحزناً. وشدة حزنه تدل على قوة مشاعر الأبوة في قلبه، وهي مشاعر إنسانية رفيعة تفيض بها نفوس الكُمَّل من الناس، وكلما ازداد الإنسان إيماناً بالله سبحانه، كانت عواطف الأبوة أقوى في قلبه، وأنصع في نفسه، فالإيمان بالله يكمل إنسانية الإنسان، ويفجر فيها ينباع الخير والإحسان والحنان. ولهذا نرى الكفار يغلب عليهم ضعف المشاعر الإنسانية، ولا عجب أن نراهم يقطعون أرحامهم، ويتخلون عن أبنائهم من أجل ملذاتهم الجسدية، وقد أصبحت قطيعة الرحم، وانحلال الأسرى أعظم السمات البارزة في حياتهم الاجتماعية. والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أكمل الناس إيماناً، فهم أكملهم وأصدقهم في مشاعرهم الإنسانية عامة، ومشاعر الأبوة خاصة. وكان حزن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أثراً من آثار مشاعر الأبوة الكريمة، وإن الحزن الشديد غير محظور لأنه من أعمال القلب، ولا سلطان للإنسان على قلبه، وإنما المحظور والمنهي عنه لطم الخدود، وشق الجيوب، والنياحة، كما كان أهل الجاهلية يفعلون.

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما مات ولده إبراهيم: «تَدْمَعُ الْعَيْنُ وَيَحْزَنُ الْقَلْبُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبَّنَا، وَاللَّهُ يَا إِبْرَاهِيمُ إِنَّا بِكَ لَمَحْزُونُونَ»، ولما رأى عبد الرحمن بن عوف دموع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له: وأنت يا رسول الله؟! قال: «يا ابن عوف! إنها رحمة»^(١). ودمعت عيناه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما رفع له ولد لإحدى بناته وهو يموت، وقال: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»^(٢).

(١) رواه البخاري، رقم ١٣٠٣.

(٢) رواه البخاري، رقم ١٢٨٤.

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَأَلَّه تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٥].

ويبدو أن أبناء يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أشفقوا على أبيهم وخافوا أن تودي به الحال التي وصل إليها، فأرادوا تنبيهه ولعلمهم ظنوا أن تقنيطه من لقيا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ هي أفضل وسيلة يمكن أن تطفئ حرقه قلبه بعد أن غاض ماء عينيه وذهب نورهما^(١)، فقالوا: ﴿تَأَلَّه تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾.

قال الدكتور أحمد نوفل: والقسم بهذه الصيغة: ﴿تَأَلَّه﴾ قلنا إنه تكرر في هذه السورة ما لم يتكرر في القرآن كله، والمعنى: والله لا تزال تذكر يوسف لا تنقطع عن ذلك حتى تقارب الهلاك أو تكون من الهالكين. ولاحظ سيطرة حرف (التاء) على جرس كلمات الآية تالله تفتأ تذكر، حتى تكون، أو تكون... مما يوحي بجو التعنيف.

وهذه التاء في قوله: ﴿تَأَلَّه﴾ حرف قسم كالباء والواو ويكن فيها زيادة معنى التعجب كأنهم تعجبوا من قوله: ﴿يَنَاسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾.

- تفتأ: أي: لا تفتأ، أي: لا تزال. وحذف حرف النفي، لأنه لا يلتبس بالإثبات ونحوه: فقلت يمين الله أبرح قاعداً.

- حرَضًا: مشفياً على الهلاك مرضاً. يقال: أحرضه، فهو حرض وحرَض، بالكسر والفتح وكلام الأبناء مع يعقوب نصيحة منهم له، وإشفاق عليه، يمازجه شيء من اللوم والتعنيف.

(١) آيات للسائلين، ص ٥٢٢.

قال البغوي رَحِمَهُ اللهُ: قال مجاهد: الحرض ما دون الموت، يعني: قريبا من الموت... وأصل الحرض: الفساد في الجسم والعقل من الحزن والهموم أو العشق أو الهم. يقال: رجل حرض، وامرأة حرض، ورجلان حرض، ورجال ونساء. كذلك لأنه مصدر وضع موضع الاسم ﴿وَتَكُونُ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ أي: من الميتين^(١).

وإنما قالوا له هذا القول إشفاقا عليه وكفا له عن البكار. أي لا تزال تذكر يوسف بالحزن والبكاء عليه حتى تصير بذلك إلى مرض يهلكك، لأنه كان قد أشفى على ذهاب بصره وفساد جسمه، أو تموت بالغم والهلاك. وذهاب الشيء بحيث لا يدري الطالب أين هو، فالميت هالك لهذا المعنى^(٢).

قال الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: وجملته قالوا تالله محاورة بنيه إياه عند ما سمعوا قوله: ﴿يَنَاسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ وقد قالها في خلوته فسمعوها.

والتاء حرف قسم، وهي عوض عن واو القسم. قال في «الكشاف» في سورة الأنبياء: «التاء فيها زيادة معنى وهو التعجب». وسلمه في «مغني اللبيب» وفسره الطيبي بأن المقسم عليه بالتاء يكون نادر الوقوع لأن الشيء المتعجب منه لا يكثر وقوعه، ومن ثم قل استعمال التاء إلا مع اسم الجلالة لأن القسم باسم الجلالة أقوى القسم.

وجواب القسم هو ﴿تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يُوسُفَ﴾ باعتبار ما بعده من الغاية، لأن المقصود من هذا اليمين الإشفاق عليه بأنه صائر إلى الهلاك بسبب عدم تناسيه

(١) مختصر تفسير البغوي، عبد الله الزيد، دار السلام للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ، (٤٥١/١).

(٢) سورة يوسف، ص ٥٢٣.

مصيبة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وليس المقصود تحقيق أنه لا ينقطع عن تذكر يوسف. وجواب القسم هنا فيه حرف النفي مقدر بقرينة عدم قرنه بنون التوكيد لأنه لو كان مثبتا لوجب قرنه بنون التوكيد فحذف حرف النفي هنا.

ومعنى تفتتؤ: تفتت. يقال: فتىء من باب علم، إذا فتر عن الشيء. والمعنى: لا تفتت في حال كونك تذكر يوسف. ولملازمة النفي لهذا الفعل ولزوم حال يعقب فاعله صار شبيها بالأفعال الناقصة.

وحرضا: مصدر، وهو شدة المرض المشفي على الهلاك، وهو وصف بالمصدر، أي حتى تكون حرضا، أي باليا لا شعور لك. ومقصودهم الإنكار عليه صдалه عن مداومة ذكر يوسف - عَلَيْهِ السَّلَامُ - على لسانه لأن ذكره باللسان يفضي إلى دوام حضوره في ذهنه.

وفي جعلهم الغاية الحرض أو الهلاك تعريض بأنه يذكر أمرا لا طمع في تداركه، فأجابهم بأن ذكره يوسف - عَلَيْهِ السَّلَامُ - موجه إلى الله دعاء بأن يرده عليه. فقوله: ﴿يَنَاسِفْ عَلَى يُوسُفَ﴾ بدعاء الله أن يزيل أسفه برد يوسف - عَلَيْهِ السَّلَامُ - إليه، لأنه كان يعلم أن يوسف لم يهلك ولكنه بأرض غربة مجهولة، وعلم ذلك بوحي أو بفراصة صادقة وهي المسماة بالإلهام عند الصوفية^(١).

والظاهر من الآية الكريمة أن أبناء يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ كان غرضهم تنبيه والدهم والشفقة عليه من مآلات لا تحمد عقباها، ولذلك أرادوا منه ترك البكاء والأسف على يوسف خوفاً على سلامته وصحته. لكن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يعلم من الله ما لا يعلمون وكان يظن بالله ما يظنون وكأنني به يلتفت إليهم بعد أن تركهم وأدار لهم ظهره ويقول بلسان الواثق الذي لم ينقطع رجاءه في العليم الحكيم، بقوله:

(١) التحرير والتنوير، (٦/٣٣).

رابعاً: قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦]:

وفي هذه الكلمات يتجلى الشعور بحقيقة الألوهية وفي هذا القلب الموصول بالله تتجلى هذه الحقيقة ذاتها بجلالها الغامر ولألائها الباهر. إن هذا الواقع الظاهر لميئس من يوسف، وهذا المدى الطويل الذي يقطع الرجاء من حياته فضلاً على عودته إلى أبيه واستنكار بنيه لهذا التطلع بعد هذا الأمد الطويل في وجه هذا الواقع الثقيل، إن هذا كله لا يؤثر شيئاً في شعور الرجل الصالح بربه، فهو يعلم من حقيقة ربه، ومن شأنه ما لا يعلم هؤلاء المحجوبون عن تلك الحقيقة بذلك الواقع الصغير المنظور، وهذه قيمة الإيمان بالله ومعرفته سبحانه، ومعرفة قدرته ورحمته ورعايته عزَّجَلَّ لعباده^(١).

١- ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾:

قال القشيري رَحِمَهُ اللَّهُ: شكا إلى الله ولم يشك من الله، ومن شكا إلى الله وصل، ومن شكا من الله انفصل، ولما شكا إلى الله وجد الخلف من الله.

إذا تمنى الناس روحاً وراحاً تمنيت أن أشكو إليك فتسمعا^(٢)

قال أبو حيان رَحِمَهُ اللَّهُ: (البث) أشد الحزن، سمي بذلك، لأنه من صعوبته لا يطيق حمله، فيبثّه، أي: ينشره^(٣).

وقال العز بن عبد السلام رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿بَثِّي﴾: همي أو حاجتي، والبث: تفريق الهم بإظهار ما في النفس^(٤).

(١) في ظلال القرآن، (٤/٢٠٢٦).

(٢) اللطائف والإشارات، (٣/٢٠٠-٢٠١).

(٣) البحر المحيط، (٦/٣١٥).

(٤) تفسير سلطان العلماء، (٢/١٣٦).

وقال الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ: وقد ذكر المفسرون أن الإنسان إذا قدر على كتم ما نزل به من المصائب كان ذلك حزناً، وإن لم يقدر على كتمه كان ذلك بثاً. فالبث على هذا أعظم الحزن وأصعبه^(١).

وقال الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: والبث: الهم الشديد وهو التفكير في السيئ والمسيء. والحزن: الأسف على فائت، فبين الهم والحزن العموم والخصوص الوجهي، وقد اجتماعاً ليعقوب عَلَيْهِ السَّلَام لأنه كان معتمداً بالتفكير في مصير يوسف عَلَيْهِ السَّلَام وما يعترضه من الكرب في غربته وكان آسفاً على فراقه^(٢).

- ﴿إِلَى اللَّهِ﴾: قصر شكواه على التعلق بالله أي: يشكو إلى الله لا إلى نفسه ليجدد الحزن، فصارت الشكوى بهذا القصد ضراعة، وهي عبادة لأن الدعاء عبادة وصار ابيضاض عينيه الناشئ عن التذكر الناشئ عن الشكوى أثراً جسدياً ناشئاً عن عبادة، مثل تفطر أقدام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قيام الليل^(٣).

وقال أبو زهرة رَحِمَهُ اللهُ: ﴿إِنَّمَا﴾ من أدوات الحصر أي أنه لا يشكو همومه العارضة وأحزانه الدفينة إليكم بل يشكوها إلى الله وحده^(٤).

٢- ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾:

هذه الجملة تحوي في نفسه كل الرجاء الذي يرجوه والأمل الذي أمله، وفيه دلالة إلى أنه يعلم أن الله كاشف كربه، ومزيل همه، وهو علم من علم الله تعالى، لا من علم أحد، يعلمه بالإلهام أولاً، وبرجائه في الله ثانياً، وبرؤيا يوسف الصادقة ثالثاً،

(١) فتح القدير، (٣/٤٩).

(٢) التحرير والتنوير، (٦/٣٣).

(٣) المصدر نفسه، (٦/٣٣).

(٤) زهرة التفاسير، (٧/٣٨٥٢).

ففيها أنه رأى الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً له ساجدين، وتأويل الرؤيا أن يكون في ظل يوسف، وهو في عز مكين، وإن ذلك واقع لا محالة^(١).

- ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: لينبهم إلى قصور عقولهم عن إدراك المقاصد العالية، ليعلموا أنهم دون مرتبة أن يعلموه أو يلوموه، أي: أنا أعلم علماً من عند الله علمنيه لا تعلمونه، وهو من علم النبوة، وحكي مثل ذلك عن شعيب في سورة الشعراء، وفي هذا تعريض برد تعريضهم بأنه يطمع في المحال بأن ما يحسبونه محالاً سيقع^(٢).

وقال ابن العربي: وأحسن الكلام في الشكوى، سؤال المولى زوال البلوي، وذلك قول يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، من جميل صنعه وغريب لطفه، وعائده على عباده^(٣).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: فإنزال الفاقة بالناس أن يشكو إليهم ويترك الشكوى إلى الله، فلو كانت الاستغاثة بالمخلوق جائزة لجاز إنزالها بالناس، وقد قال يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾. وقال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۖ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٧، ٨]. وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن عباس: «إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله»^(٤).

ورأى الفضل بن عياض رجلاً يشكو إلى رجل فقال: يا هذا لا تشكو من يرحم إلى من لا يرحمك. وقال بعضهم: ذكر الله الصبر الجميل، والهجر الجميل،

(١) زهرة التفاسير، (٧/٣٨٥٣).

(٢) التحرير والتنوير، (٦/٣٣).

(٣) أحكام القرآن، (٣/١١٠٤).

(٤) سنن الترمذي، رقم ٢٥١٦. حسن صحيح.

والصفح الجميل؛ فالصبر الجميل الذي ليس فيه شكوى إلى المخلوق. والهجر الجميل الذي ليس فيه أذى، والصفح الجميل الذي ليس فيه عتاب^(١).

إن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام طراز فريد من أولئك الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون، ويعلمون من الله ما لا يعلمه الآخرون. وقد صرح لأبنائه بشيء مما يعلمه وكشفهم بما يحقق قوله حين أذن الله تقدير انتهاء البلوى ومجيء الفرح فكلف أولاده بالبحث عن يوسف وأخيه، فجمع بين الصبر الجميل، وقانون الأخذ بالأسباب، وأمر إخوة يوسف أن يعودوا مرة ثالثة إلى مصر للبحث عن يوسف وأخيه، وكأنه كان يتوقع وجود يوسف في مصر ويرى أن ما حدث لأخيه له علاقة بيوسف^(٢) عَلَيْهِ السَّلَام، فقال لهم:

خامساً: قوله تعالى: ﴿يَبْنَى أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]:

لقد أخبر يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام أبناءه بأنه يعلم من الله ما لا يعلمون، ثم أتبعه بقوله:

١ - ﴿يَبْنَى أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾:

- ﴿يَبْنَى أَذْهَبُوا﴾: فقد علم من العلم الذي علّمه الله إياه وأوحاه إليه أنه إذا اشتد البلاء مع الصبر قرب الفرج، ولهذا فقد قوى رجاءهم وأمرهم أن يرحلوا إلى مصر ويتطلبوا يوسف وأخيه.

- وفي خطابه: ﴿يَبْنَى﴾ يوسف النبوة ترقيق لهم وتلطف. وفي هذا دلالة على الحنان الفائق الذي حباه الله لأبنائه مع أنه لا يزال يعتقد أن لهم يداً - على الأقل - فيما يتعلق بيوسف عَلَيْهِ السَّلَام^(٣).

(١) الاستغاثة، ابن تيمية، دار المنهاج، الطبعة الأولى، ١٤٢٦ هـ، (١/ ٢٧٥-٢٧٧).

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢١٧).

(٣) يوسف وقصته العجيبة، ص ٣٣٦.

لقد دعاهم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ بمحض الرحم، وهو البنوة، ثم أضافهم إلى نفسه، وكأنه يقرب قلوبهم من قلبه بهذه الإضافة وهذا الضم، وكأنه يضمهم واحداً واحداً إلى صدره. وناداهم بحرف النداء، وهم في حضرتهم لإيقاظهم، وتهيتهم، وإحضار عقولهم وقلوبهم لتلقي ما يقول. ثم قال لهم:

- ﴿أَذْهَبُوا﴾؛ وهذه كلمة عجيبة جداً، لأن معناها الذهاب إلى مصر، وأن يوسف في مصر، وأن أكذوبة أكله الذئب والدم الكذب على قميصه كذب في كذب، لا شك حين يسمعون منه هذا يتأكدون من أن الشيخ الجليل يعلمه الله ويكشف له الكذب، فيغسل الله قلوبهم من الباطل برؤية هذه المعجزات من أبيهم^(١).

ففي قوله: ﴿يَكْبَتِ أَذْهَبُوا﴾، دليل واضح على أن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ شعر بيوسف ولذا قال: ﴿أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾، وإلا فكيف يأمرهم بالتحسس وهذه المرة بالذات من يوسف وأخيه وفي مصر بالذات إن لم يشعر بذلك؟ بل شعر وأظهر ذلك لبنيه، ولذلك استجابوا فوراً ولم يعارضوه، وهذه هي أهم الأسباب التي جعلت يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ يتوقع قرب اللقاء بيوسف:

- إذا اشتد البلاء مع الصبر قرب الفرج.

- علم أن رؤيا يوسف صادقة.

- علم ذلك بوحي من الله.

لما أخبره أبنائه بسيرة العزيز وكمال حاله في أقواله وأفعاله طمع أن يكون هو يوسف.

(١) يوسف وقصته العجيبة، ص ٤٤٦.

- علم قطعاً أن بنيامين لم يسرق، وسمع أن العزيز ما آذاه، وما ضربه، فغلب على ظنه أن ذلك العزيز هو يوسف^(١).

- ﴿فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾: يعني أعملوا حواسكم بكل ما فيها من طاقة، كي تصلوا إلى الحقيقة^(٢).

أي: استخدموا مبلغ علمكم وجهد حواسكم وغاية ذكائكم وحيلتكم في الاستقصاء والتحري^(٣). ومعنى التحسس: البحث بالحواس. قال السمين الحلبي عن التحسس والفرق بينه وبين التجسس عند قوله: ﴿فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أي: تطلبوه بحواسكم. التحسس يكون في الخير، والتجسس يكون في الشر. وقيل: التحسس ما طلبته لغيرك من معرفة أمور الناس. والتحسس ما طلبته لنفسك. وإن فعل (تحسسوا) يدل على البحث بحرص وانتباه مع تفاعل النفس والمشاعر والحواس والشعور بالأمل الكبير بالعثور على المطلوب. وكأن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام يطلب منهم تشغيل كل حواسهم في البحث عن يوسف وأخيه في مصر، مع يقينهم بأنهما موجودان فيها^(٤).

- ﴿فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾: فيها دلالة صريحة في أن يوسف في مصر، بعد الدلالة الخفية التي في قوله: ﴿أَذْهَبُوا﴾ ثم فيها شيء آخر وهو أنكم سترون يوسف في الجهة التي فيها أخوه، وأن اجتماعهما في بحثكم عنهما لا يخلو من إشارة إلى اجتماعهما في مكانين متقاربين كانا أو متباعدين^(٥).

(١) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحديث، ص ١٩١.

(٢) تفسير الشعراوي، (١١/٧٠٥٣).

(٣) يوسف أيها الصديق، ص ٣٧١.

(٤) القصص القرآني، (٢/٢٢٤).

(٥) من حديث يوسف وموسى، ص ١٩١.

- ﴿مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾: ﴿مِنْ﴾: أي من أمر وعلم. ولم يقل: (عن) أي: عن أشخاصهم، فإذا أردت أن تطاع فأمر بما يستطاع، وبدأ بيوسف، لأنه المجهول مكانه ومصيره، ويلزم للاستعلام على أمره أعظم التحسس والاستقصاء، وذكر أخاه (المعلوم نسبياً) في هذا الموضوع، ليدل على أن المجهول يعلم من المعلوم، وهذا من مسائل الرياضيات المعروفة^(١).

كما أن كلمة فتحسسوا فيها معنى الحس الأمني في البحث وجمع المعلومه على الآخرين ويعتبر جمع المعلومات من العناصر الأساسية في علم الاستخبارات للوصول إلى الهدف المطلوب، كما أن فيها أهمية العلم التجريبي المكتسب بالحواس والتحليل والاستنباط وغرلة المعلومات.

٢- ﴿وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾:

- ﴿وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾: اليأس هو قطع الرجاء من غيرك أن يصيبك شيء أي: لا تقطعوا رجاءكم أبداً من رحمة الله وخيره، فهي رسالة كنسيم الريح، تلامس كل بشرة، وتمر على كل أنف، ولا تنتهي ولا تتوقف ولا تنقطع ولكن العيب في الإنسان الذي يغلق الباب دونها ويأبى التعرض لنفحاتها. العيب في الأنف المزكوم الذي لا يتنفس ولا يشم ولا يتذوق. العيب في الوقر على الأذان الصم والأكنة على القلوب العمي، العيب في العجز والكسل والغفلة^(٢). وهذه الآية الكريمة حصن حصين يحصن القلب المؤمن من البائس.

- وكلمة ﴿مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ كلمة ﴿رَوْحٍ﴾ بفتح الراء تعني الفرج والمجيء بالخير بعد الشدة، وأنه إذا استحكمت وضافت حلقاتها فلا بد أن تفرج،

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٣٧١.

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣٧٢.

وأن الشدة إذا اشتدت انفرجت، وأنك تعيش ما تعيش مع الأمل، ولا يجوز لك أن تفقده وأنه هو الضياء الذي تراه في جوف الظلمة والنجم الذي تراه في قلب الحبرة، وهذا الشيخ الجليل يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام الذي سماه: (روح الله) يعرس هذا المعنى في قلب أبنائه^(١)، ويوصينا من وراء الزمن أن نزرعه في نفوسنا وفي قلوب أبنائنا حتى لا تكسرنا الأيام، وخاصة إذا توحشت بفعل المعاصي والكبائر والإجرام والمظالم من البشر. إن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام يعلم الأجيال السائرة على نهج الصراط المستقيم وطريق الأنبياء المرسلين هذه القيم العظيمة لأهميتها في حياة الناس. وأن الناس إذا أحاط بهم اليأس لما يرونه من ظلم وفساد وخراب، وأن الظالم أباح لنفسه أن يظلم، وحرّم على المظلوم أن يقول إنه مظلوم، وأباح لنفسه أن يخرب البلاد، وحرّم على أهلها أن يهتفوا بإنجاز العمران. أقول لم يشأ سيدنا يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام أن يدع هذا نصحا أو حكمة أو فلسفة، وإنما جعله من الدين وربط الإيمان بالله، بالإيمان بسداده، وعونه والقضاء على الكربات، وهذا لو زدته تأملاً زادك تأملاً وزادك بهجة، وزادك قوة، وزادك عزمًا وإن من عرف الله لا يعرفه اليأس أبداً^(٢).

٣- ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِيَنَّكَ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾:

أ- قال الطاهر بن عاشور: تعليل للنهي عن اليأس فموقع (إن) التعليل. والمعنى: لا تياسوا من الظفر بيوسف عَلَيْهِ السَّلَام معتلين بطول مدة البعد الذي يبعد معها اللقاء عادة، فإن الله إذا شاء تفريج كربة هيأ لها أسبابها ومن كان يؤمن بأن الله واسع القدرة لا يحيل مثل ذلك، فحقه أن يأخذ في سببه، ويعتمد على الله في تيسيره، وأما القوم الكافرون بالله فهم يقتصرون على الأمور الغالبة في العادة وينكرون غيرها^(٣).

(١) من حديث يوسف في الذكر الحكيم، ص ١٩٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٩٣.

(٣) التحرير والتنوير، (٦/٣٤).

ب- وقال ابن الجوزي في تعليقه على الآية: لأن المؤمن يرجو الله في الشدائد^(١).

ج- قال القرطبي: وفيها دليل على أن القنوط من الكبائر وهو اليأس^(٢).

د- وقال محمد متولي الشعراوي: لأن الذي ليس له رب هو من يئس، ولذلك نجد نسبة المنتحرين بين الملاحدة كبيرة لكن المؤمن لا يفعل ذلك، لأنه يعلم أن له رباً يساعده. وما دام المؤمن قد أخذ بالأسباب فسبحانه يهبه مما فوق الأسباب ويقول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ ۖ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝﴾ [الطلاق: ٢، ٣]^(٣).

إن هذه القصة العظيمة في دروسها وعبرها تبين لنا أن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام ما دب اليأس إلى نفسه قط رغم ما قيل له وما لقي من طول المدة، وبعد العهد بيوسف، مع ذلك كان يستشرف الأمل ويبعثه في نفوس بنيه، وليس هو أملاً مبنياً على الأوهام والتخدير والقيود بل أمل إيجابي يحضّ فيه على الحركة والعمل الدؤوب، وهذا مقتضى تمام التوكل، وصحيح الإيمان، فاليأس من روح الله تعالى وظن السوء به جَلَّوَعًا من خلق الكافرين. والذي يعرف قدرة الله المطلقة وتصرفه التام في الكون وعظيم رحمته بخلقه، ومعيته للمؤمنين، لا يملك إلا أن يتكل عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا يتوقع منه إلا كل خير، بل يرى العافية في ثناء البلاد، ويوقن أن العليم الحكيم، ما قدر عليه المصيبة إلا لخير يريده له، وهو مع هذا تلطف بالعباد ولا يكلفهم فوق ما آتاهم^(٤).

(١) زاد المسير، (٤/٢٧٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، (٩/٢٥٢).

(٣) تفسير الشعراوي، (١١/٧٠٥٦).

(٤) القصص القرآني، (٢/٣٢٥).

وقد كانت لكلمات يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أثر في رفع معنوياتهم، فقد غرس فيهم أملاً وثقة في الله، فهم الآن مصيبون نفسياً وشعوريا للقاء يوسف، بل هم راغبون في لقاءه ويتحسسون مصر وما فيها ليجدوه ويجتمعوا به وخلوا مصر واجتمعوا مع العزيز، الذي اجتمعوا معه مرتين من قبل وكان بينهم ما عرضته الآيات الآتية:

سادساً: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الصُّرُوجَ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزْجَجَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: ٨٨]:

وهذا هو الدخول الثالث للإخوة على يوسف. وامتاز بأمر عظيم هو زوال الغشاوة التي كانت على البصيرة وقيام الإخوة بمبادئ التوبة وأفعال الأوبة إلى الله.

١ - ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾:

جاء بالفاء المعقبة أو السببية، ليدل على سرعة مبادرتهم واستجابتهم وتنفيذ أمر أبيهم في التحسس عن أمر يوسف وأخيه أو سعيًا وراء الحصول على شيء من العلم عن يوسف وبنيامين، وجاءت (لما) لتوكيد ذلك، ولم يذكر في هذا الموضوع بالاسم، بل بالضمير، وهذه مفارقة واضحة جلية وهذا من فصاحة البيان والبلاغة^(١).

٢ - ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾:

- ﴿قَالُوا﴾ أي لما دخلوا عليه قالوا: أي إن مقالهم جاء فور دخولهم عليه مباشرة دون تأخير ولا تلكؤ ولا انشغال.

(١) يوسف أيها الصديق، (٢/ ٣٢٥).

﴿يَأَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾: نادوه بلقبه تفخيماً وتعظيماً له، وهو أهل لذلك. وقد تعطفوا إليه رجاء قضاء حاجتهم ونيل بغيتهم عنده^(١).

وقد كانت في الظاهر طلباً صادقاً للميرة والصدقة وقد كانوا في مسيس الحاجة إليه، كما دل خطابهم نظراً لتراكم نسبة الجذب والجفاف أعلاها، فكانت إصابتها لهم أشد وأعظم وهم أهل بادية، لاعتمادهم كلياً على الغيث والمرعى، وهي في الحقيقة تحسس واستعلام عن أخيهم.

وقد ابتدأوا رحلة البحث عن أخويهم بالدخول على العزيز:

أولاً: لأنهم يعلمون أن بنيامين عنده، والابتداء بالمعلوم أول الخطى في البحث عن المجهول. وثانياً: لأن العزيز بحكم مركزه ووظيفته تجتمع لديه المعلومات والأخبار عن أحوال البلاد والعباد. ثالثاً: لما لمسوه فيه من فضل وإكرام وإحسان. ورابعاً: لأن مصر كانت حاضرة البلاد في وقتهم ومركز شبكة القوافل والمواصلات لمن حولها^(٢).

٣- ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾:

قدّموا ذكر ضعفهم وافتقارهم، وما هم فيه من شدة بلغت منزلة الضر والاضطرار انكساراً وتضرعاً^(٣).

﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾: جعلوا الضر نفسه الذي هو المصدر هو الذي مسهم، وكأنه قصد إليهم، وأصابهم كبارهم وصغارهم، ونساءهم ورجالهم، فلم يدع الضر واحداً منهم إلا مسّه^(٤).

(١) يوسف أيها الصديق، المصدر نفسه، ص ٣٧٧.

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣٧٧.

(٣) يوسف أيها الصديق، المصدر السابق، ص ٣٧٧.

(٤) من حديث يوسف في الذكر الحكيم، ص ١٩٥.

٤ - ﴿وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُّزَجَّةٍ﴾:

هذا اعتراف منهم بأن بضاعتهم التي أتوا بها هذه المرة قليلة القدر، لا تساوي ما يطلبون في مقابلها غناهم يرجونه إلا يؤثر كون البضاعة رديئة في التقليل من الكيل الذي كان يكيله لهم في المرتين السابقتين^(١). وكانت بضاعتهم رديئة غير مكافئة، يدفعها الناس ويردونها ولا تكاد تجد لها طالبا ولا راغباً^(٢) ولهذا قالوا بعد ذلك:

٥ - ﴿فَأَوْفَ لَنَا الْكَيْلَ﴾:

أعطنا ببضاعتنا هذه ما كنت تعطينا قبل بالدرهم الجياد، وهذا هو المطلوب الأول الذي طلبوه منه بعد أن ذكروا الأمرين: (الضر) و (صفة البضاعة)، والمطلب الثاني فهو قولهم^(٣):

٦ - ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾:

قال السمرقندي رَحِمَهُ اللهُ: يعني تفضل علينا باستيفائه منا مكان الجيد وتصدق علينا ما بين الثمنين، يعني ما بين الجيد والرديء^(٤).

وقال عبد الحميد طهماز: بقبول بضاعتنا الكاسدة ولا تنقص كيلنا.

وقال محمد متولي الشعراوي رَحِمَهُ اللهُ: ولقائل أن يسأل: أليسوا أبناء نبوة ولا تجوز عليهم الصدقة؟ نقول: إن عدم جواز الصدقة هو أمر اختص به الحق سبحانه آل محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو أمر خاص بأمة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنِ الصَّدَقَةُ لَا تَبْغِي لآلِ مُحَمَّدٍ، إِنَّمَا هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ»^(٥).

(١) المصدر نفسه، ص ٤٥٣.

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣٧٧.

(٣) يوسف وقصته العجيبة، ص ٤٥٤.

(٤) تفسير السمرقندي، (٢/ ١٧٤).

(٥) تفسير الشعراوي، (١١/ ٧٠٦٠)، رواه مسلم، رقم ١٠٧٢.

وقال القاسمي رَحِمَهُ اللهُ: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾: استدل بها من قال: إن الصدقة لم تكن محرمة على الأنبياء^(١).

٧- ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾:

جزاؤك عند الله تعالى؛ إذ ليس عندنا ما نستطيع أن نجازيك به أو نكافئك عليه، وأنت على ما أنت عليه من كريم العطاء، ونحن على ما نحن عليه من الضرر والافتقار^(٢).

وقال الدكتور وهبة الزحيلي رَحِمَهُ اللهُ: يشيهم أحسن الجزاء. والتصدق: التفضل مطلقاً ولكنه اختص عرفاً بما يبتغي به من ثواب من الله^(٣).

ونلاحظ في هذا الدخول الثالث لإخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لمصر، قد أضرت بهم المجاعة ونفذت منهم النقود وجاؤوا ببضاعة رديئة هي الباقية يشترون بها الزاد، يدخلون في حديثهم انكسار لم يعهد في أحاديثهم من قبل وشكوى من المجاعة تدل على ما فعلت بهم الأيام. وعندما يبلغ الأمر إلى هذا الحد من الاسترحام والضيق والانكسار لا يبقى في نفس يوسف قدرة المضي في تمثيل دور العزيز، والتخفي عنهم بحقيقة شخصيته، فقد انتهت الدروس وحان وقت المفاجأة الكبرى التي لا تخطر على بال، فإذا هو يترفق في الإفضاء بالحقيقة إليهم، فيعود بهم إلى الماضي البعيد الذي يعرفونه وحدهم ولم يطلع عليه أحد إلا الله^(٤).

(١) محاسن التأويل، (٦/ ٢٧٠).

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣٧٩.

(٣) التفسير المنير، وهبة الزحيلي، (٧/ ٥٩).

(٤) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٠٢٧).

سابعاً: قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ ^(٨٩) قَالُوا أَأَنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ يَتَقٍ وَصَبْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿[يوسف: ٨٩، ٩٠]

تهيئت النفوس الآن للمصارحة والمواجهة الحقيقية، بعد هذه الكربات الشديدة، والمصائب المتلاحقة، ونفذ صبر يوسف على كتمانته لشخصيته، ورق قلبه، وأخذته الحرمة والشفقة بأهله وأطفالهم ونسائهم وبأبيه الشيخ الكبير، فقال لهم:

١- ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [يوسف: ٨٩]:

جاء هذا القول في صيغة السؤال؛ ليدفعهم إلى التأمل والتدقيق لمعرفة شخصية المتحدث. وفي هذا القول ما يلتمس لهم به العذر بالجهل ولم يتحدث إليهم بعزة الكبرياء وغرور المكانة التي وصل إليها وهدفه أن تخفف عنهم صدمة المفاجأة، فذكر لهم أنهم فعلوا ذلك أيام جهلهم. وقول يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لهم هذا الأمر بهذه الصيغة من التلطف، إنما يعبر أيضاً عن تأثره بشكواهم، ثم تسميته لهم، وظهور ثنياه دفعهم إلى تذكره، وكان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ إذا تبسم كأن ثنياه للؤلؤ المنظوم. قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: تبسم يوسف، فشبهوه بيوسف، ودار بينهم وبينه الحوار الذي جاء في الآية التالية ^(١).

وكان الاستفهام الذي استخدمه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾، استفهاماً تقريرياً وتذكيرياً، حَرَكَ لديهم الذاكرة والذكريات فتبين لهم أنه يوسف، فقالوا مؤكدين ومتأكدين ^(٢):

(١) تفسير الشعراوي، (١١/ ٧٠٦١).

(٢) زهرة التفاسير، (٧/ ٣٨٥٥).

٢- ﴿قَالُوا أَأَتَاكَ لَأْنَتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجَرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]:

تحقق بهذا الموقف ما أوحى الله تعالى به إلى يوسف عندما جعلوه في غيابة العجب: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥]. وقد فاجأتهم الحقيقة وأدهشتهم فما كانوا يتوقعون أن يؤول أمر يوسف إلى كل هذا العز والسلطان والتمكين حتى يصبح عزيز مصر، ويأتي إليه إخوته الذين ألقوه في العجب يطلبون فضله وإحسانه وكأنهم لم يصدقوا ما سمعوا فسألوه^(١):

أ- ﴿قَالُوا أَأَتَاكَ لَأْنَتَ يُوسُفُ﴾:

لقد أعطاهم عَلَيْهِ السَّلَامُ علامة دقيقة واضحة بينه وبينهم ولا يعلمها إلا هو وهم فقط وهي إشارته إلى فعلتهم معه التي طالما حاولوا سترها وإخفاءها سنين طويلة، لقد تصاعد الموقف الآن إلى قمته، فقد ثبت للإخوة أن الذي أمامهم لا يمكن أن يكون إلا أخاهم يوسف فقالوا:

- ﴿أَأَتَاكَ لَأْنَتَ يُوسُفُ﴾ وسؤالهم هذا فيه معنى التقرير أكثر من الاستفهام، فكأنهم قالوا من المؤكد قطعاً أنك أنت يوسف، فليس القصد من الاستفهام التثبت من أن الذي أمامهم يوسف بقدر ما هو بقصد التعبير عن غرابة المفاجأة غير المتوقعة على الإطلاق، وقد عجبوا من أنهم يترددون عليه مدى سنتين أو أكثر وهم لا يعرفونه ولا يكتم نفسه عنهم^(٢).

(١) التفسير الموضوعي، (٤/٢١٩).

(٢) يوسف وقصته العجيبة، ص ٤٦١.

- ﴿أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾: قولهم هذا يدل على أنهم استشعروا من كلامه ثم من ملامحه، ثم من تفهم قول أبيهم لهم ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ إذ قد اتضح لهم المعنى التعريفي من كلامه فعرفوا أنه يتكلم مريداً نفسه. وتأكيد الجملة بأن، ولا الابتداء، وضمير الفصل لشدة تحقيقهم أنه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأدخل الاستفهام التقريري على الجملة المؤكدة لأنهم طلبوا تأييده لعلمهم به^(١)، وجاء جوابه مجرداً عن التأكيد.

ب- ﴿أَنَا يُوسُفُ﴾:

هنا أجابهم من فورهم ببساطة وإيجاز، دون مقدمات ولا فواصل ولا تفصيل، ودون إطناب ولا تفخيم ولا تهويل^(٢).

ج- ﴿وَهَذَا أَخِي﴾:

ولقد عَرَفَهُمْ بأخيه، ويظهر أنه كان موجوداً في جملة من شهدوا الموقف ولهذا عيَّنه باسم الإشارة ﴿هَذَا﴾ [الأنعام: ٧]، ويبدو من تعريفهم به أنه لم يكن معروفاً عندهم، وهذا يشعر بأنه لبس ثياب الأكابر مثله ووضع ما يضعون على رؤوسهم، مما يحجب بعض وجوههم، فمن باب أولى أن يكون يوسف كذلك، وعليه فإن ما ذكره بعض المفسرين من نزعه ما على رأسه ليس ببعيد^(٣).

د- ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾:

هذا إقرار بنعمة الله التي لا حدود لها؛ لأن المن حين يكون من الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما، ونلاحظ أن سيدنا يوسف أكد وحقق بكلمة (قد)

(١) سورة يوسف، ص ٥٣٤.

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣٨٦.

(٣) آيات للسائلين، ص ٣٤٤.

وأُسند المن إلى لفظ الجلالة (الله) الموصوف بكل كامل، والمنزع عن كل نقص، ومن ثم لاحظ أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول ما تراني فيه من جعلي على خزائن الأرض لم يكن عن علم عندي، وإنما هو محض عطاء من الله ومن وإكرام منه سبحانه^(١).

- ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾: بفضلِهِ ورحمته، فلا تعجبوا^(٢).

- ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾: بكل خير في الدنيا والآخرة، وبالخلاص عما ابتلينا به، وبالجمع بيننا بعد التفرق^(٣).

قال الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: وجملته ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾، تعليل لجملته ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾. فيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، اتقى الله وصبر، وبنيامين صبر، ولم يعص الله فكان تقيًا. وقد أراد يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ تعليمهم وسائل التعرض إلى نعم الله تعالى، وحثهم على التقوى والتخلق بالصبر تعريضا بأنهم لم يتقوا الله فيه وفي أخيه، ولم يصبروا على إثارة أبيهم إياهما عليهم، وهذا من أفانين الخطابة أن يغتنم الواعظ الفرصة لإلقاء الموعدة، وهي فرصة تأثر السامع وانفعاله، وظهور شواهد صدق الواعظ في موعظته.

وإن ذكر المحسنين وضع للظاهر موضع المضمّر إذ مقتضى الظاهر أن يقال: فإن الله لا يضيع أجرهم. فعدل عنه إلى المحسنين للدلالة على أن ذلك من الإحسان، وللتعميم في الحكم ليكون كالتيذيل، ويدخل في عمومهِ هو وأخوه، ومن ثم إن هذا في مقام التحدث بالنعمة وإظهار الموعدة سائغ للأنبياء لأنّه من التبليغ كقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «إني لأتقاكم لله وأعلمكم به»^(٤).

(١) من حديث يوسف وموسى، ص ١٩٨.

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ٣٢٠).

(٣) فتح القدير، (٣/ ٧٢-٧٢).

(٤) التحرير والتنوير، (٦/ ٣٧).

أهمية التقوى والصبر والإحسان في التمكين ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ:

إن من شروط التمكين المهمة التي حققها يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ واتصف بها في حياته تقوى الله عَزَّجَلَّ. إن تقوى الله عَزَّجَلَّ تجعل بين العبد وبين ما يخشاه من ربه ومن غضبه وسخطه وعقابه وقايةً تقيه من ذلك وهي أن نعمل بطاعة الله على نور من الله نرجو ثواب الله، وأن نترك معصية الله على نور من الله نخاف عقاب الله. وهذا ما قام به يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وظهرت ثمرات التقوى العظيمة في حياته.

- كالمخارج من كل ضيق وشدة.

- والسهولة واليسر في الأمور.

- تيسير العلم النافع.

- إطلاق نور البصيرة.

- محبة الله وملائكته والقبول في الأرض.

- ونصرة الله وتأييده وتسديده.

- والبركات من السماء والأرض.

- والحفظ من كيد الأعداء ومكرهم^(١)، وغير ذلك من الثمرات...

وقدَّم التقوى للأهمية: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقْ وَيَصْبِرْ﴾؛ فهي الأصل والأساس الذي يبنى عليه الصبر الإيماني، فصبر دون تقوى دنيا بلا آخرة كالذي يصبر عن الزنا خشية الفضيحة والأمراض، لا خوفاً من الله. وأردف الصبر، لأن تقوى الله في عبادته والتزام نعمه والاستقامة على ذلك تحتاج إلى صبر دائم^(٢).

(١) فقه النصر والتمكين، (٦/ ٣٧).

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣٨٦.

والصبر لا بد منه على أمر الله وعن معصية الله وعلى كل مصيبة قدرها الله عَزَّوَجَلَّ. فالتقوى والصبر سلاح المؤمن وعدته في كل أحواله وتقلباته وخاصة في أوقات المصائب والمحن^(١). وقد جاء ذكر الصفتين لمناسبتهما في المعنى، فقد اتقى وصبر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ على كيد إخوته وعلى مراودة امرأة العزيز. وقال: ﴿إِنَّهُ﴾ لتعم كل متق وصابر. وجاء بصيغة المضارع لتفيد الحاضر والاستمرار، فقد يتوقف المرء عن التقوى والصبر وتتقلب حاله ويختم له بسوء الخاتمة والعياذ بالله^(٢).

هـ- ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾:

- ﴿فَإِنَّ﴾: الفاء للتعقيب القريب أو للسببية، أي بسبب التقوى والصبر لله لا يضيع أجر المحسنين.

- و (إن) للتأكيد ﴿اللَّهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ قدم الأجر للأهمية ليدل في هذه المناسبة على ما صار إليه يوسف من أجر كريم وإحسان في الدنيا والآخرة^(٣).

إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يُقرر حقيقة إيمانية يُعلل بها لإخوته المدهوشين السبب من إنعام الله عليه، وفي إيصاله إلى ما وصل إليه، فيقول: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

هذه القاعدة الإيمانية الربانية التي قررها يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ والتي علل بها سر توفيقه ونجاحه لقد تحققت فيه هذه الصفات الثلاثة، فأهله لنيل فضل الله وإنعامه وهي: التقوى، والصبر والإحسان ولم تفارق هذه الصفات يوسف في أي مرحلة من مراحل حياته، فصاحبه هذه الصفات عندما كان في بيت العزيز، وعندما راودته امرأة العزيز،

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٢٠).

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣٨٦.

(٣) يوسف أيها الصديق، المصدر السابق، ص ٣٨٧.

وعندما راودته نسوة المدينة، وعندما أُدخل السجن، وعندما تعالِم مع المساجين وعندما دعاهم إلى الله وعندما قابل الملك، وعندما ولي منصب عزيز مصر، وعندما استلم اقتصاد البلاد، كان في كل هذه المراحل، والمواقف تقياً صابراً محسناً قد كافأه الله على صبره، وتقواه وإحسانه أحسن الله له الجزاء في الدنيا فصار في هذا المنصب الكبير: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾، وهذا في جانب يوسف عَلَيْهِ السَّلَام الذي عرّف إخوته على نفسه وعل سير نجاحه.

وأما من جانب إخوته، فإن الموقف أخرجهم، وأخجلهم، حيث تذكروا ما فعلوه به، وهو صغير، فشعروا بالندم، ثم ها هم يقابلون يوسف عزيز مصر ثلاث مرات، وهو يعلم أنهم إخوته وأنهم فعلوا به ما فعلوا، ومع ذلك كان يكرمهم ويحسن إليهم في كل مرة، ولم يعاقبهم أو يحاسبهم أو يعاتبهم، لقد قابل إساءتهم بالإحسان وجهلهم بالعلم، فازدادوا خجلاً أمامه عندها خاطبوه قائلين^(١).

ثامناً: قال تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾^(٩١)
 قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ^(٩٢) اذْهَبُوا
 بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ إِي يَأْتِ بِصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ
 أَجْمَعِينَ ﴿[يوسف: ٩١-٩٣]

تفسير الآيات الكريمة:

١- ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩١]:

إنه بنفس اللغة الإيمانية، واللهجة الصادقة معنى الإخوة في الكلام ربط الأمور كلها بالله سبحانه، إذ الأمر كله لله وإليه يرجع والفاعلية المطلقة لمشيئته، ولا يكون

(١) القصص القرآني، (٢/ ٢٢٩).

شيء إلا بإذنه وعلمه وحكمته مقرين بالحق ولو على أنفسهم معترفين بالفضل ولو في غيرهم^(١).

أ- ﴿قَالُوا تَاللَّهِ﴾:

مؤكدين قولهم بصيغة القسم الخاصة بالصادق في قسمه ﴿تَاللَّهِ﴾^(٢) وقد مضى بيان أن التاء إذا دخلت على القسم أشعرت بتعجب^(٣).

ب- ﴿لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾:

- اللام للتأكيد. وكذلك (قد) إذا جاء بعدها فعل ماض. وقالوا: ﴿عَلَيْنَا﴾ بصيغة الجمع، أي: عليهم أجمعين، أي: إنه على مستوى وقدرهم جميعاً في كفة أخرى دونه^(٤).

- ﴿لَقَدْ ءَاثَرَكَ﴾: وهما جواب القسم، ومن دلالات قد أنها تقرب الماضي إلى الحاضر، وأن الله آثرك علينا في الزمن الأول، ولا يزال فضلك علينا سارياً إلى الزمن الذي نحن فيه، وهذا إقرار منهم باليمن الذي ذكره يوسف لما قال: ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾^(٥).

إن الله تعالى آثره عليهم، فجعله عزيز مصر ذا الجاه والسلطان، وآثره عليهم بما حباه من كريم الأخلاق، وحسن الخصال، وآثره عليهم بالتقوى والصبر والإحسان، وآثره عليهم بالوحي والنبوة، فمثل ذلك الإيثار في الدين بما أعطاه الله من نعم،

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٣٨٩.

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣٨٩.

(٣) آيات للسائلين، ص ٣٤٧.

(٤) يوسف أيها الصديق، ص ٣٨٩.

(٥) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص ٢٠٣.

والإثارة في الآخر بما آتاه الله من النبوة، وكل تلك معان صحيحة محتملة. ثم قالوا مقرين معترفين بالذنب مشيرين إلى حسن التوبة وصلاح الأمر^(١):

ج- ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾:

- ﴿وَإِنْ كُنَّا﴾: كان من الكينونة للموجود في الوجود أي: وجوداً (حقاً وفعلاً) وبصيغة المتكلم الجمع في الماضي: أي فيما مضى من أمرنا.

- ﴿لَخَاطِئِينَ﴾: اللام للتأكيد، والخطأ مجاوزة ومجانبة الصواب والتعدي عليه، وهو عام في كل أمر فيه خطأ وصواب. وقالوا: ﴿لَخَاطِئِينَ﴾، ولم يقولوا: ظالمين، أو مسيئين؛ لأن الخطأ يشمل كل أنواع ودرجات ما سواه، من ظلم وإساءة وغير ذلك، ولأن الخطأ التعدي ومجاوزة حد الصواب، فتضمنين المعنى أن المخطئ يعرف الصواب ويميز بينه وبين الخطأ. أي: إنه على دراية بأمره وليس جاهلاً أو غافلاً أو ساهياً عما يفعل. وجاء بصيغة الماضي، ليدل على أن ذلك كان فيما مضى من أمرهم ولم يعد موجوداً في الحاضر.

ولقد اعترف الإخوة بأن حساباتهم كانت خاطئة (نظرياً وتطبيقياً)، فأعادوا ترتيب الأوراق على الشكل الصحيح والصواب الذي أمرهم الله به^(٢).

- ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكُمُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾: هذا اعتذار عن الماضي الذي سلف والذي كان فيه ما كان. ويلاحظ أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَام لم يذكر لهم أبشع ما يمكن أن يعمله إخوة بأخ لهم، وهو إلقاؤه في الجب، ولم يعاتبهم لكلمة واحدة يذكرهم فيها بأي شيء كان منهم، وإنما تكلم فقط بما أكرمه الله به وأنه حاول وجدّ في أن يكون تقياً صابراً صادقاً، محسناً في كل أعماله الدينية والدنيوية،

(١) آيات للسائلين، ص ٣٤٧.

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣٩٠.

وتفرغ لمسؤولياته في إدارة شؤون البلاد. وكانت سيرة يوسف في أمره كله لا تتجاوز الكلمتين الجليلتين اللتين ما زاد في حديث إخوته عن ذكرهما وهما: ﴿مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾، وإخوته ما زادوا له بعد هذه الغيبة الطويلة والأحداث الكثيرة عن ذكر أمرين:

الأول: آثرك الله علينا.

الثاني: وإن كنا لخاطئين.

وطوي الماضي كله بجملتين منه، وجملتين منهم، وانتقلوا إلى الحاضر، ولأن عقلاء الناس يعلمون أنهم لو عاشوا في الماضي ضاع منهم الحاضر، فلنكتف باختصاره وطيّه، ولنبدأ في معالجة ما نحن فيه^(١). فقابل يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ اعترافهم بالخطأ وتوبتهم وندمهم بالعفو الصريح البعيد عن اللوم والعتاب والتقريب، فقال:

٢- ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]:

عفو يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في مثل هذا الموقف، وجده درس من أعظم الدروس، إنه عِظَةٌ وعِبْرَةٌ لأصحاب الأحقاد والأنفس الموتورة، وما نالهم من الأذى معشار ما نال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ. وانظروا إلى العزيز في ساعة الاقتدار، ومن آذاه في موقف الإنكار، وفي إمكانه أن يأخذه بذنبه أخذ الجبابة، فإذا به يعرض حتى عن اللوم والتوبيخ^(٢).

أ- ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾:

أي: لا ملامة ولا توبيخ ولا عتاب ولا أدنى مؤاخذه مني عليكم^(٣). ولن أذكر لكم منذ اليوم ذنباً، فالماضي قد مضى بما فيه، وقد مسح لقاء اليوم شقاء السنين الطويلة،

(١) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص ٢٠٤.

(٢) آيات للسائلين، ص ٣٤٧.

(٣) يوسف أيها الصديق، ص ٣٩٣.

وعناء المحن الماضية الكثيرة، ولم يكتفِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذا، بل توجه إلى الله تعالى يسأله المغفرة لهم والستر عليهم^(١):

ب- ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾:

هكذا نرى أن يوسف يرجع الأمر إلى الله ويرد الفضل إليه في كل مناسبة، فهو صاحب الشأن والأمر كله، وقال: ﴿يَغْفِرُ﴾ بصيغة المضارع، لتدل على الحاضر المستمر، ولتناسب قوله: ﴿الْيَوْمَ﴾، وليشير على معنى الدعاء المضمّن فيه. ولم يذكر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ نفسه، فلم يقل: غفرت لكم. وليشير - إضافة إلى تأدبه مع الله - إلى معنى أن الظلم والسوء لم يكن بينهم وبينه على الحقيقة، بل كان بينهم وبين الله، إذ فسقوا عن أمره، وعصوه واتبعوا ما نهاهم عنه من طاعة النفس الأمارة والشيطان. ومن البديهي أن يوسف ضمّن في كلامه هذا الصفح والعفو عنهم، وما ذكر مغفرة الله لهم إلا وهو يعلم أن مغفرة الله مرتبطة بحقوق العباد وأن من تمام مغفرة الله أن يعفو المظلوم، أو أن يأخذ حقه من ظالمه، فحق العباد محفوظ في ميزان عدل الله حتى يؤدّى أو يعفو صاحبه.

وهكذا سكت يوسف، وهو صاحب الحق في ظاهر الأمر، عن التصريح بمغفرته لإخوته، وضمّنهما في قلبه، وإعلاء لأمر الله، وأدباً معه، وتجرداً من العبد أمام الله عزَّ وجلَّ^(٢)، صاحب المنّة والإحسان العظيم.

ج- ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾:

هذا فهم بحقيقة أن أيّ رحمة في العالم أو من أي أحد، وإنما هي مستمدة من رحمته سبحانه وتعالى. وقد قال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ذلك، وهو واثق من إجابة دعوته

(١) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٢١).

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣٩٢.

لأنَّه قد غفر لهم خطأهم القديم وعفا عنهم والله أولى منا بالعفو عنهم^(١). وهذا موقف يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ القائم على العفو الصفح، والتوجه إلى الله بالدعاء لإخوانه بأن يغفر لهم ويرحمهم جميعاً، وكان على يقين بأن الله رحيم بعباده، ومن رحمته أنه يغفر الذنب ويقبل التوبة ويزيد من فضله إحساناً.

- ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾؛ لأنَّه هو غفور كريم، ولديه جماع الخير كله، ومنها الرحمة لأنَّه: ﴿أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾. وهكذا ينتهي في هذا المشهد ظلم الإخوة ليوسف وأخيه بخاتمة الحسنی، وتعود المياه إلى مجاريها، وتصفو النفوس، ويتآخى الإخوة بأخوة الإيمان الحققة الصادقة^(٢).

وبعد قرون كثيرة متوالية وقف خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند الكعبة المشرفة، بعد أن دخل مكة المكرمة فاتحاً، وقال يخاطب أهل مكة: «ما تقولون إنني فاعل بكم؟» قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم. فقال: «أقول كما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾؛ اذهبوا فأنتم الطلقاء»^(٣).

ولا شك أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وقف من إخوته موقفاً كريماً ونبيلاً، ولكن موقف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أكرم وأنبل؛ لأن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قال ذلك لإخوته، بينما النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال ذلك لقبيلته وعشيرته. وإخوة يوسف ألقوه في الحب، وأبعدوه عن أبيه، بينما المشركون كذبوا رسول الله، وآذوه، وعذبوا الصحابة، ومنعوه أن يبلغ دعوة الله تعالى، حتى خرج مهاجراً إلى المدينة المنورة؛ فحاربوه،

(١) تفسير الشعراوي، (١١/٧٠٦٦).

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣٩٣.

(٣) زاد المعاد، (٣/٤٠٨).

وحاولوا قتله، وقتلوا كثيراً من أصحابه، ومثلوا بهم، وجمعوا الأحزاب عليه، ثم بعد كل هذا عفا عنهم بعد أن تمكن منهم، فكان عفوه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أكمل وأنبل^(١)، هذا وقد أمر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يسرعوا بالبشرى إلى أبيه قائلاً^(٢):

٣- ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: ٩٣].

عادت آيات السورة للمرة الثالثة إلى قميص يوسف، وهو في هذه المرة لا يحمل دماً كذباً، ودليل براءته، وإنما حمل في هذه المرة الدواء والشفاء لعيني أبيه يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ. فالأمر معجزة أكرم الله تعالى بها نبين كريمين، وهو سبحانه قادر على خلق الشفاء من دون دواء وما الدواء إلا سبب للشفاء، أما المسبب الحقيقي فهو الله تعالى^(٣).

وهذه الآية الكريمة تدل على أن بصر يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ قد ذهب من شدة الكمد والحسرة والأسف، وكثرة البكاء، وارتداد البصر من خوارق العادات، وهذا يوسف ويعقوب يرد الله على أيديهما البصر بعد ذهابه قبل عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي كان يبرئ الأكفم والأبرص^(٤).

أ- ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾:

تدل الآية على أن لهذا القميص شأنًا. وكلمة: ﴿أَذْهَبُوا﴾ تعني أنه جدير بأن تذهبوا به وحده. ثم قال: ﴿هَذَا﴾ وكلمة (هذا) بعد: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي﴾

(١) التفسير الموضوعي، (٢/ ٢٢١).

(٢) التفسير الموضوعي، (٢/ ٢٢١).

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٢٢).

(٤) زهرة التفاسير، (٧/ ٣٨٥٧).

أفصحت الجملة عن شيء وراء القميص، وهذا الشيء هو أول ما كان بين يوسف وإخوته وله دلالة قاطعة على نبوة يوسف لأن قوله بعد ذلك:

- ﴿يَأْتِ بِصِيرًا﴾؛ إخبار بغيب، ثم إن هذا القميص الذي يحمل دلالة نبوة يوسف هو نفسه الذي وجد يعقوب ريحه لما فصلت الجماعة من تراب مصر، وهي في طريقها إلى أرض يعقوب. وكان هذا هو الذي أو مأت إليه كلمة: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي﴾ وكلمة ﴿هَذَا﴾^(١).

ب- ﴿قَالَ قَوْهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي﴾:

- ﴿قَالَ قَوْهُ﴾: الفاء للتعقيب، أي: بادروا من فوركم بإلقائه أو تكون لسببية، أي: إنه سبب لما سيكون من بعد، أي بسببه.

- ﴿عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي﴾: خص نفسه بالإضافة، ولم يقل: أبانا، أو أياكم، ليدل ويؤكد على الخصوصية بينه وبين أبيه^(٢).

ج- ﴿يَأْتِ بِصِيرًا﴾:

جاءت ﴿يَأْتِ بِصِيرًا﴾ بصيغة فعل المضارع، وبدون فواصل وذلك يدل على فورية الفعل، أي بمجرد إلقائه عليه فيعود بصيراً، وهذا يدل على إعجاز خارق من أمر الله القادر.

ويكون المعنى: طلب منهم أن يذهبوا بقميصه فيلقوه على وجه أبيه، ليرتد إليه بصره فيأتون به، أي: يأتيني بصيراً، كما أنه لم يأت بصيغة الأمر في الفعل (اتنوني به) مثلاً كما فعل مع إخوته أدباً مع أبيه.

(١) من حديث يوسف وموسى، ص ٢٠٦.

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٣٩٥.

- ﴿بَصِيرًا﴾: على وزن فعيل، ليدل على قوة الصيغة وعظمتها. ولم يقل: مبصرًا. أو بصيغة الفعل: يبصر. وجاء بصيغة الإبصار، ليدل على معنيها: الأول: في رؤية العين. الثاني: في العلم، أي: يبصر الأشباح والصور بعينه، وحقيقتها وكنهها بقلبه. وهذا من كريم فيض الرحيم الرحمن^(١).

د- ﴿وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾:

هذا تعبير قرآني دقيق، وأن يحضروا معهم كل من يمت بصلة قرابة لهم أو يعمل معهم^(٢).

- ﴿وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ﴾: أي جهزوا أمركم من بعد دون استعجال مخل وانتقلوا إلى مصر تحت رعايتي، فقد وجد يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قد مسهم الضر حقًا بهم وبأهلهم، لما ظهر له من توفية الكيل بلا ثمن، وطلبهم الصدقة، فأراد بذلك إكرامهم جميعًا^(٣).

- ﴿وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾: أي أسرة آل يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ بأصولها وفروعها ستنقل من فلسطين إلى مصر، لتكون إقامتها هناك. ونلاحظ أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ صار هو الأمر الناهي وما على إخوته - وهم أكبر منه - إلا التنفيذ، أي: صارت قيادتهم، وإمرتهم إلى يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقام بالقيادة والمسؤولية خير قيام عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٤).

(١) المصدر نفسه، ص ٣٩٦.

(٢) تفسير الشعراوي، (١١/ ٢٠٦٧).

(٣) يوسف أيها الصديق، ص ٣٩٧.

(٤) القصص القرآني، (٢/ ٢٣٢).

المبحث الثالث عشر:

أثر البشارة على يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وطلب أبنائه منه المغفرة واجتماع شملهم عند يوسف بمصر

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۚ لَوْلَا أَنْ تُفِيدُونِ ۙ﴾ ٩٤ ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ۙ﴾ ٩٥ ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ۚ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۙ﴾ ٩٦ ﴿قَالُوا يَتَابْنَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ۙ﴾ ٩٧ ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۙ﴾ ٩٨ ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوِيَهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ۙ﴾ ٩٩ ﴿وَرَفَعَ أَبْوِيَهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۙ﴾ ١٠٠ ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ۙ﴾ [يوسف: ٩٤-١٠١].

تفسير الآيات الكريمة:

أولا قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۚ لَوْلَا أَنْ تُفِيدُونِ ۙ﴾ ٩٤ ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ۙ﴾ ٩٥ [يوسف: ٩٤، ٩٥]

فصلت العير، أي خرجت من مصر. وكلمة (لما) الحينية المتضمنة معنى الشرط
توجب أن يكون يعقوب قال: إني لأجد ريح يوسف فور انفصالها عن أرض مصر، لأن
(لما) توجب ترتيب الجواب على الشرط، وتؤكد ذلك وتقطعه فور وقوع الشرط،

وهذا من عطاء الله لصفوة عباده وأنبيائه. وقال العلماء: وقد أشمه الله ما عبق من القميص من ريح يوسف من مسيرة أيام، وهي معجزة ظاهرة. قال مالك: قد أوصل ريحه من أوصل عرش بلقيس، قبل أن يرتد إلى سليمان طرفه^(١).

١- ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾
[يوسف: ٩٤]:

أ- ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾:

لمن حوله من الأهل والأحفاد، فأولاده في طريقهم إليه وهذا هو المفهوم بقريته السياق والمقام.

ب- ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾:

أي رائحته وهذه معجزة لنبي الله يعقوب، وإن كلامه في غاية الوضوح^(٢).

ج- ﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾:

أي إلا أن تنسبوني إلى الفند. والفند نقصان عقل بسبب الشيخوخة. وما هي شيخوخة، ولكنها نبوة وشفقة أبوة؛ ﴿لَوْلَا﴾ حرف شرط، وتعليق وجوابه محذوف، أي لولا أن تفندوني لصدقتم^(٣). وقد حدث ما توقعه فقالوا:

٢- ﴿قَالُوا تَأَلَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيرِ﴾ [يوسف: ٩٥]:

قال ابن عاشور: والذين قالوا: ﴿تَأَلَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيرِ﴾، هم الحاضرون من أهله، ولم يسبق ذكرهم لظهور المراد منهم، وليسوا أبناءه، لأنهم كانوا سائرين في طريقهم إليه^(٤)، وقد تابوا وأنابوا وحسن حالهم.

(١) من حديث يوسف وموسى، ص ٢٠٩.

(٢) يوسف وقصته العجيبة، ص ٤٧٨.

(٣) زهرة التفاسير، (٧/ ٣٨٥٩).

(٤) التحرير والتنوير، (٦/ ٣٩).

قال الشعراوي: وكأنهم ملوا حديثه عن يوسف، وأعرضوا عن كلامه قائلين له: إلى متى ستظل على ضلالك وهم لا يعنون الضلال بمعنى الخروج عن المنهج، ولكنهم يعنون الضلال بمعنى الجزئيات التي لا علاقة لها بالتدين من محبة شديدة ليوسف وتعلق به وتمني عودته، وكثرة الحديث عنه، وتوقع لقائه. وهم الذين ظنوا أن يوسف قد مات^(١). وأيًا ما كان مرادهم فإن العبارة فيها غلظة وخشونة ما كان لهم أن يوجهوها لجدهم فضلاً عن نبي. وذلك من جملة بلاء يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي قضاه الله له ليرفع به درجته، فإن ظلم وجهل القرابة وقعه في النفس شديد؛

وظلم ذوي القربى أشد مضاضةً على المرء من وقع الحسام المهند
بل ربما صدق في هؤلاء قول الآخر:

أشد عداوة وأقل نفعاً من الرجل البعيد الأقربونا^(٢)

بنى الأحفاد قولهم على ما قاله آباؤهم كذباً على الله وعلى أبيهم وعلى الناس من قبل، وإن الإنسان ليعجب من حلم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وصره، فقد قابل أحفاده ومن حولهم برحمة وشفقة والتمس لهم العذر ولم يرد عليهم بقوله، بل ترك الأحداث والوقائع هي التي تحدث عن نفسها.

ثانياً: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٦]

١ - ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ﴾:

(الفاء) عطف على التعقيب، ليدل على سرعة ولهفة البشير في المجيء، و(أن) صلة مفصلة لتدل على قوة المعنى التالي لها.

(١) تفسير الشعراوي، (١١/ ٧٠٧).

(٢) آيات للسائلين، ص ٣٥٧.

- ﴿جَاءَ﴾ حضر، أي: وصار حاضراً معلوماً مشهوداً.

- ﴿الْبَشِيرُ﴾: (أل) التعريف، وعلى وزن فعيل، ولم يقل مبشراً، ليدل على أنه معرف غير مجهول، ولا نكرة، وليدل على سعة وقوة وصفة البشارة التي جاء بها^(١).

٢- ﴿الْقَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَأَرْتَدَّ بَصِيرًا﴾:

- ﴿الْقَهُ﴾: كما أمر يوسف حرفياً وجاء بالمفرد على الحقيقة، وقيل هو نفس الذي جاء بالقميص الكذب، أراد أن يشفع له ذلك عن سوء فعله.

- ﴿عَلَى وَجْهِهِ﴾: أي على وجه يعقوب، والوجه فيه العين محل البصر. المراد: شفاؤه.

- ﴿فَأَرْتَدَّ﴾: الفاء للتعقيب الفوري، أو للسببية. أي: بسبب إلقاء القميص على وجهه ارتد بصيراً.

- ﴿أَرْتَدَّ﴾: جاء باللفظ، ليدل على العودة للحالة التي كان عليها من قبل، أي: إنه كان بصيراً ثم صار إلى حالة عدم الإبصار، ثم ارتد إلى حالة الإبصار التي كان عليها.

- ﴿بَصِيرًا﴾: قوة وسعة في صفة الإبصار^(٢).

والآية توصف لنا بمجرد أن لامس القميص وجه يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ارتد بصيراً كما كان. وهذا دليل على هذه المعجزة الخارقة للعادة، والتي يخترق بها القدر الرباني مألوف البشر. وإنها آية أجراها الله عَزَّجَلَّ لينبّه بها على كرامة عبده يعقوب ويوسف، ولتكون آية للناس يتناقلونها جيلاً بعد جيل، وليقصها القرآن فتبقى من معالم الإيمان^(٣).

(١) آيات للسائلين، ص ٣٥٧.

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٤٠١.

(٣) سورة يوسف، ص ٥٤٣.

٣- ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾:

ونرى في هذه الجملة ما فيها من ود وحب ورحمة وسمو في الأخلاق ونبل في المواقف.

- ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ﴾: فأرجع ما به من علم إلى الله تأدباً مع الله وإحقاقاً للحق في إرجاع الأمر إلى مصدره وواهبه، وفيه تضمين إلى إرجاع نعمة بصره إلى الله سبحانه.

- ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: أي مما لم تؤتوه، أي: من علم بأمر يوسف وشأنه ومآله وحسن خاتمتهم جميعاً، وأنه حي يرزق. وتأويل الرؤيا التي رآها يوسف مما لم يعلموه ولم يؤذن له بإعلامهم إياه إلا في حينه وبقيت خيوطه العريضة سرّاً في صدره يلمح به ولا يصرح رغم استفزازاتهم له بالتفنيذ وأنه لفي ضلاله القديم. والعلم بالشيء لا ينافي الحزن والتأثر عليه، فهذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حزن على ولده إبراهيم وهو يعلم أنه قد سبقه إلى الجنة، وفي هذا دليل على أن ليس كل علم يذاع وينشر، فبعض العلوم يختص الله بها بعض الناس وينهاهم عن إفشائها، وبعضها تعلن في مناسبتها وبعضها تعلن لبعض الناس دون غيرهم. وفي الحديث: «أمرت أن أخطب الناس على قدر عقولهم».

أما علوم الدين من عقيدة وشريعة فيجب أن تذاق وتعلن وتبلغ وتعلم، ولكن بأسلوب حكيم^(١) على نهج الدعاة المهيدين.

إن الآية الكريمة تبين أنه لا بأس أن تذكر الآخرين بصحة توقعاتك بعد تحققها شرط أن تكون مبنية على علم لا حدس، كما أن استحضار الخصوصية مع الله

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٤٠٣.

من أعظم الأسباب الجالبة للمحبة والشوق إليه سبحانه، فالحب ينبت على حافات المنن وشهود النعم^(١).

لقد أراد الله بآل يعقوب وإخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ خيراً، فساق لهم أسباب التوبة والرجوع إليه وعندما رأوا المعجزات للنبيين الكريمين والدهم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وأخوهم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وآخرها رجوع البصر إلى أبيهم بعدما ألقى البشير القميص على وجهه، انهدم كل شيء سلبي في نفوسهم وفاض الخير فيها فطلبوا من أبيهم الدعاء لهم بالمغفرة.

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَتَابْنَا أَسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿ [يوسف: ٩٧، ٩٨]:

بعد أن جاء البشير وبان الأمر وظهر صدق يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يملك الأبناء إلا أن قالوا:

١ - ﴿قَالُوا يَتَابْنَا أَسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩٧]:

- ﴿قَالُوا﴾: أي الإخوة وبدون مقدمات ولا فواصل.

- ﴿يَتَابْنَا﴾: بنداء التقرب والتحب.

- ﴿أَسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾: طلبوا منه الدعاء بأن يغفر الله لهم ذنوبهم. وفي هذا الطلب تعبير عن طلب مزدوج، فهم يطلبون منه الصفح والعفو والنزول عن حقه حيالهم، بأن طلبوا منه أن يسأل الله تعالى أن يغفر لهم. وتلك التفاتة جميلة تدل على ذكاء وصفاء سريرة^(٢).

(١) أيها الصديق، محمد خيري، ص ١٧٣.

(٢) لطائف التفسير من سورة يوسف، ص ٣٦٥.

- ﴿ذُنُوبًا﴾: وهم يشيرون بذلك إلى أنها أكثر من ذنب واحد، أي: على الجمع في الذنوب؛ ليشمل سرها وجهرها، قديمها وحديثها، كبيرها وصغيرها، وعلى الجمع فيهم: ﴿إِنَّا﴾؛ ليعمهم جميعاً ممن أجرم بيده أو مشى برجله أو نطق بلسانه أو شارك برأيه أو أقر بقلبه، أو سكت عن نصحه فلم يأمر بمعروف ولم ينه عن منكر، فالكل مذنبون وإن اختلفت درجاتهم وتبعاتهم.

- ﴿إِنَّا﴾: أصلها: (إنّ) للتأكيد، و(نا) للجمع، أي: إنهم أكدوا ثانية خطأهم وأقروا به جميعاً.

- ﴿كُنَّا خَطِئِينَ﴾: بصيغة الجمع في اسم الفاعل، ليدل على الخطأ في فعلهم فيهم جميعاً والخطأ يشمل كل ذنب، فعمموا ولم يخصصوا، فربما غفلوا في التخصيص عن ذنوب تسلت بعضها من بعض، ولم يعرف الذنب، ولم يعرف نوع الخطأ؛ لأن الله سبحانه أمر بالستر^(١).

ولم يجبههم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى طلبهم مباشرة، بل أخره إلى وقت آخر، كأنه عَلَيْهِ السَّلَامُ أراد أن يشعرهم بفداحة ذنبهم. أو أنه أخر الاستغفار إلى وقت ترجى فيه الإجابة أكثر، كوقت السحر. أو لعله عَلَيْهِ السَّلَامُ أخره حتى يلتقي بيوسف ويراه ويطمئن عليه، "فما راء كمن سمعا"^(٢).

٢- ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٨]:

إن الآية الكريمة تدل على حب يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبنائه متأصل متجذر في أعماقه، وهذا سر من أسرار الله فمهما كانت قسوة الأبناء على الآباء شديدة ومتمادية،

(١) لطائف التفسير من سورة يوسف، المصدر السابق، ص ٣٦٥.

(٢) التفسير الموضوعي، (٤/ ٢٢٧).

فليس أسرع من قلب الآباء صفحاً وعفواً، ولو أدرك الأبناء عظمة هذا السر لما وقع ولد في جرم العقوق^(١).

أ- ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾:

- ﴿سَوْفَ﴾ كلمة السين وسوف تدلان على وقوع الفعل في المستقبل، وكلمة (سوف) تدل على بعده قليلاً من (السين) ومعنى هذا أن سيدنا يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لو قال: (سأستغفر لكم ربي) لدل على أنه سيستغفر بعد قليل، ولكنه قال: (سوف) فدل على أنه سيستغفر بعد زمن وإن قل، ولهذا قال بعض ساداتنا العلماء إن يعقوب أمهلهم قليلاً حتى يتقربوا من الله أكثر، فإذا استغفر الله لهم غفر لهم. ولم يكن هذا مع يوسف لأنه قال: ﴿لَا تَزَيِّبْ عَلَيَّكُمْ﴾ وهذا طرح منه لكل ما فعلوه، ثم أضاف الدعاء لهم، وقال: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ﴾، ثم طمأنهم بأنه سبحانه أرحم الراحمين، وأنه مهما عظم ذنب الناس، فإنه سبحانه وتعالى أوسع رحمة وأعظم فضل.

قال عطاء: طلب الحوائج إلى الشباب أسهل منها في الشيخوخ، ألا ترى قول يوسف: ﴿لَا تَزَيِّبْ عَلَيَّكُمْ﴾، وقول يعقوب: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾.

قال العز بن عبد السلام في قوله ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾: أخره إلى صلاة الليل أو السحر وليلة الجمعة^(٢).

إن الدعاء في الأوقات الفاضلة معروف في السنة، ومنه شرع الاستغفار بالسحر، وعقب الصلوات وفي السجود وعند الأذان وبينه وبين الإقامة وعند الإفطار في الصيام أقرب للإجابة مما عداها^(٣).

(١) لطائف التفسير من سورة يوسف، ص ٣٦٨.

(٢) تفسير سلطان العلماء، (٢/١٣٩).

(٣) إتحاف الإلف، (٢/٨٤٢).

- ﴿أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ﴾: أي أسأل لكم المغفرة.

- ﴿رَبِّي﴾: جاء بلفظ الرب ﴿رَبِّي﴾ ليبين حال السكينة والطمأنينة التي يعيشها يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ في كلمة واحدة قالها، وهو تعبير عن ثقته بالله وشعوره بقربه منه^(١). وفي كلمة ﴿رَبِّي﴾ تأدب مع الله في إرجاع الأمر كله إليه، عرفاناً وذللاً وفقراً إليه سبحانه. وللدلالة على صلة الحب القوية بين الله الرب، ونبیه العبد، فالرب مولی النعم كلها، والمغفرة عطاء من عطاءات الربوبية^(٢) وفيه تضمين منه بأنه غفر هو لهم وعفا عنهم.

ب- ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾:

- ﴿إِنَّهُ هُوَ﴾: إن للتأكيد والهاء عائدة إلى: ﴿رَبِّي﴾ والضمير ﴿هُوَ﴾ لزيادة التأكيد، وأنه هو صاحب الشأن، ولتمييز كمال صفاته عن نظائرها في غيره ولم يقل: سوف أستغفر لكم ربي الغفور الرحيم، بل أضاف: ﴿إِنَّهُ﴾ للدلالة على عظيم تقديره ومعرفته ويقينه بعظيم صفات ربه^(٣).

- ﴿الْغَفُورُ﴾: الذي يستر الذنب فلا يظهره ولا يؤاخذ عليه^(٤)، فالغفور والعفو سبحانه، هو الذي لم يزل ولا يزال بالعفو معروفاً وبالغفران والصفح عن عبادة موصوفاً، كل أحد مضطر إلى عفوه ومغفرته كما هو مضطر إلى رحمته وكرمه، وقد وعدنا بالمغفرة لمن أتى بأسبابها، قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢].

(١) لطائف التفسير، ص ٣٦٧.

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٤٠٦.

(٣) يوسف أيها الصديق، ص ٤٠٧.

(٤) يوسف أيها الصديق، المصدر السابق، ص ٤٠٧.

فالعفور: الذي لم يزل يغفر الذنوب ويتوب على كل من يتوب^(١). فيعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ على معرفة عميقة بمن يغفر الذنوب، فذكر نفسه به وكذلك دعا أولاده إلى قصده وحده سبحانه، فجدران اليأس وجبال الهموم وكآبة المعاصي تتصدع وتزول وتتلاشى، وتطلق أرواحهم من سجون المعاصي إلى آفاق التوبة، فهل هناك أجمل من طلب المغفرة بعد الوقوع في الذنوب والمعاصي من الله؟

قل: استغفر الله، لا تقلها فقط، تأمله فيها: استغفر الله، إن قلتها من قلبك تتناثر جميع الوسوس والمخاوف^(٢). وسبحان القائل: ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْطُوعُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

- ﴿الرَّحِيمُ﴾: بإسباغ الخيرات كلها ظاهراً وباطناً وحسناً ومعنى. وأضاف (أل) التعريف وبصيغة (فعيل) للدلالة على قوة الصفة وعظمتها وسعتها^(٣).

إن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ يعلمنا عبودية الرجاء والتعلق برحمة الله ومغفرته وعدم اليأس من رحمته التي وسعت كل شيء وهو الذي يغفر الذنوب جميعاً. ومما تستجلب به رحمة الله، الاستغفار ولذلك قدم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ اسم الغفور الذي يغفر الذنوب ويرحم العباد. والملاحظ في خطاب يعقوب لأبنائه حضور اسم الرب ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ مع الانكسار والخضوع والتوجه في طلب المغفرة من الغفور والرحمة من الرحيم.

(١) والله الأسماء الحسنی، ص ٥٦٩.

(٢) لأنك الله، علي جابر الفيقي، ص ١٥٦.

(٣) يوسف أيها الصديق، ص ٤٠٧.

إن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أكد لأبنائه بأن ربه هو ﴿الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ فقد جمع بين الاسمين الكريمين، لأن المغفرة تسقط عقوبة الذنوب، ويستر الله عَرَجَ ذُنُوبِ عِبَادِهِ وَيَقِيهِمْ آثَامَهَا، كما يقي المغفر الرأس من السهام، وهذا مقتضى رحمته سبحانه، كما أن في الجمع بين هذين الاسمين الكريمين إشارة إلى الكرم الغامر والفضل العميم، فإن كونه سبحانه (الغفور) يقتضي التجاوز عن الزلات والعثرات فإذا قرن (الغفور) بـ(الرحيم) الذي ظهرت آثار رحمته فهو الفضل الذي ليس وراءه فضل، فالمغفرة تخلية عن الذنوب، والرحمة تحلية بالفضل والثواب^(١).

- ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾: حقيقة إيمانية أساسية من حقائق الابتلاء والجزاء، والذي من رحمته سبحانه بعباده أن يغفر ذنبهم ويرحم ضعفهم إذا ما أخلصوا التوجه إليه وحده وجاء ذكرها مناسباً لطلبهم الاستغفار وليقرر ويؤكد أن الله سبحانه هو صاحب الحق أولاً وآخرأ وأنه بيده الأمر كله وأنه أهل التقوى وأهل المغفرة^(٢).

وبكلام يعقوب لأولاده: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ؛ طوى الماضي بأحداثه وصرنا أمام مرحلة جديدة في حياة آل يعقوب فقد أخذ يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أهله جميعاً؛ أبناءه وخدمهم ودوابهم ومواشيهم وأموالهم وأغراضهم، وسار الموكب الإيماني من جنوب فلسطين إلى مصر ليستقروا جميعاً عند يوسف عزيز مصر.

(١) والله الأسماء الحسنی، ص ١٤٨.

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٤٠٧.

رابعاً: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ۝٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَبْتَهِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿[يوسف: ٩٩، ١٠٠].

وصل مواكب الإخوة إلى مصر، ودخلوا جميعاً على يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، عزيز مصر وحاكمها الفعلي^(١).

١ - ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩]:

هذا هو الدخول الرابع للإخوة وهو الأول بعد المغفرة والخاتم في القصة. وتميز بدخول آل يعقوب جميعاً وتميز بتأويل الرؤيا الصادقة، نظرياً في أول القصة وتأويلاً عملياً واقعياً حقاً، وتميز بأن بهذا الدخول ما بعده من استقرار بني إسرائيل في مصر أمداً طويلاً وما جرى لهم فيها من أحداث خطيرة اختتمت بمجيء موسى عَلَيْهِ السَّلَام وإخراجه منها بأمر الله^(٢).

أ - ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾:

جاء بالفاء المعقبة، ليدل على لهفتهم بسرعة الدخول على يوسف ولقائهم به، وصرح باسم يوسف ولم يضممه ولم يأت بلقبه ليدل على أنه علم هذا الدخول ومحوره صاحب الشأن فيه والقائم عليه وأن الابن والأخ يوسف كان المقصود بذاته أيًا كان لقبه وصفته.

(١) القصص القرآني، (٢/ ٢٣٠).

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٤١١.

ب- ﴿ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾:

خاصة من دون الباقيين، أي: ضمنهما إليه وأسكنهما عنده، ليدل ويؤكد بهذه الآية على أن إيواء الأبناء للآباء - خصوصاً إذا كبروا - بر محمود وواجب مفروض أكدته الشرائع السماوية والأخلاق الزكية^(١).

ويبدو من ظاهر الآية أن أمه كانت حية خلافاً لما ذهب إليه أكثر المفسرين، فإنهم قالوا: ماتت أمه قبل أن تبدأ أحداث القصة وتأثروا بذلك بما يروى عن بني إسرائيل من أخبار، وهي أخبار تحتاج إلى دليل صحيح من سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والأصل حمل الكلام على حقيقته^(٢).

ويبدو أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قد استقبلهم عند دخولهم إلى مصر استقبال العظماء، فاستقبلهم خارج البلد مرة ليريحهم من عناء السفر ويستقبلهم وجهاء البلد وأعيانهم، وهذا هو الدخول الأول الذي آوى فيه أبويه، ثم دخل بهم الدخول الثاني إلى البلد بدليل أنه قال:

- ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾؛ ادخلوا آل يعقوب جميعكم مصر وكرر لفظ الدخول ليميزه عن الدخول الأول على يوسف حيث آوى إليه أبويه، وجاء به بصيغة فعل الأمر، ليدل على معنى دخولها مع البقاء والإقامة المستقبلية فيها. ويلاحظ أن يوسف قال: (ادخلوا)، ولم يقل: اسكنوا، أو: أقيموا في مصر، فتفضل الله على نبيه يوسف ببركة قوله: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾؛ فأمن الداخلين من آل يعقوب بصورة خاصة، ولم يعم ذلك إلى ذرائعهم من بني إسرائيل لحكمة أرادها الله، وهذا من دقة أداء اللفظ القرآني^(٣).

(١) يوسف أيها الصديق، المصدر السابق، ص ٤١١.

(٢) القصص القرآني، (٢/ ٧٢٢٧).

(٣) يوسف أيها الصديق، ص ٤١٣.

- ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾؛ إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ دائم الصلة والتوجه إلى الله، والأدب معه سبحانه، يذكره على جميع أحواله، يردع إليه في كل خير ويرد إليه الأمر في كل شأن وها هو هنا يعلق الأمر، بأمنهم في دخولهم. وقد قال الطاهر بن عاشور: والمقصود: الأمن حال اطمئنان النفس وراحة البال وانتفاء الخوف من كل ما يخاف منه، وهو يجمع جميع الأحوال الصالحة للإنسان من الصحة والرزق ونحو ذلك. وجملة: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ تأدب مع الله كالا حتراس في الدعاء الوارد بصيغة الأمر وهو لمجرد التيمن^(١).

عاش آل يعقوب آمنين في مصر إلى أن جاء العهد الفرعوني، فتعرضوا على أيدي الفراعنة إلى أشد أنواع العذاب والتنكيل واستعبدوا حتى بعث الله فيهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ليخرجهم من أرض مصر^(٢)، وكان ما كان وكأن المشيئة على لسان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ مشيرة إلى أن هذا الأمن لن يدوم وإن طال زمنه^(٣).

ولقد هيا الله ليعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبنه أسباب الانتقال من حياة البداوة إلى حياة الحضر، وأدخلهم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في حضارة مصر من بابها الواسع في مدينتها المتحضرة في جوانبها المادية، وقام يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بدعوة التوحيد في تلك المملكة الهكسوسية^(٤).

٢- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠]:

(١) التحرير والتنوير، (٦/ ٤١).

(٢) لطائف التفسير، ص ٣٧٢.

(٣) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص ٢١٦.

(٤) سنن الله في الحضارة، ص ٥٣.

ويا له من مشهد بعد توالي الأعوام وانقضاء الأيام وبعد طول المعاناة والألم والضيق وبعد الامتحان والابتلاء وبعد الشوق المضني والحزن الكامد واللهف الشديد.

ويا له من مشهد ختامي موصول بمطلع القصة، ذلك في ضمير العيب وهذا في واقع الحياة. ويوسف بين هذا كله يذكر الله ولا ينساه ويذكر رؤياه ويرى تأويلها بين يديه في سجود إخوته له - تكريما واحتراما وتقديرا - وقد رفع أبويه على السرير الذي يجلس عليه كما رأى الأحد عشر كوكبا والشمس والقمر له ساجدين^(١).

أ- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾:

إن من تمام البر أن لا يعتبر نفسه في حضرة والديه هو العزيز، ولا يرتفع عليهما في المجلس وإن كان يسرهما هذا، ولكنه من خلقه العظيم وبره الكريم لا يفعله بل يرفع أبويه على سدة الحكم وكرسي الوزارة^(٢).

ب- ﴿وَحَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾:

عطف على ما سبق، أي: بعد رفع أبويه واستوائهما على العرش خرّ القادمون على يوسف له سجداً، وترك للسامع المتدبر أن يفهم أن في مقدمة الساجدين ومن قصدوا بذلك هم إخوة يوسف، بدليل قوله لأبيه من بعد: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ﴾.

والخرّ: سقوط بصوت، وهكذا جعلنا اللفظ تتخيل حركات الساجدين وما رافقها من أصوات حركتهم وأفواههم بالتحية والتعظيم والإجلال.

(١) في ظلال القرآن، (٤/٢٠٢٩).

(٢) سورة يوسف، القره داغي، ص ٥٤٧.

- ﴿سُجَّدًا﴾ وهذا التعبير أضاف لفعل السجود الحالة الوصفية والمعنوية لجمع من الساجدين^(١).

وقد أجمع أهل العلم على أن هذا السجود لم يكن عبادة مصروفة ليوسف عَلَيْهِ السَّلَام.

وإما هو سجود تحية وإكرام.

وقال القرطبي: أجمع المفسرون أن ذلك السجود على أي وجه كان، إنما كان تحية لا عبادة^(٢).

وقال الشيخ محمد متولي الشعراوي: وهم خروا سجداً لله من أجل جمع شمل العائلة، ولم يخروا سجداً ليوسف، بل خروا سجداً لمن يجب السجود إليه وهو الله^(٣).

وقال الشيخ محمد طاهر بن عاشور: وكان السجود تحية الملوك وأضرابهم، ولم يكن يومئذ ممنوعاً في الشرائع، وإنما منعه الإسلام لغير الله وتحقيقاً لمعنى مساواة الناس في العبودية، ولذلك فلا يعد قبوله السجود من أبيه عقوقاً، لأنه لا غضاظة عليهما منه إذ هو عادتهم^(٤).

وقال محمد راتب النابلسي: أي وخروا لله عَزَّوَجَلَّ سجداً جميعاً يوسف وأبواه وإخوته الأحد عشر كوكباً.

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٤١٦.

(٢) آيات للسائلين، ص ٣٧٤.

(٣) تفسير الشعراوي، (٧٠٧٧/١٢).

(٤) التحرير والتنوير، (٤١/٦).

أو أن هذا سجود التحية وكان تقليداً في مصر وهو إنحاء الرأس، فحينما ينحني الرأس قليلاً فهذا اسمه عند أهل مصر قديماً سجود، فلا يراد به سجود العبادة، بل هو سجود تحية^(١).

ج- ﴿وَقَالَ يَتَابَّتْ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾:

- ﴿وَقَالَ يَتَابَّتْ﴾: التفت يوسف إلى أبيه قائلاً له ﴿يَتَابَّتْ﴾ أي: ما حصل الآن من السجود له أمام ناظره هو:

- ﴿تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾: أي رؤياي المنامية التي رأيتها، وقصصتها عليك، وأنا غلام صغير، وقد آلت الآن بعد كل تلك السنين إلى ترجمة صادقة لها، أي إن هذا الذي تحقق الآن من إكرامي بكما يا شمسي ويا قمري، ومن سجود إخواني لي بالتحية والإجلال والاحترام والتقدير هو التأويل الواقعي الحي لرؤياي الرمزية من قبل، والتي قصصتها عليك فصدقتني النصح بحكمتك وعلمك النبوي الرباني.

- ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾: قد جعلها ربي حدثاً حياً نشاهده وحقيقة واقعة نعيشها وكعادته يوسف عَلَيْهِ السَّلَام لا يغفل عن ذكر ربه مُرجعاً كل خير وحق وفضل إليه سبحانه.

وصيغة: (قد) قبل الفعل الماضي تفيد التأكيد والتحقيق. وجاء بصيغة (الرب) ليدل على أن هذا من عطاء صفات الربوبية في الفضل والنعمة والرحمة والإكرام والعطاء السابق بغير حساب. وقال: (ربي) بياء الإضافة ليشير إلى عمق خصوصية الصلة والرابطة بينه كعبد، وبين ربه، ومزيد العرفان والشكر له سبحانه. وقال: (حقاً) ليدل على التحقيق والوجوب واللزوم والصدق والثبوت. قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٤١٧.

د- ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾:

استمر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ معدداً - في معرض التحرّث بنعم الله وفضله - بعض آلاء ربه ذي الإحسان ويأتي بنعمة إخراجه من السجن على رأسها، ويغفل ذكر نعمة إنقاذه من الجب لطفاً وأدباً مع أبيه وإخوته فلا يؤذيه في أبنائه بتلك الذكرى الأليمة القاسية عليهم جميعاً، خاصة بعد أن غُفر لهم وصُلح حالهم^(١).

- ﴿أَحْسَنَ بِي﴾: الواو للعطف. ﴿وَقَدْ﴾ قبل الماضي للتأكيد والتحقيق. وأحسن: والفعل الحسن من الله، حسن في ذاته حسن في أسلوبه، حسن في مقدماته، ونتائجه. وقال: ﴿بِي﴾ ولم يقل: لي؛ ليدل على عرفان بلصوق النعمة به وحلولها وإسباغها عليه.

- ﴿إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾: أرجع الفضل في إخراجه من السجن إلى الله عَزَّجَلَّ، فهو مسبب الأسباب ومدير الأمر، وجعله مثلاً لإحسان ربه إليه والإخراج من السجن كان خلاصة أمور ونعم عظيمة من قبل، من فتنة النسوة وحفظ ونجاة وبراءة وتصديق ومن بعد تمكين وتأمين. وجعله على خزائن الأرض، والعزیز على مصر، ثم ما جرى له من إخوته حتى آل الأمر إلى ما هم فيه إلا من خير ولم شمل وصلاح^(٢).

هـ- ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾:

حضوركم إليّ في مصر، وترككم البادية إحسان آخر بي وبكم. فلقائي بكم، وضمكم إليّ، وأنتم على أحسن حال كان أمنية لي طال انتظارها، ومجيئكم إليّ

(١) يوسف أيها الصديق، المصدر السابق، ص ٤١٨.

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٤١٨.

كان فوق ذلك خاتمة حسنة لمسيرة طويلة من المعاناة والحزن والصبر الجميل ومجيئكم من البادية من شظف عيشها وقحطها وقساوة بيئتها إلى حاضرة مصر في رغد عيشها ولين بيئتها وسعة رزقها المادي والمعنوي^(١).

قال ابن عطية رَحِمَهُ اللهُ فِي قَوْلِهِ ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِّنَ الْبَدْوِ﴾: فجمع الشمل وانتقلتم من الشقاوة إلى النعمة بسكن الحاضرة، وكان منزل يعقوب - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بأطراف الشام في بادية فلسطين وكان رب إبل وغنم وبادية^(٢).

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: والمجيء في قوله ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِّنَ الْبَدْوِ﴾ نعمة، فأسنده إلى الله تعالى وهو مجيئهم بقصد الاستيطان حيث هو. والبدو: ضد الحضر، تسمى بدواً؛ لأن سُكَّانَهُ بادون. أي: ظاهرون لكل وارد إذ لا تحجبهم جدران، ولا يغلق عليهم أبواب، وذكر: ﴿مِّنَ الْبَدْوِ﴾ إظهاراً لتمام النعمة؛ لأن انتقال أهل البادية إلى المدينة ارتقاء في الحضارة^(٣).

و- ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ تَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِ﴾:

أي أفسد ما بيننا من عاطفة الأخوة، وقطع ما بيننا من صلة الرحم ووشيجة القرب بإغراء الحسد، وتهيج الشر. وقد ذكر يوسف نفسه وقدمها على إخوته في نزع الشيطان بينهم تواضعاً وأدباً^(٤).

(١) المصدر نفسه، ص ٤١٩.

(٢) المحرر الوجيز، (٣/ ٢٨٢).

(٣) التحرير والتنوير، (٦/ ٨٢).

(٤) يوسف أيها الصديق، ص ٤٢٠.

ولا يوجد في اللغة على سعتها تعبير ألطف وأدلّ على كما التواضع من هذه العبارة الوجيزة جعل ذلك النزاع المزعج كأنه كان مشترك بينه وبينهم تقع تبعته على كل منهما مع أنه كان من جانب إخوته وليس منه^(١).

ثم عقب يوسف عَلَيْهِ السَّلَام على قصته بتقرير جوهر الحقيقة، وهي أن مشيئة الله كانت هي الفاعلة بجميع صفات الرب الحسنى من لطف وعلم وحكمة^(٢).

ز- ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾:

إن ربي عالم بدقائق الأمور، وهو رفيق بعباده، فينقذ من يشاء من خلقه بحكمته البالغة، فمن ذا الذي كان يدور بخلده أن الإلقاء في الجب يعقبه الرق، ويتلو الرق فتنة العشق، وبسببه يزج في غيابات السجن، ثم منه إلى السيادة والملك. فسبحان الله يوصل بره وإحسانه إلى العبد من حيث لا يشعر، ويوصله إلى المنازل الرفيعة^(٣) من أمور يدبرها بلطفه الخفي.

وتعبر يوسف عَلَيْهِ السَّلَام بفيد عظم رفقه سبحانه بعباده، وإيصاله الخير لهم من حيث لا يحتسبون ولا يشعرون، وذلك لكمال إحاطة علمه بالظواهر والسرائر والخفايا والبواطن والدقائق والخبايا. ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾^(٤).

إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَام يستشعر أثر اسم الله اللطيف، ويعلمنا الإيمان به، والتوكل عليه، فمن أسماء الله الحسنى اللطيف، وقد عاش يوسف عَلَيْهِ السَّلَام مع اللطيف بعباده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وحدثنا عن تجربته وخبرته، ومن ذاق عرف، ولا ينسى يوسف أبداً

(١) سورة يوسف، ص ٥٥١.

(٢) يوسف أيها الصديق، ص ٤٢٠.

(٣) يوسف وقصته العجيبة، ص ٥٠٠.

(٤) آيات للسائلين، ص ٣٧٩.

ذكر ربه، ويعيد إرجاع الفضل إليه، فهو مصدر الخير كله، ومولى النعم، وهو لطيف بما يشاء^(١).

- اسم الله الطليفي:

اللطيف هو الذي أحاط علمه بالسرائر والخفايا، وأدرك الخبايا والبواطن والأمر الدقيقة. اللطيف بعباده المؤمنين: هو الموصل إليهم مصالحهم بلطفه وإحسانه من طرق لا يشعرون بها، فهو بمعنى الخبير ومعنى الرؤوف.

ويقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ عند قوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]: وهو بيان لما في المخلوقات من لطف الحكمة التي تتضمن إيصال الأمور إلى غاياتها بالطف الوجه كما قال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ وهذا يستلزم العلم والغاية المقصودة، والعلم بالطريق الموصول، وكذلك الخبرة^(٢).

ح- ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾:

بصيغة التأكيد والاختصاص والشأن العظيم، وكما الصفة في العلم والحكمة في ربه ومولاه يختم يوسف حديثه، وجاء بصفتي العلم والحكمة لمناسبة ما تضمنته قصته بصورة عامة، والآية بصورة خاصة، من تحقيق الرؤيا ومن إخراجها من السجن ومن مجيء أهله إليه ومن ندم إخوته ومن لطف المشيئة الربانية الفاعلة عن علم مطلق محيط وعن حكمة واسعة عظيمة^(٣).

ونلاحظ في هذه الجملة: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ في آخر هذه الآية الكريم توافقاً مع آخر الآية الكريم المشتملة على تأويل يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لرؤيا يوسف،

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٤٢٠.

(٢) مجموع الفتاوى، (٣٥٤/١٦).

(٣) يوسف أيها الصديق، ص ٤٢١.

وهو قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٦]، فبداية البشريات التي بشر بها يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام ابنه يوسف في تأويله لرؤياه وإتمام هذه البشريات، يقع تحت نور الاسمين الجليلين من أسماء الله الحسنى: ﴿الْعَلِيمُ﴾، ﴿الْحَكِيمُ﴾ بداية ونهاية، فسبحان مَنْ هذا كلامه^(١).

- اسم الله ﴿الْحَكِيمُ﴾:

الحكيم هو من وضع الأشياء مواضعها وساق الأمور إلى أوقاتها المقدرة لها^(٢).

خامساً: قوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]:

وقبل أن يسدل الستار على المشهد الأخير، نشهد يوسف ينزع نفسه من اللقاء والعناق والفرحة والابتهاج والسلطان والرغد والأمان، ليتجه إلى ربه في ذكر نعمائه عليه، وهو في أبهة السلطان وفي فرحة الأهل، أن يتوفاه ربه مسلماً وأن يلحقه ربه بالصالحين. وهكذا يتوارى الجاه والسلطان وتتوارى فرحة اللقاء والاجتماع بالأهل ولمة الإخوان، ويبدو المشهد الأخير مشهد عبد فرد يتهل إلى ربه أن يحفظ له إسلامه حتى يتوفاه إليه وأن يلحقه بالصالحين^(٣).

(١) يوسف وقصته العجيبة، ص ٥٠١.

(٢) تفسير السعدي، ص ٥١٨.

(٣) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٠٣٠).

١- ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾:

بدأ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذكر النعمتين العظيمتين في الدنيا والتي يندرج تحتها نعم لا تعد ولا تحصى ألا وهما نعمة الولاية على الملك ونعمة العلم^(١).

أ- ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾:

- ﴿رَبِّ﴾؛ يا رب. هنا حذف أداة النداء، ليدل على شعوره بقرب المنادى وقوة الوصل معه وشدة الاتصال، وعلى قرب لحاق المنادى به، لحاق يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بربه.

- ﴿قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾:

(قد) للتحقيق. ﴿قَدْ ءَاتَيْتَنِي﴾: صيغة تحقيق وتأکید.

- ﴿مِنَ الْمُلْكِ﴾؛ أي من بعض ملك الدنيا من سلطان وموالي وبيت ومركب ومال وجاه.

ب- ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾:

(من) للتبعض، أي: وعلمتني معرفة مآل الأحاديث سواء كانت رؤيا في المنام، أم كانت أحاديث الناس، شعوباً ودولاً وجماعات من علم سياسة الدولة، وكيف يدبر أمرها، وقال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾: أي علمه بعضها، لا كلها وفوق كل ذي علم عليم، فما علم كل سياسة الحكم، ومعاملة الناس وما علم كل تأويل الرؤى ولكن علم بعضها^(٢)، وذلك من تواضعه عَلَيْهِ السَّلَامُ أمام علام الغيوب. وكفى بنعمة العلم من نعمة وكفى بأن يكون الله هو المعلم^(٣).

(١) يوسف وقصته العجيبة، ص ٥٠٤.

(٢) زهرة التفاسير، (٣٨٦٣/٧).

(٣) يوسف أيها الصديق، ص ٤٢٥.

٢- ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾:

يا مبدع السماوات والأرض، وخالقهما على غير مثال سابق^(١).

٣- ﴿أَنْتَ وَلِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾:

ناصري ومتولي أموري في الدنيا والآخرة، ومن أدبه عَلَيْهِ السَّلَامُ - في مناجاته مع ربه عَزَّوَجَلَّ - أنه قدم الثناء على الله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ أَتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ ثم ذكر عقب ذلك الدعاء. وفي صحيح السنة أن من آداب الدعاء وشروط إجابته تقديم الثناء على الله تعالى، ثم الصلاة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم ما يطلبه العبد من ربه.

٤- ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ﴾:

دعاء يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يشتمل على أمرين:

أ- ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾:

أمتني، وأنا مستسلم لأمرك ومشيتك وحدك وهي أمنية كل مؤمن بالله تعالى، أن يموت على الإسلام الكامل له جَلَّ جَلَالُهُ، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. فالموت على الإسلام مطلب عزيز ونفيس وشريف، حتى تشوقت إليه نفس الكريم ابن الكريم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ. ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾: وصية الله لعباده ووصية الأنبياء لأتباعهم والآباء لأبنائهم ودعاء الصالحين، وهكذا نطق يوسف الصديق بحكمة النبوة ومشكاتها التي أنارت بنورها آباءه من قبل إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، فكان وَفِيًّا لإرثهم، أمينًا على وصيتهم.

(١) التفسير الموضوعي، (٣/ ٢٢٩).

ب- ﴿وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ﴾:

اللاحق بالصالحين في الآخرة يلخص كل دعوات الخير في الدنيا والآخرة، فالصالح في الآخرة قد توفي مسلماً وكان في الدنيا من المرضيين، ومن التحق بركب الصالحين فقد فاز الفوز العظيم، ومن التحق بالصالحين من آبائهم فقد نال الدرجات العلا. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ أَمْرٍ إِيمًا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

لقد كانت دعوة يوسف متناغمة مع هذه الآيات: ﴿وَمَنْ يَرْغُبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠]. وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]. شهادة من الله وكفى بالله شهيداً، وبهذا الابتهال والتعقيب والدعاء بحسن الختام يختم المولى عزَّ وجلَّ قصة نبيه يوسف عَلَيْهِ السَّلَام^(١).

❖ **سادساً: أهم صفات وخصائص إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَام ووفاتهما:**

إنَّ من أهم صفات إسحاق عَلَيْهِ السَّلَام، التي ذكرت في القرآن الكريم:

- هبة من الله.
- الموحى إليه.
- غلام عليم.
- الصَّلاح.
- من أولي الأيدي والأبصار.

(١) يوسف أيها الصديق، ص ٤٢٧.

- مَمَّنَ أَنْتَمُ اللَّهُ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِ.
- عَلَى مِلَّةِ التَّوْحِيدِ.
- مُبَشِّرٌ بِهِ.
- نَبِيٌّ كَرِيمٌ^(١)، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ.
- وَأَمَّا يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَمِنْ أَهَمِّ صِفَاتِهِ:
- بُشْرَى.
- وَنَافِلَةٌ.
- مَجْتَبَى بِهِ.
- ذُو عِلْمٍ.
- نَبِيٌّ.
- صَالِحٌ.
- إِمَامٌ.
- كَظِيمٌ.
- صَابِرٌ.
- مُهْدِي هَادٍ.

- بَصِيرٌ^(٢)، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ الْكَرِيمَةِ.

(١) مَنْ أَرَادَ التَّوَسُّعَ فَلْيُرَاجِعْ: صِفَاتُ الْأَنْبِيَاءِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، د. عَقِيلُ حَسِينٍ، ص ٢٢٧.

(٢) صِفَاتُ الْأَنْبِيَاءِ إِدْرِيسَ وَيَعْقُوبَ وَيُوسُفَ، ص ١٢٧.

وكلاهما في موكب الأنبياء والمرسلين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، كما بينّا في الصفات السابقة، وشرحنا الآيات الكريمة المتعلقة بهم، وهما قد وصلا إلى مقام النبوة، الذي له خصائص، وقد بين العلماء حقيقة النبوة والحكمة من رسالة الأنبياء والمرسلين، وخصائصهم، وذكرت ذلك في كتبي عن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فمن أراد التوسع فليرجع إليها.

١- وفاة إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ:

عاش إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ مائة وثمانين سنة، ودُفن في حبرون - وهي مدينة الخليل اليوم - بمغارة المكفيلة^(١). ودفنه أبناء العيص ويعقوب مع أبيه إبراهيم الخليل في المغارة التي اشتراها^(٢).

٢- وفاة يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ:

بعد حياة طويلة مليئة بالمفاجآت الحلوة والمرّة، كان آخرها المفاجأة السارّة التي دلّت على أنّ يوسف ولد يعقوب لا يزال على قيد الحياة، وكان اللقاء في مصر، وسعد الأب بلقاء ابنه الضائع بعد فترة من الزمن، وبعد ذلك جاءت المنية وأزفت الحياة على نهايتها، فكان لهذا النبي الكريم موقف مع أبنائه ووصيّة سطرّها لنا القرآن الكريم، حتّى نعتبر منها، ونوصي بها أولادنا متى استطعنا إلى ذلك. قال تعالى: ﴿أَمَرْتُكُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ أَبَاكَ إِنَّا نَحْنُ وَإِسْحَاقَ وَإِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣]^(٣).

(١) قصص الأنبياء، النجار، ص ١٦١.

(٢) البداية والنهاية، (١/ ٢٨٥).

(٣) البداية والنهاية، المصدر السابق، (١/ ٣١٣٩).

وقد ذكر ابن إسحاق عن أهل الكتاب أنَّ يعقوب أقام بديار مصر عند يوسف سبع عشرة سنة، ثم توفيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكان قد أوصى إلى يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يُدفن عند أبويه إبراهيم وإسحاق، وسيَّره إلى بلاد الشام، فدفنه بالمغارة عند أبيه إسحاق وجدّه الخليل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ^(١).

وذكر ابن كثير عن أهل الكتاب: أنَّ عمر يعقوب يوم دخل مصر مائة وثلاثون سنة، وعندهم: أنَّه أقام بأرض مصر سبع عشرة سنة، ومع هذا قالوا: فكان جميع عمره مائة وأربعين سنة، قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: هذا نصُّ كتابهم، وهو غلط إمَّا في النسخة أو منهم، أو قد أسقطوا الكسر، وليس بعادتهم فيما هو أكثر من هذا، فكيف يستعملون هذه الطريقة ههنا.

وذكر ابن كثير أنَّ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ استأذن ملك مصر في الخروج مع أبيه ليدفنه عند أهله، فأذن له، وخرج معه أكابر مصر وشيوخها، فلمَّا وصلوا (حبرون)^(٢)، دفنوه في المغارة التي اشتراها إبراهيم الخليل من عفرون بن صخر الحيثي، فُدفن فيها وعملوا له عزاء سبعة أيَّام، قالوا: ثمَّ رجعوا إلى بلادهم وعزَّى إخوة يوسف ليوسف في أبيهم، وترقَّقوا له، فأكرمهم وأحسن منقلبهم، فأقاموا ببلاد مصر^(٣).

"سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أنَّ لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك".

(١) البداية والنهاية، المصدر السابق، (١/٣١٣).

(٢) حبرون: بلد الخليل إبراهيم عليه السلام.

(٣) البداية والنهاية، (١/٣١٤).

الخلاصة

تجلت في سيرة النبيين الكريمين إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ معاني النبوة في أسمى صورها، حيث الإيمان الراسخ، والطاعة الكاملة، والتسليم المطلق لمشية الله عَزَّوَجَلَّ. ومن خلال تتبع محطات حياتهما المباركة، يُدرك القارئ كيف أن النبوة ليست مقامًا تشريفيًا فحسب، بل هي مسؤولية ربانية تحمل مشعل الهداية للبشر. ولئن تعرضت سيرتهما عبر التاريخ لكثير من التشويه والتحريف، فإن القرآن الكريم أعاد بناء الصورة الحقيقية لهذين النبيين الكريمين عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، في نقاء عقيدتهما وطهارة سيرتهما. وفي نهاية هذا الكتاب نلخص أهم الأفكار التي تمت مناقشتها:

١. إن استحضار هذين النموذجين النبويين في واقعنا المعاصر يُعيد إلى الأذهان أهمية التمسك بالثوابت، والصبر في المحن، وبناء الأجيال على العقيدة الصافية والقدوة النقية. ومن هنا، فإن هذا الكتاب لا يروي قصة ماضٍ انقضى، بل يستنهض روح الإيمان، ويجدد العهد مع رسالة السماء، لتظل هداية الأنبياء حاضرة في ضمير الأمة. وفي نهاية هذا الكتاب أردت أن أخلص أهم أفكاره:

٢. وُلد نبي الله إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ معجزةً ربانيةً لأبويه إبراهيم وسارة عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وقد بلغا من العمر عتياً، فكانت ولادته آيةً عظيمة على قدرة الله ورحمته بعباده المؤمنين، واختياراً إلهياً لذرية طاهرة مباركة.

٣. تشوب سيرة إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ كثيرٌ من الروايات المتأثرة بالإسرائيليات، ما يستوجب على الباحث والمهتم التمهيص والرجوع إلى القرآن الكريم والسنة النبوية لتنقية السيرة من الدخيل والغريب.

٤. تذكر الروايات التاريخية أن إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ كان حسن الطلعة، جميل الخلقة، ورث الجمال من أمه سارة، وقد تزوج من راحيل، وهي من أهله، فاستمر الجمال في نسله، وبرز في حفيده يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، أجمل البشر.

٥. نُسب إلى إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ وزوجه وأبنائه في بعض المصادر روايات مشوّهة، تصوره ضعيفاً أو مغرراً به، وتصف أهله بالخداع، وهذه الادعاءات تتنافى مع عصمة الأنبياء وطهارة سيرتهم التي صانها الله من الدنس.

٦. عاش إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ حياة مليئة بالحكمة والرحلة في الأرض، متنقلاً من العراق إلى الشام، باحثاً عن الاستقرار، وقد أوتي فراصة في تتبع منابع المياه، مما يدل على عمق بصيرته وخبرته في شؤون المعيشة والبيئة.

٧. شابت قصة إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ تحريفات كثيرة في كتب بني إسرائيل، أضفت عليها طابعاً أسطورياً يناقض حقيقة النبوة، مما يدعو إلى العودة للوحي الرباني لفهم السيرة بمنظور إيماني صحيح.

٨. يعد يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ امتداداً للنبوة الإبراهيمية، وُلد في أرض كنعان، وترعرع في كنف والده إسحاق، ثم هاجر إلى حران، حيث عاش مع خاله، وعمل عنده أربعة عشر عاماً، فتزوج ابنته ليا وراحيل في قصة تعبّر عن الصبر والوفاء.

٩. أنجب يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ اثني عشر ولداً من زوجته وجاريتيهما، وكان منهم يوسف وبنيامين، وهؤلاء الأبناء كوّنوا نواة أسباط بني إسرائيل، الذين انحدرت منهم قبائل بني إسرائيل لاحقاً.

١٠. بعد عودته من حران، بنى يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ بيت المقدس، فكان ثاني مسجد وُضع في الأرض لعبادة الله بعد الكعبة، وقد وضع علامة على الصخرة التي نام عليها، دلالة على ارتباطه بالمقدسات وتعظيمه لشأن العبادة.

١١. اختلف العلماء في كون أبناء يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أنبياء، فذهب جمهور أهل العلم إلى نفي النبوة عنهم بسبب ما صدر عنهم من أفعال منافية لمقام النبوة، كالكذب والحسد في قصة يوسف، بينما ذهب قلة من العلماء إلى القول بنبوتهم.

١٢. يُعرف يعقوب في القرآن الكريم باسم "إسرائيل"، وهو لقب معناه "عبد الله"، وقد ذُكر بهذا الاسم في موضعين فقط، بينما ورد اسمه "يعقوب" في سائر المواضع، وهو ما يعكس دقة التعبير القرآني بحسب السياق.

١٣. نذر يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ نذرًا خاصًا حرّم فيه على نفسه بعض الأطعمة بعد أن شفاه الله من مرضه، وقد بقي هذا التحريم في ذريته إلى أن نزلت التوراة، ما يدل على تقواه ووفائه لله عَزَّوَجَلَّ.

١٤. لم تسلم شخصية يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ من تحريفات بني إسرائيل، حيث نُسب إليه أنهم صارع الرب! وهي من أبشع الافتراءات، بينما يصوره القرآن الكريم بصورة النبي العابد، الصابر، الموصي بوصايا التوحيد والإسلام.

١٥. تتفرع شجرة النبوة من إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى فرعين مباركين: الفرع الإسماعيلي الذي انتهى بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والفرع الإسرائيلي الذي ختم بعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، في تكريم إلهي ممتد لذرية إبراهيم.

١٦. يُعد يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ نقطة الانطلاق الحقيقية في تاريخ بني إسرائيل، حيث شكّل أبنائه الاثنا عشر أساس القبائل الإسرائيلية، مما يبرز دوره المحوري في بناء هوية هذه الأمة.

١٧. ذُكر إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ في القرآن الكريم سبع عشرة مرة، غالبًا في سياقات تقرن ذكره بوالده إبراهيم وابنه يعقوب، مما يعكس منزلته المباركة في سياق النبوة، واصطفاء الله له.

١٨. كما ورد ذكر يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ في القرآن خمس عشرة مرة، سواء باسمه الصريح أو بلقب "إسرائيل"، وكان الحديث عنه يسلط الضوء على إيمانه العميق، ووصاياه لأبنائه بالثبات على الإسلام حتى الممات.

١٩. خُتِمت النبوة في الفرع الإسرائيلي من ذرية إبراهيم بعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بينما خُتِمت في الفرع الإسماعيلي بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في تكريمٍ إلهيٍّ لذرية إبراهيم، واكتمالٍ للرسالات ببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين.

٢٠. يؤكد القرآن الكريم أن ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ هي الإسلام الخالص لله، واصطفاه ربه بالرسالة في الدنيا، وبالصلاح في الآخرة، مما يُبطل ادعاءات اليهود والنصارى الذين انتسبوا إلى ملته دون اتباع حقيقي لعقيدته التوحيدية.

٢١. جاءت استجابة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لأمر ربه ﴿أَسْمَتُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١] نموذجًا شامخًا في الانقياد والخضوع لله تعالى، وقد كانت هذه الاستجابة دستورًا أوصى به أبناءه، من بينهم إسحاق ويعقوب، ليسيروا على نهج الإسلام والتسليم.

٢٢. تُبرز وصايا إبراهيم ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لأبنائهما قبيل الموت - بالتمسك بالإسلام - مركزية العقيدة في حياتهم النبوية، حيث لم تكن الميراث أرضًا أو مالًا، بل إيمانًا وتوحيدًا يُورث كما يُورث الدين.

٢٣. يبطل القرآن دعوى اليهود والنصارى بانتماء إبراهيم وإسحاق ويعقوب إليهم، ويؤكد أنهم كانوا جميعًا موحدين مسلمين، مما يُبرز أن الانتساب الحق للأنبياء لا يكون بالاسم بل بالاتباع العملي لعقيدتهم.

٢٤. يشير مفهوم "صبغة الله" في قوله تعالى ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨] إلى أن الإيمان الحق يجب أن يتغلغل في النفس والكيان، لا أن يكون مجرد طلاء خارجي كما في الديانات المحرفة.

٢٥. تتجلى وحدة الرسالات السماوية في أصول العقيدة: التوحيد، والنبوة، والمعاد؛ فالقرآن يأمر بالإيمان بجميع الأنبياء دون تفريق، ويؤكد أن الإسلام هو الدين الحق المقبول عند الله في جميع الشرائع.

٢٦. كان يعقوب (إسرائيل) عَلَيْهِ السَّلَامُ قد حرّم على نفسه بعض الأطعمة نذراً لله، مما يُشير إلى أن بعض التشريعات الجزئية كانت نابعة من اجتهادات شخصية للنبي، وليست شريعة عامة قبل نزول التوراة.

٢٧. اقتران ذكر إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في القرآن، خاصة ضمن عطايا الله لإبراهيم، يؤكد شرفهما واستمرار النبوة في ذريته، وتميُّز بني إسرائيل بذلك عبر القرون.

٢٨. تُظهر قصة يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ عند الاحتضار، وسؤاله لبنيه ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾ [البقرة: ١٣٣]، أن لحظات الموت تُختبر فيها العقيدة، وأن التوحيد هو الركيزة التي تُورث وتُغرس في القلوب.

٢٩. التحذير القرآني من "كتمان الشهادة" يشمل أهل الكتاب الذين أخفوا الحقائق عن نبوة إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وعن كونهم مسلمين، وهو تحذير يتكرر لكل من يكتُم الحق بعد أن عرفه.

٣٠. قول الله تعالى: ﴿كُلِّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [آل عمران: ٩٣]، يُفند ادعاءات اليهود في تحريف الأحكام، ويؤكد أن الأصل في الطعام هو الحل، والتحريمات كانت طارئة ومحدودة.

٣١. تضمين إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ضمن سلسلة الأنبياء في سورة الأنعام يُظهر وحدة المنهج الرباني في الهداية، وأن جزاء الإحسان يكون في استمرار النبوة في الذرية المباركة.

٣٢. المقارنة في القرآن بين هداية نوح وهبة إسحاق ويعقوب لإبراهيم تُظهر أن هداية نوح كانت عامة للبشرية، بينما كانت الذرية النبوية لإبراهيم امتدادًا رساليًا لتحقيق غاية الهداية عبر الأجيال.

تكرار عبارة ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [الأنعام: ٨٤] في أربع سور مكية (الأنعام، هود، الحجر، الأنبياء) يأتي تسليّةً للنبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتأكيّدًا على أن سنة الله في نصرته أنبيائه سارية في جميع الرسالات.

٣٣. عرض قصة بشرى الملائكة لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في سور: هود، الحجر، العنكبوت، الذاريات، يدل على أهمية هذا الحدث في سلسلة النبوة، وتعدد مقاصده بين البشارة، والعقاب، والضيافة، والامتحان.

٣٤. تكشف الحوارات القرآنية في قصة الملائكة عن صفات إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، من الكرم واللين والحلم، إلى الحذر والتفكير، مما يرسم ملامح شخصية نبوية ذات روح إنسانية متزنة ورحيمة.

٣٥. تؤكد قصة ضيوف إبراهيم أن الملائكة قادرون على التشكل بصورة بشر، وهي من خصائصهم التي تؤدي وظائف التبشير أو العذاب أو النصرة، كما ظهر في بشارتهم لإبراهيم وإهلاكهم قوم لوط.

٣٦. صفات الملائكة في قصة إسحاق ويعقوب تتضح في وظائفهم الربانية: لا يأكلون، لا يشربون، يأتون بأمر الله، مبشرين ومنذرين، وهي سمات خاصة تُفردهم عن البشر وتُظهر طهارتهم وخدمتهم للحق.

٣٧. يتجلى من خلال هذه السور وتلك المشاهد، أن النبوة ليست مقامًا فرديًا، بل منظومة هداية تنزل بأمر الله، وتُحمل عبر نسل مصطفى، فيه من النقاء ما يليق بتبليغ رسالة السماء.

٣٨. تَوَجَّسُ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من ضيوفه حين لم يمدّوا أيديهم للطعام يكشف عن عادة عربية أصيلة؛ إذ كان الامتناع عن الطعام عند الضيف من علامات الخطر والريبة، مما يُظهر فطنة إبراهيم ويقظته.

٣٩. جاء طمأنة الملائكة لإبراهيم وإعلامه بأنهم مرسلون إلى قوم لوط ليؤدوا مهمة العذاب، مما يُبرز جانبًا من وظائف الملائكة وهي تنفيذ أوامر الله سواء في البشارة أو العقوبة.

٤٠. مشاركة سارة زوج إبراهيم في استقبال الضيوف وخدمتهم تدلّ على خُلُق كريم، وتؤكد أن للمرأة دورًا فاعلاً في قيم الكرم والضيافة، وهو خلق نبوي يتجسد في بيت النبوة.

٤١. ضحك سارة عَلَيْهِ السَّلَامُ كان تعبيرًا عن الدهشة والتعجب؛ وقد فُسر بأنه بسبب خبر هلاك قوم لوط أو من شدة مفاجأة البشارة، وهو ضحك لا يناقض الإيمان بل يُعبر عن الفطرة.

٤٢. جاءت البشارة من الله تعالى لسارة لا بولد فقط، بل بحفيد كذلك، أي بإسحاق ثم يعقوب من بعده، وهي بشارة مضاعفة تدل على الفضل الإلهي والكرم الرباني العظيم.

٤٣. تسمية "إسحاق" جاءت بنص إلهي مسبق، واسمه في العبرية يعني "الضحك"، ليبقى اسمه شاهدًا على لحظة فرح واندهاش والدته سارة من البشارة.

٤٤. وقوع البشارة بإسحاق ويعقوب في زمن الشيخوخة والعقم يُبرز جانب المعجزة في ولادتهما، ويُعلِّمنا أن أمر الله نافذ لا تُعجزه السنن ولا يعوقه المستحيل البشري.

٤٥. تكرار البشارة بإسحاق ويعقوب معًا في سور متعددة يعمق في ذهن القرآني استمرارية النبوة في نسل إبراهيم، ويُعزز لقب "أبو الأنبياء" الذي استحقه بجدارة.

٤٦. يُستدل من ترتيب الأحداث في القرآن على أن الذبيح لم يكن إسحاق، إذ بُشِّر بعده مباشرةً ويعقوب، ولا يتصور أن يكون الذبيح من بُشِّر به ومعه حفيده، مما يُرجِّح أن الذبيح هو إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٤٧. رغم أن إسحاق ويعقوب هما أصل بني إسرائيل، فإن كتبهم المحرفة لم تسلم من الطعن فيهما، ما يكشف عن جحودهم لأصولهم وإنكار فضل الله عليهم.

٤٨. أثنى القرآن الكريم على إسحاق ويعقوب وبيّن فضلهما ومكانتهما النبوية، مخالفًا ما جاء في الروايات الإسرائيلية التي شوهت صورتهم، مما يُبرز عدالة الوحي ونقاؤه.

٤٩. تتضمن قصة البشارة للملائكة مجموعة من آداب الإسلام الكبرى، مثل إفشاء السلام، والكرم، وتعجيل الضيافة، وإكرام الغريب، وتفقد مشاعر الضيوف، وهي كلها سنن نبوية متأصلة.

٥٠. دهشة سارة من البشارة رغم إيمانها بالله تعكس طبيعة الإنسان حين يرى ما يخالف المألوف، وهي لا تُعد اعتراضًا بل تعبيرًا فطريًا عن اندهاش يليق بحدث خارق، وقد فسّر ذلك الرازي والآلوسي.

٥١. تعبير سارة ﴿يَوَيْلَیَّ﴾ [هود: ٧٢] لا يفهم على ظاهره، فهو تعبير عربي يُستخدم للتعجب والدهشة، لا للدلالة على الهلاك، وهو أسلوب يُظهر تأثر النفس البشرية في مواجهة المفاجآت الكبرى.

٥٢. جاء رد الملائكة على سارة بقولهم ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [هود: ٧٣] ليقرر قاعدة إيمانية عظيمة؛ أن أمر الله فوق كل القوانين البشرية، وأن المشيئة الإلهية لا تخضع للسنن المعهودة.

٥٣. جاءت البشارة لإبراهيم بلفظ ﴿رَحِمَتَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٨] بالتاء المفتوحة لتدل على شمول الرحمة واتساعها، وأنها رحمة نازلة بعد يأس، لا منتظرة، بخلاف "رحمة" بالتاء المربوطة التي تدل على الرجاء.

٥٤. إدراج سارة في وصف ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [هود: ٧٣] في سياق البشارة، يثبت شمول الزوجة ضمن هذا المفهوم، وقد استدل بذلك عدد من المفسرين كابن عطية والقرطبي على أن المرأة الصالحة داخلة في البركات النبوية.

٥٥. وصف الله لنفسه بعد البشارة بـ ﴿حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣] يُظهر أن الحمد والمجد لا يكونان فقط في صفاته تعالى، بل أيضًا في عطايه الجليلة لعباده، ومنها النعمة المتجددة في بيت النبوة.

٥٦. إقرار إبراهيم بفضل الله بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩] يعكس شكر الأنبياء الدائم واستحضارهم لنعم الله، وأن الذرية نعمة إلهية لا تُنال إلا بمشيئته.

٥٧. دعاء إبراهيم بأن يجعله مقيمًا للصلاة، رغم كونه نبيًا، يدل على علو همته وشدة تواضعه، وهو درس تربوي بليغ في أهمية طلب التثبيت على الطاعات، وعدم الغرور بالقرب من الله.

٥٨. الحوار في سورة الحجر بين إبراهيم والملائكة يُظهر أن البشارة بإسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ تكررت في مناسبات متعددة، مع أوصاف إيمانية مميزة كـ "عليم" و "حليم"، وهو ما يدل على تكريم إلهي متجدد وثابت.

٥٩. البشارة القرآنية بإسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ جاءت في سياق استعراض القدرة الإلهية الخارقة للسنن الكونية، إذ رُزق إبراهيم وسارة به رغم سنّهما، ليظل الحدث شاهداً على رحمة الله وقدرته المطلقة.

٦٠. وصف إسحاق بـ ﴿غُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ يُبرز أن معيار النبوة وعلو المقام هو بالصفات المعنوية والعلمية، لا بالمظاهر الجسدية، مما يرسّخ قيمة العلم والإيمان في ميزان الاصطفاء.

٦١. تجسّدت في قصة ضيوف إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ معاني مكارم الأخلاق والضيافة، حيث جمعت القصة بين الكرم، والستر، والحذر، والاحتفاء، لتقدّم صورة عملية عن الملة الإبراهيمية في أبهى صورها.

٦٢. اقتران البشارة بإسحاق بذكر يعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ يُشير إلى الامتداد الرسالي للأسرة، فلم تكن البشارة مجرد ولد، بل نَسْلٌ مبارك تتوالى فيه النبوة والهدى.

٦٣. كرر القرآن الكريم الثناء على ذرية إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، بوصفهم ﴿صَالِحُونَ﴾ و﴿عَلِيدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨] و﴿أَيَّمَةً﴾ [الأنبياء: ٧٣]، مما يبيّن أن الرسالة تقوم على صفاء العقيدة واستقامة السلوك.

٦٤. منح الله النبوة والكتاب لذرية إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ليتحقق بذلك الارتباط بين النسب الروحي والإيمان، بعيداً عن مفهوم الوراثة الدموية المجردة.

٦٥. جاءت هبة إسحاق ويعقوب لإبراهيم بعد اعتزاله قومه وهجرته في سبيل الله، في إشارة إلى أن البركة تأتي بعد التضحية، والجزاء يتبع الصدق في العقيدة.

٦٦. ورد في السور القرآنية ما يثبت أن الرسالة استمرت بعد إبراهيم في ذريته، وتحديدًا في يعقوب، مما يدعم مشروعية البركة الممتدة في بلاد الشام عبر نسله الكريم.

٦٧. أبدل الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد قومه وأذى قومه بأنبياء من صلبه، وذرية مهتدية، ومقام محمود، جزاءً على صبره وثباته وصدق يقينه.

٦٨. لم تقتصر نعم الله على إبراهيم على الذرية، بل شملت الإمامة والهداية والإصلاح، وهو ما جعله نموذجًا يقتدى في الدعوة والعمل الصالح.

٦٩. استمرار ذكر إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بين الأمم هو ثمرة دعائه الخالص، ومظهر من مظاهر التقدير الإلهي له ولرسالته الخالدة التي ورثها الأمة الإسلامية.

٧٠. قول الله تعالى: ﴿سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الصفات: ١٠٩] هو شهادة قرآنية بالتكريم والرضا، ووسام رباني على الصبر والابتلاء، ودعوة للمؤمنين للاقتداء بهذا النبي العظيم في التوحيد والطاعة.

٧١. سنة الله في مجازاة المحسنين كما جرت مع إبراهيم، تؤكد أن الإحسان منزلة عالية تُنال بالصدق في العبودية، وبالمبادرة إلى الطاعة بعد الفرائض.

٧٢. وصف إبراهيم بأنه من "عباد الله المؤمنين" يعكس حقيقة الإيمان العميق، الذي يتجلى في وقت الشدة والامتحان، ويُبَيِّن أن البلاء لا يُنقص من المقام، بل يرفعه.

٧٣. جاءت البشارة بإسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ مشفوعة بالنبوة، والصلاح، والبركة في النسل، مما يدل على اتصال الخير بذرية إبراهيم، وتحقيق الوعد الرباني الصادق له.

٧٤. رغم البركة التي أحاطت ذرية إسحاق، إلا أن وجود الظالمين في بعضهم لا يرفع عنهم المسؤولية، فالنسب لا يُغني عن الإيمان، والكرامة مربوطة بالتقوى.

٧٥. جمع الله في إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بين البصيرة القلبية، والأيدي العاملة، في إشارة إلى اكتمال صفات القيادة الربانية في الرسالة والتوجيه.

٧٦. الإشارة إلى "ذكرى الدار" في تربية أنبياء بني إسرائيل تدل على مركزية الآخرة في وعيهم، وأن غرس الإيمان باليوم الآخر هو من صميم الرسالة النبوية.

٧٧. قوله تعالى ﴿مَنْ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ يؤكد أن الاصطفاء لا يكون بالانتساب فقط، بل بالاستحقاق القائم على الإيمان والعمل الصالح والطهارة من الشرك والفساد.

٧٨. رؤيا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لم تكن مجرد حلم، بل كانت إعلاناً وحيًا، ومفتاحاً للنبوة، ومقدمة لمسيرة الإصلاح، مما يثبت أن الرؤى الصادقة بوابة من بوابات الاصطفاء.

٧٩. نصح يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لابنه بكتمان الرؤيا كان بدافع حماية وتربية، وتحذيرًا من الحسد، وإدراكًا مبكرًا منه لوجود فتنة قادمة داخل الأسرة.

٨٠. قول يعقوب: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ [يوسف: ٦] تأسيس مبكر لمفهوم الاجتناء والاصطفاء في عقل يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتوجيه إيماني لبناء شخصية نبوية مؤمنة بوعد الله.

٨١. تعليم يوسف "تأويل الأحاديث" يشير إلى إدراكٍ عميقٍ للواقع، وليس مجرد تعبير الرؤى، بل هو بصيرة نبوية لفهم الوقائع وتحليل الأحداث وإدارة الأزمات برؤية ربانية

٨٢. تمام النعمة على يوسف لم يكن في المُلْك أو المنصب، بل في العلم والنبوة والهداية، فذلك هو الكمال الحق، وهو أعظم ما يُعطى للأصفياء ويثمر في الدنيا والآخرة.

٨٣. وصف النعمة على يوسف وآل يعقوب بأنها كنعمة الله على إبراهيم وإسحاق، يربط النعمة بالهداية، لا بمجرد النسب، موجِّهاً الأبناء للاقتداء بمنهج آبائهم الصالحين.

٨٤. قول يعقوب: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٦] ليوسف، يعمِّق في نفسه فهم حكمة البلاء، ويورثه الثبات والرضا، وهو ما ظهر لاحقاً في تسليمه لأقدار الله على عرش الملك.

٨٥. قصة يوسف وإخوته صورة شاملة للابتلاء والتمكين، تجسّد فيها قوانين الرسالة الإلهية، وتنتقل بالإنسان من الشدة إلى الفرج، ومن الفتنة إلى الصفاء.

٨٦. الحسد كان أول شرارة للمحنة، وهو مرض قلبي ينفذ حتى إلى البيوت المباركة، ما يقتضي المراقبة الدائمة للنفس، وتحذيرها من كيد الشيطان.

٨٧. يُظهر سلوك إخوة يوسف كيف يَغشى الوهم العقل حين يستند إلى عاطفة غير منضبطة، وأن الحكم العادل لا يقوم على الغيرة أو المزاج، بل على البصيرة والعدل.

٨٨. تعقيب القرآن على مؤامرة الإخوة بأن الشيطان "عدو مبين" يرسخ حقيقة أن الشر لا يولد فجأة، بل يبدؤه الشيطان خواطرًا تتسلل للقلوب الضعيفة.

٨٩. احتجاج الإخوة بكونهم "عُصبة" يكشف أن الكثرة لا تعني الفضل، وأن العدل في المحبة لا يُنال بالقوة، بل بالتقوى والصلاح.

٩٠. الكيد الذي أوقعه يوسف كان سبباً في تمكنه، مما يؤكد أن الله يجعل من البلاء سبباً للرفعة، ومن المكر طريقاً للنور، وهذه سنته في عباده الصالحين.

٩١. سورة يوسف تُعيد تعريف النعمة الحقيقية، فتظهر أن الفضل في النبوة والعلم، لا في السلطة والمال وحدهما، وأن الكمال في الإيمان لا الجاه.

٩٢. تكرار اسمي الله ﴿الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢] في أحداث السورة يرسخ الإيمان بأن كل حركة وسكون، ظاهر أو باطن، هو بعلم الله وحكمته المحكمة.

٩٣. الحسد أعمى بصائر إخوة يوسف، حتى اتهموا أباهم بالضلال، وهذا يدل على أن القلب إذا امتلأ بالحقد أعماه عن رؤية الحق حتى في أقرب الناس.

٩٤. يُظهر السرد القرآني كيف تُدرج النفس في طريق الجريمة: من الاقتراح بالقتل، إلى الطرح في الجب، إلى تبرير الجريمة بالتوبة، وهو من مكر الشيطان لا صدق الإيمان.

٩٥. استخدم الإخوة خطاباً عاطفياً خادعاً لانتزاع إذن أبيهم، فجمعوا بين التلطف في القول والتدين الظاهري، مما يدل على خطورة التلاعب بالدين في تبرير الأهواء.

٩٦. يشير القرآن إلى سنة التدافع، ففي قمة الشرّ برز من بينهم من خفف الضرر باقتراح طرحه في الجب بدل القتل، لتكون رحمة الله نافذة حتى في لحظات التآمر.

٩٧. أظهر الإخوة تمثيلاً محكماً للمكر؛ دموع، حجة، وطمأننة، مما يدل على أن الباطل قد يتجمل، لكن بصيرة الصادق تميز الكذب مهما خفي.

٩٨. لم يُتقن الإخوة حيلتهم، فجاءوا بقميصٍ ملوَّثٍ بالدم غير ممزق، فبان كذبهم، وكشفته فِرَاسة الأب النبوي الذي ميّز الزيف من الصدق.

٩٩. صبر يعقوب على المصيبة كان صبراً جميلاً خالياً من الشكوى إلى الخلق، مؤمناً بعدل الله، رابط الجأش، مفوضاً أمره إلى من لا يضيع عنده الأمل.

١٠٠. القصة القرآنية لا تسرد الأحداث فقط، بل تُربّي النفس في كل مشهد، وتُغرس من خلالها القيم، وتُشكّل وعي الإنسان على بصيرة متكاملة.

١٠١. يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في السجن لم يكن سجين جسد، بل داعية قلب، فاستغل مكانته بين السجناء في نشر التوحيد، رابطاً بين القدوة والسلوك والكلمة الهادية.

١٠٢. نسب يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ رسالته إلى آبائه الصالحين: إبراهيم، إسحاق، ويعقوب، لتأكيد وحدة الرسالات، واستمرار التوحيد في ذرية مصطفىة.

١٠٣. اتبع يوسف أسلوباً عقلاً في دعوته، فوازن بين النقاش العقلي والتوحيد القلبي، وبيّن أن الحكم لله وحده، وأن الدين الحق لا يُبنى إلا على عبودية خالصة.

١٠٤. شرح يوسف بأسمائه الحسنَى مفهوم الإله الواحد القهار، فجمع بين الإحسان والسلطان، وبين الحنان والقدرة، ليرسي التوحيد بأبعاده الكونية والنفسية.

١٠٥. أكّد يوسف أن التوحيد لا يقتصر على العبادة اللفظية، بل يشمل الحكم والتشريع، فلا عبودية صادقة لمن يحتكم إلى غير شريعة الله في الأمر والنهي.

١٠٦. بيّن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أن الدين القيم لا يقوم إلا على إخلاص التوحيد في التشريع والاتباع، وأن ضلال كثير من الناس ناتج عن تجاهلهم لحقيقة أن الحكم لله وحده.

١٠٧. حين طلب الإخوة أخذ بنيامين، اشترط يعقوب عليهم عهداً موثقاً بالله، في إشارة إلى استمرار ارتباطه في نواياهم رغم تسليم الظاهر، وهو فقه في التعامل مع من خاض تجربة خيانة سابقة.

١٠٨. وجّه يعقوب أبناءه إلى الأخذ بالأسباب دون التفريط في التوكل، فطلب منهم التفرق عند الدخول، معترفاً أن هذا لا يغيّر من قضاء الله، بل هو أدب مع الأسباب.

١٠٩. جمع يعقوب في توجيهه بين شدة الحذر من الدنيا، والطمأنينة بتدبير الله، فكان قلبه مع الله، وعقله مع الواقع، ليُعطي نموذجاً للتوازن في التوكل النبوي.

١١٠. موقف يعقوب من الحسد والعين دلّ على اعتراف شرعي بهما، فاحتاط لهما مع الإيمان بأن الأمر كله لله، وأن كل ما يجري إنما هو بتقديره.

١١١. عفو يوسف عن إخوته نموذجٌ نبوي في الصفح والاحتواء، فقد هبّ قلوبهم للتوبة، ودعاهم إلى الله رغم الجراح، فجعل من الألم جسراً للهداية.

١١٢. تكرار توحيد الحكم لله على لسان يوسف وأبيه يعقوب يربط بين العقيدة والشرعية، ويبيّن أن الإيمان لا يكتمل إلا بقبول التشريع الرباني وحده.

١١٣. قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من أولها إلى آخرها خلاصةٌ لعقيدة التوحيد، في العبادة، والتشريع، والتوكل، والرحمة، ليكون الخلاص كله في كلمة: ﴿إِنْ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَتَوْحِيدًا لِّلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧].

١١٤. أظهر الله تعالى معجزة جليلة لنبيه يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، حين شمّ ريح يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بمجرد خروج العير من مصر، وهو ما لم يدركه أحد من الحاضرين، فكانت كرامة نبوية وتأييداً من الله لصبره الطويل وإيمانه الثابت، وردّاً عملياً على اتهام أبنائه له بالضلال.

١١٥. نسب يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ كل ما ناله من رفعة وتمكين إلى الله وحده، معترفاً بلطفه الخفي الذي انتشله من ظلمات الجبِّ إلى عزِّ الملك، مما يكشف عن بصيرة نبوية عميقة تدرك أن المحن مخبوءة في طيَّاتها منح، وأن لطف الله لا يُدرك إلا من أهل الإيمان.

١١٦. دعاء يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في قمة سلطانه: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، يُظهر أرقى مراتب العبودية، حيث يغيب ذكر التاج والملك، ويعلوهم الخاتمة، في إخلاص خالص لله، وصدق في التوجه نحو ما هو أعظم من الدنيا وما فيها.

١١٧. كشفت الدراسة عن صفات إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ كما أثبتتها القرآن الكريم، من العلم، والحكمة، والصبر، والتقوى، مما يبرهن على النضج التربوي والقيادي في شخصياتهم النبوية، ويبرز مكانتهم العالية في سلسلة الأنبياء المباركة.

١١٨. خُتِمت سيرة يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ بوصيته التوحيدية لأبنائه: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، في مشهد مهيب يؤكد مركزية العقيدة في حياة الأنبياء، وحرصهم على توريث الإيمان لا المال، والدين لا الملك، للأجيال التي تليهم.

١١٩. بُيِّنت النصوص القرآنية على أن كرامة الأنبياء لا تنقطع بالموت، بل تظل موصولة بفضل الله، إذ انتهت حياة إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بحسن الختام، ودفنهما مع الصالحين من آبائهم النبيين في أرض فلسطين، ليقى قبرهم شاهداً على ختام الرسالة بالحكمة والوفاء والطهر.

المصادر والمراجع

١. الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان، بكر بن عبد الله أبو زيد، دار العاصمة للطباعة، الرياض، السعودية، ط ١، ١٤١٧هـ.
٢. إتحاف الإلف بذكر الفوائد الألف والنيف من سورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، محمد بن موسى بن نصر، مكتبة الرشد، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
٣. الأحاديث الصحيحة من أخبار وقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، إبراهيم محمد العلي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط ١، ١٩٩٥م.
٤. أحكام القرآن، ابن العربي، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ.
٥. أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ، جمال عبد الهادي ووفاء محمد رفعت، دار الوفاء للطباعة والنشر، مصر، ٢٠٠٥م.
٦. أخلاق النبي في القرآن والسنة، أحمد عبد العزيز، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، ١٤١٣هـ.
٧. إشراقات قرآنية، سلمان العودة، مؤسسة الإسلام اليوم للنشر، السعودية، ط ١، ١٩٧٠م.
٨. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.
٩. الإعجاز الدلالي في سورة يوسف، د. أشرف أحمد، مكتبة آفاق، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ-٢٠١٥م.

١٠. أنبياء الله الكرام، د. حنان قرقوتي، دار المعرفة للطباعة والنشر، ٢٠٠٥م.
١١. الأنبياء، عفيف عبد الفتاح.
١٢. آيات للسائلين تفسير تحليلي وموضوعي، د. ناصر العمر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
١٣. أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الخامسة، ٢٠٠٣م.
١٤. أيسر التفاسير، أسعد محمود حومد، حقوق الطبع محفوظة للمؤلف، ط ٤، ١٤١٩هـ - ٢٠٠٩م.
١٥. الإيمان بالرسول والرسالات، د. علي محمد محمد الصلابي، دار المعرفة للطباعة، بيروت، ط ١، ٢٠١١م.
١٦. البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ.
١٧. البداية والنهاية، ابن كثير، مكتبة المعرفة، بيروت، لبنان، ط ٢، ١٩٧٤م.
١٨. بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د.ت.
١٩. البكاء والقيم الجمالية له بصيغة الجمع في النصوص القرآنية، د. قاسم صالح العالي، دار المقتبس، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م.
٢٠. تاريخ أرض القرآن، سليمان الندوي، دار القلم للطباعة والنشر، دمشق، ط ١، ٢٠١٦م.
٢١. تأملات في سورة مريم، عادل أحمد صابر الرويني، دار النوادر، دمشق، سوريا، ٢٠١١م.

٢٢. التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، مكتبة مشكاة الإسلامية، لبنان، ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م.
٢٣. تفسير أبو السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)، أبو السعود العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ.
٢٤. التفسير الاقتصادي للقرآن الكريم، رفيق المصري، دار القلم، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م.
٢٥. تفسير التحرير والتنوير "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد"، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.
٢٦. تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، دار العبيكان، الرياض، ط١، ٢٠١٦م.
٢٧. تفسير السعدي "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، دار ابن الجوزي، الدمام، المملكة العربية السعودية، ط٤، ١٤٣٥هـ.
٢٨. تفسير السمرقندي (بحر العلوم)، أبو الليث نصر السمرقندي.
٢٩. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم، القاهرة، ٢٠١٣م.
٣٠. تفسير الطبري "جامع البيان في تأويل القرآن"، الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

٣١. تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، ابن كثير، تحقيق: يوسف علي بديوي، حسن سويدان، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط ١، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.
٣٢. تفسير القرطبي "الجامع لأحكام القرآن"، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، مؤسسة الرسالة، بيروت. لبنان، ط ١، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
٣٣. التفسير الكبير مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط ٢، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
٣٤. تفسير الماوردي (النكت والعيون)، أبو الحسن البصري البغدادي الماوردي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ.
٣٥. تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم)، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.
٣٦. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
٣٧. التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، نخبة من كبار علماء القرآن وتفسيره بإشراف الأستاذ الدكتور مصطفى مسلم، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي، جامعة الشارقة، الإمارات العربية، ٢٠١٠م.
٣٨. تفسير النابلسي "تدبر آيات الله في النفس والكون والحياة"، د. محمد راتب النابلسي، مؤسسة الفرسان، عمان، الأردن، ط ١، ٢٠١٧م - ١٤٣٨هـ.
٣٩. تفسير سورة الحجر "دراسة تحليلية موضوعية"، أحمد نوفل، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، عمان، الأردن، ط ١، ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م.

٤٠. تفسير سورة هود "دراسة تحليلية موضوعية"، أحمد نوفل، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، عمّان، الأردن، ط ١، ١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م.
٤١. تفسير من وحي القرآن، فضل الله، دار الملاك للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٩٨٨هـ.
٤٢. ثمانون شخصية مشهورة في القرآن الكريم، حنفي المحلاوي، دار النشر للجامعات، ٢٠١٣م.
٤٣. الثناء في القرآن الكريم، هتون سامي عبد الرحمن فلمبان، دار ابن حزم، بيروت، ط ١، ٢٠١٦م.
٤٤. حديث القرآن عن إسماعيل وإسحاق عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، د. سليمان إبراهيم الحصين، مجلة تبيان للدراسات القرآنية، الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه، ٢٠١٦م.
٤٥. الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، دار ابن القيم للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط ٢، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
٤٦. خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، د. الشحات محمد أبو ستيت، مطبعة الأمانة، مصر، ط ١، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.
٤٧. درب إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، سعيد الشبلي، ام كي للنشر والتوزيع، ط ١، ٢٠١٩م.
٤٨. دعاء الأنبياء والرسول، محمد محمود، مركز الكتاب للنشر، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.

٤٩. روح البيان في تفسير القرآن، إسماعيل حقي بن مصطفى الخلوتي البروسوري، دار الفكر، بيروت، ٢٠١٣م.
٥٠. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٥هـ.
٥١. زاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج ابن الجوزي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
٥٢. زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ٢٠٠٨م.
٥٣. السلسلة الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.
٥٤. سنن الترمذي، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ.
٥٥. شرعة الله للأنبياء، محمد مصطفى الزحيلي، دار ابن كثير، دمشق، ط ١، ٢٠١٨م.
٥٦. شفاء العليل، ابن القيم، دار عطاءات العلم، الطبعة الثانية، ١٤٣٣هـ.
٥٧. صحيح ابن حبان، ابن حبان البستي، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م.
٥٨. صحيح البخاري، البخاري، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط ٤، ٢٠٠٢م.
٥٩. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط ٢، ١٩٧٢م.

٦٠. صفات الأنبياء من قصص القرآن "إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ولوط"، عقيل حسين عقيل، سما للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ٢٠١١م.
٦١. صفات الأنبياء من قصص القرآن "إدريس ويعقوب ويوسف"، عقيل حسين عقيل، سما للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ٢٠١١م.
٦٢. صناعة الحوار "مقاربة تداولية جمالية لحوارات سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في القرآن الكريم"، حمد عبد الله السيف، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، لبنان، ط ١، ٢٠١٥م.
٦٣. عجائب فريدة من سورة يوسف، عادل أكتوف، دار طليطلة، الجزائر، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ.
٦٤. العقيدة الصافية للفرقة الناجية، سيّد سعيد السيّد عبد الغني، دار طيبة الخضراء، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، ط ١، ٢٠٠٦م.
٦٥. فبهدهم اقتده "قراءة تأصيلية في سير وقصص الأنبياء"، عثمان محمد الخميس، دار إيلاف الدولية، الكويت، ط ١، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.
٦٦. فتح القدير، الشوكاني، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
٦٧. فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، د. علي الصلابي، دار المعرفة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.
٦٨. في التذوق الجمالي لسورة يوسف، محمد علي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.
٦٩. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق للطباعة، القاهرة، ط ٣٢، ٢٠٠٣م.

٧٠. قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٢م.
٧١. قصة بدء الخلق وخلق آدم عَلَيْهِ السَّلَام، د. علي محمد الصلابي، دار ابن كثير الطبعة الأولى، ٢٠٢٠م.
٧٢. القصة في القرآن الكريم، د. محمد سيد طنطاوي.
٧٣. قصص الأنبياء، مصطفى العدوي، مكتبة مكة، طنطا، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ، ٢٠١٥م.
٧٤. قصص القرآن الكريم، فضل حسن عباس، دار النفائس للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط ٣، ١٤٣٠هـ - ٢٠١٠م.
٧٥. القصص القرآني بين الآباء والأبناء، عماد زهير حافظ، دار القلم، دمشق، ط ١، ١٩٩٠م - ١٤١٠هـ.
٧٦. القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، دار القلم، دمشق - الدار الشامية، بيروت، ط ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
٧٧. قوانين النبوة، موفق الجوجو، دار المكتبي للطباعة والنشر، ٢٠٠٢م.
٧٨. كتاب النبوات، ابن تيمية، تحقيق: عبد العزيز بن صالح الطويان، أضواء السلف، الرياض، السعودية، ط ١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
٧٩. الكشف، أبو القاسم الزمخشري، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ.
٨٠. لطائف التفسير، د. فؤاد العريسي، دار المعرفة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م.

٨١. اللوامع البهية في شرح أسماء الله الحسنى، محمد مصطفى السوالمة، دار النور المبين، الطبعة الأولى، ٢٠١٩م.
٨٢. مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مجمع الملك فهد للطباعة والنشر، السعودية، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.
٨٣. محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط ٢، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
٨٤. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تفسير ابن عطية)، ابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
٨٥. مدارك التنزيل وحقائق التأويل (تفسير النسفي)، عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، دار الكلم الطيب، دمشق، ط ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
٨٦. المرأة في القصص القرآني، أحمد الشرقاوي، دار السلام للطباعة، القاهرة، ط ١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
٨٧. المسائل العقدية في حوارات إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في القرآن الكريم، تهاني إبراهيم عبد الرحمن، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة النيلين، الخرطوم، السودان، ٢٠١٨م - ١٤٣٩هـ.
٨٨. مسند أحمد، الإمام أحمد بن حنبل، تح: شعيب أرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ٢٠٠٨م.
٨٩. مطابقة أسماء الله الحسنى مقتضى المقام، نجلاء الكردي.

٩٠. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام الأنصاري، تحقيق: مازن المبارك، محمد علي حمد الله، دار الفكر، دمشق، ط٦، ١٩٨٥ م.
٩١. المقصد الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى، الغزالي، الجفان والجابي، قبرص، ط١، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
٩٢. ملة أبيكم إبراهيم، عبد الستار كريم المرسومي، دار المعراج للنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ٢٠٢١ م.
٩٣. من أنباء القرى، أحمد عبيد الكبيسي، تحقيق: فاطمة محمد شنون، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٧ م.
٩٤. من حديث يوسف وموسى، محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠٢١ م.
٩٥. مؤتمر تفسير سورة يوسف، عبد الله العلمي، دار الفكر، دمشق، ١٩٦١ م.
٩٦. موسوعة نساء الأنبياء (أمهات وزوجات وبنات الأنبياء من آدم إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، إسماعيل حامد، مكتبة النافذة، الجيزة، مصر، ط١، ٢٠١١ م.
٩٧. موسى كليم الله عدو المستكبرين وقائد المستضعفين، الصلابي.
٩٨. النبي الوزير (يوسف الصديق من الابتلاء إلى التمكين)، د. علي محمد محمد الصلابي.
٩٩. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

١٠٠. وإبراهيم الذي وفّى، د. فرحات بن علي الجّعيري، المكتبة السعيدية للنشر، مسقط، سلطنة عُمان، ط ٢، ٢٠١٤م.
١٠١. وجوه البيان في دعاء سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، سميرة عدلي محمد رزق، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، العدد (١٠)، ١٤١٤هـ.
١٠٢. الوسيط في تفسير القرآن المجيد، الواحدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
١٠٣. وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز ناصر الجليل، دار طيبة، الرياض، السعودية، ط ٢، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
١٠٤. وقفات في حياة الأنبياء، خالد عبد العليم، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م.
١٠٥. والله الأسماء الحسنى، عبد العزيز ناصر الجليل، دار طيبة، الرياض، ط ٣، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
١٠٦. يوسف الأحلام، محمود المصري، مكتبة الصفا، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
١٠٧. يوسف أيها الصديق، د. محمد عاطف السقا، دار المكتبي، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
١٠٨. يوسف وقصته العجيبة، عlish متولي، شركة مكتبة المعارف المتحدة، الكويت، الطبعة الأولى، ٢٠١٥م.
١٠٩. يوسفيات، علي جابر الفيافي، دار الميمان، الطبعة الأولى، ٢٠١٩م.

فهرس الموضوعات

- الإهداء ٥
- مقدمة الكاتب ٦

المبحث الأول:

- نسب وحديث المراجع والمصادر التاريخية عن إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَام ١١
- أولاً: إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ اسمه ونسبه وحديث المصادر والمراجع التاريخية عنه ١٢
- ثانياً: يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ١٥
- ١- يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ يبني بيت المقدس: ١٧
- ٢- من هم الأسباب؟ ١٧
- ٣- يعقوب وإسرائيل: ٢٠
- ثالثاً: مواضع ذكر إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في القرآن الكريم: ٢٢
- ١- ذكر إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ: ٢٢
- ٢- ورود اسم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ في القرآن الكريم: ٢٤
- ٣- مواضع ذكر اسمه الثاني (إسرائيل) في القرآن الكريم: ٢٥
- ٤- الحكمة من تسميته يعقوب وإسرائيل: ٢٨
- ٥- شجرة النبوة الإبراهيمية: ٢٨

المبحث الثاني:

- ذكر النبيين إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في سور البقرة وآل عمران والنساء والأنعام: عرض تحليلي ٣٢
- أولاً: ذكر إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في سورة البقرة: ٣٢
- ١- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾: ٣٣
- أ- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾: ٣٣
- ب- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾: ٣٥
- ٢- قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: ٣٥
- أ- قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾: ٣٥
- ب- قوله تعالى: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: ٣٦

- ٣- قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ...﴾ : ٣٧
 أ- قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ : ٣٧
 ب- قوله تعالى: ﴿يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ﴾ : ٣٨
 ج- قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ : ٤٠
 ٤- قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ...﴾ : ٤١
 أ- قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ : ٤١
 ب- قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي﴾ : ٤٢
 ج- قوله تعالى: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ...﴾ : ٤٢
 ٥- قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَمٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُم مَّا كَسَبْتُمْ...﴾ : ٤٣
 ٦- قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا...﴾ : ٤٥
 أ- قول الطبري: ٤٥
 ب- قول القاسمي: ٤٥
 ٧- قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ...﴾ : ٤٦
 أ- ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ٥٠
 ب- الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان : ٥٥
 ٨- قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا...﴾ : ٥٨
 أ- قول الطبري: ٥٨
 ب- قول السعدي: ٥٩
 ٩- قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عٰبِدُونَ﴾ : ٦١
 أ- قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ : ٦١
 ب- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ : ٦٣
 ج- قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُ عٰبِدُونَ﴾ : ٦٤
 ١٠- قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَّا أَعْمَلُنَا...﴾ : ٦٤
 أ- قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ﴾ : ٦٥
 ب- قوله تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ : ٦٥
 ج- قوله تعالى: ﴿وَلَنَّا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ : ٦٥

- د- قوله تعالى: ﴿وَتَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾: ٦٦
- ١١- قوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ...﴾: ٦٦
- أ- قوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ...﴾: ٦٧
- ب- قوله تعالى: ﴿قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾: ٦٨
- ج- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾: ٦٨
- د- قوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: ٦٩
- ١٢- قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ...﴾: ٧٠
- ثانياً: ذكر إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في سورة آل عمران: ٧٢
- ١- قال تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ...﴾: ٧٢
- ٢- قال تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ...﴾: ٧٤
- ثالثاً: ذكر إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في سورة النساء: ٧٤
- رابعاً: ذكر إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في سورة الأنعام: ٧٦

المبحث الثالث:

- ذكر إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في سورة هود وإبراهيم والحجر والذاريات ٨٢
- أولاً: بشرى الملائكة لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بإسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في سورة هود: ٨٢
- ١- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ...﴾: ٨٣
- أ- ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَىٰ﴾: ٨٣
- ب- ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾: ٨٧
- ج- ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ﴾: ٨٧
- ٢- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً...﴾: ٨٩
- أ- ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾: ٨٩
- ب- ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾: ٩٠
- ج- ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾: ٩٠
- د- ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾: ٩٠
- ٣- قوله تعالى: ﴿وَأَمْرَاتُهُ قَايِمَةٌ فَضَحَكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾: ٩١
- أ- ﴿وَأَمْرَاتُهُ قَايِمَةٌ فَضَحَكَتْ﴾: ٩١

- ب- ﴿فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ﴾: ٩٤
- ٤- قال تعالى: ﴿قَالَتْ يَوْنُسَىٰ أَلِلَّهُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾: ٩٦
- أ- ﴿قَالَتْ يَوْنُسَىٰ﴾: ٩٦
- ب- ﴿أَلِلَّهُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾: ٩٧
- ج- ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾: ٩٧
- د- ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾: ٩٨
- ٥- قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنْعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ...﴾: ٩٩
- أ- ﴿قَالُوا أَنْعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾: ١٠٠
- ب- ﴿رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾: ١٠٠
- ج- ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾: ١٠٣

ثانيًا: إبراهيم عليه السلام يحمده الله على أن وهب له إسماعيل وإسحاق عليهما السلام في سورة

- إبراهيم، ويدعو الله أن يجعله مقيم الصلاة ومن ذريته، ويقبل دعاءه: ١٠٦
- ١- قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ ...﴾: ١٠٦
- أ- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: ١٠٦
- ب- ﴿الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ﴾: ١٠٧
- ٢- قال تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾: ١٠٩
- أ- ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾: ١٠٩
- ب- ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾: ١١٠

ثالثًا: قصة ضيف إبراهيم من الملائكة في سورة الحجر والبشرى بسلام عليهم (إسحاق)

- عليهما السلام: ١١١
- أ- قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾: ١١٣
- ب- قوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجُونَ﴾: ١١٤
- ج- قال تعالى: ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾: ١١٧
- د- قوله تعالى: ﴿قَالَ ابْشِرْ ثَمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمِ الْبَشَرِ﴾: ١١٧
- هـ- قال تعالى: ﴿قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا نَكُنْ مِنَ الْفَاطِنِينَ﴾: ١١٩
- و- قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْطَعْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّي إِلَّا الضَّالُّونَ﴾: ١٢٠

- رابعاً: قصّة الغلام العليم إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة الذاريات: ١٢٢
- ١- قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾: ١٢٢
- أ- ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾: ١٢٢
- ب- ﴿ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾: ١٢٣
- ج- ﴿الْمُكْرَمِينَ﴾: ١٢٣
- ٢- قوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾: ١٢٤
- أ- ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾: ١٢٤
- ب- ﴿فَقَالُوا سَلَامًا﴾: ١٢٤
- ج- ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾: ١٢٥
- د- ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾: ١٢٥
- ٣- قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾: ١٢٦
- أ- ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾: ١٢٦
- ب- ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾: ١٢٧
- ٤- قوله تعالى: ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾: ١٢٧
- أ- ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾: ١٢٧
- ب- ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾: ١٢٧
- ٥- قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْزَنْ وَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ عَظِيمٍ﴾: ١٢٩
- أ- ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾: ١٢٩
- ب- ﴿لَا تَحْزَنْ وَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ عَظِيمٍ﴾: ١٢٩
- ٦- قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرْقٍ فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾: ١٣٠
- أ- ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرْقٍ فَصَكَتْ وَجْهَهَا﴾: ١٣٠
- ب- ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾: ١٣١
- ٧- قوله تعالى: ﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾: ١٣١
- أ- وفي قولهم: ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾: ١٣١
- ب- ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾: ١٣٢

- ذكر إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَام في سورة مريم ١٣٦
- أولاً: قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ...﴾ : ١٣٦
- ١- ﴿فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ : ١٣٦
- ٢- ﴿وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ : ١٣٧
- ٣- ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۖ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ : ١٤١

المبحث الخامس:

- ذكر إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَام في سورة الأنبياء ١٤٤
- أولاً: قال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ : ١٤٤
- ثانياً: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ : ١٤٩
- ثالثاً: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ...﴾ : ١٥١
- ١- قول الرازي: ١٥١
- ٢- قول السعدي: ١٥١
- ٣- قول ابن عاشور: ١٥٢
- ٤- قول الشنقيطي: ١٥٢

المبحث السادس:

- ذكر إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَام في سورة العنكبوت ١٥٥
- أولاً: قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ : ١٥٥
- ثانياً: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ : ١٥٦
- ثالثاً: قوله تعالى: ﴿وَوَاعَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ : ١٥٧
- ١- قال ابن كثير: ١٥٧
- ٢- قال السعدي: ١٥٨
- ٣- قال الرازي: ١٥٨

المبحث السابع:

- ذكر إسحاق عَلَيْهِ السَّلَام في سورة الصافات، وذكر إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَام في سورة ص ١٦٠
- أولاً: قوله تعالى: ﴿وَوَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ : ١٦٠
- ثانياً: قوله تعالى: ﴿سَلِّمْ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ : ١٦١

- ١٦١ ثالثاً: قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ :
 ١٦٢ رابعاً: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ :
 ١٦٢ خامساً: قوله تعالى: ﴿وَنَسَزْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ :
 ١٦٢ سادساً: قوله تعالى: ﴿وَوَدَّعْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ :
 ١٦٣ سابعاً: ذكر إسحاق ويعقوب في سورة ص :

المبحث الثامن:

- ١٦٥ يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ مع بنيه في سورة يوسف
 ١٦٦ أولاً: قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا...﴾ :
 ١٦٦ ١- ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ...﴾ :
 ١٦٦ أ- ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ :
 ١٦٧ ب- ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَجْدِينَ﴾ :
 ١٧٧ ٢- ﴿قَالَ يَبْنَئُ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا...﴾ :
 ١٧٨ أ- ﴿قَالَ يَبْنَئُ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ :
 ١٨٢ ب- ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ :
 ١٨٤ ٣- ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رُبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُمَتِّعُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ...﴾ :
 ١٨٤ أ- ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رُبُّكَ﴾ :
 ١٨٥ ب- ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ :
 ١٨٧ ج- ﴿وَيُمَتِّعُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ :
 ١٨٩ د- ﴿وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾ :
 ١٩٠ هـ- ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ :
 ١٩٢ و- ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ :
 ١٩٩ ثانياً: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٍ لِلْسَّالِئِينَ...﴾ :
 ١٩٩ ١- ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٍ لِلْسَّالِئِينَ﴾ :
 ٢٠٥ ٢- ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْبَانَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ :
 ٢٠٦ أ- ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْبَانَا مِنَّا﴾ :
 ٢١١ ب- ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ :

- ٣- ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ...﴾ ٢١٣
- أ- ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾: ٢١٣
- ب- ﴿أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾: ٢١٣
- ج- ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾: ٢١٤
- د- ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾: ٢١٥
- ٤- ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهَ فِي عَيْبَتِ الْجَبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ ٢١٦
- أ- ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾: ٢١٧
- ب- ﴿وَالْقَوْهَ فِي عَيْبَتِ الْجَبِّ﴾: ٢١٩
- ج- ﴿يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾: ٢٢١
- ثالثاً: قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ...﴾ ٢٢٣
- ١- ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ﴾: ٢٢٣
- ٢- ﴿أَرْسَلْنَا مَعَنَا عَدَاً يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَنَحْفُظُونَ﴾: ٢٢٥
- ٣- ﴿قَالَ إِنِّي لَخِزْيُونٌ أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَلَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ ٢٢٨
- ٤- ﴿قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَاسِرُونَ﴾: ٢٢٩
- ٥- ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي عَيْبَتِ الْجَبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتَبِئْسَ لَهُم بِأَمْرِهِمْ...﴾: ٢٣٠
- رابعاً: قوله تعالى: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ...﴾ ٢٣٥
- ١- ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾: ٢٣٥
- ٢- ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾: ٢٣٧
- ٣- ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾: ٢٤١

المبحث التاسع:

يوسف عليهما السلام على ملأه آباءه إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهما السلام ٢٤٤

- أولاً: قوله تعالى: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾: ٢٤٤
- ١- ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ﴾: ٢٤٤
- ٢- ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾: ٢٤٥
- ٣- ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾: ٢٤٥
- ثانياً: قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ...﴾: ٢٤٥
- ١- ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾: ٢٤٦
- ٢- ﴿مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾: ٢٤٦
- ٣- ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾: ٢٤٦
- ثالثاً: قال تعالى: ﴿يُصْلِحِي السَّجْنَ ءَأَزَابٌ مُتَّفِرُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَحْدُ الْقَهَّارُ﴾: ٢٤٩
- ١- ﴿يُصْلِحِي السَّجْنَ﴾: ٢٤٩
- ٢- ﴿ءَأَزَابٌ مُتَّفِرُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَحْدُ الْقَهَّارُ﴾: ٢٥٠
- رابعاً: قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ...﴾: ٢٥٣
- ١- ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾: ٢٥٣
- ٢- ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾: ٢٥٣
- ٣- ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾: ٢٥٤
- ٤- ﴿أَمْرًا لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾: ٢٥٤
- ٥- ﴿ذَلِكَ الَّذِينَ الْقَتَلُوا﴾: ٢٥٦
- ٦- ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: ٢٥٦

المبحث العاشر:

مجيء إخوة يوسف إلى مصر وإكرامه لهم وطلبه حضور أخيه من أبيهم وشفقة يعقوب

- على أولاده ٢٥٨
- أولاً: قال تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾: ٢٥٨
- ١- ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ﴾: ٢٦٠
- ٢- ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾: ٢٦١
- ثانياً: قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُنْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ...﴾: ٢٦٣
- ١- ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ﴾: ٢٦٣

- ٢- ﴿قَالَ أَتُؤْنِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ﴾: ٢٦٤
- ٣- ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَإِنَّا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾: ٢٦٤
- ثالثاً: قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَّكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرُؤُن﴾: ٢٦٤
- رابعاً: قال تعالى: ﴿قَالُوا سَرُّودٌ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾: ٢٦٥
- ١- ﴿سَرُّودٌ عَنْهُ أَبَاهُ﴾: ٢٦٥
- ٢- ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾: ٢٦٦
- خامساً: قال تعالى: ﴿وَقَالَ لِفَتْنَيْنِهِ أَجْعَلُوا بِضَعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا...﴾: ٢٦٦
- ١- ﴿وَقَالَ لِفَتْنَيْنِهِ أَجْعَلُوا بِضَعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾: ٢٦٧
- ٢- ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ﴾: ٢٦٧
- ٣- ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: ٢٦٨
- سادساً: قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَتَابَنَّا مُنْعَ مِنَّا الْكَيْلُ...﴾: ٢٦٩
- ١- ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَتَابَنَّا مُنْعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾: ٢٧٠
- ٢- ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَّكَتِلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾: ٢٧٠
- سابعاً: قال تعالى: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ...﴾: ٢٧٢
- ١- ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾: ٢٧٢
- ٢- ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَزْهَمُ الرَّحِمِينَ﴾: ٢٧٢
- ٣- اسم الله (الحافظ): ٢٧٣
- ٤- ﴿وَهُوَ أَزْهَمُ الرَّحِمِينَ﴾: ٢٧٥
- ثامناً: قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بِضَعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ...﴾: ٢٧٦
- ١- ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بِضَعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾: ٢٧٦
- ٢- ﴿قَالُوا يَتَابَنَّا مَا نَبْغِي﴾: ٢٧٦
- ٣- ﴿هَٰذِهِ بِضَعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾: ٢٧٧
- ٤- ﴿وَنَبِيرُ أَهْلَنَا﴾: ٢٧٧
- ٥- ﴿وَنَحْفَظُ آخَانًا﴾: ٢٧٧
- ٦- ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾: ٢٧٧

٧- ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾: ٢٧٧

المبحث الحادي عشر:

أخذ يعقوب الميثاق على أبنائه وتوجيههم للتعامل مع سنة الأخذ بالأسباب وحيلة يوسف في

بقاء أخيه معه وفقد يعقوب لأبنائه الثلاثة ٢٧٩

أولاً: قوله تعالى: ﴿قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ...﴾: ٢٨٠

١- ﴿قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ﴾: ٢٨٠

٢- ﴿حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾: ٢٨٠

٣- ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾: ٢٨١

٤- ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾: ٢٨٢

٥- اسم الله (الوكيل): ٢٨٣

ثانياً: ﴿وَقَالَ يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ...﴾: ٢٨٤

١- ﴿وَقَالَ يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾: ٢٨٤

٢- ﴿وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾: ٢٨٥

٣- ﴿وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾: ٢٨٥

٤- ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾: ٢٨٦

٥- ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾: ٢٨٧

٦- العين والحسد: ٢٨٩

ثالثاً: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مَرَءَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ...﴾: ٢٩١

١- ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾: ٢٩١

٢- ﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مَرَءَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾: ٢٩٢

٣- ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَلَهَا﴾: ٢٩٢

٤- ﴿وَأَنَّهُ لَدُوٌّ غَلِيٌّ لِّمَا عَلَّمَنَهُ﴾: ٢٩٤

٥- ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: ٢٩٤

رابعاً- قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ...﴾: ٢٩٥

أ- ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾: ٢٩٦

ب- ﴿ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾: ٢٩٦

ج- ﴿قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾: ٢٩٦

د- ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: ٢٩٧

المبحث الثاني عشر:

اشتداد البلاء على يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام وصبره العظيم وثقته المطلقة بالله تعالى وعفو يوسف

على إخوته ٢٩٩

أولاً: قال تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ...﴾: ٢٩٩

١- ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾: ٣٠٠

٢- ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾: ٣٠١

٣- ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾: ٣٠٢

٤- ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾: ٣٠٢

ثانياً: قال تعالى: ﴿وَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَفَى عَلَى يُونُسَ وَأَبِصَّتْ عَيْنَاهُ...﴾: ٣٠٣

١- ﴿وَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَفَى عَلَى يُونُسَ﴾: ٣٠٤

٢- ﴿وَأَبِصَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾: ٣٠٦

أ- ﴿وَأَبِصَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾: ٣٠٦

ب- ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾: ٣٠٦

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَنُوا تَذَكَّرْ يُونُسَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا...﴾: ٣٠٨

رابعاً: قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ...﴾: ٣١١

١- ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾: ٣١١

٢- ﴿وَأَعْلَمَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: ٣١٢

خامساً: قوله تعالى: ﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُونُسَ وَأَخِيهِ...﴾: ٣١٤

١- ﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُونُسَ وَأَخِيهِ﴾: ٣١٤

٢- ﴿وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾: ٣١٧

٣- ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾: ٣١٨

سادساً: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَأْتِيهَا الْعَزِيزُ مَسَنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ...﴾: ٣٢٠

١- ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾: ٣٢٠

٢- ﴿قَالُوا يَأْتِيهَا الْعَزِيزُ﴾: ٣٢٠

٣- ﴿مَسَنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾: ٣٢١

- ٤- ﴿وَجِئْنَا بِصَلَةِ مُرْجَلٍ﴾: ٣٢٢
- ٥- ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾: ٣٢٢
- ٦- ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾: ٣٢٢
- ٧- ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾: ٣٢٣
- سابعاً: قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ...﴾ ٣٢٤
- ١- ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾: ٣٢٤
- ٢- ﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا...﴾: ٣٢٥
- أ- ﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾: ٣٢٥
- ب- ﴿أَنَا يُوسُفُ﴾: ٣٢٦
- ج- ﴿وَهَذَا أَخِي﴾: ٣٢٦
- د- ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾: ٣٢٦
- هـ- ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرُ الْمُحْسِنِينَ﴾: ٣٢٩
- ثامناً: قال تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿١١﴾﴾ ٣٣٠
- ١- ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾: ٣٣٠
- أ- ﴿قَالُوا تَاللَّهِ﴾: ٣٣١
- ب- ﴿لَقَدْ ءَاتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾: ٣٣١
- ج- ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾: ٣٣٢
- ٢- ﴿قَالَ لَا تَنْزِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾: ٣٣٣
- أ- ﴿لَا تَنْزِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾: ٣٣٣
- ب- ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾: ٣٣٤
- ج- ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾: ٣٣٤
- ٣- ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا...﴾: ٣٣٦
- أ- ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾: ٣٣٦
- ب- ﴿فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي﴾: ٣٣٧
- ج- ﴿يَأْتِ بَصِيرًا﴾: ٣٣٧
- د- ﴿وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾: ٣٣٨

المبحث الثالث عشر:

أثر البشارة على يعقوب عليه السلام وطلب أبنائه منه المغفرة واجتماع شملهم عند يوسف بمصر .. ٣٣٩

أولاً قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَ الْعِيسَىٰ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ...﴾ ٣٣٩

١- ﴿وَلَمَّا فَصَلَ الْعِيسَىٰ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ...﴾ ٣٤٠

أ- ﴿قَالَ أَبُوهُمْ...﴾ ٣٤٠

ب- ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ...﴾ ٣٤٠

ج- ﴿لَوْلَا أَن تَفْسِدُونَ...﴾ ٣٤٠

٢- ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيرِ...﴾ ٣٤٠

ثانياً: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا...﴾ ٣٤١

١- ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ...﴾ ٣٤١

٢- ﴿أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا...﴾ ٣٤٢

٣- ﴿قَالَ أَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِمَّا لَا تَعْلَمُونَ...﴾ ٣٤٣

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَتَابَانَا أَسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ...﴾ ٣٤٤

١- ﴿قَالُوا يَتَابَانَا أَسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ...﴾ ٣٤٤

٢- ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ...﴾ ٣٤٥

أ- ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي...﴾ ٣٤٦

ب- ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ...﴾ ٣٤٧

رابعاً: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ...﴾ ٣٥٠

١- ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ...﴾ ٣٥٠

أ- ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ...﴾ ٣٥٠

ب- ﴿ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ...﴾ ٣٥١

٢- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا...﴾ ٣٥٢

أ- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ...﴾ ٣٥٣

ب- ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا...﴾ ٣٥٣

ج- ﴿وَقَالَ يَتَابَتَ هَذَا تَوَاضَعُ رُءُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا...﴾ ٣٥٥

د- ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ...﴾ ٣٥٦

- هـ- ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾: ٣٥٦
- و- ﴿مَنْ بَعْدَ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِ﴾: ٣٥٧
- ز- ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾: ٣٥٨
- ح- ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾: ٣٥٩
- خامساً: قوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ...﴾: ٣٦٠
- ١- ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾: ٣٦١
- أ- ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾: ٣٦١
- ب- ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾: ٣٦١
- ٢- ﴿فَاطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: ٣٦٢
- ٣- ﴿أَنْتَ وَلِيُّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾: ٣٦٢
- ٤- ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقْنِي بِالْصَّلَاحِينَ﴾: ٣٦٢
- أ- ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾: ٣٦٢
- ب- ﴿وَالْحَقْنِي بِالْصَّلَاحِينَ﴾: ٣٦٣
- سادساً: أهم صفات وخصائص إسحاق ويعقوب عليهما السلام ووفاتهما: ٣٦٣
- ١- وفاة إسحاق عليه السلام: ٣٦٥
- ٢- وفاة يعقوب عليه السلام: ٣٦٥
- الخلاصة ٣٦٧
- المصادر والمراجع ٣٨٤
- فهرس الموضوعات ٣٩٥

السيرة الذاتية للمؤلف



د. علي محمد محمد الصلابي
مفكر ومؤرخ وفقيه

- ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م.
- نال درجة الإجازة العالمية (الليسانس) من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة عام ١٩٩٣ م، وبالترتيب الأول.
- حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين في جامعة أم درمان الإسلامية عام ١٩٩٦ م.
- نال درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية بأطروحته فقه التمكين في القرآن الكريم من جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان عام ١٩٩٩ م.
- اشتهر بمؤلفاته واهتماماته في علوم القرآن الكريم، والفقه، والتاريخ، والفكر الإسلامي.
- زادت مؤلفات الدكتور الصلابي على الثمانين مؤلفاً.

كتب صدرت للمؤلف

١. السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث.
٢. سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شخصيته وعصره.
٣. سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شخصيته وعصره.
٤. سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شخصيته وعصره.
٥. سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شخصيته وعصره.
٦. سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب: شخصيته وعصره.
٧. الدولة العثمانية: عوامل النهوض والسقوط.
٨. فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم.
٩. تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا.
١٠. تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي.
١١. عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين.
١٢. الوسطية في القرآن الكريم.
١٣. الدولة الأموية، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار.
١٤. معاوية بن أبي سفيان، شخصيته وعصره.
١٥. عمر بن عبد العزيز، شخصيته وعصره.
١٦. خلافة عبد الله بن الزبير.

١٧. عصر الدولة الزنكية.
١٨. عماد الدين زنكي.
١٩. نور الدين زنكي.
٢٠. دولة السلاجقة.
٢١. الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد.
٢٢. الشيخ عبد القادر الجيلاني.
٢٣. الشيخ عمر المختار.
٢٤. عبد الملك بن مروان وبنوه.
٢٥. فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة.
٢٦. حقيقة الخلاف بين الصحابة.
٢٧. وسطية القرآن في العقائد.
٢٨. السلطان عبد الحميد الثاني.
٢٩. دولة المرابطين.
٣٠. دولة الموحدين.
٣١. عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.
٣٢. الدولة الفاطمية.
٣٣. حركة الفتح الإسلامي في الشمال الأفريقي.

٣٤. صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير البيت المقدس.

٣٥. استراتيجية شاملة لمناصرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، دروس مستفادة من الحروب الصليبية.

٣٦. الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء.

٣٧. الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح الدين.

٣٨. المشروع المغولي: عوامل الانتشار وتداعيات الانكسار.

٣٩. سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك.

٤٠. الشورى في الإسلام.

٤١. الإيمان بالله جَلَّ جَلَالُهُ.

٤٢. الإيمان باليوم الآخر.

٤٣. الإيمان بالقدر.

٤٤. الإيمان بالرسول والرسالات.

٤٥. الإيمان بالملائكة.

٤٦. الإيمان بالقرآن والكتب السماوية.

٤٧. السلطان محمد الفاتح.

٤٨. المعجزة الخالدة.

٤٩. الدولة الحديثة المسلمة: دعائمها ووظائفها.
٥٠. البرلمان في الدولة الحديثة المسلمة.
٥١. التداول على السلطة التنفيذية.
٥٢. الشورى فريضة إسلامية.
٥٣. الحريات من القرآن الكريم: حرية التفكير وحرية التعبير، والاعتقاد والحريات الشخصية.
٥٤. العدالة والمصالحة الوطنية: ضرورة دينية وإنسانية.
٥٥. المواطنة والوطن في الدولة الحديثة.
٥٦. العدل في التصور الإسلامي.
٥٧. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.
٥٨. الأمير عبد القادر الجزائري.
٥٩. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، سيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس، الجزء الثاني.
٦٠. سنة الله في الأخذ بالأسباب.
٦١. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الإمام محمد البشير الإبراهيمي.
٦٢. أعلام التصوف السني: "ثمانية أجزاء".
٦٣. المشروع الوطني للسلام والمصالحة.

٦٤. الجمهورية الطرابلسية (١٩١٨ - ١٩٢٢) أول جمهورية في تاريخ المسلمين المعاصر.

٦٥. الإباضية: مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج.

٦٦. المسيح عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ: الحقيقة الكاملة.

٦٧. قصة بدء الخلق وخلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ

٦٨. نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ والطوفان العظيم.. ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية.

٦٩. إبراهيم خليل الله عَلَيْهِ السَّلَامُ: "داعية التوحيد ودين الإسلام والأسوة الحسنة".

٧٠. موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كلم الله.

٧١. موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ والخضر.

٧٢. موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة طه.

٧٣. موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة القصص.

٧٤. موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة الشعراء.

٧٥. مؤمن آل فرعون في سورة غافر.

٧٦. لا إله إلا الله (أدلة وجود الله وأول المخلوقات)

٧٧. سقوط الدولة العثمانية (الأسباب - التداعيات).

٧٨. سقوط الدولة الأموية (الأسباب - التداعيات).

٧٩. مختصر نشأة الحضارة الإنسانية وقادتها العظام.

٨٠. النبي الوزير يوسف الصديق عَلَيْهِ السَّلَامُ من الابتلاء إلى التمكين.

٨١. ذكريات لا تنسى.

٨٢. الأنبياء الملوك داوود وسليمان عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وهيكل سليمان المزعموم.

٨٣. لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ ودعوته في مواجهة الفساد والشذوذ الجنسي وعقاب الله للظالمين.

٨٤. تجديد بناء المسجد الأقصى في عهد سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ وقصة الهيكل المزعموم.

٨٥. نبي الله هود عَلَيْهِ السَّلَامُ وأسباب زوال حضارة قوم عاد.

٨٦. نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ وأسباب هلاك قوم ثمود.

٨٧. الأبعاد الإنسانية والحضارية في شخصية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٨٨. نبي الله أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ "طريق الشفاء ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١]".

٨٩. أنبياء الله إسحاق ويعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إيماناً من الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين بأن الأمة الإسلامية إنما تنهض بالعلوم النافعة، وتنهض بالأفكار العالية، وترتقي بالأخلاق الراقية، وتتقوى بالحضارة الجامعة، وشاء الله تعالى أن تمتاز حضارة الإسلام بالقراءة الصحيحة لكتاب الله المسطور (القرآن والسنة) وكتاب الله المنظور (الكون وما فيه) قراءة دقيقة تجديدية تحليلية في ظلال الإيمان والأخلاق، وكرامة الإنسان وحقوقه، حيث دل على ذلك قوله تعالى: {اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق: 1-5].

وبهذه القراءة الجامعة للوحي الصحيح، والعقل المستضيء بنور الله تعالى، يتحقق الاستخلاف والشهود الحضاري النافع، القائم على العزة، والعدل، والرحمة للعالمين. ونحن في الاتحاد تبني هذا المشروع بطريقة جديدة وهي: نشر خلاصة جهود العلماء المتخصصين في فروع العلوم الإسلامية، بدل أن نبدأ من جديد.

فاليوم نقدم جهود فضيلة العالم المحقق المتخصص في سير الأنبياء (عليهم السلام) الدكتور علي محمد الصلابي التي بذل فيها جهوده المباركة خلال سنوات طوال: مستهدفاً الإسهام في هذا المشروع الحضاري العظيم، جزاه الله خيراً.

وبعد هذه الموسوعة سنقدم موسوعة أخرى في السياسة، ثم في الاقتصاد، ثم في الفكر إلخ... بتوفيق الله تعالى آمليين من أمتنا -وبخاصة علماؤها ومفكروها- دعم هذا المشروع، وإفادتنا بملاحظاتهم القيمة.

والله أسأل أن يجعل هذه الموسوعات التي نقدمها إلى أمتنا خالصة لله تعالى، ونافعة للبلاد والعباد، ومحقة الغايات التي وضعت لها، والمقاصد التي أريد منها.. آمين.

محكمكم جميعاً: أ.د. علي محيي الدين القره داغي رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين.

TK: 978-625-5637-70-3
ISBN: 978-625-5637-78-9



9 786255 637789

asaletyayinlari.com.tr

asaletyayinlari

